



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي



نيابة العمادة لما بعد التدرج والبحث
العلمي والعلاقات الخارجية

كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين

جهود الشيخ محمد الخضر حسين في الدّعوة والإصلاح

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه (علوم) في العلوم الإسلامية
- تخصص: الدعوة والثقافة الإسلامية.

إشراف:

أ.د عبد الكريم بوغزالة

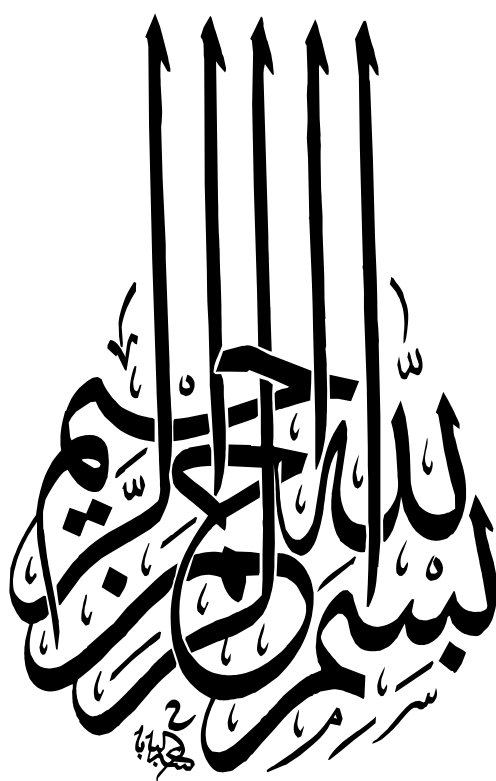
إعداد الطالب:

جمال عرقوب

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	مؤسسة الانتماء	الصفة
يوسف عبد اللاوي	أستاذ	جامعة الوادي	رئيسا
عبد الكريم بوغزالة	أستاذ	جامعة الوادي	مشرفا ومقررا
الجباري عثمانى	أستاذ	جامعة الوادي	مناقشا
أحمد عبدلي	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة-	مناقشا
عيسى بوعافية	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة-	مناقشا
محمد البشير بن طبة	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة-	مناقشا

السنة الجامعية: 1446-1447هـ / 2024-2025م



ملخص الرسالة

هذا البحث المعنون بـ (جهود الشيخ محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في الدعوة والإصلاح) يتناول الإجابة عن إشكالية رئيسة هي: ما الجهود الدعوية والإصلاحية للشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله -؟ وقد انتظم البحث في مقدِّمةٍ ضَمَّتْ أهمية الموضوع، وإشكالية البحث، وأسباب اختياره، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة، وخطة البحث، وأبرز مصادره. ثم فصولٌ أربعة: الفصل الأول: حياة الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - الشخصية والعلمية والعملية، والفصل الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - العلميَّة والتطبيقية المتعلقة بالدعوة والداعية؛ والفصل الثالث: مجالات الدعوة عند العلامة محمد الخضر، والفصل الرابع: مصادر العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في دعوته إلى الله.

وفي الأخير توصَّلت إلى عدَّة نتائج من أبرزها: أنَّ الشيخ محمد الخضر حسين مثَّل بإنتاجه الفكري والثقافي المتنوع مدرسةً متكاملةً، كما أنَّ التَّميَّز والثَّراء العلمي والعملِي في حياة الشَّيْخ أثَّر تأثيرًا نافعًا مباركًا في تكوينه الفكري، وشخصيته الإصلاحية. ثم إنَّ المراحل التاريخية التي مرَّت بها حياة الشيخ وما شهدته من تحوُّلاتٍ وصراعاتٍ فكريةٍ كان له الأثر البالغ في النضوج الفكري للشيخ، وقوة الشخصية الإصلاحية عنده. كما ظهر جليًّا من خلال البحث الشمولية والوسطية في الفكر الإصلاحي عند الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -، والواقعية في معالجة القضايا الفكرية والدعوية.

ومن التوصيات التي يقدمها الباحث التنبيه لحاجة المكتبة الإسلامية إلى دراسات متوالية متخصصة تُعنى بفكر الشيخ وإرثه الإصلاحي والدعوي -خاصَّةً-، فالوصية بتوجيه العناية لهذا الجانب. ومن ذلك التنويه بالحاجة المعرفية إلى إظهار أوجه التَّميَّز في النضال الدعوي والإصلاحي في فكر الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ -، سواء تعلق الأمر بالعمل المؤسسي الجمعي، أو النشاط الصحفي، أو غير ذلك. بالإضافة إلى توجيه عناية الدعاة إلى الله، والعاملين في سلك الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي إلى الرجوع إلى تراث الشيخ العلمي، والإفادة من تجاربه العلمية والعملية، من أجل استخلاص الدروس.

الكلمات المفتاحية: الدعوة - الإصلاح - الخضر حسين - الجهود.

Abstract

This research entitled) The Efforts of Sheikh Muhammad Al-Khidr Hussein - may God have mercy on him - in Dawah and Reform (deals with the answer to a major problem :What are the advocacy and reform efforts of Sheikh Muhammad Al-Khidr Hussein - may God have mercy on him ?- The research was organized in an introduction that included the importance of the topic ,the problem of the research ,the reasons for its selection ,its objectives ,methodology ,previous studies ,the research plan ,and its most prominent sources .Then four chapters :Chapter One :The personal , scientific and practical life of Sheikh Al-Khidr - may God have mercy on him ,and the second chapter :The scientific and applied efforts of the scholar Muhammad Al-Khidr Hussein - may God have mercy on him - related to the call and the preacher ,and the third chapter :The fields of advocacy according to the scholar Muhammad Al-Khidr ,and the fourth chapter :The sources of the scholar Muhammad Al-Khidr Hussein in his call to God.

In the end ,I reached several results ,most notably :that Sheikh Muhammad Al-Khidr Hussein ,with his diverse intellectual and cultural production ,represented an integrated school ,and that excellence and scientific and practical richness in the life of the Sheikh had a beneficial and blessed impact on his intellectual formation ,and his reformist personality .Moreover ,the historical stages that the Sheikh's life went through and the transformations and intellectual conflicts it witnessed had a great impact on the intellectual maturity of the Sheikh ,and the strength of his reformist personality .It was also evident through research on comprehensiveness and moderation in the reformist thought of Sheikh al-Khidr) may Allah have mercy on him ,(and realism in addressing intellectual and advocacy issues.

One of the recommendations made by the researcher is to alert the need of the Islamic library to successive specialized studies concerned with the thought of the Sheikh and his legacy of reform and advocacy- in particular - the commandment to direct attention to this aspect .This includes mentioning the cognitive need to show the distinctions in the advocacy and reform struggle in the thought of the Sheikh) may Allah have mercy on him ,(whether it is related to associative institutional work ,journalistic activity ,or otherwise .In addition to directing the attention of preachers to God ,and those working in the religious ,educational and social reform corps to refer to the Sheikh's scientific heritage ,and to benefit from his scientific and practical trades ,in order to draw lessons.

Keywords: advocacy - reform - Al-Khader Hussein - efforts.

شكر وتقدير

اللَّهُمَّ لك الحمد حمداً يليق بجلالك، وعظيم سلطانك، اللَّهُمَّ لك من الحمد أكمله، ولك من الثناء أجمله، ولك من القول أبلغه، ولك من العلم أحكمه، ولك من السلطان أقومه، ولك من الجلال أعظمه، اللَّهُمَّ إني أحمدك وأشكرك على توفيقك وإعانتك لي في إنجاز هذا العمل وإتمامه، فالحمد لله رب العلمين.

ثم بعد شكر الله أتوجّه بالشُّكر الجزيل، والعرفان العظيم إلى من رعاني بمحبته، وسقاني برحمته، أبي وأمي الحبيين، فقد وهبا حياتهما فوق الحياة، فحظيتُ بحياتين منهما، وحظيتُ بالكثير الكثير الذي لا يُسرَد، فالحمدُ أجْرهما من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة.

ثم جميل الشُّكر ولطيفه لخليتي أم أولادي، من كانت السُّند والعون في مسيرة بحثي، فصبرتُ حين قسوتُ، وعفْتُ حين ظلمتُ، وواستُ حين حزنْتُ، وذكَّرتُ حين غفلتُ، فلها شكري وامتناني.

ثم أقدمُ شكري وتقديري لسعادة الأستاذ الدكتور/ عبد الكريم بوغزالة، المشرف على هذه الرسالة، الذي أكرمني بتوجيهاته السديدة، وملاحظاته النَّافعة، والتي كان لها الأثر البارز في كلِّ خطوةٍ من خطوات هذه الرِّسالة، فاستفدتُ من كريم خلقه، وسعة علمه، وحسن رعايته، فجزّاه الله خيرَ الجزاء، وكثّر من أمثاله، وأثابه على ما بذل وقَدَّم.

والشُّكر محفوظٌ موصولٌ للسادة العلماء، والأساتذة الفضلاء أعضاء لجنة المناقشة النبلاء، على ما قدَّموه من حسن التقويم، وسديد التَّقييم، من أجل سدِّ ما في البحث من خلل، وإصلاح ما بدر مني من زلل، فجزّاهم الله على نصحتهم خيرَ الجزاء، وأسأل الله أن ينفعني بما قدَّموه من ملحوظاتٍ وتوجيهاتٍ، وعسى الله أن يجعلهم مباركين نافعين للعلم وأهله.

كما لا يفوتني تسجيل شكري ودعائي لكلِّ من ساعدني في إتمام هذه الرِّسالة، ومدَّ لي يد العون فيها، أو أسدى لي معروفاً، أو قدَّم لي نصيحةً، أو كان له أيُّ إسهامٍ فيها قلَّ أو كثر، كلُّ باسمه ووسمه، كتب الله الأجور، وشكر السعي، وبلغ المقاصد. آمين.

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على خير خلقه، وخاتم رسله، وأكرم أنبيائه، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه، ومن سار على طريقه، واقتفى أثره، واتَّبَع سنته، وحمل منهجه إلى يوم الدين. أما بعد:

فإنَّ الإصلاح رسالة شريفة، حملها على مرِّ التاريخ الإنساني الرجال الصَّادقون، والعلماء الرَّبَّانِيُّونَ، وقد خرَّجت الأُمَّة الإسلامية مصلحين كانوا على مستوى الإسلام علماً وعملاً، فهماً وتطبيقاً، فبلَّغوا الرِّسالة، وأدَّوا الأمانة، ونصحوا الأُمَّة، وجاهدوا في الله حتى أتاها اليقين، وكانوا على خطى النُّبُوَّة يتَّبَعون هديها، ويلتزمون نهجها، ويقتفون أثرها.

وكان من جميل أثرهم أن أقاموا صرح الإصلاح، وشيَّدوا بنيان الهداية، من خلال إحياء القيم الإسلامية، وتحديد العمل بالتعاليم القرآنية والنُّبُوَّة، وتنقية المفاهيم مما علق بها من شوائب، وقاموا بدفع المفتريات، وردِّ الشُّبهات، وتربية الجيل المسلم على هدى الإسلام، فأدَّوا بهذه المهمة الإصلاحية خدمةً عظيمةً للمجتمعات الإسلامية، حيث أعادوا لها شخصيتها المسلوبة، وكرامتها المفقودة.

وقد بقيت جهود المصلحين، ولم تسقط من ذاكرة التاريخ، وحفظ الزمان آثارهم، وتعاقت الأجيال على دراسة سِيرِهِم وأفكارهم، وبقيت بصماتهم الفكرية واضحةً على القلب والعقل المسلم في كلِّ وقتٍ.

ومن هؤلاء المصلحين العظام، والمربين الكرام: فضيلة الإمام محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -، الرجل الذي عاش حياة المصلحين، وسار على درب الأنبياء والمرسلين، فأخذ الإصلاح رسالةً، عاش من أجلها، وجاهد في سبيلها، مع تعدُّد أنواع جهاده العلمي والعملية، والتي دلَّت على طبيعة الشخصية الإصلاحية للإمام، والرُّؤى الفكرية الناضجة، والأفكار الثَّريَّة والمتميِّزة في تحديد الفكر الإسلامي، انطلاقاً من الثوابت والركائز.

لذا جاءت هذه الدراسة لتسهم في إبراز الجهود الدعوية لأحد العلماء ممن كان لهم إسهامٌ في نشر الدعوة، وخدمة الإسلام في العصر الحاضر، وهو العلامة محمَّد الخضر حسين -

رَحْمَةُ اللَّهِ-؛ فهو من الدُّعاة العُلَماء المعاصرين، وقد ساهم في نشر الدَّعوة بوسائل متعدِّدة، وكان له أسلوبه المميز في عرض حقائق الإسلام، ومبادئه، والدعوة إليه، وتقويم الانحرافات الفكرية التي أصابت الأُمَّة في عصره، وفاقمت من معاناة المسلمين، وهو بذلك يعدُّ أنموذجاً حياً للدَّاعية المعاصر المتميّز في أسلوبه ومنهجه الدعوي.

موضوع الدراسة، وخطواتها المنهجية:

تقتضي المنهجية العلمية توضيح جميع الخطوات التي سيتناولها البحث الذي بين أيدينا حتى نتمكن من الفهم الصحيح لمسار البحث ومعطياته، ومن ثم الإجابة عن الإشكالية المقدمة، وتحقيق جملة الأهداف المسطرة، وهو ما سنوضحه بما يلي:

1- إشكالية الدراسة:

تعتبر أزمة تخلف العالم الإسلامي في العصور المتأخرة عن معالم الحضارة، وشيوع معالم الضعف والانحزام الفكري عند الفرد والمجتمع المسلم من أظهر الإشكاليات وأكثرها حضوراً في الدرس المعرفي الفكري، وشغلت حيزاً كبيراً من جهود المصلحين، قصد تشخيص الداء وتوصيف العلل، ومحاولة تقديم مقارباتٍ تفسّر أسباب هذه الأزمة، ومن ثمّ وضع حلولٍ علميّةٍ وعمليةٍ قصد رفع هذا البلاء ودفعه، وقد تضاعف شعور هؤلاء المصلحين باشتداد الأزمة وتعقُّدها، وتعدُّد أوجهها خاصّةً بعد تعرُّض العالم الإسلامي إلى موجة الغزو على الأوطان والأفكار، مما ساهم في إضعافه حضارياً، وأدّى إلى تدهور أحوال المسلمين في شتى الأصعدة، فتعالت صيحات العلماء بالدعوة لإصلاح أوضاع العالم الإسلامي، والبحث عن علاجٍ لقضايا واقعه، واستنهاض الهمم من أجل بناء فكرٍ تجديديٍّ إصلاحيٍّ ينتشل المجتمع المسلم من تخلفه وجموده، بتحرير العقول للمساهمة في نهضة الأُمَّة، والحفاظ على مقومات شخصيتها.

ويعتبر الإمام محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - أحد رواد الإصلاح في العصر الحديث في العالم الإسلامي، والذين كانت لهم اليد الطولى في إصلاح الفكر الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، من أجل الخروج بالأُمَّة من التخلف إلى آفاق التقدُّم والازدهار، واستئناف دورها الحضاري.

ولم يكتفِ الشيخ محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - بطرح أفكاره الإصلاحية في محاضراته، بل تجاوز ذلك إلى العمل الميداني من خلال الجمعيات الثقافية، والعمل المؤسسي، كما ترك هذا العالم الجليل إرثاً كبيراً من الكتب والرسائل التي تتميز بالعمق والتحليل.

بناءً على ذلك يتَّجه هذا البحث إلى تناول شخصية هذا العالم الإصلاحي النهضوي، من خلال محطاتٍ من تاريخه العلمي والنضالي، انطلاقاً من الإجابة عن إشكالية رئيسة مفادها:

ما الجهود الدعوية والإصلاحية للشيخ محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -؟

تتفرع عن هذه الإشكالية جملةٌ من التساؤلات الفرعية هي:

- 1- من هو الشيخ محمد الخضر حسين؟
- 2- ما العوامل المؤثرة في نشأة العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -؟
- 3- ما جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - العلمية والتطبيقية المتعلقة بالدعوة والدَّاعية؟
- 4- ما موضوعات الدعوة لدى العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -؟
- 5- ما جهود الشيخ العلامة محمد الخضر حسين في خدمة مصادر الدعوة الإسلامية؟

2- منهج البحث:

أعمال الإمام محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - كثيرة، يصعب الإحاطة بها، وتستدعي اتباع عدة مناهج لتنوعها، ولكن الدِّراسة التي بين أيدينا اعتمدت بالأساس على **المنهج الوصفي**، مستخدمةً مجموعة من الآليات منها التتبع التاريخي، بحيث اعتمده الباحث عند الحديث عن ظروف عصره، وذكر الأحداث التاريخية المتعاقبة في حياته، وكذا الظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية، مع مراعاة التسلسل الزمني للأحداث، كما جاء في سياق الدراسة التي تتطلب إجراء بحثٍ في الدراسات التي دَوَّنت للشيخ محمد الخضر حسين، وأرَّخت لنشاطاته وأعماله، وكذا الاستقصاء وأحياناً الاستقراء، حيث إنَّ هذه الدراسة تحتاج إلى تقصُّ جهود محمد الخضر حسين الإصلاحية وجمعها في المجالات المختلفة - قدر الإمكان -

3- أهداف الدراسة:

يمكن إبراز أهم أهداف البحث فيما يأتي:

- 1- الإسهام في بيان العوامل المؤثرة في إعداد الدعاة إلى الله تعالى في العصر الحاضر، وكيفية الإفادة منها.
- 2- الوقوف على الجهود الدعوية العلمية والتطبيقية للشيخ العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في دعوته لمختلف أصناف المدعوين.
- 3- التعرف على الوسائل والأساليب العلمية والتطبيقية التي اتبعها العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - رحمه الله في دعوته، وكيفية الإفادة منها.
- 4- إبراز أوجه التميز الدعوي لدى العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -.
- 5- إزاحة الستار عن شخصية إسلامية بارزة، بذلت جهوداً غالية في العلم والتعليم، وشاركت مشاركة فعالة في الإصلاح والإرشاد، حتى ننسب الفضل لأهله، وتقف الأجيال على جهوده.

4- أهمية الموضوع:

يمكن للقارئ أن يستشف أهمية الموضوع من خلال قراءة مفردات العنوان الذي يحمله، ومع ذلك فإنه من الضروري توضيح بعض النقاط تأييداً وتأكيداً لهذه الأهمية، ويشمل ذلك:

- 1- أهمية الدعوة إلى الله تعالى في كلِّ عصرٍ، وفي عصرنا الحاضر أشدُّ، والدعوة تتجدد بها اتجاهات عقديَّة وفكريَّة، وتهجم عليها مؤثراتٌ سياسيَّة واجتماعيَّة، وتعرقلها وتشوش عليها مؤامراتٌ ومكائد خارجيَّة وداخليَّة، وهي تحتاج منا أن نكون على عُمقٍ علميٍّ، ونضوجٍ تامٍّ، وبصرٍ بتجارب السَّابِقين، وأن نحرص على التزام منهجيَّة واضحة شاملة؛ وليس هناك أسلم ولا أفضل من مناهج العلماء الرَّاسخين الذين بذلوا مُهجهم، وتصدَّوا للتَّيارات والمؤثرات الوافدة على الأُمَّة، والعلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - من هؤلاء الأفاضل.
- 2- بات من المؤكَّد أنَّ العالم العربي والإسلامي يواجه صراعاً عقدياً وفكرياً وحضارياً، ولم

يعد أمامه إلا أن يعيد بعث فكره الإسلامي في كافة المجالات السَّيَاسِيَّة، والاجتماعية، والدَّعْوِيَّة، بما يتناسب مع تحديات العصر أسلوبًا وتجديدًا لبعض قضاياها، لذلك ظهرت محاولات جادة بين المخلصين من رجال الدعوة في العالم الإسلامي في الآونة الراهنة، تدعو إلى ضرورة الرجوع إلى التراث الدَّعْوِي، لدراسته، وتحليله، ومحاولة الاستفادة منه في وضع فلسفةٍ دَعْوِيَّةٍ شاملةٍ، تعيد للمسلم أصالته، وتؤكد رسالته في هذا العصر المليء بالتحديات والمتغيرات.

3- المكانة العلمية والأدبية والإصلاحية للعلامة محمد الخضر حسين، والاشتغال بموروثه العلمي ردُّ لبعض الجميل لهذا العالم الفدِّي، والوقوف على مكان من القوَّة والعظمة والتَّميُّز في شخصيته، وخدمة جلييلة لما تركه للأجيال القادمة.

4- تفيد دراسة الجهود الدعوية عند علماء المسلمين في توضيح كيف عالج علماء الأُمَّة المسلمون موضوعاتهم الدَّعْوِيَّة، وفي رسم صورةٍ لتطور التَّأليف الدَّعْوِي عند المسلمين، كما أنه يساعد - أيضًا - في ارتياد آفاقٍ جديدةٍ للبحث في الدَّعوة الإسلاميَّة من حيث الموضوعات، ومناهجُ البحث، وإعدادُ الباحثين لهذا المجال.

5- كما تعتبر دراسة آراء ومناهج الشخصيات الإسلامية امتدادًا لدراسة التراث الإسلامي، فوجود هذا الفكر هو السبب الأوَّل لنهضة الأُمَّة الإسلاميَّة، فالأفكار هي الثروة الحقيقية لأَيَّة أُمَّة من الأمم، حيث إنَّ الثروة المادِّيَّة معرَّضةٌ للدمار في أيِّ حينٍ، كما أنَّ دراسة الآراء والمناهج الدَّعْوِيَّة تتيح الفرصة للعاملين في حقل الدَّعوة الإسلاميَّة لمواجهة المشكلات، والوقوف على العقبات، لإيجاد الحلول المناسبة.

5- أسباب اختيار الموضوع:

الأسباب الدَّاتِيَّة:

1- إنَّ للدَّعوة معاناة من بعض حملتها أو المنتسبين إليها، فواحدٌ يسيء من جهة جهله، وآخر من جهة سوء فهمه، وثالثٌ من جهة ضيق أفقه، ورابعٌ من جهة شدَّة أسلوبه وهكذا؛ إضافة إلى وجود بعض الخلل والنقص في العمل في صورته الشَّاملة الواعية للدَّعوة، بحيث تواكب

العصر بالاستفادة من معطياته، والتأقلم مع مستجداته، وحسن المواجهة لعقباته، وجودة التخطيط والإعداد لمتطلباته، كما تُراعى الأصول، ويُستلهم التاريخ، وتستنتق التجارب، ويُستفاد من الأعلام؛ بما يجعل جذور هذه الدعوة راسخة، وقواعدها واضحة.

ونظرًا للظروف الآتفة الذكر يكون من الواجب إعمال الفكر، وتبادل الرأي حول السُّبل الكفيلة لنجاح الدعوة وتحقيق أهدافها، وحمايتها من كيد الكائدين من الأعداء، وجهل الجاهلين من الأحياء، من هنا كنتُ كثير التفكير في مثل هذا الموضوع، ولقد أحببتُ أن أسهم في هذا المجال، فرأيتُ أنَّ أعظم مساهمة أستطيعها هي: تقديم دراسةٍ أو تجربةٍ دعويةٍ إصلاحيةٍ لأحد علماء الإسلام الأفاضل، من خلال إبراز جهودهِ الدعوية، ولا شكَّ أنَّ من هؤلاء الأفاضل العلامة المربي مُحَمَّد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -، فوقع اختياري على دراسة جهودهِ الدعوية والإصلاحية، ليكون موضوع دراستي في مرحلة الدكتوراه.

2- الرغبة في حصر الجهود الدعوية للعلامة مُحَمَّد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - التي امتدَّت أكثر من ستين عامًا.

3- الإسهام في تقريب سِير الدُّعاة في العصر الحاضر من العاملين في مجال الدعوة، خاصَّة من كان له الأثر البالغ فيها.

4- جدة الموضوع؛ فلم يسبق - في حدود علمي وبخشي - أن قُدِّمت دراسةٌ علميةٌ متخصصة تتحدَّث عن الجهود الدعوية للشيخ مُحَمَّد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -.

5- إنَّ دراسة هذا الموضوع تُعدُّ رافدًا قويًّا يخدم العلاقة الوطيدة بين أهل الإسلام على مختلف مشاربهم، فالشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - عاش البيئة المغربية والمشرقية، وترك أثره البارز في المشرق رغم أصوله الجزائرية، وساهم في التقريب بين البيئتين، وهذا في حدِّ ذاته ميزةٌ شجَّعتني على الكتابة في هذا الموضوع.

الأسباب الموضوعية:

1- إبراز القيمة العلمية والإصلاحية لرواد النهضة في المغرب العربي، والحصن الذي تحطَّمت عليه هجمات الأعداء طوال التاريخ، هذه الجهود التي لازلت مجهولةً لدى كثيرٍ من الجيل

الجديد، وإلقاء الضوء عليها يصل الحاضر بالماضي، ويربط الناشئة بأسلافهم، فتحافظ هذه الأمة على هويتها العربية والإسلامية.

2- إنَّ نجاح الداعية وانتشار دعوته يزيد من انتشار الخير بكثرة ملتزميه، والدعاة إليه، والثابتين عليه، وعندما تتزايد هذه الدوائر، ويتكاثر أفرادها؛ يكون ذلك سبباً من أسباب رضوان -ﷻ-، وتنزل نصره، وحصول التغيير الصالح في الأمة ضمن السُّنَّة الإلهية الماضية؛ ومن جهةٍ أخرى، فكلَّما أقبل على الخير واستجاب للدعوة نفرٌ من النَّاس بما يحقِّقه الله من نجاحٍ للدعاة فإنَّ ذلك يورث عند الآخرين قناعةً عميقةً، وحماسةً قويةً للمتابعة من خلال كسر حاجز التردد أو الرهبة، وخوف التفرد بالالتزام، ومخالفة التيار العام، كما أنَّ انتشار الخير يبرز صورةً مشرقةً للمسلمين الملتزمين من خلال سلوكياتهم في سائر شؤون الحياة، وهذا له أثرٌ مضاعفٌ في مزيدٍ من الإقبال على الحقِّ، وهذا أحد الأسباب الموضوعية لهذه الدراسة.

3- كما أنَّ كلَّ نجاحٍ للدعوة في فكرٍ وسلوكٍ إنسانٍ هو هزيمةٌ للباطل الداعي إلى طرق ومناهج الشيطان، وإنَّ كل وجودٍ فاعلٍ للدعوة في ميدانٍ من ميادين الحياة هو غيظٌ ونكايَةٌ في أعداء الحقِّ، فالحرص على نجاح الدَّاعية في غاية الأهمية؛ لحماية الأمة من شرور الباطل، والعمل على تحجيم آثاره، وتقليل أضراره، وتوهين أنصاره، والوقوف على مشارف ومعالم صفات نجاح الداعية من خلال جهوده الإصلاحية يسهِّل هذه المهمة، ويخدم هذا الهدف.

4- إنَّ التقصير في الأخذ بمقومات النَّجاح وأسباب الفلاح قد يؤدي إلى الفشل والإخفاق، ويتولد من أثر ذلك بعض المفاهيم والأعمال الخاطئة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أ- الحكم العام بفساد الناس: وذلك أنَّ بعض الدعاة - لقلَّة في فهمه، أو ضعفٍ في إيمانه، أو تقصيرٍ في عمله - يتوالى عليه الفشل، ويلقى الإعراض والنفور من الناس، وبدلاً من أن يصبر أو ينقذ نفسه، ويغيِّر أسلوبه، ويعالج خطأه، نراه ينحى باللائمة على النَّاس، ويحكم عليهم بالفساد والاستعلاء عن الحقِّ، وأنهم أعداءُ الله ورسوله -ﷺ- ونحو ذلك.

ب- حصول الإحباط واليأس في نفوس بعض الدعاة لتكرار الفشل، وانطوائهم بعد ذلك على أنفسهم، ثم اعتزالهم الناس، وتركهم الأمر المعروف والنهي عن المنكر، وربما كان فشلهم في كثيرٍ من الأحوال ناشئاً عن جهلهم بأساليب وأسباب النجاح في الدعوة.

ومن ثمَّ؛ فإنَّ دراسة جهود العلماء الإصلاحية، من خلال آثار واحدٍ من علماء الإسلام المعاصرين، - العلامة محمد الخضر حسين - المتضمن قضايا الدين، والحياة، والمجتمع الإنساني؛ تُعدُّ أمراً ضرورياً وملحاً، يكتسب ضرورته من أهمية التعرف إلى الفكر الإصلاحي في المغرب العربي الذي استطاع إحداث تحولات فكرية واجتماعية أدت إلى تغييراتٍ سياسية في مسار الحياة، وترجع تلك الأهمية - أيضاً - إلى أنَّ الفكر الإصلاحي عند العلامة محمد الخضر حسين يهدف إلى نفخ روح العقيدة الإسلامية، وبعث الحركة الإصلاحية، والعمل على تطبيقها وتحريك عقول الناس وقلوبهم إلى منابعها الصحيحة والأصيلة.

6- الدِّراسات السَّابقة:

لا يمكن إغفال أهمية الدراسات السابقة في تدعيم مسار البحث العلمي، ونظراً لهذه الأهمية تمت مراجعة ما توفر منها وعرضها على النحو التالي:

1- محمد الخضر حسين حياته وآثاره (للدكتور محمد موعدة):

من أوائل من تناول الشيخ الخضر حسين ومؤلفاته بالدراسة هو الدكتور محمد موعدة في رسالة عنوانها: (محمد الخضر حسين حياته وآثاره) وطبعت في الدار التونسية سنة 1974م، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تناول فيه مختلف مراحل حياته في تونس ودمشق والقاهرة، أما القسم الثاني: فقد تعرض فيه إلى آثاره، فأشار إلى ما توفر لديه من إنتاج الخضر حسين، وما كان معروفاً من تأليفه، هو قليلٌ مقارنةً بما نشر في موسوعة الأعمال الكاملة، والقسم الثالث خاصٌّ بضبط اتجاهاته الفكرية في مختلف الميادين وذلك بالاعتماد على آثاره عامة، وخاصة على بعض النصوص الهامة التي تبين مواقفه ونظرياته ضمن الحركة الفكرية الإسلامية.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ هذه الدراسة على قيمتها العلمية تبقى منقوصة، حيث لم تعتمد على جميع مؤلفات الخضر حسين، ولكنها تستمد قيمتها من أنها كانت من أوائل -إن لم نجزم بأنها أول- الدراسات التي تناولته بالبحث، وعُرِّفت به، وفتحت الأبواب إليه أمام الباحثين.

2- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (جمع المحامي علي الرضا

الحسيني):

حيث قام المحامي علي الرضا الحسيني -وهو ابن أخ الشيخ الخضر الحسين- بجمع كافة أعمال الخضر حسين في موسوعةٍ تحوي خمسة عشر مجلدًا، نُشرت بدمشق عام 2010م، وتصدر الإشارة أنَّ المحامي علي الرضا الحسيني أضاف المجلدات 13-14-15 للموسوعة بعد جمع أعمال عمه، وهي عبارة عن بحوث للإمام وجدها مؤخرًا، أو ملتقيات أجريت عن شخصيته، ومعظم الدراسات لم تتجاوز الجانب الوصفي فكانت عبارة عن ترجمات تناولت مراحل حياته، أو أشارت إلى أعماله، ولكنها لم تبحث في جوانب فكره، إلا دراسةً واحدةً تعرّضت لمنهجه في التفسير، واعتمد فيها الباحث على كتاب (أسرار التنزيل) للشيخ الخضر.

3- رؤى الإصلاح عند محمد الخضر حسين (للأستاذ الدكتور المرسى محمود شولح).

جاءت هذه الدراسة في سلسلة كتاب الأمة، العدد 159، تناولت الجزء الأول من رسائل الإصلاح بالتحليل، والذي غلب عليه الاهتمام بالجوانب الأخلاقية والسلوكية؛ فقد تناول الشيخ - دون ترتيب - حوالي أربعة عشر خلُقًا وسلوكًا نطالعتها في العناوين التالية: فضيلة الإخلاص - الأمانة في العلم - الإنصاف الأدبي - صدق العزيمة أو قوة الإرادة - الغيرة على الحقائق والمصالح - الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم - كبر الهمة في العلم - الدهاء والاستقامة - العزة والتواضع - المداراة والمداهنة - الرفق بالحيوان - التعاون في الإسلام - الحلم وأثره في سعادة الحياة - المروءة ومظاهرها الصادقة.

وقد توصلت الى مجموعة من النتائج أهمها:

- التزام الإمام الواضح بالاتجاه الإصلاحى، وثرأ أفكاره وعمقها وتشبعه بها.

- شمول الإصلاح كافة المجالات العلمية والأخلاقية والاجتماعية والتربوية.

- متابعة الغربيين في النظم الإدارية من أجل تحقيق النهضة على الوجه المأمول، وعدم المتابعة في الأخلاق التي تتصادم وذاتية المسلم وخصائص المجتمع الإسلامي.

4- تفسير محمد الخضر حسين لآي القرآن وملامح الإصلاح فيه (للباحث بن ديمة الجيلاي):

وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، شعبة العلوم الإسلامية، تخصص التفسير بين القديم والحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، سنة 2014م، وقد جاءت هذه الدراسة لتجيب عن التساؤل التالي: كيف وظّف محمد الخضر حسين القرآن وتفسيره في إيجاد حلول لمشاكل زمانه؟ وقد اعتمد على المنهج الوصفي التحليلي الذي يتناسب مع الموضوع، مستعيناً بأداة الاستقراء.

وقد توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج منها:

- أسلوب الشيخ في الإصلاح يشعر المسلم بأن القرآن أهم دستور يضمن للأمة السلامة، ويخرج بها من بوتقة التخلف بمعالجة أهم المعضلات.

- استطاع الشيخ محمد الخضر حسين أن يوظف التفسير الحكيم للقران الكريم لإصلاح المجتمع.

- أعطى للدعاة والمصلحين أنموذجا ومنهجاً في التعامل مع الخصوم.

- استقلالية محمد الخضر حسين في التفسير مما جعله تفسيره عصرياً يعكس بصدق وبوضوح توجهات العصر.

- توجهه محمد الخضر حسين المباشر إلى الهدف الذي تريده الآيات دون الإكثار من الخلافات والأقوال.

5- منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهات الانحرافات العقيدية والفكرية (للدكتور محمد بن براهيم الحمد):

وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية، سنة 1435 هـ، تناول الباحث جهود محمد الخضر في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية في عصره كالبدع والشركيات وقضايا الإلحاد والعلمانية ومفهوم الحرية ونحوها من القضايا الشائنة في عصره والتي واجهها وكان له موقف منها.

وقد استخدم الباحث المنهج التاريخي والوصفي والاستقرائي، وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- للشيخ مواجهات كثيرة مع الفرق والدعاوى الضالة، كمواجهاته للبايعة والبهاية والقاديانية.

- للشيخ محمد الخضر منهج متميز في الرد على المخالفين، فعبقريته الفذة تتجلى في الردود، فهو يتمثل أدب الرَدِّ بأخذه بأخلاق المحاور والمناقشة والنقد من جهةٍ، ولزومه الإخلاص والأمانة والإنصاف من جهة أخرى.

- سارت ردود الشيخ الخضر وفق أساليب منهجية متسمة بالاطِّراد والشمولية، والواقعية والتوجه إلى الأفكار دون الأشخاص.

6- المنهج الإصلاحي عند محمد الخضر حسين (للباحثة نسرین سقاي)⁽¹⁾:

أطروحة دكتوراه ل-م-د بكلية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة 1 تخصص الدعوة والثقافة الإسلامية، سنة 2022م، سعت هذه الدراسة للبحث في المنهج الإصلاحي للشيخ محمد الخضر حسين والتعريف به من خلال محطات من تاريخه العلمي والنضالي، بالاعتماد على المنهج الوصفي باليتي التتبع التاريخي والاستقرائي، وقد توصلت إلى كونه شخصية موسوعية، فقد مثَّل بإنتاجه الفكري والثقافي المتنوع والشامل، وبعمله الدعوي المنظم والمستمر، وبجهوده الإصلاحية في مختلف الميادين مدرسة كاملة، كما سارت منظومته الإصلاحية وفق عمل ممنهج

(1) لم أطلع على هذه الرسالة إلَّا بعد أن أشار أحد الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الكرام بوجود هذه الأطروحة، فرجعتُ إليها، واستفدتُ منها في تعديل بعض الملحوظات المطلوبة أثناء المناقشة.

تميز بالشمولية والواقعية والوسطية والتدرج، واستعمل في سبيل ذلك وسائل متعددة كالمحاضرات والمجلات والجمعيات.

7- التفسير اللساني عند محمد الخضر حسين (للباحث كمال مجيدي):

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، بقسم الآداب واللغة، بجامعة بسكرة، تخصص علوم اللسان العربي، سنة 2016م، وقد جاءت هذه الدراسة لتبحث في حقيقة التفكير اللساني عند محمد الخضر حسين من حيث منطلقاته وأدواته ومنهجه ونتائجه وقيمتها العلمية، وقد توصل الى عدد من النتائج أهمها:

- اهتمام محمد الخضر بدراسة العربية، وترك باب الاجتهاد فيها مفتوحاً؛ لأن حياتها مرهونة بحياة أهلها، ومدى حضورهم في الحياة العلمية.
- اطلاع الخضر على مناهج القدماء في دراساتهم اللغوية ومقاربة هذه المسائل بالاعتماد عليها لم يمنعه من الاطلاع على المناهج التي كانت سائدة عند الآخر كالمناهج التاريخي المقارن.
- دعوة الخضر إلى الاهتمام بتنمية ملكة الكتابة من خلال دعوته إلى تدريس الانشاء والاعتناء بالخطابة.

8- محمد الخضر حسين "النص القرآني في فكره الإصلاحية" (للباحث الطاهر بن

سالم):

تهدف هذه الدراسة إلى بيان علاقة المصلحين في العصر الحديث بالنص القرآني، وتحاول الإجابة عن سؤالين محوريين: أما السؤال الأول فيتعلق بالبحث عن كيفية قراءة المصلحين للنص القرآني، وتحديد المناهج التي اعتمدها لفهمه، وبيان الأدوات والوسائل التي وقع استعمالها للغوص في بواطنه واستخراج معانيه. وأما السؤال الثاني: فهو البحث عن مكانة القرآن عند المصلحين في العصر الحديث، ومدى اعتمادهم عليه في تأسيس مشاريعهم الإصلاحية.

وقد حاول الباحث في دراسته الغوص في جوانب التفسير، فبيّن مناهجه ووضّح أسسه وقواعده، وقد توصل إلى نتيجة أنّ الخضر يُعتبر -بحقّ- رائداً للتفسير الموضوعي في العصر

الحديث، فهو أول من مارس هذا اللون من التفسير حسب منهج واضح مكتمل القواعد والأسس.

8- جهود محمد الخضر حسين اللغوية دراسة وصفية تحليلية (للباحث مسعود طاهرية):

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، بقسم اللغة والأدب العربي، بجامعة باتنة، سنة 2016م، قصدت هذه الدراسة البحث في جهود محمد الخضر حسين اللغوية، والوقوف عند أهم آرائه في إصلاح اللغة العربية، وفي وسائل نموها واتساعها، وفي تحديد نحوها وتيسيره، مع مقارنة ذلك كله بآراء المحدثين، وبقرارات بعض المجامع العلمية.

اقتضت طبيعة الموضوع الجمع بين المنهج الوصفي والمنهج الموازن، وقد توصل البحث إلى نتائج منها:

- يؤكد محمد الخضر قوة الصلة بين اللغة والمجتمع، فلا وجود لها من دونه، ولا وجود له من دونها، واللغة عنده من أبرز مقومات الأمة، ومن أقوى عوامل وحدتها الوطنية.

- يرى محمد الخضر أنَّ الثنائية ظاهرة طبيعية في كلِّ اللغات، وأنَّ العامية فصحي محرَّفة في ألفاظها وفي كثير من أساليبها، فيجب إصلاحها وتخليصها من هذا الفساد الذي اعتراها، ويقترح لذلك منهجًا متكاملًا.

9- مقاصد الشريعة عند الإمام محمد الخضر حسين -دراسة استقرائية تحليلية- (للباحث شمس الدين حمّاش):

أطروحة دكتوراه ل-م-د بجامعة الجزائر، تخصص أصول الفقه سنة 2019م، قصد الباحث فيها التنقيب عن التقصيد الشرعي في فكر الشيخ الخضر -رَحْمَةُ اللَّهِ-، من خلال التأصيل للرؤى المقاصدية، وبيان خصائص هذا الفكر المقاصدي، وأثره في توجيه مساره الاجتهادي، وسلك منهجًا استقرائيًا تحليليًا، مستعينًا بمناهج أخرى تخدم البحث كالمناهج التاريخية والنقدية.

وقد ذيل الباحث دراسته بجملة من النتائج من أهمها:

- لم يعتنِ العلماء قبل الخضر حسين بتعريف علم مقاصد الشريعة، لانشغالهم بإرساء أصوله، وتأسيس قواعده، وبين فوائده.
- حضور المصطلح المقاصدي بمختلف إطلاقاته غي بحوث الشيخ الخضر، وعمق الفكر المقاصدي عنده.
- تخضع المقاصد الضرورية عند الخضر إلى ضوابط تَرَجِّح بينها لدى التعارض، منها: الرتبة، الكلية، البقاء، والابتداء.
- من ضوابط معرفة الضروريات عند الخضر ترتيب الشارع عقوبةً دنيويةً على منتهكها.

نظرة تقييمية عامة حول كل الدراسات:

أضافت هذه الدراسات أبعاداً مهمة للدراسة الحالية أهمها:

- 1- تحديد تصور عام للدراسة مع التحديد الدقيق لمشكلتها، وبلورة أهدافها.
 - 2- التقارب موجود على مستوى المنهج، خاصة دراسة الباحثة نسرین سقای.
 - 3- الاستفادة من المراجع والمصادر المستخدمة لتدعيم الدراسة.
- بالإضافة إلى بعض المقالات والأبحاث العلمية المنشورة في المجلات، تعتمد في أغلبها المنهج التاريخي، وتعتبر ترجمة لسيرة الشيخ، وما يتصل بها من دراسة لأهم المحطات التي مرَّ بها الشيخ في حياته، وكان لها الأثر في تكوين شخصيته الفكرية والإصلاحية، منها:

1. محمد الخضر حسين، نشاطه وآثاره، للباحثين: إيمان بودهري ويمينة نغلي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ بجامعة الجليلي بونعامية بخميس مليانة، قسم العلوم الإنسانية، سنة 2017م.

2. كتاب: الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، للمحامي علي الرضا الحسيني، وقد ضمَّن كتابه هذا مقالات ورسائل تناولت سيرة الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - بلغ عددها خمس عشرة رسالة ما بين بحث ودراسة ومقالة، ومن تلك الرسائل:

أ- محمد الخضر حسين، لزين العابدين السنوسي.

ب- محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السَّابِق -دراسة مختارات- بقلم أبو القاسم محمد كرو.

3. العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، حياته في مصر ومشيوخه للأزهر الشريف، مجاهد توفيق الجندي. مقال منشور بالمجلة الخلدونية (الجمعية الخلدونية بسكرة) العدد 8 ديسمبر 1432.

4. محمد الخضر حسين، سيرته ومؤلفاته، الشيخ محمد إبراهيم الحمد.

7- المنهج الإجرائي:

1- تحديد مواضع الآيات القرآنية، وكتابتها في متن البحث بالرسم العثماني، وذلك بذكر السورة ورقم الآية، معتمداً في ذلك على مصحف مجمع الملك فهد الإلكتروني برواية حفص عن عاصم - رحمهما الله تعالى -.

2- تخريج الأحاديث النبوية، والآثار تخريجاً علمياً من المصادر الأساسية للسنة النبوية، فما كان منها في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما؛ وما كان في غيرهما من السنين والمسانيد والمعاجم فإني أذكر من خرجه، وأذكر حكم أهل الاختصاص عليه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، أذكر ذلك كله عند أول موضع يرد فيه، وأشير إلى موضعه إذا تكرر.

3- ذكر المصادر والمراجع التي استقيت منها البحث، مشيراً إلى اسم الكتاب ومؤلفه والجزء والصفحة، ثم أذكر باقي المعلومات في فهرس المصادر والمراجع.

4- توثيق النقول والأقوال من مصادرها المعتمدة، وذلك إمّا من كتب مؤلفيها مباشرة، أو ممن نقل عنهم في حال عدم الوقوف على مؤلفاتهم، مع الإشارة إلى ذلك، فإن تكرر المرجع في الصفحة نفسها مع اختلاف الجزء أو الصفحة قلت: (يُنظر المرجع السَّابِق)، فإن اتفقا في الجزء والصفحة قلت: (المرجع نفسه).

5- الترجمة للأعلام الوارد ذكرهم في البحث حسب ما يتيسر.

6- بيان معاني الكلمات الغريبة الوارد ذكرها في البحث، والتعريف بالمصطلحات العلمية.

7- التعريف بالفرق، والطوائف، والمذهب الفكرية.

8- الالتزام بعلامات الترتيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

9- وضع فهارس علمية تسهل الرجوع إلى البحث.

8- خُطَّةُ البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى: مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: تحتوي على: موضوع الدراسة وخطواته المنهجية، وهي: إشكالية الدراسة، ومنهج البحث، وأهداف الدراسة، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، والمنهج الإجرائي، وخطة البحث، وأهم مصادره.

تمهيد: مفهوم الدعوة والإصلاح.

الفصل الأول: حياة الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - الشخصية والعلمية

المبحث الأول: تعريف موجز بحياة العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -.

المطلب الأول: حياة العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - الشخصية.

المطلب الثاني: حياة العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - العلمية والعملية.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في شخصية العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -.

الفصل الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - العلمية والتطبيقية

المتعلقة بالدعوة والداعية:

المبحث الأول: جهوده فيما يتعلق بواجبات الداعية:

المطلب الأول: واجبات الداعية تجاه ربه.

المطلب الثاني: واجبات الداعية تجاه نفسه.

المطلب الثالث: واجبات الداعية تجاه أسرته وأقاربه.

المطلب الرابع: واجبات الداعية تجاه إخوانه الدعاة.

المطلب الخامس: واجبات الداعية تجاه أحوال الدعوة ومقتضياتها.

المبحث الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - فيما يتعلق بإعداد

الداعية:

المطلب الأول: وجوب تبليغ الدعوة.

المطلب الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين -رحمه الله- في إعداد الداعية.

المبحث الثالث: جهود العلامة محمد الخضر حسين رَحْمَةُ اللَّهِ - فيما يتعلق بالدعوة.

المطلب الأول: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في الدعوة الجماعية.

المطلب الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في الدعوة الفردية.

الفصل الثالث: مجالات الدعوة عند العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

المبحث الأول: البدء بالدعوة إلى عقيدة التوحيد.

المبحث الثاني: الدعوة لأركان الإيمان.

المبحث الثالث: الفقه الإسلامي.

المبحث الرابع: الأخلاق.

المبحث الخامس: قضايا اللغة العربية.

الفصل الرابع: مصادر العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في دعوته إلى

الله:

المبحث الأول: القرآن الكريم.

المبحث الثاني: السُّنة النبوية.

المبحث الثالث: الإجماع.

المبحث الرابع: التاريخ والسيرة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الملاحق.

الفهارس العلمية:

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث النبوية والآثار.

فهرس الأعلام المترجم لهم.

فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة.

فهرس الأديان والفرق والمذاهب الفكرية.

فهرس محتويات البحث.

9- مصادر البحث:

يمكن إجمال مصادر البحث فيما يلي:

أولاً/ تراث الشيخ محمد الخضر حسين العلمي، ويتمثل في مؤلفاته التي جمعها وضبطها المحامي الأستاذ علي الرضا الحسيني في سلسلة سميت: "موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين"، والصادرة عن دار النوادر للطباعة والنشر بسوريا، الطبعة الأولى، 1431هـ - 2010م، وجاءت في خمسة عشر مجلداً، وهي تضم جميع مؤلفات الشيخ المطبوعة، بالإضافة إلى جملة من الصحف والجرائد والمجلات والمقالات والمؤتمرات التي عيّنت بتغطية النشاطات العلمية والفكرية والسياسية التي شارك فيها الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -، أو التي تطرقت لسيرته، ومسيرته العلمية والدعوية، وقد مثّلت هذه الموسوعة المصدر الأساس لدراستي، وجملة ما ضمّته من كتب الشيخ ومؤلفاته على الترتيب:

1- أسرار التنزيل.

2- بلاغة القرآن.

3- دراسات في الشريعة الإسلامية.

4- محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين.

5- تراجم الرجال.

6- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان.

7- محاضرات إسلامية.

8- رسائل الإصلاح.

9- الدعوة إلى الإصلاح.

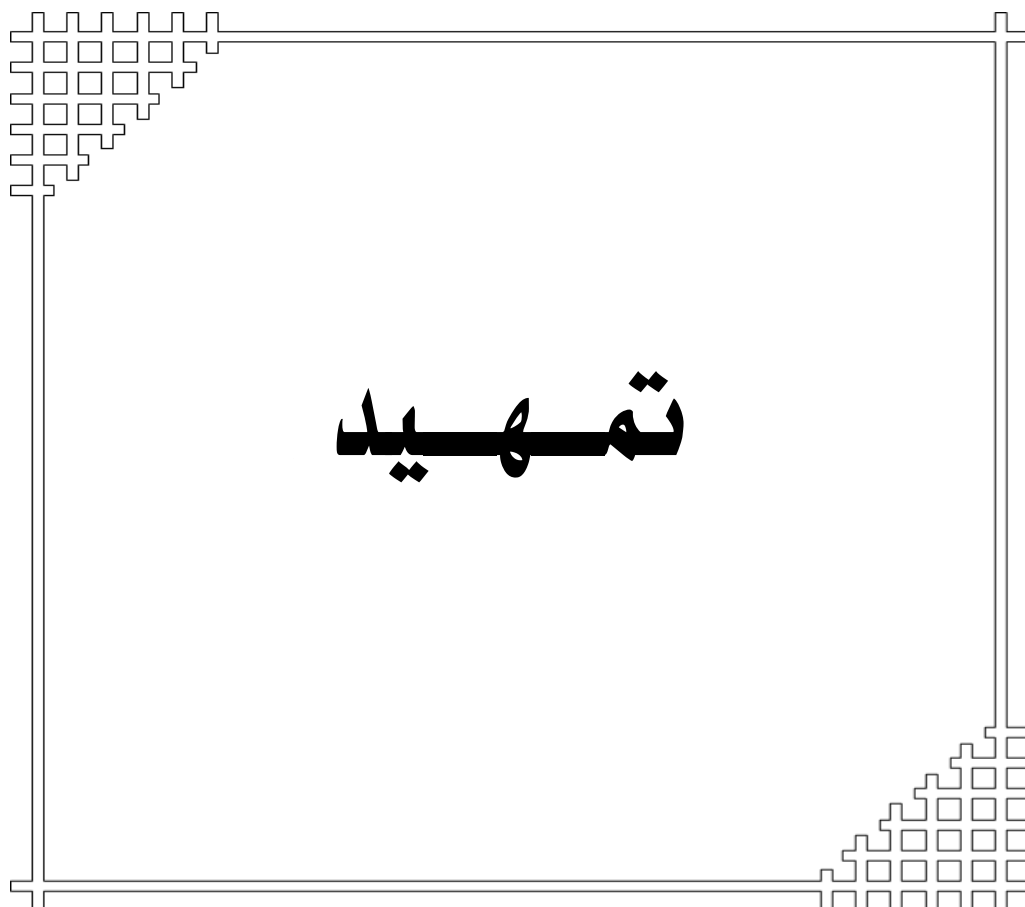
- 10- دراسات في العربية وتاريخها.
 - 11- دراسات في اللغة العربية.
 - 12- الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية.
 - 13- ديوان خواطر الحياة.
 - 14- نقض كتاب "في الشعر الجاهلي".
 - 15- نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم".
 - 16- جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية.
 - 17- القاديانية والبهائية.
 - 18- الهداية الإسلامية.
 - 19- أحاديث في رحاب الأزهر.
 - 20- تونس وجامع الزيتونة.
 - 21- من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين.
 - 22- الرحلات.
 - 23- هدى ونور.
 - 24- السعادة العظمى.
 - 25- التعليق على كتاب "المغني عن الحفظ والكتاب" للحافظ ضياء الدين أبي حفص عمر بن بدر بن سعيد المصلي الحنفي.
 - 26- الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين.
 - 27- كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين.
 - 28- الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر.
 - 29- ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر.
 - 30- الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي - تونس
- ومن المهم أن أذكر أنني التزمت في بحثي توثيق كلام الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - من الكتب والمؤلفات التي ضمنتها الموسوعة، لا إلى الموسوعة نفسها، وذلك تيسيرا على القارئ في الرجوع

إلى المصدر، ولإظهار التنوع والغنى في تراث الشيخ الفكري، وتجنباً للرتابة والتكرار الذي قد يصيب القارئ بالملل.

ثانياً/ كتب ورسائل الشيخ الخضر التي خرجت مفردةً في فترات متباعدة، فيُفاد منها، في التصحيح والمقابلة، وما يكون في مقدماتها من دراسة أو فوائد.

ثالثاً/ الدراسات التي كُتبت عن الشيخ الخضر، وقد مرَّ ذكر شيءٍ منها.

رابعاً/ الكتب المعاصرة التي تُعنى بدراسة المرحلة التي عاش فيها الشيخ الخضر، أو تعنى بدراسة الشخصيات الواردة في البحث.



تمهيد: مفهوم الدعوة والإصلاح، وبيان العلاقة بينهما.

يحسن الباحث في مستهلّ دراسته بيان مفهوم الدعوة، ومفهوم الإصلاح، والعلاقة بينهما؛ كونها مصطلحاتٍ تحدّد مجال البحث، وتخصر حدوده.

المطلب الأول: مفهوم الدعوة في اللغة والاصطلاح.

أولاً/ مفهوم الدعوة لغةً:

الدَّعْوَةُ في كلام العرب من: دعا يدعو دُعاءً ودَعْوَةً، وهذا دَاعٍ وذاك مدعوٌّ، ويرجع معناها عندهم إلى الطَّلَب، والتَّداء إلى أمرٍ، والحثّ والحضّ عليه، وإمالة المدعوِّ نحو الدَّاعي، فمن دعا بالشَّيء فقد طلب إحضاره، ومن دعا إلى الشَّيء فقد حثَّ على قصده، وسأل غيره أن يجيبه إليه، والدَّعْوَةُ الحَلْفُ. (1)

وقد تكون الدَّعْوَةُ إلى الخير وتكون إلى الشرِّ، كما تكون إلى الحقِّ وإلى الباطل، وتكون إلى الجنَّة وإلى النَّار، قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عن الشيطان وأعدائه: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 221]، وقال عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: 41]، وقال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: 25]. (2)

ثانياً/ مفهوم الدعوة في الاصطلاح:

وردت عدّة تعريفات لهذا المصطلح، مختلفة في العبارة، متّفقة في المعنى والحقيقة:

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، (279/2)؛ ولسان العرب لابن منظور، (259/14)؛ وتاج العروس للزبيدي، (36/38).

(2) ينظر: الآثار للإمام ابن باديس، (182/1).

ف قيل: هي الدَّعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به. (1)

وقيل: هي جمع الناس إلى الخير، ودلالتهم على الرُّشد، بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. (2)

وقيل: هي توجيه الخلق إلى الله، وتزكيتهم، وتعليمهم، وترويضهم على الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا به ويعملوا له. (3)

وقيل: تبليغ الإسلام للناس، وتعليمهم إياه، وتطبيقه في واقع الحياة. (4)

وقد أشار الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - إلى المفهوم العام للدعوة فقال عنها: "الدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". (5)

كما أشار إلى المفهوم الخاص لها، فذكر أنها تعليم الجاهل، وتذكير النَّاسِي، ومجادلة الضَّالِّ، وكفُّ بأس المُضِلِّ. (6)

فيظهر مما سبق أنَّ الدَّعوة في الاصطلاح: إمالة النَّاس إلى الله تعالى إيماناً به وتصديقاً، وإلى دين الإسلام إجابةً وتحقيقاً.

(1) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية، (7/20)، وهذا تعريف ببعض موضوعات الدعوة ومجالاتها.

(2) ينظر: أسس الدعوة وآداب الدعاة لمحمد السيد الوكيل، (9/1).

(3) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (109/4).

(4) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة لأبي الفتح البيانوني، (ص 17).

(5) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 10).

(6) ينظر: المرجع السابق، (ص 9).

المطلب الثاني: مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحًا.

أولاً/ الإصلاح في اللغة:

ورد هذا المصطلح في معاجم اللغة مشتقًا من الفعل صَلَح، يصلح، صلاحًا وصلوًا، وصلحت حال الرجل أي زال عنها فسادها، وصلح له الحال ناسبه ووافقه، وصلح الرجل فهو صالح أي استقام وأدى ما عليه، والرباعي منه للتعدية، أي تعدية الصلاح من نفسه إلى غيره، والإصلاح ضدُّ الإفساد، وأصلح الشيء بعد فساده أي أقامه، وأصلح بين الناس أزال ما بينهم من عداوة وشقاق، وأصلح الشيء أزال فسادَه ونظَّمه ورَتَّبَه، وأصلح أتى بالصلاح وهو الخير والصواب، واستقامة الحال على ما يدعو إليه العقل والشرع. (1)

ثانيًا/ الإصلاح في الاصطلاح:

الإصلاح في عُرْف علم الدعوة يُطلق على كلّ دعوةٍ استهدفت العودة بالإسلام إلى طهارته الأولى، اعتمادًا على القرآن والسُّنة، كما يعني العمل لتطابق حياة المسلمين مع نُظْم دينهم وقيَمِهِ. (2)

وقيل: "هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله، بإزاء ما طرأ عليه من فسادٍ". (3)
وقيل هو: "محاولة ردِّ الاعتبار للقيم الدِّينية، ورفع ما أُثير حولها من شُبُه وشكوك؛ قصد التَّخفيف من وزنها في نفوس المسلمين، ونعني به كذلك محاولة السير بالمبادئ الإسلامية من نقطة الرُّكود التي وقفت عندها حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر حتى لا يقف مسلم اليوم موقف المتردد بين أمسه وحاضره عندما يصبح في غده". (4)

(1) ينظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي، (229/1)؛ ولسان العرب لابن منظور، (517/2)؛ والمصباح المنير للفيومي، (ص 207).

(2) ينظر مقال: المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس للباحثة نصيرة هرنون، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، العدد (50)، سنة 2018م، (ص 3).

(3) ينظر: الآثار لابن باديس، (231/1).

(4) التجديد الفكري قراءة في المفهوم حسن حمدوشي، <http://kalema.net/home/article/view/672>

ويعني - أيضا - الرجوع إلى الإسلام، ويصحب ذلك منهجٌ كاملٌ متكاملٌ يشمل الأفراد والمجتمعات، يُصلح العقيدة، والفكر، والثقافة، ويُصلح السلوك والعبادة، فهو إصلاحٌ اجتماعيٌّ، واقتصاديٌّ، وسياسيٌّ، وهو إصلاحٌ دعويٌّ تربويٌّ تنظيميٌّ شاملٌ متكاملٌ.⁽¹⁾

والشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - أفاض في بيان مظاهر الإصلاح وتحليلاته، وأشار إلى مفهومه بعباراتٍ مختلفةٍ، وكلماتٍ جامعةٍ، فذكر أنه محو المزاعم الباطلة، وربط قلوب الناس بالاعتقاد الصحيح.⁽²⁾

وأنه إصلاح النفوس بالعقائد السلمية، وتزويدها بالأخلاق الزاهرة، وتنظيم علاقاتها مع غيرها.⁽³⁾

وأنه - أيضا - : تقويم العقائد، وتطهير العقول من المزاعم السخيفة، وإصلاح الأخلاق، وشرع العبادات الصحيحة، وتنظيم المعاملات على وجه العدل والرفق.⁽⁴⁾

يظهر مما سبق أن الإصلاح في الفكر الدعوي للشيخ الخضر لا يختلف مفهومه عن سائر التعريفات، وأنه في مجمله يعني: دعوة الخلق للرجوع إلى الإسلام الصافي، وتنقيته مما شابه من فسادٍ على مستوى العقيدة، والمنهج، والفكر، والأخلاق، والتّصديّ لكلِّ ما يعكّر صفوه من شركٍ، وبدعٍ، ومعاصٍ، من الجانب النظري أو العملي.

(1) ينظر: فهم أصول الإسلام في رسالة التعليم لعلّي عبد الحليم محمود، (ص 15).

(2) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 55).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 60).

(4) ينظر: المرجع السابق، (ص 128).

المطلب الثالث: العلاقة بين مصطلحي: الدَّعوة والإصلاح.

يظهر مما سبق من تعريفاتٍ أنَّ هناك علاقةً بين مفهوم (الدعوة) ومفهوم (الإصلاح)، وأنَّ بينهما عمومٌ وخصوصٌ، وتحديد هذه العلاقة يكون على مستويين:

المستوى الأول: حال انفراد كلِّ مصطلحٍ، أي إذا ورد في الكلام كلمة (الدعوة) دون (الإصلاح)، أو العكس؛ فإنَّه يظهر من خلال التعريفات السابقة أنَّ بينهما علاقة عمومٍ وخصوصٍ، أي أنَّ الدعوة أعمُّ من الإصلاح مطلقاً، فكلُّ إصلاحٍ دعوةٌ، وليست كلُّ دعوةٍ إصلاحاً، وأنَّ الدَّعوة تكون في كلِّ وقتٍ، وأمَّا الإصلاح ففيه خصوصٌ مرتبطٌ بوجود فسادٍ، لكنه يقع في دائرة الدعوة وفي محيطها من حيث المفهوم والعمل، فيلتقيان في معنى مشتركٍ، لكن قد يزيد أحدهما عن الآخر من حيث الموضوع، ومن حيث المجال المكاني والزمني. ⁽¹⁾

المستوى الثاني: حال الاقتران؛ فتختلف حينئذٍ دلالة كلِّ كلمةٍ عن الأخرى، أي: إنَّ قول الباحث (جهود الشيخ محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في الدعوة والإصلاح) يقصد بالدعوة هنا: كلُّ نشاطٍ قام به الشيخ من أجل التعريف بالإسلام، والدفاع عنه، وإرشاد الناس إلى الالتزام به، وتوجيه سلوكهم وأقوالهم وفق ذلك، والنُّصح للأُمَّة، سواء ذلك بالقول أو الفعل، ويقصد بالإصلاح: كلُّ نشاطٍ قام به الشيخ من أجل إصلاح النفوس، وكفِّها عن الشرِّ وإزالتها، ومحاربة الفساد الذي كدَّر صفاء الإسلام.

ولو قلنا بعبارة أخرى: أنَّ مفهوم الدَّعوة حال الاجتماع هو الأمر بكلِّ معروفٍ، والإصلاح هو النَّهي عن كلِّ منكرٍ لصَحَّ.

وهناك تركيبٌ آخر ظهر لي من خلال بحثي في تراث الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -، وهو مركَّبٌ إسناديٌّ دمج بين المصطلحين، وهو (الدَّعوة الإصلاحية)، حيث يقول - رَحْمَةُ اللَّهِ -: "وليست هذه الدَّعوة الإصلاحية وليدة الدخول في ميدان التجارب الخاصَّة، ولا النَّسخ والتَّدْرِج

(1) ينظر: جهود علماء الجزائر في الإصلاح الاجتماعي من سنة 1830م إلى 1954م، للدكتور علي بن زينب، (ص 24).

بالتَّشْرِيع من مظاهر الدُّخول في تجارب، بل الدَّعوة هدايةً من خالق التَّجارب والمجربين، والنَّسخ والتَّدْرِج بالتَّشْرِيع من مظاهر عِلْمه القديم، كما هو مفصَّلٌ في أصول الشَّريعة". (1)

ويقول: "وإذا تحدَّثْتُ في هذه الكلمة عن العرب، فَلَأَتَّهَمُ أَوَّلَ أُمَّةٍ تَلَقَّتْ هذه الدَّعوة الإصلاحية الشَّاملة، ووقعت منها موقع الدَّواء الناجع من العِلل المزمنة". (2)

وهذا التركيب لا يختلف من حيث المفهوم والمعنى عمَّا سبق، والله أعلم.

(1) بلاغة القرآن، (ص 134).

(2) محمَّد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبِيِّينَ، (ص 172).

الفصل الأول

حياة الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ الشخصية والعلمية

وفيه مبحثان:

✽ المبحث الأول: تعريف موجز بحياة الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ

✽ المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في نشأة الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ.

المبحث الأول: تعريف موجز بحياة الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -

المطلب الأول: حياة العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - الشخصية.

أولاً/ اسمه ونسبه.

أ- اسمه:

أما اسمه الذي اشتهر به فهو محمد الخضر حسين، وهو المعروف في الأوساط العلمية والفكرية، وقد ارتضاه لنفسه، وكان يذيل رسائله ومقالاته ومؤلفاته به. (1)

أما اسمه الأصلي الذي سُمِّيَ به فهو: محمد الأخضر بن الحسين، وقد اختلف من ترجم له في سبب إبدال الأخضر بالخضر، ف قيل: إِنَّ سبب ذلك هو الاختصار، وقيل: تيمُّناً بسيدنا الخضر - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وقيل: بل غيَّره بناءً على اقتراح الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور - رَحْمَةُ اللَّهِ - (2). (3)

ب- نسبه:

أما نسبه فهو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن أحمد بن عمر بن الموفق بن محمد بن أحمد بن علي بن عثمان بن يوسف بن عمران بن يوسف بن عبد الرحمن بن سليمان بن أحمد بن علي بن أبي القاسم بن علي بن أحمد بن حسن بن سعد بن يحيى بن محمد بن يونس بن لقمان بن علي بن مهدي بن صفوان بن يسار بن موسى بن عيسى بن إدريس الأصغر بن

(1) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 13)؛ ومحمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 31)، (ص 51)، (ص 81).

(2) ابن عاشور: (1296-1393هـ = 1879-1973م): هو محمد الطاهر ابن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، ولد سنة 1879م، وعيِّن عام 1932م شيخاً للإسلام مالكيًا. له مصنفات مطبوعة، من أشهرها: "التحرير والتنوير". ينظر: الأعلام للزركلي، (6/174).

(3) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره، (ص 13)؛ ومحمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، (ص 202). والمشهور في القطر الجزائري اسم (الخضر)، ولعلها التسمية الصحيحة للشيخ كما ذكره الدكتور الجباري عثمان في مناقشته لهذه الأطروحة - جزاه الله خيراً -

إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله - ﷺ - . (1)

ثانيًا/ مولده.

وُلد الشيخ محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - في مدينة (نفطة) من مقاطعة (الجريد) بتونس، وكانت ولادته في 26 رجب 1293 هـ الموافق لـ: 21 جويلية 1873 م على أصح الأقوال (2)، حيث إنَّ ذلك التاريخ مذكور في ترجمة أحمد تيمور باشا (3) للخضر في كتابه "أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث"، والذي يظهر أنَّ الشيخ الخضر هو من كتب تلك الترجمة التي فيها ذكر التاريخ الأنف، وأعطاه صديق عمره أحمد تيمور باشا، والذي أوصى الخضر أن يُدفن بجواره، فدفن بجواره - رَحِمَهُمُ اللهُ -، وهذا ما يُؤكِّد ويُرجِّح أنَّه وُلد في ذلك التاريخ. (4)

وكما اختلف في سنة ميلاده اختلف في يوم ميلاده كذلك، ف قيل: ولد في 29 رجب، وقيل 27 رجب، والأقرب ما ذكرته سابقًا. (5)

-
- (1) ينظر سلسلة ذلك النسب وعموده وشهوده في كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 13-24).
 - (2) وقد قيل إنه ولد سنة 1876 م، وقيل: 1877 م. ينظر: الأعلام للزركلي، (6/113)؛ ومعجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002 م لكامل سلمان الجبوري، (5/270).
 - (3) أحمد تيمور باشا: (1288-1348 هـ = 1871-1930 م): هو أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور، عالم بالأدب، باحث، مؤرخ مصري، من أعضاء المجمع العلمي العربي، وُلد بالقاهرة، من بيت فضل ووجاهة، تلقى مبادئ العلوم في مدرسة فرنسية، وأخذ الأدب عن علماء عصره، وجمع مكتبة قيَّمة، وكان رضي النفس، كريمها، متواضعًا، فيه انقباض عن الناس، توفي بالقاهرة، من مصنفاته: "نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة"، و"تصحيح لسان العرب"، و"التصوير عند العرب"، و"اليزيدية ومنشأ نحلته". ينظر: الأعلام للزركلي، (1/100).
 - (4) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 13-14)؛ وكتاب الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 305)؛ وكتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 190).
 - (5) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 13-14)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 33).

ووقع الخلاف -أيضاً- في مكان ولادته ⁽¹⁾، فقليل: إنه وُلِدَ في مدينة (قفصة) بتونس، وقيل إنَّ مولده بمدينة (طولقة) ببسكرة، والصحيح ما ذكرته سابقاً؛ لأنَّ أكثر من ترجم له ذكر هذا المكان، وتصريحه بذلك في مقدمة ديوانه الشعري "خواطر الحياة" حيث قال: "نشأتُ في بلدةٍ من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها (نفطة)". ⁽²⁾

ثالثاً/ أسرته.

أمَّا أبوه فهو الحسين بن علي ⁽³⁾، من مريدي الشيخ مصطفى بن عزوز صاحب الطريقة الرحمانية.

وجده للأب الشيخ علي بن عمر ⁽⁴⁾، وهو من العلماء، وأصله من عائلة العمري من قرية (طولقة)، وهي واحدة مشهورة من واحات الجنوب الجزائري العزيز. ⁽⁵⁾

-
- (1) ينظر: معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، (273/3)؛ وموسوعة العلماء والأدباء الجزائريين لرابح خدوسي وأمين بلغيث، (ص 42).
- (2) مقدمة خوطر الحياة، (ص 7).
- (3) الحسين بن علي: (1246-1309 هـ = 1830-1893م): ولد في مدينة "طولقة" بالجنوب الجزائري، من رجال الصلاح والتقوى والتصوف، كان شيخاً للطريقة الخلوتية، وله جامع باسمه في بلدة "نفطة" آخر بلاد تونس من جهة الجزائر، وقد كان من مريدي الشيخ مصطفى بن عزوز، حيث التحق بالشيخ ابن عزوز إلى بلدة "نفطة" في منطقة الجريد التونسي، وتزوج من ابنته والدته الشيخ الخضر. وتوفي بمدينة تونس. ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 157).
- (4) علي بن عمر: (1168-1258 هـ = 1752-1842م): عالم زاهد صوفي من بلدة "طولقة" في القطر الجزائري، عاش نحو 92 سنة، واشتهر بالعبادة والزهد والصلاح وتعليم الخير، وله زاوية مشهورة لتعليم القرآن والعلوم الإسلامية أسَّسها سنة 1780م وهو ابن 28 سنة، توفي -رَحْمَةُ اللَّهِ- بطولقة. ينظر: تاريخ الشيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرحمانية لسليمان الصيد، (ص 9).
- (5) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 13-14).

أمّا أمّه فهي السيدة الصالحة حلّمة السَّعْدِيَّة بنت الشيخ مصطفى بن عزوز، وهي من الشهيرات بالتُّقى، والعلم، والصلاح، وُلدت في تونس سنة 1270هـ، وتوفيت بدمشق سنة 1335هـ، فرثها ابنها الشيخ محمد الخضر بقصيدة سماها: (بكاء على قبر).⁽¹⁾

وأما جدّه للأُمّ فهو الشيخ مصطفى بن محمد بن عزّوز⁽²⁾، وأصله من قرية تُسمّى (البرج) من قرى (طولقة) بمدينة (بسكرة) بواحات الجنوب الجزائري، وقد استقرّ ببلدة (نفطة) التونسية سنة 1257هـ، وأحدث بها مدرسته الحافلة، وأنشأ بها بيوتاً لسكن المنقطعين لقراءة القرآن، وتعلّم العلم الشرعي، وحشد لها العلماء الأعلام من كلّ جهة؛ ليدرسوا فيها فنون العلم على اختلافها، وكانت شهرة الشيخ مصطفى العلمية والدّينية تملأ الأصقاع، كما كانت لها المكانة العالية لدى السلطة الحاكمة، خاصّةً لدى الباي محمد الصادق.⁽³⁾

(1) ينظر: خواطر الحياة، (ص 223-225)؛ ومحمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 13-14).
(2) مصطفى بن محمد بن عزوز: (ت: 1288 هـ = 1866 م): الحسني الإدريسي، البرجي ثم النفطي، أبو النخبة، الفقيه الصوفي. ولد بالبرج وهي بلدة صغيرة تابعة لبسكرة بالزاب جنوبي القطر الجزائري، ولأسلافه بها زاوية لنشر الطريقة الرحمانية الخلوتية، وهو ينحدر من عائلة صوفية هاجرت إلى نفطة ابان الاحتلال الفرنسي لبسكرة سنة 1843م مع عائلة الشيخ محمد الخضر حسين. أخذ الطريقة عن الشيخ علي بن عمر صاحب زاوية طولقة، وهو عن محمد بن عزوز والد المترجم، وهو عن الشيخ عبد الرحمن الأزهرى الزواوي، وهو عن الشيخ محمد الحفناوي المصري الشافعي الخلوي. وانتقلت وراثته الطريقة إلى صاحب الترجمة سنة 1842م، وأخذ عنه الطريقة ابنه الشيخ محمد المكي. وأنشأ المترجم زاوية بنفطة انفصلت عن الطريقة الرحمانية الخلوتية بالجزائر، أنشأها لنشر الطريقة بالقطر التونسي، وفيها تخفيف كثير من قيود الخلوتية ترغيباً للناس حتى يقبل أكبر عدد ممكن، ونجح في اجتذاب عدد كبير إلى الطريقة، وانتشر صيته. وكان المشير الأول أحمد باشا باي يعتقد ويَعْظُم شأنه، وكذلك المشير الثالث محمد الصادق باشا باي ومدحه الشيخ إبراهيم الرياحي بمدائح شعرية ونثرية. وكان صاحب شخصية جذابة بما له من فصاحة. ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ، (380/3).

(3) محمد الصادق باي: (1229-1299 هـ = 1814-1882 م): هو محمد الصادق باشا باي أو الصادق باي محمد الصادق بن حسين، هو باي تونس الثاني عشر منذ سنة 1859م إلى حين وفاته، برز خلال حكمه عهد الأمان الذي ينصّ على تحقيق العدل بين الرّعية، ويؤكد على حقوق الأجانب في المملكة التي ستسمح لهم بالتدخل في الحياة السياسيّة، كما أصدر خلال عهده أول دستورٍ تونسيٍّ بدأ العمل به يوم 26 أفريل 1861م، ينصّ على تنظيم الحياة السياسيّة بالفصل بين السلطات الثلاث، والحدّ من سلطة الباي، الأمر الذي دفع بإلغائه سنة 1864م، وفي سنة

وأما خال الشيخ محمد الخضر حسين فهو الشيخ العلامة محمد المكي بن عزوز⁽¹⁾، ذو الشهرة الواسعة في الجزائر وتونس و(الآستانة)، وقد انتُخبَ في عهد الوزير خير الدين باشا⁽²⁾ لخطّة الإفتاء ببلدة (نفطة) وهو في عهد الشباب، ثم انتقل إلى تونس للتدريس بجامعة الزيتونة، ثم ارتحل إلى دار الخلافة بتركيا، واستقرّ بـ (الآستانة) إلى وفاته، ونال شهرةً علميّةً عالميّةً، فهو يُعدُّ من كبار علماء عصره، مع صلاحٍ ظاهرٍ، وتجرّدٍ للحقّ⁽³⁾، وقد كان من أكثر الناس أثرًا على الشيخ الخضر، وأمنّهم عليه في العلم.⁽⁴⁾

وقد توفي الشيخ محمد المكي بن عزوز في (الآستانة) سنة 1334هـ، ورثاه الشيخ محمد الخضر بقصيدة عنوانها (ههنا شمس العلوم) يقول في مطلعها:

1881م وقّع على معاهدة (باردو) التي أعلنت تونس محميّة فرنسيّة، وعاش بعدها عامًا ونصفًا، ومات بتونس. ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 15-16)؛ وكتاب الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 305)؛ والأعلام للزركلي، (6/105).

(1) محمد المكي بن عزوز: (1270-1334هـ = 1854-1916م): هو محمد مكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز الحسيني الإدريسي المالكي، قاضٍ فقيه باحث، ولد ببلدة (نفطة)، وتعلم بتونس، وولي الإفتاء بنفطة سنة 1297هـ، ثم قضاءها. وعاد إلى تونس سنة 1309هـ، وفي سنة 1313هـ رحل إلى الآستانة فتولى بها تدريس الحديث في دار الفنون ومدرسة الواعظين، واستمر إلى أن توفي بها. من كتبه "رسالة في أصول الحديث"، و"السيف الرباني"، و"مغانم السعادة في فضل الإفادة على العبادة". ينظر: الأعلام للزركلي، (7/108-109).

(2) خير الدين باشا: (1225-1308هـ = 1810-1890م): هو خير الدين (باشا) التونسي، وزير، مؤرّخ، من رجال الإصلاح الإسلامي، شركسي الأصل، قدم صغيروا إلى تونس، فاتصل بصاحبها (الباي أحمد) وأثرى، وتعلم بعض اللغات، وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة، في سنة 1877م أبعد عن الوزارة، فخرج إلى الآستانة، وتقرب من السلطان عبد الحميد العثماني فولاه الصدارة العظمى، فحاول إصلاح الأمور، فأعياه، فاستقال، ونُصّبَ عضوًا في مجلس الأعيان، فاستمر إلى أن توفي بالآستانة. له "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك". ينظر: الأعلام للزركلي، (2/326-327).

(3) يشهد له ذلك ما جاء في المكاتبات التي جرت بين العلامةين القاسمي والالوسي، حيث أثبتا عليه، وذكرنا شيئًا من تجرّده، وصدقه، وفضله. ينظر: الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الالوسي، جمع وتحقيق محمد ناصر العجمي، (ص 101-107).

(4) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 17-18)؛ وكتاب الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 306).

رُبَّ شَمْسٍ طَلَعَتْ فِي مَغْرِبٍ وَتَوَارَى فِي ثَرَى الشَّرْقِ سَنَاهَا⁽¹⁾

وكان للشيخ أربعة إخوة، وثلاث أخوات؛ فأما الإخوة فهم: الشيخ محمد الجنيدي، وهو أكبرهم سنًا، وقد عاد من دمشق إلى تونس، ثم الجزائر فمات بها، ودُفن في مدينة (طولقة)، ويليه الشيخ محمد الخضر، ويليه محمد العروسي، وقد توفي بدمشق، ويليه العلامة اللغوي محمد المكي بن حسين⁽²⁾ الذي عاد من دمشق إلى تونس، ودُفن بها، ويليه العلامة اللغوي الشيخ زين العابدين⁽³⁾ الذي دُفن في دمشق.

(1) ينظر: ديوانه: خواطر الحياة، (ص 258).

(2) محمد المكي بن حسين: (1301-1382 هـ = 1883-1963 م): محمد المكي بن الحسين بن علي بن عمر شقيق الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ زين العابدين، باحث لغوي، أديب شاعر. ولد ببلدة نفطة، وفي عام 1893م ارتحل والده وأسرته إلى مدينة تونس العاصمة، وبها حفظ القرآن، وتلقى مبادئ العلوم، ثم دخل جامع الزيتونة وأخذ عن أعلامه إلى أن تخرج منه محرزاً على شهادة التطويع، وفي عام 1912م هاجر مع أسرته إلى دمشق حيث باشر التعليم بمدارسها الابتدائية، وتعرف بأعلام دمشق كخير الدين الزركلي، وسليم الجندي، والشيخ عبد القادر المغربي، ومحمد مبارك الجزائري، ومحمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي. وفي سنة 1920م رجع إلى تونس، وتفرغ للمطالعة والبحث، وهو مغرم بالأبحاث الفنية الدقيقة في اللغة وعادات العرب في الجاهلية، ونشر بعض هذه البحوث في الصحف والمجلات، درس قاموس الفيروز آبادي دراسة متأنية دقيقة، واستخرج منه ما يوافق اتجاهه في البحث عن العادات عند عرب الجاهلية وأدواتهم، من آثاره: (عادات عربية)، (أسماء لغوية)، (نوادير في اللغة). ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ، (138/2).

(3) زين العابدين بن الحسين: (1317-1377 هـ = 1898-1957 م): شقيق الشيخ محمد الخضر والشيخ محمد المكي أصيل بلدة نفطة، ولد بتونس بعد انتقال أسرته إليها، وبها حفظ القرآن، ثم التحق بجامع الزيتونة ومن شيوخه أحمد بيرم، وباحسن النجار، وصالح المالقي، والصادق بن القاضي، ومحمد الطاهر بن عاشور، وتخرج منه محرزاً على شهادة التطويع، ولما هاجر أخوه الشيخ محمد الخضر إلى المشرق، واستقر بدمشق مدة كان معه، فدرس العربية في المدرسة السلطانية، وبقي مقيماً بدمشق إلى أن فارق الحياة. وعندما أنشئت الجامعة السورية التحق بكلية الآداب، ونال شهادة الآداب العليا منها، ثم دُرِّس في مدارس دمشق الرسمية الابتدائية، ثم الثانوية، ثم دور المعلمين وأحيل على التقاعد عام 1950م، وكان لطيفاً فيه دعابة، لطيف المعشر، خفيف الظل، آية في الذكاء مع صلاح ووقار. من مؤلفاته: (المعجم في النحو والصرف)، (المعجم في القرآن)، (المعجم المدرسي). ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ، (136/2).

وأما الأخوات فهنّ: زبيدة، وميمونة، وفاطمة الزهراء، وقد دُفِنَ جميعاً بدمشق.⁽¹⁾

وقد كانت دمشق مُهاجِرَ الأسرة المكوّنة من ثلاثين فرداً ما بين شيوخ وأطفال، تتقدّمهم والدة الشيخ السيدة حلّيمة السَّعدية، وذلك عام 1913هـ، وسبب الهجرة - كما يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني⁽²⁾ - رغبة الإمام في الانتقال إلى الشَّرق بعد أن ضاق عليه الخناق في تونس، وملاحقة سلطات الاحتلال الغاشم له، وحيث مجال عمله هناك أوسع نطاقاً، وسبب آخر هو نظرة المغاربة إلى بلاد الشام - آنذاك - حيث كانوا يدعونها: (الشَّام الشريف).⁽³⁾

وهكذا نرى أنَّ أصول الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - جزائريّة، وإن كان مسقط رأسه بتونس، وهذا شرفٌ وأيّ شرفٍ، وهو ما يحفِّزنا لدراسة هذا العلم، وبذل الجهد في دراسة جهوده العلمية والعملية في الدعوة إلى الله تعالى، وربط الجيل الجديد بأسلافه العظماء، وتذكيرهم بما كانوا عليه من علمٍ وعملٍ، وجهادٍ، وعلوِّ همّةٍ، لتحصل القدوة، وتتم الأسوة.

(1) ينظر: كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 183)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين، (ص 34).
(2) علي الرضا الحسيني: (1351-1445هـ = 1932-2023 م): هو الأستاذ المحامي علي الرضا بن زين العابدين الحسيني، ابن أخ الإمام محمد الخضر حسين، ولد في مدينة دمشق، ونشأ في رعاية وعناية والده الفقيه اللغوي زين العابدين بن الحسين التونسي، أخذ بداية علومه صغيراً في أحد الكتاتيب القرآنية، ثم ترقّى في المدارس النظامية، حتى تخرّج بكلية الحقوق بجامعة دمشق سنة 1964م، عمل في مهنة المحاماة سنة 1965 م، وطلب إحالته على التقاعد سنة 2002 م ليتفرغ للبحث والعمل الثقافي، كان له اهتمام خاص بجمع آثار أقرابه العلماء العلمية والأدبية، وتحقيقها والعناية بها ونشرها، منها: الأعمال الكاملة لعمه الإمام محمد الخضر حسين؛ الأعمال الكاملة لوالده العلامة زين العابدين بن الحسين التونسي. ينظر: تصدير موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ الخضر، المقدمة (ص 35).
(3) ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين بالجزائر، (ص 35).

المطلب الثاني: حياة العلامة محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - العلمية والعملية.

أولاً/ نشأته العلمية.

نشأ الشيخ محمد الخضر حسين في كنف تلك العائلة الكريمة، عائلة العلم والثقافة، والدين والأدب، وكانت بلدته (نفطة) ذات الواحات الجميلة، والمياه الصافية المتدفقة مقررًا للعلم والعلماء، فكانت تُسمَّى بالكوفة الصغرى، تشبيهاً لها بمدينة الكوفة المركز العلمي الشهير بالعراق، وكان بها عددٌ كبيرٌ من الجوامع والمساجد يتجاوز الأربعين، وكان أغلبها مواطن علم يُتلى فيها كتاب الله، وتُلقى دروس الفقه، والحديث، واللغة، والأدب، ويجتمع فيها العلماء للتدريس والمناظرة.

وكان يسكن في البيوت المحيطة بالمساجد طُلاب العلم الذين كانوا يتوافدون من الجزائر خاصةً، ومن أنحاء القطر التونسي، من أجل التحصيل العلمي، ولم يكن طالب العلم القادم إلى (نفطة) يخشى الحاجة الماديّة؛ إذ كان يتكفّل بمساعدته وإعالتة عائلةٌ من العائلات المجاورة للجامع، حيث لم تكن هناك أوقافٌ يُنفقُ منها على طُلاب العلم.⁽¹⁾

وكانت برامج الدِّراسة تتمثّل في حفظ القرآن الكريم، والفقه، والتوحيد، والحديث، ومتون اللُّغة، والصِّرف والنَّحو.

وقد أشار الشيخ محمد الخضر إلى تأثره بالإطار الأدبي الذي كان موجوداً في (نفطة) منذ طفولته، فقال في مقدِّمة ديوانه الشعري "خواطر الحياة": "نشأتُ في بلدةٍ من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها (نفطة)، وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحاتٌ تهبُّ في مجالس علمائها، وكان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقْتُ طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت في سنِّ الثانية عشرة نظم الشِّعر".⁽²⁾

(1) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 18-19)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 33).

(2) مقدمة خواطر الحياة، (ص 7).

ولا ريب أنَّ من يأتي على رأس أولئك العلماء الأدباء أستاذه وخاله العلامة محمد المكي بن عزوز - رَحِمَهُ اللهُ -، والذي كان مهتمًا به اهتمامًا خاصًا، ويرعاه رعايةً كاملةً، كما كان لأُمِّه السَّيدة حليلة السَّعدية دورًا هامًا في تلقينه وسائر إخوانه علوم الشريعة، واللُّغة، وتحفِزهم على طلب العلم، والرحلة إليه، وتحرك أشواقهم بالحديث عن الأزهر، ومما ذكره الشيخ محمد الخضر عن أُمِّه أنَّها كانت تداعبه في صغره وتقول له:

إِنْ شَاءَ اللهُ يَا أَحْضَرَ تَكْبَرُ وَتَرْوُحُ الْأَزْهَرَ⁽¹⁾

وبعد ما يقرب من ثمانٍ وسبعين سنةً يصبح ذلك الوليد إمامًا لجامع الأزهر.

وهكذا تربَّى الشيخ الخضر في هذه البيئة العلمية الأدبية، فحفظ القرآن الكريم على مؤدِّبه الخاص الشيخ عبد الحفيظ اللموشي، ودرس بعض العلوم الشرعية واللغوية على عددٍ من العلماء منهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، ولما بلغ السنة الثالثة عشرة من عمره انتقلت أسرته من (نفطة) إلى تونس العاصمة، وذلك في أواخر سنة 1306هـ.⁽²⁾

وقد ذكر الأستاذ محمد مواعده⁽³⁾ أنَّ سبب انتقاله هو حرص العائلة على تمكين الشيخ الخضر وإخوانه من مواصلة الدرس والتَّعلُّم بجامع الزيتونة، حيث كان قبلة طلاب العلم.⁽⁴⁾

(1) أحاديث في رحاب الأزهر، (ص 239).

(2) ينظر: الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي، (ص 40)؛ ومحمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 19-20).

(3) محمد مواعده: (1357-1443هـ = 1938-2022م): هو سياسي وجامعي تونسي، وثاني أمين عام لحركة الديمقراطيين الاشتراكيين بعد أحمد المستيري، عارض الرئيس السابق زين العابدين بن علي الذي سجنه سنة 1995م بسبب مجموعة من الرسائل المفتوحة وجهها له منذ 1994م، واعتقل عديد المرات، ووجهت له تهمة إقامة علاقات استخبارية مع عناصر في ليبيا، وحكم عليه في 1996م بـ 11 سنة سجنًا بتهمة «التعامل مع الخارج»، ثم صدر بعد ذلك قرار بالإفراج المؤقت عنه، وألغي القرار وسُجن مرة أخرى عام 2002م بتهمة إقامة علاقات مع حزب النهضة المحظور آنذاك. ومن بين مؤلفاته كتاب "قصتي مع بن علي". ينظر: <http://shams-alyaoum.com>

(4) ينظر: الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي، (ص 40)؛ ومحمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 21).

وقد التحق سنة 1307هـ بجامع الزيتونة، ودرس فيه على كبار شيوخه الذين كانوا أعلام ذلك العصر في تونس، كالشيخ سالم بوحاجب⁽¹⁾، وعمر بن الشيخ⁽²⁾، ومحمد الوزير⁽³⁾، وخاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، والشيخ محمد الطيب النيفر⁽⁴⁾، والشيخ محمد النجار⁽⁵⁾.

(1) **السالم بوحاجب**: (1244-1342هـ = 1829-1922م): هو الشيخ سالم بن عمر بوحاجب النبيلي، من أكابر علماء الزيتونة في وقته، تولى التدريس بجامع الزيتونة ثم الفتيا سنة 1323هـ، ثم عُيِّنَ كبيراً لأهل الشورى المالكية، له شرحٌ على ألفية ابن عاصم في الأصول، ورسائل وتقريرات على البخاري، واشترك مع خير الدين باشا التونسي في تحرير كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، وله نظمٌ جيدٌ، وقد ترجم له الشيخ محمد الخضر حسين ترجمةً وافيةً عنوانها: "سالم بو حاجب آية من آيات العبقرية". ينظر: والأعلام للزركلي، (71/3).

(2) **عمر بن الشيخ**: (1239-1329هـ = 1824-1911م): هو الشيخ عمر بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن قاسم المعروف بابن الشيخ، ولد بقرية تسمى (المائلين)، نشأ بتونس العاصمة، ودخل جامع الزيتونة سنة 1259هـ فتلقى العلم عن أكابر العلماء، واشتدَّ ساعده حتى جلس للتدريس بجامع الزيتونة سنة 1266هـ، وكان أسلوبه من أنفع الأساليب في التدريس، وبقي كذلك حتى عام 1324هـ حيث تنازل عن التدريس للمتطوعين. ينظر: تونس وجامع الزيتونة للشيخ الخضر، (ص 140-145).

(3) **محمد الوزير**: (1240-1325هـ = 1825-1907م): هو محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب ابن الوزير محمد بن محمد بوعثور الصفاقسي التونسي، وزيرٌ، من العلماء الكتاب، أصله من صفاقس، من بني الشيخ عبد الكافي العثماني (نسبة إلى عثمان بن عفان)، ومولده ووفاته بتونس، ولي الكتابة في حكومتها سنة 1262هـ، وتقدَّم فكان كاتباً خاصاً لأسرار الملك، وأحد أعضاء مجلس الشورى الخاص، وكانت الخطب الملكية والرسائل الهامة والمنشورات كلها من إنشائه، تقلَّد منصب الوزارة الكبرى سنة 1300هـ فقام بالأعباء قيماً حسناً. ينظر: تونس وجامع الزيتونة للشيخ الخضر، (ص 111-114)؛ والأعلام للزركلي، (267/6-268).

(4) **محمد النيفر**: (1276-1330هـ = 1860-1912م): هو محمد بن محمد الطيب بن محمد النيفر، أبو عبد الله، أديبٌ تونسيٌّ، من بيت علم وقضاء، مولده ووفاته بتونس، تعلم في جامع الزيتونة، وتولى بعض المناصب، له "عنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم أديب"، و"حسن البيان عما بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران". قال في ترجمة جدّه محمد النيفر: ينتهي نسبه إلى أحد أسباط أبي العباس أحمد الرفاعي الحسيني، ترامت بسلفنا الأوطان إلى أن قطن جدنا (صفاقس) ثم انتقل إلى تونس في حدود سنة 1110هـ. ينظر: والأعلام للزركلي، (77/7).

(5) **محمد النجار**: (1255-1331هـ = 1840-1912م): هو العلامة أبو عبد الله محمد بن عثمان بن محمد النجار، ودخل جامع الزيتونة سنة 1270هـ، وبدأ التدريس به سنة 1272هـ، وتولَّى منصب الإفتاء سنة 1312هـ، له مؤلفات منها: "مجموعة إملاءات على أمّهات أحاديث صحيح البخاري"، و"مجموع الفتاوى" ثمانية مجلدات. تونس وجامع الزيتونة للشيخ الخضر، (ص 120-122).

وقد قرأ على هؤلاء العلماء وغيرهم الكثير من الكتب في شتى الفنون، وقد جاء شيء منها في دفتر شهاداته في جامع الزيتونة إبان دراسته، ومن ذلك: قراءته كتاب قطر الندى لابن هشام، والكفاية، وشرح المكودي على ألفية ابن مالك بتصحيح الشيخ محمد صالح الشريف، والأربعين النووية، وقصيدة "بانت سعاد"، والخزرجية في العروض، ومقامات الحريري، والجزرية في التجويد بتصحيح الشيخ محمد المكي بن عزوز، ولامية الأفعال، والأشموني، والمطالع القطرية، ومختصر السعد تصحيح الشيخ إسماعيل الصفايحي، والسمرقندية بشرح الملوي، وإيساغوجي، والخبيصي على التهذيب تصحيح الشيخ مصطفى بن خليل، والدردير على مختصر خليل بتصحيح الشيخ محمد المكي بن عزوز، والحلي على جمع الجوامع تصحيح الشيخ مصطفى رضوان، والوسطى والبيقونية بشرح الزرقاني تصحيح مصطفى بن خليل، والمطول والتاودي على العاصمية - الشامية - تصحيح الشيخ أحمد بوخريص، والشفاء بشرح الشهاب تصحيح الشيخ محمد جعيط، وشرح القطب على متن الشمسية تصحيح أحمد بن مراد، وغيرها كثير⁽¹⁾.

ولم يقتصر الشيخ الخضر على الدراسة الزيتونية فحسب، بل تابع دروسه باهتمام، وكان يحضر بعض حلقات الدروس الأخرى زيادةً على البرنامج الأصلي، رغبةً في التعمُّق والاطِّلاع، وقد كان الشيخ محلَّ رعايةٍ خاصَّةٍ من طرف جُلِّ الشيوخ المدرِّسين، وخاصَّةً البارزين منهم؛ نظرًا لما لمسوه فيه من النِّجَابَةِ، والنبوغ، والألمعية، ولَمَّا لحاله الشيخ محمد المكي بن عزوز من المكانة والشهرة، حيث كان يلقي دروسًا بجامع الزيتونة تطوُّعًا، وكانت أكثر الدُّروس شهرةً، ويحضرها بعض الشيوخ، وعددٌ كبيرٌ من الطُّلاب⁽²⁾.

ينظر: الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي، (ص 42)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 33)، وقد ترجم الشيخ الخضر لهؤلاء العلماء في كثيرٍ من مؤلفاته، خاصةً كتابه "تونس وجامع الزيتونة".

(1) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 78-160).

(2) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد موعده، (ص 25).

هذا وقد تأثر الشيخ محمد الخضر بعددٍ من شيوخه العلماء، وأبرزهم الشُّيوخ الثلاثة: الشيخ سالم بوحاجب، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ مُحَمَّد النَّجَّار. (1)

ثمَّ إِنَّ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - لم يكن ليتوقَّف عن طلب العلم، والاستزادة من المعرفة، بل واصل مسيرته العلمية، وكان حريصًا على تنقيف نفسه حتى بعد أن صار عالمًا يُشارُ إليه بالبنان، ومن مظاهر ذلك أنَّه عندما هاجر إلى (الآستانة) شرع في تعلُّم اللغة التُّركية حتى فهمها، وتدرَّب على قراءة صحفها. (2)

ولمَّا كان في ألمانيا إبَّان الحرب العالمية الأولى اغتنم فرصة وجوده هناك فتعلَّم اللغة الألمانية حتى أتقنها، وأصبحت له القدرة على الفهم والإفهام، وأسهم في ترجمة بعض كتبها إلى اللغة العربية، ودرس المجتمع الألماني، وعاداته، وأحواله، وأخلاقه، ودرس علوم الكيمياء والطبيعة على يد البروفيسور الألماني (هارد) أحد العلماء المستشرقين. (3)

ولمَّا رحل إلى مصر واستقرَّ بها بدأ يشعر أنَّه بحاجةٍ إلى تعلُّم اللغة الفرنسية وقد تجاوز عمره السبعين، واشتدَّت رغبته في ذلك عندما أصبح عضوًا في جبهة الدِّفاع عن شمال أفريقيا؛ حيث تردُّ على هذه المنظَّمة بالقاهرة صحفٌ من الشَّمال الأفريقي وغيره باللغة الفرنسية، وفيها من الأبحاث ما يقتضي الاطلاع، فبحث عن مدرِّسٍ مصريٍّ لهذه اللُّغة، واتفق معه على إعطاء درسٍ كلَّ يومٍ بمقابلٍ ماليٍّ، وذلك بمقرِّ جمعية الهداية، وكان ذلك سنة 1948م، إلى أن أصبح قادرًا على القراءة والمطالعة بها. (4)

فهذه لُمعٌ من سيرته في تلقِّيه للعلم، وحرصه على الإفادة طيلة مراحل حياته.

(1) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 26).

(2) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 191).

(3) ينظر: جبهة الدفاع عن أفريقيا الشَّمالية، (ص 16-17)؛ والإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 191).

(4) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 191-192).

ثانيًا/ حياته العملية:

ارتأى الدّارسون لسيرة الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل⁽¹⁾، وهذا التّقسيم يُعين على فهم مراحل حياته، ومعرفة الأعمال التي قام بها، والمناصب التي تقلّدها:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة التّونسيّة: وتخصّ سنوات حياته التي قضاها في تونس منذ ولادته، وطفولته إلى تعلّمه وتعليمه، وهي مرحلة يمكن تسميتها بمرحلة التّعلّم والتّكوين، وتمتدّ من سنة 1239هـ-1873م إلى 1331هـ-1912م وهي السّنة التي غادر فيها تونس إلى بلاد المشرق العربي بعد أن طوى في تونس قسمًا مهمًّا وثريًّا من حياته، وكانت سنّة آنذاك تقرب الأربعين؛ حيث تكوّنت شخصيته العلمية، وغزرت معارفه، ونضجت أفكاره، مما جعله يبحث عن مجالات أوسع، وآفاق أرحب.⁽²⁾

وقد قام إبّان تلك المرحلة بأعمالٍ جليّةٍ أهمّها ما يلي:

أولًا/ إصدار مجلة السّعادة العظمى:

والتي تُعدُّ أهمَّ إنجازٍ قام به الشيخ الخضر في مرحلته التّونسيّة، وقد أسّس هذه المجلة في شهر محرّم سنة 1322هـ، وهي أوّل مجلةٍ عربيّةٍ ظهرت في تونس، وكانت نصف شهريّة، وقد صدر منها واحدٌ وعشرون عددًا؛ إذ انقطعت عن الظهور في شهر ذي القعدة سنة 1322هـ.

وكان ظهورها في ذلك الوقت، وفي معمعة الخلافات - كما يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور⁽³⁾ - كطلوع الحكم العادل تنزّهت به المجادلات عن الفحش، وتطهّرت من الهمز

(1) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 58)، وهذا التقسيم يعتمد على الإطار التاريخي والجغرافي، وقد اتّبعه جلُّ من كتبوا عن حياة الشيخ الخضر، كما درج عليه هو نفسه عند حديثه عن أطوار حياته بمناسبة حفل التّكريم الذي أقامه له تلميذه الدكتور عبد الوهاب المالكي عند زيارته إلى دمشق سنة 1973م. ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 10-11).

(2) ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 184).

(3) محمد الفاضل بن محمد الطاهر ابن عاشور: (1327-1390هـ = 1909-1970م): أديب خطيب، مشارك

واللَّمز، وتسامت عن التَّشهير والأذى الشخصي.⁽¹⁾

يقول الأستاذ محمد مواعده معلِّقاً على كلام الشيخ الفاضل بن عاشور: "ويقصد شيخنا ابن عاشور بهذا القول: محاولة مجلة "السعادة العظمى"، وبالتالي صاحبها الشيخ محمد الخضر حسين التعاملَ بهدوءٍ وحرصاً مع الخلاف الذي كان وقتها محتدماً بين الإصلاحيين والمحافظين حول قضايا فكرية ودينية عديدة؛ مما جعل أصحاب التَّيارات وأنصارهم "المتطرفين" يخاصمون المجلة، وصاحبها، باستثناء صديقه الوفي العلامة محمد الطاهر ابن عاشور".⁽²⁾

ثانياً/ تولى القضاء بمدينة (بنزرت):

وذلك بعد انقطاع مجلة السعادة العظمى، حيث تولى إثر ذلك خطة القضاء بـ (بنزرت)، وذلك في ربيع الثاني 1323هـ، وكان للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قسطٌ كبيرٌ في التأثير عليه لقبول هذه الوظيفة.⁽³⁾

وقد تولى - أثناء المدة القصيرة التي قضاها بـ (بنزرت) - الخطابة والتدريس بجامعها الكبير، كما كانت له مجالس علمية وأدبية، لكنَّ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - لم يكن يميل إلى العمل الإداري، بل كانت رغبته دائمةً في مواصلة التَّعلُّم والتَّعليم؛ لأنَّ في ذلك تكويناً متواصلًا لشخصيته، وإسهامه في الإصلاح، ولذا بقي أشهرًا قليلةً متقلِّداً القضاء بمدينة (بنزرت) ثم قدَّم استقالته، وألحَّ على قبولها، وعاد إلى تونس العاصمة لمباشرة التدريس بجامع الزيتونة.⁽⁴⁾

في علوم الدين، من طلائع النهضة الحديثة الناهمين في تونس، مولده ووفاته بها، تخرَّج بالمعهد الزيتوني، وأصبح أستاذًا فيه فعميدًا، وكان من أنشط أقرانه، دؤوبًا على مكافحة الاستعمار، شغل خطة القضاء بتونس، ثم منصب مفتي الجمهورية، وهو من أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة، ورابطة العالم الإسلامي بمكة، طُبِعَ من كتبه "إعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي"، و"الحركة الأدبية والفكرية في تونس" ينظر: الأعلام للزركلي، (326-325/6).

(1) ينظر: الحركة الأدبية والفكرية في تونس للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، (ص 79).

(2) ينظر: ملتنقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 185).

(3) وقد أقام له الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حفلًا بهذه المناسبة، وذلك مساء الخامس عشر ربيع الثاني من عام 1323هـ في داره بضاحية المرسى من الضواحي الشمالية لمدينة تونس، وألقى الشيخ ابن عاشور كلمة جميلة بليغة بهذه المناسبة. ينظر: كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 25-28).

(4) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 37-38).

ثالثاً/ التدريس بجامع الزيتونة:

لَمَّا تَرَكَ الشَّيْخُ الْخَضِرُ الْقَضَاءَ عَادَ إِلَى تُونِسَ الْعَاصِمَةِ خِلَالَ سَنَةِ 1324 هـ - 1906 م، وَبَاشَرَ التَّدْرِيسَ بِجَامِعِ الزَّيْتُونَةِ تَطَوُّعًا، كَمَا كَلَّفَتْهُ إِدَارَةُ الْجَامِعِ بِالْإِشْرَافِ عَلَى تَنْظِيمِ الْمَكْتَبَةِ ضَمَّنَ لَجْنَةً تَكُونُ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الْعَمَلِ، وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُ أَهْتِمَامُ الْإِدَارَةِ وَتَقْدِيرُهَا لِكِفَائَتِهِ؛ لِأَنَّ تَنْظِيمَ مَكْتَبَةٍ عِلْمِيَّةٍ غَنِيَّةٍ بِالْمَخْطُوطَاتِ وَأَمْهَاتِ الْكُتُبِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوَكَّلَ لَغَيْرِ رِجَالٍ عُرِفُوا بِالْعِلْمِ الْغَزِيرِ، وَالْإِطْلَاعِ الْوَاسِعِ.

وَقَدْ وَقَعَ تَعْيِينُهُ أَسْتَاذًا بِالْمَدْرَسَةِ الصَّادِقِيَّةِ، وَانْتَدَبَتْهُ الْجَمْعِيَّةُ الْخِلْدُونِيَّةُ لِئَلْقِيَ دُرُوسًا عَلَى طُلَّامِهَا فِي الْإِنْشَاءِ وَالْبَلَاغَةِ، وَكَانَ - رَحْمَةُ اللَّهِ - مُحِبًّا لَطُلَّابِهِ، حَاضِمًا لَهُمْ عَلَى الْمَطَالَبَةِ بِإِصْلَاحِ التَّعْلِيمِ الزَّيْتُونِيِّ. ⁽¹⁾

رابعاً/ عنايته بمجال الإصلاح التربوي:

وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْمَحَاضِرَاتِ، وَالْمَسَامِرَاتِ، وَالْمَقَالَاتِ، وَلَعَلَّ مِنْ أَجْلِ مَا قَامَ بِهِ فِي الْمِيدَانِ التَّرْبَوِيِّ أَهْتِمَامُهُ بِإِصْلَاحِ التَّعْلِيمِ الزَّيْتُونِيِّ مَذْكَانَ طَالِبًا إِلَى حِينٍ تَخْرُجُهُ وَدُخُولُهُ ضَمَّنَ شَيْوخِ الزَّيْتُونَةِ، وَعِلْمَائِهَا الْعَامِلِينَ عَلَى تَطْوِيرِ التَّعْلِيمِ مَضْمُونًا، وَأَسْلُوبًا، وَمَنْهَجًا.

وَفِي هَذَا الْإِطَارِ شَارَكَ فِي تَكْوِينِ (جَمْعِيَّةِ تَلَامِيذِ جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ) سَنَةَ 1324 هـ مَعَ نَجْبَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَفِي مَقَدِّمَتِهِمُ الْعَلَّامَةُ مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُورَ.

وَخِلَالَ سَنَةِ 1325 هـ انْحَلَّتْ هَذِهِ الْجَمْعِيَّةُ، وَتَكُونَتْ جَمْعِيَّةً جَدِيدَةً بِاسْمِ (الْجَمْعِيَّةِ الزَّيْتُونِيَّةِ)، وَقَدْ تَوَلَّى رِئَاسَتَهَا الشَّيْخُ ابْنُ عَاشُورَ، وَعِضْوِيَّةُ الْعُلَمَاءِ: الطَّاهِرُ النِّيفَرُ، وَمُحَمَّدُ رِضْوَانُ، وَمُحَمَّدُ النُّخْلِيُّ، وَمُحَمَّدُ الْخَضِرُ حُسَيْنُ، وَأَبُو الْحَسَنِ النَّجَّارُ. ⁽²⁾

وَفِي هَذَا الْإِطَارِ الْإِصْلَاحِيِّ التَّرْبَوِيِّ تَنَقَّسَ الْكِتَابُ الْعَظِيمُ "أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ" لِلشَّيْخِ

(1) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد موعده، (ص 39).

(2) ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 186).

ابن عاشور - رَحِمَهُ اللهُ - (1)

المرحلة الثانية: حياته في البلاد السُّورية:

وتمتاز هذه المرحلة بكثرة تنقلاته بين بلدانٍ عربيَّةٍ وأوربيَّةٍ أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث تنقل أثناءها ما بين سوريا، والآستانة، وبرلين، وذلك يمكن أن يُطلقَ عليها مرحلة التَّنْقُلِ والتَّرحالِ، والاكتشافِ، والتَّضالِّ السياسي، وتمتدُّ ثماني سنوات، من سنة 1331هـ - 1912م إلى 1339هـ - 1920م، وهي السَّنة التي غادر فيها سوريا إلى مصر. (2)

أما أعماله في تلك المرحلة فهي ما يلي:

أولاً/ منذ حلوله بالعاصمة السُّورية دمشق، واستقراره عند إخوته وعائلته؛ واصل نشاطه العلميَّ والثقافيَّ بالتَّدریس بالمدرسة السُّلْطانية.

ثانياً/ كان من أبرز الدَّاعين في تلك المرحلة إلى تقوية الروابط بين العرب والأتراك في إطار الأُمَّة الإسلاميَّة. (3)

ثالثاً/ واصل إلقاء المحاضرات في الجامع الأموي، وكتابة المقالات بالصُّحف السُّورية، وقد وجد حَظوةً في الأوساط العلميَّة والثقافيَّة هناك، حيث التفَّ حوله الطُّلاب، ونهلوا من علمه.

رابعاً/ كان حاكم سوريا في تلك المرحلة هو التركي جمال باشا (4) المعروف بتعسُّفه وجبروته،

(1) هذا الكتاب من أعظم ما ألَّف في بابه، وقد كتبه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور عام 1321هـ، وكان عمره آنذاك أربعاً وعشرين سنةً، وقصد من تأليفه إصلاح التعليم العربي والإسلامي، وتكلم من خلاله على العلوم الإسلاميَّة، وتاريخها، وأطوارها، وطرائق تعليمها، وأسباب النهوض والانحطاط العارضين لها، إلى غير ذلك من المباحث الرصينة، والتَّحريرات العالِيَّة، والتحقيقات الرائعة الماتعة التي أودع من خلالها نظراته الثاقبة، وانتقاداته الفاحصة، وملاحظاته التي كانت من أسباب النُّهوض بالتَّعليم في بلاده وغيرها، كلُّ ذلك بأسلوبٍ أحمَدٍ، ولغةٍ عاليَّةٍ، وهو يقع في 267 صفحة.

(2) ينظر: ملتنقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 187).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 188).

(4) **جمال باشا:** (1290-1340هـ = 1873-1922م): هو أحمد جمال باشا الملقَّب بالسَّقَّاح، والي بغداد العثماني، وأحد زعماء جمعية الاتحاد والترقي (الباشاوات الثلاثة) الذي اشترك في ثورة (تركيا الفتاة) عام 1908م والتي

وقد أدخل العديد من العلماء السجن، ومن بينهم محمد الخضر حسين، حيث اعتُقل الإمام مدة ستة أشهر وأربعة عشر يومًا في شهر رمضان سنة 1334هـ - 1916م، وحتى الرابع من شهر ربيع الثاني 1335هـ، ووجهت إليه تهمة الإخلال بأمن الدولة العثمانية؛ لحضوره اجتماعًا خاض فيه المجتمعون بسياسة الدولة، واستفتى فيه أحد المحامين الإمام عن نكث العهد من طاعتها، والخروج عليها، ودعا بعض الحضور إلى تأسيس جمعية للعمل على الانفصال عن الدولة العثمانية. وبرغم أن الإمام من دعاة الوحدة الإسلامية، ولا يرتضي مثل هذه الدعوات، إلا أن السلطة اعتبرت عدم إبلاغها عن الاجتماع تهمةً، وأحالته إلى المجلس العرفي العسكري الذي حكم بالبراءة من حيث النتيجة، وقدم الاعتذار للإمام، وعند إطلاق سراحه بعد ثبوت براءته عاد إلى التدريس والمحاضرات. (1)

خامسًا/ سافر إلى (الآستانة)، وعمل مُنشئًا - أي محرِّرًا - عربيًا بوزارة الحربية.

سادسًا/ كان استقرار خاله وأستاذه الشيخ محمد المكي بن عزُّوز بـ(الآستانة)، والمكانة التي كان يتمتع بها عند العلماء والسَّاسة ساعد الخضر على ثقة الباب العالي (2)، مما جعل السلطة التركية تعهد له مهمةً في ألمانيا التي كانت في الحرب العالمية الأولى حليفة لتركيا ضد فرنسا.

أطاحت بحكم السلطان عبد الحميد الثاني، ثم شارك في الانقلاب العسكري العثماني 1913م، ليشغل بعدها منصب وزير الأشغال العامة عام 1913م، ثم وزير البحرية عام 1914م، وتولى في الحرب العالمية الأولى منصب قيادة الجيش الرابع العثماني، وفي عام 1915م عُيِّن حاكمًا على سوريا وبلاد الشام، وفرض سلطانه على بلاد الشام، وأصبح الحاكم المطلق فيها، وفي عهده أصدر مرسومًا يقضي بإعدام المثقفين العرب في بيروت ودمشق، اغتيل على يد جماعة من ضباط الأرمن بمدينة (تبليسي) بـجورجيا. ينظر: أثر إعدام القادة العرب بأمر جمال باشا على الحركات العربية الانفصالية خلال الحرب العالمية الأولى، للباحثة حفيظة بن دحمان، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد الخضر حمة، الوادي، المجلد (7)، العدد (3)، ديسمبر 2021م.

(1) ينظر: جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا، (ص 12).

(2) الباب العالي: مصطلحٌ استخدم في الخلافة العثمانية، ويقصد به قصر السلطنة، والذي يعني السلطان نفسه. ينظر: الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق لعبد العزيز صالح، (ص 77).

سابعاً/سافر الخضر حسين إلى ألمانيا، واستقر بـ (برلين) صحبة عدد من العلماء المسلمين، منهم: الشيخان: صالح الشريف⁽¹⁾، وإسماعيل الصفايحي⁽²⁾، وكان الهدف من هذه البعثة العلمية: تحقيق رغبة السلطة العثمانية في تكوين تنظيماتٍ ثوريةٍ شعبيةٍ من المغاربة المقيمين بألمانيا ضد الاستعمار الفرنسي في بلدان شمال إفريقيا. وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى صلة

(1) صالح الشريف: (1286-1339هـ = 1869-1920م): ينتسب السياسي الشيخ صالح الشريف إلى عائلة من الأشراف الأدارسة، انتقلت في منتصف القرن الثامن عشر من بجاية إلى تونس، ولد الشيخ صالح الشريف في تونس، ودرس بجامع الزيتونة على يد ثلّة من كبار العلماء من بينهم عمر بن الشيخ، وسالم بوحاجب، سنة 1877م، حصل على شهادة التطويع وانتصب للتدريس بإشارة من شيخه عمر بن الشيخ، شارك في لجنة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة الأعظم برئاسة الشيخ محمد العزيز بوعتور، فكان سيفاً مسلّطاً على مُحاولي الإخلال باستقلال كيان الجامعة الزيتونية، وفي سنة 1906م خرج من البلاد التونسية قاصداً الشرق بنيت الحج مع فكرة راسخة في الاستقرار النهائي بالشرق، فقصد اسطنبول دار الخلافة العثمانية، ووجد سمعته الطيبة وشهرة علمه قد سبقته إليها، فلقى عناية كبيرة من رجال الاتحاد والترقي، وفي سنة 1915م انتقل إلى ألمانيا، وقام بنشاط كبير في سبيل القضية الجزائرية التونسية، وعند حدوث الاضطرابات بتركيا في نهاية الحرب العالمية الأولى انتقل الشيخ صالح الشريف إلى سويسرا، وأقام بمدينة لوزان رفقة عدد من اللاجئين السياسيين أهمهم شكيب أرسلان، إلى أن توفي -رَحْمَةُ اللَّهِ-. ينظر: مقال نضال النخب التونسية من أصول جزائرية في المهجر من خلال وثائق الأرشيف الفرنسي والألماني. "الشيخ صالح الشريف التونسي أنموذجاً" (1869-1920) قرين مولود، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (14)، العدد (01)، جانفي 2023م، (ص 81-82).

(2) إسماعيل الصفايحي: (1269-1336هـ = 1853-1918م): إسماعيل بن محمد حمدة بن حسن إسماعيل القائمي البوسنوي الصفايحي، ولد في مدينة تونس، عاش بتونس، ودمشق، والأستانة، تلقى تعليمه أولاً في الكُتّاب ثم في جامع الزيتونة، وحصل منه على شهادة التطويع، ثم التدريس بطبقيته، ثم انتقل إلى خطة القضاء، كما عهد إليه برياسة اللجنة المكلفة بتنظيم المكتبة الصادقية بجامع الزيتونة، كان من أنشط الدعاة لفكرة الجامعة الإسلامية التي أطلقها السلطان عبد الحميد الثاني الأمر الذي دعا السلطات الاستعمارية إلى التضييق عليه ودفعه إلى الهجرة عن البلاد التونسية حيث سافر إلى دمشق، ومنها إلى اسطنبول سنة 1908م حيث تولى منصب مدرس الحديث بمسجد السلطان أحمد الفاتح، نشط بصلب عدد من الجمعيات الخيرية والسياسية التي كافحت الاستعمار الفرنسي في إطار فكرة الجامعة الإسلامية والولاء للخلافة العثمانية، وكان يؤمن بأهمية الوحدة الإسلامية، وضرورة دعم الخلافة في صراعها ضد العدو الأوروبي، ترك الشيخ الصفايحي قصائد شعرية وكتاباً أسماه "إيقاظ الإخوان لدسائس الأعداء وما يقتضيه حال الزمان"، توفي في الأستانة. ينظر: مقال: من رواد العمل الاستقلالي المغاربي الموحد "الشيخ إسماعيل الصفايحي" لبوبكر صماري، مجلة تاريخ المغرب العربي، المجلد (2)، العدد (1)، (ص 139).

الشيخ الخضر حسين بالأخوين المناضلين: محمد، وعلي باش حامبة⁽¹⁾، واتفاقهم مع بقية المغاربة المقيمين وقتها بـ(الآستانة) وبرلين على ضرورة الدفاع عن الخلافة الإسلامية، ومجابهة الاستعمار الفرنسي، وفي هذا الإطار يندرج تكوين (اللجنة التونسية الجزائرية) التي وجهت إلى مؤتمر الصلح المنعقد بباريس سنة 1917م تقريراً مفصلاً تحت عنوان: (مطالب الشعب الجزائري التونسي)، وبإمضاء مجموعة من المناضلين المغاربة، منهم: محمد باش حامبة، محمد الخضر حسين، صالح الشريف.⁽²⁾

ثامناً/ عندما سقطت تركيا في أيدي الحلفاء، عاد الشيخ الخضر صحبة عدد من زعماء الحركة الإسلامية من ألمانيا إلى (الآستانة)، ومنها إلى دمشق، وقد أثر هذا الحدث في نفسه التأثير البالغ؛ لما كان يعلّقه من آمال عريضة على الباب العالي في مساعدة القضايا الوطنية التحريرية بالعالم العربي، وخاصةً بشمال إفريقيا، وكذلك لما كان يؤمن به من ضرورة تقوية الخلافة؛ لما في ذلك من دعمٍ للدين الإسلامي، وتقوية له.⁽³⁾

تاسعاً/ عند عودته إلى دمشق واصل نشاطه العلمي والثقافي والإعلامي، كما وقع تعيينه عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق، الذي عقد جلسته الأولى يوم 30 جويلية 1919م، وبقي عضواً عاملاً بهذا المجمع مدة إقامته بالعاصمة الشورية، ثم أصبح عضواً مراسلاً عند انتقاله إلى القاهرة، واستقراره بها سنة 1920م.⁽⁴⁾

(1) علي باش حامبة: (1296-1336هـ = 1879-1918م): هو: علي بن مصطفى بن علي الشريف باش حامبة -أو حمبة ظاو حانبة- التونسي المولد، التركي الأصل، تعلم في جامع الزيتونة، ودرس الحقوق بباريس، وعاد محامياً، فأنصرف إلى تأليب الشعب للتحرر من الحكم الفرنسي، وألف حزب (تونس الفتاة) سنة 1907م متأثراً بفكرة حزب (تركيا الفتاة)، وعمل على توحيد المغرب العربي في الكفاح، وأجاد عدة لغات، وأصدر صحفاً أولها (التونسي) بالعربية والفرنسية سنة 1907م، توفي بالآستانة، ونقل رفاته إلى تونس في 1962م. ينظر: الأعلام للزركلي، (5/22-23).

(2) ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 188-189).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 189-190).

(4) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 71)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 190).

عاشراً/ استمرَّ في نشاطه العلمي، ومساندة الخلافة إلى أن احتلَّ الجيش الفرنسي سوريا إثر معركة (ميلسون) ⁽¹⁾ عام 1920م، فأصبحت إقامة الشيخ الخضر في دمشق معرضةً للخطر؛ إذ هو متابعٌ من قِبَل السلطات الفرنسية من تونس، ثم لنشاطه السياسي بـ(الآستانة) وبرلين؛ لذا قرَّر الانتقال إلى مصر، والاستقرار بها. ⁽²⁾

المرحلة الثالثة: وهي حياته في البلاد المصرية: وتشمل حياته التي قضاها في مصر، واستقرَّ بها نهائياً، وتمتدُّ من سنة 1339هـ-1920م إلى حين وفاته سنة 1377هـ-1958م، ويمكن أن تُسمَّى هذه المرحلة **مرحلة المجد الثقافي والعلمي** - كما يسمِّيها الشيخ محمد الفاضل بن عاشور - ⁽³⁾، وهذه المرحلة تُعدُّ أغزر مراحل حياته إنتاجاً علمياً، وثقافياً، وإعلامياً، وفكرياً، وأبرزها مكانةً وشهرةً.

وبرغم هذه الأهمية لتلك المرحلة، وكثرة أعماله فيها، فإننا نكتفي بالإشارة إلى ما يلي:

أولاً/ تنقسم هذه المرحلة إلى ثلاث فترات:

أ - ما قبل توليه مشيخة الأزهر (1920م - 1952م).

ب - مدَّة تولَّيه مشيخة الأزهر (1952م - 1954م).

(1) **معركة ميسلون:** هي معركة قامت بين قوات من المتطوعين السوريين بقيادة وزير الحربية يوسف العظمة من جهة، وقوات الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال ماريانو غواييه من جهة أخرى في 24 يوليو 1920م في منطقة (ميسلون) غربي مدينة دمشق على الطريق الواصل بينها وبين مدينة بيروت، دارت المعركة بين جيش من المتطوعين السوريين عدده 3000 مقاتل من جهة، وجيش فرنسي قوامه 9000 جندي ومزود بطائرات ودبابات ومدافع وإمدادات من جهة أخرى، حُسمت نتيجة المعركة بسرعة، إذ قدر عدد الخسائر بين قوات المتطوعين السوريين بنحو 400 قتيل و1000 جريح، أما عدد قتلى الجيش الفرنسي فهو (حسب الأرقام الفرنسية) 42 قتيل و154 جريح، شارك في معركة ميسلون عدد من أعلام دمشق، من أبرزهم محمد سعيد برهاني إمام وخطيب جامع التوبة في دمشق وشيخ الطريقة الشاذلية. ينظر: الموسوعة التاريخية لموقع الدرر السنية، مرفوع على الشاملة، (363/9).

(2) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 72)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 190).

(3) ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 190).

ج - بعد استقالته من الأزهر (1954م - 1958م).

ثانياً/ منذ أيامه الأولى في القاهرة كان معتمداً على الله وحده، حيث لم يكن له قريب، أو والد، أو ولد، أو أخ، أو حزب، أو أسياع، أو عشيرة، فكان -خصوصاً في أيامه الأولى- وحيداً بعيداً عن الأهل، والأقارب، والأصدقاء، ومع ذلك تحمّل مرارة الغربة، والوحدة، فكان أنسه بالله، وتوكله عليه؛ حيث تحمّل الأتعاب والمشاق، إذ كان ذا شخصية قوية، ونفس كبيرة أبيّة ترنو إلى خدمة الإسلام، والذبّ عن حياضه⁽¹⁾، كما عبّر عن ذلك بقوله:

أَنَا لَوْلَا هِمَّةٌ تَحْدُو إِلَيَّ خِدْمَةَ الْإِسْلَامِ آثَرْتُ الْحِمَامَا⁽²⁾

وقوله:

وَلَوْلَا ارْتِيَا حِي لِلنِّضَالِ عَنِ الْهَدَى لَفَتَّشْتُ عَنْ وَادٍ أَعِيشُ بِهِ وَخَدِي⁽³⁾

ثالثاً/ منذ أيامه الأولى قام بالاتصال بالطلبة المغاربة بالجامع الأزهر.

رابعاً/ حصل على وظيفة مصحّح، ومراجع للنصوص بدار الكتب المصرية، بواسطة صديقه الحميم أحمد تيمور باشا -رَحِمَهُ اللهُ-.

خامساً/ خلال السّنوات الأولى من هذه المرحلة ساهم في تأسيس (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية) التي تألّفت من عدة شخصيات مغربية؛ من تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا، وقد تحمل مسؤولية رئاستها. وكان هدفها الرفع من مستوى هذه الجاليات مادياً واجتماعياً وثقافياً، وقد استمرّ اهتمامه بالمغرب العربي، وقضاياه طيلة حياته.⁽⁴⁾

(1) ينظر: كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 69)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 191).

(2) خواطر الحياة، (ص 233).

(3) المرجع السابق، (ص 91).

(4) ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 191-192).

سادساً/ كانت له إسهاماتٌ مهمّةٌ وفاعلةٌ في المناظرات، والصراعات الفكرية والأدبية خلال هذه المرحلة المصرية، وأبرزها:

1- تأليفه كتاب "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" الذي ردّ به على الشيخ علي عبد الرازق عام 1343هـ-1925م، إثر صدور قرار إلغاء الخلافة في مارس 1924م، فكان لهذا الكتاب الصدى الكبير في العالم الإسلامي عامّةً، وفي مصر خاصّةً، كما نال به حظوةً متميّزةً عند الملك فؤاد ملك مصر.

2- تأليفه كتاب "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" الذي ردّ به على الدكتور طه حسين⁽¹⁾، الصادر سنة 1344هـ-1926م، وقد قال العلامة محمد الفاضل بن عاشور عن هذا الكتاب: "إنّ الدكتور طه حسين يعتبرُ كتاب الشيخ محمد الخضر حسين من أهمّ الردود، وأشدّها حجّةً"⁽²⁾.

سابعاً/ اهتمامه بتكوين الجمعيات في مختلف مجالات الإصلاح الديني، والاجتماعي، والتربوي، والسياسي.

(1) طه حسين: (1307-1393هـ = 1889-1973م): هو طه بن حسين بن علي بن سلامة، الدكتور في الأدب: من كبار المحاضرين، أحدث ضجةً في عالم الأدب العربيّ، ولد في قرية (الكيلو) بمغاغة من محافظة المنيا (بالصعيد المصري)، وأصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكفّ بصره، وبدأ حياته في الأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة، وهو أول من نال شهادة (الدكتوراه) منها سنة 1914م بكتاب (ذكرى أبي العلاء)، وسافر في بعثة إلى باريس فتخرج بالسوربون سنة 1918، وعاد إلى مصر، فأنّصل بالصحافة، وعيّن محاضراً في كليّة الآداب بجامعة القاهرة، ثم كان عميدا لتلك الكليّة، فوزيراً للمعارف، وفي هذه البرهة تمكن من جعل التعليم الثانوي والفني مجاناً. وكان من أعضاء المجمع العلمي العربيّ المراسلين بدمشق ثم رئيساً للمجمع اللغة بمصر، وأقبل الناس على كتبه، ومن المطبوع منها: "في الأدب الجاهلي"، و "في الشعر الجاهلي"، و "حديث الأربعاء"، توفي سنة 1973م. ينظر: الأعلام للزركلي، (231/3-232).

(2) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 76 و 170)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 193).

ومن ذلك: (جمعية الشُّبَّان المسلمين) التي اشترك في تأسيسها مع صديقيه أحمد تيمور باشا، والعلامة محب الدين الخطيب⁽¹⁾ سنة 1326هـ-1927م، وكان الغرض من تأسيسها التعريف بالإسلام، والدُّود عن حياضه.

ثم قام بإنشاء (جمعية الهداية الإسلامية) عام 1347هـ-1928م، وضمَّ إليها نخبةً من علماء الأزهر، كالشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر⁽²⁾، والشيخ عبد الحليم النَّجَّار⁽³⁾، كما ضمَّت نخبةً من الشباب والمثقفين.

وأنشأ بها مكتبةً كبيرةً كانت نواتها مكتبته الخاصَّة، وأصدر مجلَّةً تحمل اسم الجمعية، وأنشأ لها فروعاً في الأقاليم، وكانت محاضراته المستمرة فيها، ومقالاته تنشر في مجلَّتها، وقَدَّم في هذه

(1) محب الدين الخطيب: (1303-1389هـ = 1886-1969م) هو: محب الدين بن أبي الفتح محمد ابن عبد القادر بن صالح الخطيب، يتصل نسبه بعبد القادر الجيلاني الحسني: ولد في دمشق، وتعلم بها، وبالأستانة، وشارك سنة 1907م في إنشاء جمعية بدمشق سميت (النهضة العربية)، ورحل إلى صنعاء، ولما أعلن الدستور العثماني 1908م عاد إلى دمشق، ثم زار الأستانة ومنها قصد القاهرة سنة 1909م فعمل في تحرير جريدة (المؤيد)، ثم قصد العراق، فاعتقله الإنجليز سبعة أشهر، ثم ذهب إلى مكَّة بعد إعلان الثورة العربية سنة 1916م، ثم استقر بمصر سنة 1920م، وعمل محرِّراً في جريدة (الأهرام)، وأنشأ مجلتي الزهراء والفتح، وأنشأ المطبعة السلفية المشهورة. له مشاركات صحفية كثيرة، ومؤلفات منها: "مع الرِّعيل الأول"، و"الحديقة"، و"الخطوط العريضة". ينظر: الأعلام للزركلي، (282/5).

(2) المراغي: (ت: 1371هـ = 1952م): هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي، باحثٌ مصريٌّ، عالمٌ بالتفسير، من دعاة التَّجديد والإصلاح، ممن تولَّوا مشيخة الجامع الأزهر، ولد بالمراغة (من جرجا، في الصعيد)، وتعلم بالقاهرة، وتتلَّمذ للشيخ محمد عبده، وولي أعمالاً منها القضاء الشرعي، وتولَّى مشيخة الأزهر، توفي بالإسكندرية، ودفن في القاهرة. له تأليف منها: "بحث في ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية"، ورسالة في "تفسير سورة الحجرات". ينظر: المرجع السابق، (173/7).

(3) عبد الحليم النَّجَّار: (ت: 1383هـ = 1964م): هو الدكتور عبد الحليم النَّجَّار المصري، من علماء الترجمة، كان مديراً للمركز الإسلامي بواشنطن، وتعلم الألمانية، فترجم عنها كتاب "العربية" للمستشرق (يوهان فك)، وعمل في ترجمة "تاريخ الأدب العربي" ثلاثة أجزاء منه للمستشرق (بروكلمن) فعاجلته الوفاة قبل أن ينجزه. من مؤلفاته: "العقيدة والشرعية في الإسلام" ترجمة عن (كولدزهر). ينظر: الأعلام للزركلي، (284/3).

الجمعية عملاً منظماً مستمراً أوضح من خلاله معالم دعوته، ومنهجه، كما كان يكتب فيها أكابر العلماء والأدباء كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومحمد النيفر. (1)

ثامناً/ صار للشيخ الخضر مكانةً وحضوراً لدى علماء الأزهر؛ نظير نشاطه العلمي، والثقافي، والإعلامي، لذا وقع انتدابه للتدريس في قسم التخصص بهذه المؤسسة العلمية سنة 1927م بصورة مؤقتة، ثم بصورة رسمية سنة 1928م عندما أصبح صديقه الشيخ المراغي شيخاً للأزهر.

وفي هذه المرحلة من حياته العلمية أصدر الأزهر مجلةً باسم (نور الإسلام)، وذلك في محرم عام 1349هـ، فأسندت رئاسة تحريرها إلى الشيخ الخضر، فقام بهذه المهمة ثلاث سنوات، وأرسى قواعد التحرير في تلك المجلة، ونظم شؤونها. (2)

تاسعاً/ تأسس "مجمع اللغة العربية" بالقاهرة بمرسوم ملكي أصدره الملك فؤاد الأول في 14 شعبان سنة 1351هـ - 13 ديسمبر 1932م، ثم صدر مرسوم ثانٍ تمّ بموجبه تعيين الأعضاء العاملين بالمجمع، وكان الشيخ الخضر على رأس هؤلاء، وكانوا عشرين عالماً وأديباً من كبار رجال العلم والأدب في مصر، والعالم العربي، وأوروبا.

وقد ترأس الشيخ محمد الخضر لجنة اللّهجات، وشارك في أعمالٍ عدةٍ بلجان علمية، وألقى العديد من البحوث نشرت بمجلة المجمع؛ كما مثّل هذه المؤسسة في مؤتمرات دولية عديدة. (3)

عاشراً/ في عام 1351هـ أدّى - رَحْمَةُ اللَّهِ - فريضة الحج، وأقيم له بعد عودته من الحج حفلة ترحيب في جمعية الهداية الإسلامية ليلة الجمعة العاشر من محرم 1352هـ، وقد أُلقيت

(1) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 215-216)؛ ومحمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 88 و 93)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 193-194).

(2) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 216)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 194).

(3) ينظر: المراجع السابقة.

القصاص والخطب، منها: كلمة لأحد أعضاء جمعية الهداية الإسلامية وهو الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ⁽¹⁾ الذي ألقى كلمة أثني فيها على الشيخ الخضر، وأبان عن كثير من مناقبه. (2)

حادي عشر/ دخوله هيئة كبار العلماء، إثر تقديمه بحث "القياس في اللغة العربية"، وهي أكبر هيئة علمية في مصر، حيث بلغ درجةً علميةً بارزةً، وذلك نظير ما بذله طيلة السنوات التي قضاها في البلاد المصرية من جهودٍ في خدمة العلم، والدعوة إلى الإسلام، فكان ذلك محلَّ تقدير العلماء.

وخلال مناقشة اللجنة لصاحب البحث، قال الشيخ اللبَّان ⁽³⁾ رئيس اللجنة عبارته المشهورة التي ما زال شيوخ الأزهر يرددونها إلى اليوم: "هذا بحرٌ لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج؟!". (4)

ثاني عشر/ الحدث الأهم في مسيرة الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ -، وهو توليته مشيخة الأزهر، وذلك يوم الأربعاء 27 ذو الحجة 1371هـ الموافق لـ 16 سبتمبر 1952م، حيث زاره في منزله ثلاثة وزراء منهم الشيخ حسن الباقوري ⁽⁵⁾ وزير الأوقاف.

(1) الزرقاني: (ت: 1367هـ = 1948م): هو محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث، وتوفي بالقاهرة. من كتبه "مناهل العرفان في علوم القرآن". ينظر: الأعلام للزركلي، (210/6).

(2) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 200).

(3) اللبَّان: (1287-1361هـ = 1870-1942م): هو عبد المجيد اللبان، فقيه مصري، تعلم في الأزهر، وتولى مشيخة كلية أصول الدين فيه منذ إنشائها عام 1932م إلى وفاته. له كتب مدرسية طبع منها كتاب "السيرة النبوية"، و "دروس الأخلاق الدينية" مختصران. ينظر: الأعلام للزركلي، (150/4).

(4) ينظر: أحاديث في رحاب الأزهر، (ص 199).

(5) حسن الباقوري: (1325-1405هـ = 1907-1985م): هو الشيخ أحمد حسن الباقوري، وزير الأوقاف المصري من سنة 1952 إلى 1959م، وُلد بمحافظة أسيوط لأسرة ترجع أصولها إلى المغرب العربي، التحق بكتّاب القرية، وبعد إتمامه حفظ القرآن التحق بمعهد أسيوط الديني عام 1922م، وحصل منه علي الشهادة الثانوية عام 1928م، ثم

وبعد الترحيب بهم بادره صديقه الباقوري بالقول: "لقد وقع الاختيار عليك لتكون شيخ الأزهر، وقد جئتُ مع زميلِي لنبَلِّغَكَ هذا القرار"، فأبدى الشيخ امتناعاً؛ نظراً لخطورة المهمة وكبرها، ولعجزه البدني، فقد أشرفت سنُّه على الثمانين، وهو الشيخ الذي أُحيل على التقاعد سنة 1950م بعد مدَّةٍ من التدريس في الأزهر دامت عشرين عاماً.

ولكن الوزير الباقوري رفض قائلاً: "هذا أمر تجنيدٍ، وفي هذا العهد المبارك تُجَنَّدُ الكفاءات النَّزيهة لخدمة مصر"، وعند ذلك قبل هذه المسؤولية الجديدة، وأجاب: "وأنا لا أهرب من الجندية، وليوقِّعنا الله". (1)

ولمَّا ولي الشيخ الأخضر هذا المنصب قام بالأزهر خير قيامٍ، وكان في ذهنه برنامجٌ إصلاحِيٌّ، لكن رجال الحكم لم يتركوا الشيخ يعمل في هدوءٍ، فوضعوا العراقيل في طريقه، ولمَّا

التحق بالقسم العالي، وحصل منه علي شهادة العالمية النظامية عام 1932م، ثم حصل علي شهادة التخصص في البلاغة والأدب عام 1936م، وبعد تخرجه عُيِّنَ مدرِّساً للغة العربية وعلوم البلاغة في معهد القاهرة الأزهرية، ثم نقل مدرِّساً بكلية اللغة العربية، وبعدها نقل وكيلاً لمعهد أسبوط العلمي الديني، ولم يلبث أن نقل وكيلاً لمعهد القاهرة الديني الأزهرية عام 1947م، وفي سنة 1950م عين شيخاً للمعهد الديني بالمنيا. وللباقوري مسيرة حافلة في العلم والسياسة، وقد بدأ مسيرته الدينية بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين، وتم فصله منها بمجرد قبوله منصب وزير الأوقاف بعد ثورة يوليو عام 1952م، وترشح لعضوية مجلس الأمة وأسَّس جمعية الشبان المسلمين، وللباقوري عدة كتب كان منها: "مع كتاب الله"، و"مع الصائمين"، و"مع القرآن" وكان من دعاة التقريب بين المذاهب الإسلامية. ينظر: مقال: نظرات في تفسير الشيخ أحمد حسن الباقوري للباحث عاطف محمد الخولي، مجلة حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، المجلد (38)، العدد (38)، سنة 2019م، (ص 2595).

(1) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره، (ص 113-114). وقد لقي هذا الاختيار قبولاً كبيراً، وصدى واسعاً في مصر، وغيرها من أقطار العالم الإسلامي عموماً، وتونس على وجه الخصوص، حيث عبَّرَ عن ذلك عددٌ من علمائها، ومنهم الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، حيث قال في نهاية بحثه "امتزاج الأزهر بالزيتونة" الذي قدَّمه في المؤتمر الخامس لجمع البحوث الإسلامية في 1971/2/28م: "وإنَّه ليحقُّ لهذه الحقبة من التاريخ التي تُظَلِّنا أن تفخر بأنَّها التي بلغت فيها الصلات بين الأزهر والزيتونة أوجهاً، فقد احتضن الأزهر إماماً من الأئمة الأعلام، كان أحد شيوخ الزيتونة العظام، وهو الشيخ محمد الخضر حسين، إذ استقر بمصر، وأحرز على شهادة العالمية، وتُسمَّى أستاذاً في قسم التَّخصُّص، وعُيِّنَ في هيئة كبار العلماء، ثم سُمِّيَ شيخاً للأزهر، فكان خير تاجٍ تُوجَّت به الأخوة بين المعهدين في مبلغها الأقصى وذروتها العليا". ومضات فكر للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، (ص 429).

أحسن الشيخ بذلك قدّم استقالته، وواطىء ذلك كبيرُ سنّه إذ تجاوز الثمانين، وتدهورُ صحّته، وخلافاتٌ عديدةٌ بينه وبين مجلس قيادة الثورة، وهو العالم الجليل، صاحب الشهرة الكبيرة، والشخصيّة القويّة التي لا تخشى في الله لومة لائم. (1)

ومما يُذكر له أنّه حينما تولّى مشيخة الأزهر لم يغيّر شيئاً من عاداته، ولم يكن له في شهوات المنصب حظٌّ، وكان دائماً يحتفظ باستقالته في جيبه، ويقول: "إنّ الأزهر أمانةٌ في عنقي، أسلمها - حين أسلمها - موفورةً كاملةً، وإذا لم يتأتَّ أن يحصل للأزهر مزيد ازدهارٍ على يدي فلا أقلّ من ألا يحصل له النقص". (2)

وكان كثيراً ما يردّد: "يكفيني كوبٌ لبنٍ، وكِسرةٌ خبزٍ، وعلى الدُّنيا بعدها العفاء". (3) وهكذا ترك الشيخ مشيخة الأزهر في 2 جمادى الأولى سنة 1373 هـ الموافق لـ 1954/1/7م، وقال حينها: "إن كانت جنةٌ فقد دخلتُ فيها، وإن كانت ناراً فقد خرجتُ منها". (4)

وكانت سنّه إذ ذاك تقرب من إحدى وثمانين سنةً، وبعدها انزوى بمنزله إلى كتبه المحبّبة إلى نفسه، وقد أنهكه الإعياء، ولم يبق له من المهام العلمية سوى عضوية المجمع اللغوي، وعضوية جمعية كبار العلماء، كما لم ينقطع عن كتابة البحوث، والمقالات في بعض المجلّات، ولا عن مجالسه العلمية المفيدة مع أصدقائه الأدباء والعلماء، كما أنّه كان على اتّصالٍ بأبناء وطنه الأصلي تونس الذين كانوا يقيمون في مصر. (5)

(1) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 216-217).

(2) ينظر: المرجع السابق، (ص 217).

(3) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 217).

(4) أحاديث الأزهر، (ص 240).

(5) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد موعده، (ص 116-118).

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في شخصية العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ

لعلَّ من المفيد جدًّا في دراسة شخصيّة علميّة ما، وجهودها الدّعوية والإصلاحية أن يُنظر إلى الظروف والأحوال التي نشأت فيها، والعوامل التي تركت أثرًا عميقًا في نفسها، وفكرها وسلوكها، فذلك مما يُعين على القراءة الصّحيحة، والفهم السّليم للآراء والمواقف والجهود؛ فالبيئة والظُّروف التي ينشأ فيها الإنسان لا يمكن أن تكون بمعزلٍ عن تأثره بها، وتأثيره فيها، خصوصًا إذا كان ذا مكانة علميّة، أو سياسية، أو اجتماعيّة.

وقد مرَّ عند الحديث عن أعمال الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - أنّه يمكن تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل: المرحلة التونسية، والمرحلة السورية، والمرحلة المصرية، أمّا المرحلة السُّورية فهي قصيرة بالنسبة للمرحلتين الأولى والثالثة، وقد تخلّلتها - كما تقدّم - تنقُّلٌ وترحالٌ، لذا فإنَّ دراسة العوامل المؤثِّرة في نشأة الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - تبدأ من دراسة عصره، والتي ستتناول حال العالم الإسلاميِّ عمومًا، وحال البلاد التونسية التي عاش فيها زهاء أربعين عامًا، وحال البلاد المصرية التي عاش فيها ثمانية وثلاثين عامًا، وأضرب صفحًا عن ذكر المرحلة الثانية لما سبق بيانه.

والذي يعني من ذلك ليس مجرّد التأريخ لمرحلة مرّت بها البلاد المذكورة، وإنّما المقصود من ذلك بحثٌ لنوعية الفترة بأحداثها، وتطوّراتها، ليُستخلصَ من ذلك ما تركته تلك الأحداث والتطوّرات من آثارٍ على شخصيّة الشيخ الخضر، تأثّرًا وتأثيرًا.

المطلب الأول: حال العالم الإسلامي.

الحديث عن العالم الإسلامي في تلك المرحلة يقتضي أن يكون عن الدولة العثمانية؛ إذ هي دولة الخلافة، والعالم الإسلامي آنذاك ينضوي تحت لوائها خصوصاً البلاد العربية، فالدولة العثمانية عندما بسطت خلافتها على تلك البلاد كانت وصلت إلى أوج قوّتها، وأقصى حدود اتّساعها؛ ذلك أنّ طور الفتوحات والتّوسّع في هذه الدولة قد بلغ مداه في عهد السُّلطان العاشر سليمان القانوني، أو كما يسمّيه الأوروبيون "سليمان العظيم".⁽¹⁾

ويبدو أنّ الدّولة العليّة قد انقطعت أنفاسها عندما وصلت إلى أسوار (فيّنّا)، فلم تتوسع بعد ذلك توسّعاً يُذكر، بل بدأ الضعف يدبُّ إليها، فأخذت تتقلّص وتراجع شيئاً فشيئاً، وأخذت تفقد البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى، حيث احتلّت فرنسا الجزائر سنة 1830م، واستولت بريطانيا على اليمن سنة 1839م، وبعد نحو أربعين سنة احتلّت فرنسا تونس سنة 1881م، واحتلّت بريطانيا مصر سنة 1882م، وبعد ثلاثة عقود استولت إيطاليا على ليبيا سنة 1912م، وفي الأخير خرجت بقية البلاد العربية عن حوزة الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى التي امتدّت من عام 1914م-1918م.⁽²⁾

وهكذا بدأت أحوال الدولة العثمانية في الاختلال شيئاً فشيئاً، وذلك منذ عهد سليمان القانوني في أواخر القرن السادس عشر ميلادي، وأوّل بداية ذلك الاختلال كان في نظام الإنكشارية⁽³⁾ الذي تحوّل في آخر الأمر إلى آلة فوضى وفساد.⁽⁴⁾

(1) ينظر: تاريخ الدولة العثمانية العليّة لإبراهيم حليم، (ص 87)؛ والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر، (104/8).

(2) ينظر: البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري، (ص 9-12).

(3) الانكشارية: هم جنّد أنشأه العثمانيّون على نظامٍ خاصٍّ، وأكثرهم نصارى من غلمان البلاد المفتوحة الذين فقدوا أهليهم، فرّباهم الأتراك تربية إسلامية عسكرية؛ ليكونوا جنّداً لهم، دون أن يكون لهم عصبية جنسية، أو دينية، وكان لهذه الفرقة تقسيم وتنظيم خاصّ ليس له مثيل، ولكنهم -في نهاية أمرهم- تمرّدوا، وفسدت طبيعتهم، وتغيّرت أخلاقهم، وصاروا مصدر قلق، وأصبحوا يتدخلون في شؤون الدّولة، وتعلّقت أفئدتهم بشهوة السُّلطة، وانغمسوا بالملذّات والحزّرات، فصاروا إلى حالة من الضعف والانحطاط، فكانت نهايتهم على يد السُّلطان محمود الثاني عام 1241هـ. ينظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السُّقوط لعلّي الصّلابي، (ص 340).

(4) ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان، (ص 539)؛ والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر، (112/8).

وتبع ذلك فسادُ أمور الإدارة بوجهٍ عامٍّ، وضعفت لذلك الحكومة المركزية، وكان من الطبيعي أن يؤدِّي هذا النظام إلى نتائج سيِّئة؛ لأنَّه يفسح المجال أمام الولاة ومطامعهم؛ فالحكومة المركزية تميل أحياناً إلى استرضاء الوالي، وثبقيه في منصبه تحت بعض الشروط، وتجنح أحياناً إلى الشدَّة، وتأمر ولاية الولايات المجاورة بإرسال حملاتٍ عسكريَّةٍ؛ لتأديبه وإخضاعه لأوامر السلطنة، والوالي الذي ينجح في الحركة التَّأديبيَّة بناءً على أوامر السُّلطة كثيراً ما يطالب الحكومة بأن تكافئه على عمله، إمَّا بإقطاعه بعض المقاطعات الغنيَّة، وإمَّا بتولية أحد أبنائه أو أقاربه. (1)

والوقائع التي حدثت في مصر في عهد محمد علي باشا شاهدٌ على ذلك، فهي دليلٌ على الحالة التي وصلت إليها الدَّولة العليَّة، إذ لا يمكن أن نفهم تلك الأحداث على حقيقتها ما لم تُؤخذ بنظر الاعتبار حالة الدولة العثمانية يومئذٍ.

ففي بدايات القرن السابع عشر الميلادي كانت حالة الدولة العثمانية قد بلغت أشدَّ حالات فسادها، بينما كانت أوروبا تتقدم في كل النواحي المدنية؛ لذلك دعا بعض المفكرين العثمانيين بضرورة الاستفادة من التَّقدُّم الغربي الأوروبي؛ لضمان المحافظة على وحدة الدولة العثمانية، وعلى دوامها واستمرارها.

ومن ثَمَّ أصبحت البلاد أمام بداية حركةٍ إصلاحيةٍ تستلهم من الغرب، وأول حركةٍ إصلاحيةٍ بهذا المفهوم كانت في عهد السلطان أحمد الثالث. (2)

(1) ينظر: السلطان عبد الحميد الثاني لمحمد حرب، (ص 24-33).

(2) السلطان أحمد الثالث: (1083-1149هـ = 1673-1736م): هو السلطان أحمد بن الخليفة محمد بن إبراهيم، السلطان الثالث والعشرون من سلاطين الدولة العثمانية، تولى الخلافة عام 1115هـ وكان عمره حينئذ اثنين وثلاثين سنة، سار مع آراء الإنكشارية في أول الأمر حتى إذا تمكن اقتص من قادتهم، نشأ السلطان أحمد محباً للموسيقى والفن، كما كان شاعراً وخطاطاً، وفي عهده تطلَّع العثمانيون نحو أوروبا الناهضة بانبهارٍ شديد، وكان هو في طليعة النخبة العثمانية التي راحت تُقلِّد مظاهر الحضارة الغربية، انتفض الصفويون وقاتلوا العثمانيين لكنهم هزموا وفقدوا عدة مدن، ثم جرى الصلح عام 1140هـ، وحينما تولى الشاه طهماسب طلب من العثمانيين أن يتركوا ما أخذوه فرفضوه فغزاهم، وثارَت الإنكشارية على الخليفة فقتلوا الصدر الأعظم وأمير البحر، ثم عزلوا الخليفة، ونصَّبوا مكانه ابن أخيه محمود الأول ابن مصطفى الثاني وذلك عام 1143هـ، وبقي أحمد معتزلاً حتى وفاته. ينظر: ينظر: تاريخ الدولة العثمانية العليَّة لإبراهيم حليم، (ص 158)؛ والسلطان عبد الحميد الثاني لمحمد حرب، (ص 17).

ويُعَدُّ هذا العهد - بحركته الإصلاحية - ابتداءً نفوذ الثقافة الغربية في الدولة العثمانية؛ حيث أخذت الدول الأوروبية تكتسب في بلاد المسلمين ميادين للعلاقات الثقافية بجانب علاقتها السياسية بالدولة؛ لذلك أخذت الدولة بإرسال السفراء إلى (باريس) و(فيينا) بقصد التعرف على أوروبا، وتوالت محاولات السلاطين الإصلاحية في الدولة العثمانية، غير أنَّ تشخيص المرض لم يكن صحيحًا، فلذلك لم يكن الدواء ناجعًا؛ لقد كان تشخيص رجال الدولة للفساد الحاصل على المستوى الديني، والثقافي، والسياسي خاطئًا من الأساس؛ ذلك أنَّ الذي ساد تصوُّره وقتها هو أنَّ الدولة العثمانية تُهزم في الحروب، فالوسيلة الوحيدة -إذًا- لإعادة البنيان تكمن في إقامة جيشٍ قويٍّ فحسب. (1)

لقد قام هذا الجيش نفسه بالتمرد على السلطان؛ نتيجة إنشائه جيشًا قويًّا جديدًا على النظام الأوروبي، وبقيت أحوال الدولة هكذا تتدهور من سيءٍ إلى أسوأ إلى أن جاء عبد الحميد الثاني (2)، وحاول أن يصنع شيئًا آخر به سقوط الدولة ثلاثين عامًا.

إنَّ المرض الحقيقي للدولة العلية لم يكن في جيشها الضعيف، ولكن كان في الفساد العام الذي ضرب بأطنابه على الدولة في تلك الفترة، وأعظم ذلك الفساد فساد دينها الذي دبَّ إليه الضعف، واستشرت فيه الخرافات التي تغلغلت في أرجاء الدولة حتى وصلت إلى رأس الدولة

(1) ينظر: السلطان عبد الحميد الثاني لمحمد حرب، (ص 20).

(2) السلطان عبد الحميد الثاني: (1258-1336هـ = 1842-1918م): هو السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد الأول الذي يُعَدُّ أول سلطان عثماني يضيف على حركة التغريب في الدولة العثمانية صفة الرسمية، وعُرف عهده بعهد التنظيمات، الذي يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، تلقى عبد الحميد تعليمًا منتظمًا في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علمًا وخلقًا، وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ، وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية، جرى تحديث كبير للدولة العثمانية في عهده، واتسمت فترة حكمه بأحداث جسام، فقد تفاقمت الأزمة الاقتصادية في الدولة، واشتد تكالب الدول الاستعمارية بتقاسم أجزاء الدولة العثمانية، فاستولت فرنسا على تونس، وبريطانيا على مصر، وتآمر عليه الصهاينة لأنه رفض التنازل لهم عن شبر واحد من أرض فلسطين، فأبعد عن العرش عام 1909م بتهمة الرجعية، وأقام تحت الإقامة الجبرية في قصر (بكلر بكلي) حتى وفاته. ينظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط لعللي الصَّلاحي، (ص 399)؛ والسلطان عبد الحميد الثاني لمحمد حرب، (ص 105).

العلية.

وهذا الفساد الذي أصاب الدولة العلية سرى أثره إلى بقية العالم الإسلامي، فقد كان يسود العالم الإسلامي يومئذٍ فساد النظام، واستبداد الحكام، لذلك دبَّت الشيخوخة في جسمه بعد أن حطَّمته الحوادث، وأنهكته الفتن والكوارث، وصار المسلم يعاني الفقر، والجهل، والمرض، فحياته الاجتماعية تعسَّة، واقتصاده متدهور، مثقل بالديون، يعاني الفوضى وسوء التدبير، وصار فهم المسلم للإسلام منحرفاً بعيداً عن روح الإسلام الخالص، وقد عمَّ هذا الانحراف مجالات العقيدة، والعبادة، والتشريع، ولم يبق لكثير من المسلمين من دينهم سوى رسومٍ ليست من الإسلام في شيء.

ثمَّ إنَّ الحياة العلمية في البلاد الإسلامية قد بُعِدَتْ عن الاجتهاد والابتكار، وانغلقت على نفسها، واقتصرت على حفظ بعض المتون وشروحها، وأما علوم العصر فقد خلت منها المعاهد العلمية، فتحجَّرت العقول، وتبلَّدت الأفهام، وانتشرت الأوهام والخرافات.⁽¹⁾

وقد اجتمع إلى ذلك كله تضافر القوى اليهودية، والصليبية، وشياطين الماسونية العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية؛ باعتبارها التجسيد الحي للأمة الإسلامية آنذاك، فأخذ الغرب يقطع أجزاءها، وراح يُشعل الثورات داخلها، وحرَّض شعوب (البلقان) على الثورة عام 1804م، وأمدَّهم بالمساعدات حتى انفصلت عن الخلافة سنة 1878م.

كما حرَّض اليونان على الثورة منذ عام 1820م حتى انفصلت عن تركيا عام 1830م، ولم يكتفِ الغرب بذلك، بل شجَّع الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب، وحرَّك الثورة العربية بواسطة عملائه، وأثاروا فتنة القوميات والعصبيات والأقليات بغرض التفرقة والتفتيت.⁽²⁾

(1) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور: حياته وآثاره لبلقاسم الغالي، (ص 87).

(2) ينظر: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - دراسة حول كتاب: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة للشيخ مصطفى صبري - للدكتور مصطفى حلمي، (ص 26-27)؛ والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين، (18/1 و 62).

ثم انتهت حركات التَّطْوِيق والإِغَارَاتِ والتَّفْتِيتِ بإنهاء وجود الدولة الإسلامية في طورها الأخير - أي الخلافة الإسلامية - على يد مصطفى كمال أتاتورك، وقد مهَّد لذلك السُّقُوط ما قام به رأس الرُّمَحِ الموجَّه للقدس بيد (ثيودور هرتزل) الذي ظلَّ ست سنواتٍ كاملاتٍ يحاول بجهد المواصل، ورجاء المتوسِّل الملحَّ أن يتمكَّن من مقابلة السلطان عبد الحميد عام 1901م، ليضع خدمات اليهود تحت تصرِّف الدولة العليَّة؛ تمهيدًا لحصوله من السلطان على تصريحٍ لصالح اليهود. (1)

ومن العروض المغرية التي قدَّمتها (هرتزل) للسلطان عبد الحميد:

- 1- مساعدة السلطان على تشييد أسطولٍ بحريٍّ.
- 2- معاضدته في سياسته الأوروبية.
- 3- إنشاء جامعة عثمانية في القدس تُغني عن الدَّهَابِ إلى جامعات أوروبا، وبذلك لا يتعرَّض الطلبة للزَّعَاتِ الجديدة.
- 4- تحسين أوضاع السلطنة العمرانية.
- 5- عقد قرضٍ ماليٍّ لتغطية تكاليف المشروعات المقرَّرة.

كلُّ ذلك مقابل منح اليهود حقَّ الاستيطان في فلسطين، وإقطاعه جزءًا من أرضها، لكن أخفق (هرتزل) في إقناع السلطة، رغم اعترافه بأنه قدَّم الرشاوي للوزراء والحاشية للتوصل إلى أهدافه. (2)

حينئذٍ أخذ (هرتزل) يتحرَّج الفرص مع السعي الذي لا يهدأ، وكتب يقول: "إنَّ الأمور تتأزَّم في تركيا، إذا ازداد هذا التَّأزُّم بخصوص المسألة الشرقية، وانتهى إلى حدٍّ يقضي بتقسيم تركيا في

(1) ينظر: الأسرار الخفيَّة وراء إلغاء الخلافة العثمانية - دراسة حول كتاب: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأُمَّة للشيخ مصطفى صبري - للدكتور مصطفى حلمي، (ص 28)؛ وجذور البلاء لعبد الله التل، (ص 650).

(2) ينظر: جذور البلاء لعبد الله التل، (ص 150)؛ والقول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد لمحمد وحيد، (ص 227 و262)؛ والمخطَّطات الماسونية العالمية لمحمد أحمد دياب، (ص 85-87).

المؤتمر الأوروبي فقد نتمكن من أخذ قطعة من أرضٍ محايدةٍ لأنفسنا".⁽¹⁾

وكان الأخطبوط الصهيوني يعمل في دأبٍ، مستغلاً أحوال العالم الإسلامي المنهارة؛ ليخطو الخطوة تلو الأخرى، ولهذا نرى تلاحق الأحداث وصلتها ببعض، فقد انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بال) السويسريّة برئاسة (هرتزل) عام 1897م، وتلاه عام 1916م عقد معاهدة (سايكس بيكو) بين بريطانيا وفرنسا؛ لاقتسام بلاد المسلمين التي كانت تابعة للخلافة، وفي العام نفسه قامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين؛ للانفصال عن حكم الأتراك، واستقلال البلاد العربية الباقية تحت الحكم العثماني، فكانت نتيجتها وبالأعلى العرب والمسلمين، وفي عام 1917م صدر الوعد المشؤوم (وعد بلفور)؛ ليمنح اليهود حقَّ إنشاء وطنٍ قوميٍّ لهم في فلسطين، وفي عام 1918م انهزمت تركيا، واحتل الإنجليز فلسطين، وهكذا تفكّكت أجزاء الخلافة، وتقطّعت أوصالها، حتى آلت إلى ما آلت إليه من الانهيار التام.⁽²⁾

فهذه - بإيجازٍ - حال العالم الإسلامي إبّان تلك المرحلة، وهذه الحال ألقت بظلالها على سيرة الشيخ الخضر، فكان له مواقف ستبَيّن في غضون هذا البحث - إن شاء الله -

(1) ينظر: الأسرار الخفيّة وراء إلغاء الخلافة العثمانية لمصطفى حلمي، (ص 28).

(2) ينظر: الأسرار الخفيّة وراء إلغاء الخلافة العثمانية لمصطفى حلمي، (ص 28-29)؛ وخطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية لعبد الله التّل، (ص 230-231).

المطلب الثاني: حال البلاد التُّونسيَّة.

الحديث عن تلك المرحلة من تاريخ تونس يطول، وهو ليس ببعيدٍ - في الجملة - عن حال العالم الإسلامي عمومًا، وليس من غرض هذه الدِّراسة التفصيل في تاريخ تلك الحقبة، وإنما المقصود ذكر أهم ملامحها؛ لاستظهار مدى تأثيرها على الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -.

لا ريب أنَّ أبرز تلك الملامح هو الاحتلال الفرنسي لتونس، وقد سبق ذلك الاحتلال أحوالٌ سياسيةٌ عصيَّةٌ، فقد كانت آنذاك حالة اضطرابٍ وفتنٍ، فالبلاد ترزخ تحت وطأة الديون الخارجية، والعبث، والارتشاء، والفساد، وأثقل التُّونسيُّون بالضرائب، يضاف إلى ذلك ضعف الدول العثمانية، وشيوع الجهل، وعموم الفوضى، وسوء الحالة الاقتصادية، ومن هنا بدأت أطماع الدول الاستعمارية تظهر بصورةٍ سافرةٍ.

وقد برزت دعواتٌ إصلاحيةٌ تنادي بالتهضة الشَّاملة، غير أنَّ تلك الدعوات كانت تصطدم بكثيرٍ من العقبات الداخلية والخارجية، إلى أن بسط الاستعمار الفرنسي نفوذه على تونس. ⁽¹⁾

وكان عمر الشيخ محمد الخضر حسين حين اجتاحت القوات الفرنسية الأراضي التونسية ثمان سنواتٍ، وذلك عام 1881م.

ثمَّ تواصلت بعد ذلك سياسة الفرنسة والإدماج القاضية بطمس معالم الهوية الإسلامية، والسيادة القومية التُّونسية شيئًا فشيئًا، لتغزو ما بقي من أنظمة الحكم والإدارة، وتجعل أبناء البلاد يفقدون كل شيءٍ، خصوصًا بعد أن تدفَّقت جموع الجالية الفرنسية؛ نتيجة أخذ السلطة الاحتلالية بسياسة ترغيب الجاليات الأوروبية الأخرى في اعتناق جنسيتها الفرنسية، واعتبار هذه الجالية تونسَ وطنًا لها.

وفي الفترة من عام 1925م-1926م قامت السُّلطات الفرنسية باتِّخاذ إجراءاتٍ ضد الصحافة، والحرِّيات العامَّة، ولعلَّ من أهمِّ الأحداث التي مرَّت بها مراحل تاريخ تونس إبَّان

(1) ينظر: مهرجان ابن عاشور لبلقاسم حسن، (ص 1)؛ والشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير لها العلي، (ص 35-36).

الاحتلال الفرنسي - هو محاولة فرنسا إغراء التُّونسيين بالتَّجنُّس بالجنسية الفرنسية بعد أن استصدرت السُّلطات الفرنسية فتوى بأنَّ هذا العمل لا يتعارض مع الدين الإسلامي، ثم ما تبع ذلك من وقوف الشَّعب لهذه المحاولات بالمرصاد، واعتباره هذا التجنيس خروجًا عن الدين، وتنكُّرًا للوطن والقومية العربية.

وقد سبق هذه الأحداث بروز تيارين إصلاحيين في تونس، كان لهما الأثر البالغ على الحياة العلمية، والفكرية، والسياسية في تونس، وذلك في العشر سنوات الأولى من القرن العشرين الميلادي؛ حيث امتازت تلك الفترة بحركة ثقافية وسياسية قوية سيطرت على الحياة الفكرية في تونس، وصهرت مختلف عناصر النُخبة المثقفة الموجودة حينئذٍ، سواءً منها من تثقَّف بثقافة عربية صِرْفَةً، وهم خَرَّيجوا جامع الزيتونة، أو من تثقَّف بثقافة مزدوجة: عربية وفرنسية، وهم خَرَّيجوا المدرسة الصادقية⁽¹⁾.

هذا وإن كان هدف هذه الحركة الواسعة واحدًا فإنه يمكن تقسيمها إلى تيارين: تيار الإصلاح الاجتماعي، وتيار الإصلاح السياسي: "أما تيار الإصلاح الديني والاجتماعي فإنَّ جذوره تمتدُّ إلى القرن التاسع عشر، وخاصةً في الرُّبع الأخير منه، عند ظهور حركة جمال الدين الأفغاني⁽²⁾، وتلميذه الأستاذ الإمام محمد عبده⁽³⁾ بالمشرق العربي، وبروز مجلة (العروة الوثقى)

(1) المدرسة الصادقية: وهي أوَّل معهدٍ أنشئ لدراسة العلوم العصرية، واللُّغات الأجنبية، وابتدأ نشاطها أوائل سنة 1324هـ-1906م، وتلقَّوا علومهم فيها، والعمل على إصلاح المجتمع وتطويره ثقافيًا، وبتَّ العلوم العصرية من أجل النهوض بالبلاد في شتى نواحي الحياة. ينظر: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير لها العلي، (ص 36-37).

(2) جمال الدين الأفغاني: (1254-1315هـ = 1838-1897م): هو محمد بن صَفْدَر -أو صَفْتَر- الحسيني، جمال الدين، الفيلسوف، ولد في أسعد آباد بأفغانستان، ونشأ بكابل، وتلقَّى العلوم العقلية والنقلية، وبرع في الرياضيات، وارتحل مرارًا، وساءت علاقته بالدولة العثمانية، وقصد مصر فتلمذ عليه كثيرون، وصار لدعوته ضجةٌ فيها، فنفته الحكومة المصرية، ثم عاود الارتحال الطويل، وكان عارفًا بعدة لغاتٍ، وله بعض المصنفات القليلة، وهو ممن اختلفت فيه الأنظار توثيقًا وتضعيفًا، من مصنفاته: "تاريخ الأفغان"، و"الرد على الدَّهريين". ينظر الأعلام للزركلي، (6/168-169).

(3) محمد عبده: (1266-1323هـ = 1849-1905م): هو محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال التجديد في الإسلام، ولد في إحدى قرى الغربية بمصر، وتعلم بالجامع الأحمدي

التي هي لسان الجمعية السِّرِّيَّة التي تحمل الاسم نفسه، فقد وجدت هذه الحركة الإصلاحية صدًى في كلِّ الأوساط الثقافية، وتجارباً تجاوز ما وجدته في مختلف بلدان العالم الإسلامية الأخرى، وذلك لوجود تيّارٍ إصلاحيّ قديمٍ بالبلاد التُّونسيَّة سبق انتشار حركة الأفغاني وعبدّه". (1)

أمّا التَّيار الثاني وهو تيار الإصلاح السِّياسي فقد: "كان هذا التَّيار منصهراً ضمن التَّيار الأول، وكانت عناصره المثقَّفة البارزة مندجَّة متعاونةً مع عناصره في مختلف الجمعيات التي كانت موجودةً في ذلك العهد، أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والربع الأول من القرن العشرين. وتميَّز الاتجاه السِّياسي وبرز رواد الحركة القومية التونسية في مرحلتها الأولى خلال سنة 1907م، وخاصَّةً منذ تأسيس جريدة (التونسي) يوم 7 فيفري من هذه السنة، وهي لسان حركة (الشباب التونسي) التي تأثرت بحركة (الشباب التُّركي) وحركة (الشباب الإيراني)، والتي كان يقودها الزعيم علي باش حامية؛ ذلك لأنَّ عناصر هذه الحركة كانت ملتقَّةً حول جريدة (الحاضرة)، ومُشارِكَةً بصورةٍ فعَّالةٍ ونشيطةٍ في تسيير وتوجيه جمعية (الخلدونية)، و(نادي قدماء الصادقية)، ثم أحدثت تجمُّعاً مستقلاً ذا صبغةٍ سياسيةٍ وطنيَّةٍ له اتجاه مضبوط، ووسيلة يعبر بها عن برامج وأفكاره في خصوص المشكلة القومية، ولذلك نجد عنوان افتتاحية العدد الأول بجريدة (التونسي) هو (برنامجنا) الذي يمكن تلخيصه في مطلبين:

1- المشاركة: أي تشريك التُّونسيِّين في تسيير شؤون البلاد.

2- المساواة بين الفرنسيين والتُّونسيِّين". (2)

بطنطا ثم بالأزهر، ثم تصوَّف وتفلسف، وعمل في التعليم، وكتب في الصحف، وتولَّى تحرير جريدة الوقائع المصرية، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، ولما احتلت بريطانيا مصر ناوأم فسُجن ثم نُفِيَ سنة 1299هـ، وسافر إلى باريس فأنشأ مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى)، وعاد إلى بيروت فمصر سنة 1306هـ، فتولَّى منصب القضاء، ثم جُعِلَ مستشاراً في محكمة الاستئناف، ثم مفتياً للديار المصرية سنة 1317هـ، واستمر إلى أن توفي بالإسكندرية. له عدة مصنفات منها: "تفسير القرآن الكريم"، و"رسالة التوحيد". ينظر: الأعلام للزركلي، (6/252).

(1) محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 42-45).

(2) المرجع السابق، (ص 47-48).

من خلال ما مضى يتبيّن أنّ الاحتلال الفرنسي لتونس قد احتلّ الصدارة في مجريات الأحداث في هذا العصر، وأنّ هذا الاحتلال كان هو الجرح الغائر في جسد هذا الشعب الذي حاول بكلّ ما أوتي من قوّةٍ مقاومته والتّصديّ له، وأنّ هذا الاحتلال بجبروته وقسوته أظهر قدرة هذا الشعب على التّفاني والمقاومة، وأبرز الكثير من الأسماء اللامعة التي قامت بدورٍ كبير في تلك الأحداث.

والذي يعنينا في هذه الدراسة هو موقف الشيخ محمد الخضر حسين من هذه الأحداث، وهل كان له إسهامٌ فيها؟ وإن كان كذلك فما نوع هذا الإسهام؟ الإجابة عن ذلك ستكون ضمن فصول هذا البحث، ولكن لا بأس أن يُبيّن شيءٌ من ذلك ههنا على سبيل الإيجاز.

يقول الأستاذ محمد مواعده بعد أن تكلم عن التيارين: تيار الإصلاح الديني الاجتماعي، وتيار الإصلاح السياسي: "إنّ ما بيّناه بإيجاز عن الحركة الإصلاحية الدّينية والسياسيّة بتونس في بداية هذا القرن يوضّح ما قامت به النخبة المثقّفة التونسية من جهود في هذا الميدان، وما سيطر على حياتها الفكرية من مشاغل، وما كانت تتبنّاه من مبادئ، وإذا كان الشيخ الخضر حسين أحد أفراد هذه النخبة، فما نوع مساهمته ومداهها في هذه الحركة؟ ينتمي الشيخ محمد الخضر إلى مجموعة المثقّفين الزيتونيين - كما هو معلوم - ولذلك نجد مشاركته ضمن تيار الإصلاح الديني والاجتماعي كبيرة، سواءً ما قام به من أعمال، وبذله من جهودٍ في ميدان إصلاح التعليم الزيتوني، أو بتأسيسه مجلة (السعادة العظمى)". (1)

إلى أن قال: "ورغم أنّ موقف الشيخ محمد الخضر حسين في المجلّة لم يكن هو نفس موقف المحافظين، بل قاومه البعض منهم، لكن هذا العمل يُعتبر مساهمةً في الحركة الفكرية، تُسائر تيّار الإصلاحيين، ولا تساند مواقفهم وآراءهم". (2)

(1) محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 49).

(2) المرجع السابق، (ص 50).

والحقُّ أنَّ موقف الشيخ الخضر لا يقتصر على ما ذكره الأستاذ محمد مواعده من مجرد كونه منتمياً إلى مجموعة المثقفين الزيتونيين، أو أنَّ له مشاركة ضمن تيار الإصلاح الديني والاجتماعي فحسب، بل كان له دورٌ فاعلٌ في مقاومة الاستعمار، وله موقف من محاولة التجنيس، ويتضح ذلك من خلال كثيرٍ من كتاباته وإسهاماته في ذلك الشأن، سواءً في مرحلته التونسية، أو السورية، أو المصرية.

ومنها ما كان من مواقفه من الاستعمار الذي ضاق به ذرعاً؛ بسبب نشاطه ومطالبته بالحريَّة، وقد امتدَّ ذلك النشاط بعد مبارحته لتونس، ومن ذلك: ما جاء في مقالة له في جريدة (السياسة القاهرية) - العدد (393) في 25 جمادى الآخرة سنة 1342هـ بعنوان: (الحالة السياسيَّة في تونس محاولة إدماج التونسيين في الجنسية الفرنسية)، ومما جاء فيه: "رأت فرنسا كيف أنفذت في التسلُّط على التونسيين كلَّ ما تملك من قسوة، فبدا لها أن تفتح في سُور سياستها الضاغطة منفذاً يردِّدون منه أنفاس الحرية، ويمرِّقون منه إلى مستوى الكرامة عندها، فلم تسمح لها طبيعة الاستعمار - لسوء حظِّهم - إلَّا بأن تخلع عليهم ثوب التَّجنُّس بالقومية الفرنسية". (1)

إلى أن قال: "اشتدَّ حَنَقُ التُّونِسِيِّينَ لهذا القانون، فجاءت صُحفُهم طافحةً باحتجاجاتٍ بالغةٍ، ومقالاتٍ تغلي كالمراجل غيظاً وجزعاً، وتُنذرُ الشَّعبَ بما يجُرُّه ذلك القانون في أذياله من العواقب المشؤومة على حال الاجتماع والسياسة، ولكن عميد فرنسا في تونس تلقَّى ذلك السَّخط العامَّ وشرار الشَّكوى المتطايير حوله بمنتهى الاستخفاف والغطرسة؛ فإنَّه لا يدري أنَّ الأُمَّة التُّونِسِيَّة قد ارتقى بها الشُّعور والاعتبار بتاريخها المجيد إلى صفوف أولي العزم من الأمم، فإذا أحسَّت مكيدةً تُدبَّر لها، أو مظلمةً تحمل على عاتقها، أرهفت حدَّ الرأي والعزيمة، ولا تنفك تصارع من يحاول حرمانها من التَّمَتُّع بما تتمتَّع به أمثالها من الأمم المستقلة؛ حتى تفوز ببغيتهَا، ويطلع فجر الحريَّة الصادقة في أفق سياستها.

(1) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 58).

ومن شاء أن يقضي العجب، فليقضه من جواب ذلك العميد إذ تظاهر بالعجب من هذه الثورة الفكرية المزعجة، قائلاً: "إنَّ فرنسا لم تضع هذا القانون على وجه الإكراه، وللتونسي الذي يراه مخالفاً لدينه أن يحتفظ بقوميته". (1)

ثم حذر الشيخ الخضر من عاقبة ذلك الإدماج، واعتبر بما كان للجزائر من جرّائه، فقال: "نصبت فرنسا حباله هذا القانون في بلاد الجزائر يوم كان الجهل بقيمة القومية معشّشاً في كثير من الأدمغة، فاستدرجت به نفراً كان من شأنهم الممقوت أن يشمخوا بأنوفهم كبيراً وخيلاء، ويدوسوا حقوق قومهم الأولين بأرجل آثمة، ولم تعدم الحكومة أن تتخذ من أمثالهم أفواهاً تطفئ بها نور الشعور من نفوس الوطنيين، ومعاول تنقض بها كل حجر يضعونه في أساس نهضتهم.

لقد كان في قصص هؤلاء المتفرنسين عبرة لأولي الألباب من التونسيين، وهي ما جعلتهم يحذرون من أن تُمسح نفوس منهم، وتصير بطبيعة التجنس الفرنسي كالحواشي، بل القوادم للسلطة المستعمرة، فيزداد الشعب من بلائهم حنقاً على حنق، وربما عجّل به ذلك الحنق المتراكم إلى أن تنقلب أناته عزماً نافذاً، وأنفاسه المكتومة شرراً متصاعداً، فينحلّ وكاء فتنة تُفشل يد القوة الحاكمة عن وقف سيلها الجارف، وإعادة الراحة إلى قرارها المكين". (2)

ثم يمضي - رَحِمَهُ اللهُ - في بيان سبل علاج هذا الداء، وبيان أضراره ومفاسده، كل ذلك في أسلوبٍ بليغٍ بديعٍ: "فإذا عمي على فرنسا سوء طالع هذا القانون، وأصرت على نفاذه؛ بالرغم من احتجاجات الأمة، ومظاهر استيائها الأليم، فقد بقي في يد زعمائها سبلٌ لعلاج هذا الداء الفاتك، لا تستطيع أية قوة أن تسدّها في وجوههم، ومن بين هذه السبل: تلقين الشعب واجباته الإسلامية الاجتماعية، وجعله على بصيرة من أن مقتضى التجنس بالقومية الفرنسية أن يقاتل تحت راية فرنسا، وإن كانت هاجمة على جماعة من إخوانه لغّةً ودينًا، وهم في عقر دارهم آمنين، ولا جرم أن الانضمام إلى صفوف المخالفين - إذا اشتبكوا في حربٍ مع المسلمين -

(1) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 58).

(2) المرجع السابق، (ص 59-60).

نزولاً إلى حضيض الارتداد عن الاسلام، ونكتٌ لليد من عروته الوثقى.

فامتشاق الطائفة المتنوّرة عزماً لا يُعْمَد، وإشراهم في قلوب الوطنيين كراهة الانسلاخ عن الوطنية، والاندماج في قومية المستعمر، مما يقتل عنق ذلك القانون، ويجعله كالمرقوم على صحيفة غدير ماءٍ تخفق عليه أرواح عاصفة، وليس لفرنسا - وقتئذٍ - إلا أن تعضّ سياستها ندماً على وضع قانونٍ تعتدي به على مملكةٍ مستقلة، ولم تجن منه ثمرةً، بل غرست به أضغاناً بالقلوب، ومخازي في صحف التاريخ، وليست الأضغان في قلوب الرّجال النّاهضين إلا شرّاً لا يلبث أن يتأجّج، ويندلع منه لهيب فتنةٍ شعواء⁽¹⁾.

فهذا مثال واضحٌ في مدى تأثر شخصية الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - بالعوامل الخارجية، وتأثيره في الفكر الإسلامي - آنذاك - بمثل هذه الكتابات، وصرخته القوية في وجه هذا القانون الجائر الذي كانت تهدف فرنسا من وراءه سلخ المجتمع العربي الإسلامي من هويته، تحقيقاً لمخططاتها الاستعمارية في المنطقة، ولا شكَّ أنَّ مثل هذه الكلمات كان لها الصدى البالغ، والأثر الفاعل في إزالة الغشاوة عن أعين المفتونين، وشفاء لما في صدور المؤمنين، وتثبيت لسعي المصلحين.

هذا - بإيجازٍ - هو حال البلاد التّونسيّة في أواخر القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، وشيءٌ من تأثر الشيخ الخضر به، وتأثيره فيه.

(1) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 60-61).

المطلب الثالث: حال البلاد المصريّة.

الحالة السّياسيّة، والاجتماعيّة، والعلميّة، والدّينيّة في مصر في أواخر القرن التاسع عشر الهجري، بداية القرن العشرين ميلادي كانت مسبوقاً بأحوالٍ مثّلت إرهاباً لتلك الحالة، ولعلّ أبرز ما في ذلك ما كان من شأن الحملة الفرنسيّة على مصر؛ فلقد هبّت مصر من سباتها فزعاً مدعورةً حين دوّت في آفاقها مدافعُ (نابليون) سنة 1798م، وأخذت تقلّب الطّرف دهشةً في هذه الجيوش العجيبة، والوجوه الغريبة، إذ كان أول العهد لها بالإفرنج بعد عصر صلاح الدين الأيوبي. (1)

ولكن شتّان بين العهدين؛ ففي الأول كانت قويّةً عزيزةً لا تزال فيها أثارةٌ من علمٍ وأدبٍ، وكانت أوروبا لا تزال تتحسّسُ طريقها نحو النّور. (2)

لقد اصطحب (نابليون) معه كلّ عُدَدِ الاستدمار، والاستغلال، وكانت دهشة المصريّين جدُّ عظيمةٍ مما رأوا من مظاهر هذه المدنيّة الجديدة؛ إذ أنشأ (نابليون) مسرحاً للتمثيل، كانوا يمثّلون فيه روايةً فرنسيّةً كلّ عشر ليالٍ، ومدارس لأولاد الفرنسيّين، وجريدتين، ومصانع، ومعملاً للورق، وأسّس مراصد فلكيّة، وأماكن للأبحاث الرّياضيّة، والنّقش والتصوير في حي الناصرية، كما أسّس مكتبةً عامّةً جمّعت كُتُبها من بعض المساجد والأضرحة، وفيها كثيرٌ من الكتب

(1) صلاح الدين الأيوبي: (532-589هـ = 1137-1193م): هو يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، كان أبوه وأهله من قرية (دوين) - شرقي أذربيجان - وهم من الأكراد، نزلوا بـ (تكريت)، وولد بها صلاح الدين، نشأ هو في دمشق، وتفقه وتأدب وروى الحديث بها وبمصر والإسكندرية، وحُدث في القدس، ودخل مع أبيه (نجم الدين) وعمه (شيركوه) في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، لما ولي الحكم كانت له فتوحٌ كثيرة، وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي يوم (حطين)، الذي تلاه استرداد (طبرية)، و(عكا)، و(يافا) إلى ما بعد بيروت، ثم افتتح القدس سنة 583هـ، وكانت مدة حكمه بمصر 24 سنة، وبسورية 19 سنة، وخلف من الأولاد 17 ذكراً وأنثى واحدة، وانصرف صلاح الدين من القدس، بعد أن بني فيها مدارس ومستشفيات، ومكث في دمشق مدة قصيرة انتهت بوفاته - رَحِمَهُ اللهُ -، وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، (139/7)؛ وطبقات الشافية الكبرى للسبكي، (339/7).

(2) ينظر: الأدب الحديث لعمر الدسوقي، (21/1).

الفرنسية التي أحضرتها الحملة معها، كما أنشأ الجمع العلمي المصري على نظام الجمع العلمي الفرنسي، وبذل الفرنسيون غاية جهدهم في تقريب المصريين إليهم، وترغيبهم في أسباب الحضارة الغربية.

نظَّم (نايلون) شؤون مصر الداخليَّة تنظيمًا حسنًا يشهد له بالنُّبوغ الإداري فوق نبوغه الحربي، على الرغم من قصر المدَّة التي أقامها بمصر حيث رحل سنة 1801م، بيد أنَّ شراسة رجال الحملة، واستخفافهم بالشَّعب المصري، ودينه، وتقاليده، وانتهاكهم حرمة الأهالي جهارًا، ونهبهم القرى الآمنة، وإفزاز أهلها، وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التي كان يُصرف ريعها على المساجد، وطُلَّاب العلم، وفرضها كذلك على المساجد - كلُّ ذلك جعل قلوب المصريين تنفر من (نايلون) وإصلاحاته، وتتنظر إليه نظرة النَّاهب المستبدِّ، فثاروا في أكتوبر سنة 1798م، فأخذ ثورتهم في قسوةٍ عارمةٍ، وانتَهك حرمة المساجد، ثم حاول عبثًا بعد ذلك أن يتألف قلوبهم، ويستميلهم إلى المدينة الغربية، وإن كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر، واتَّخذوا ما وضعه لهم أساسًا للإصلاح الداخلي. (1)

ثم أُتيحت الفرصة لمصر كي تنهض، وتنبؤ مركزها بين أمم العالم باستيلاء محمد علي باشا (2) على عرش مصر، حيث نزل أرضها مع الجيوش الإنجليزية، والتركية التي حشدت لمنازلة

(1) ينظر: الأدب الحديث لعمر الدسوقي، (24/1)؛ وسموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية لأنور الجندى، (ص 50-51).

(2) محمد علي باشا: (1184-1265هـ = 1770-1849م): هو محمد علي (باشا) ابن إبراهيم آغا بن علي، المعروف بمحمد علي الكبير، ولد في (قولة) -التابعة الآن لليونان، وكانت من البلاد العثمانية- مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل، مستعرب، احترف تجارة الدخان، فأثري، كان أميًا، وتعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، قدم مصر وكيلا لرئيس قوة من المتطوعة جهزتها (قولة) تتألف من 300 رجل، نجدة لردِّ غزاة الفرنسيين عن مصر، فشهد حرب أبي قيرن ثم ولي مصر، وقتل المماليك، أنشأ السفن في النيل، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر، وانتدبته الدولة العثمانية لحرب الدولة السعودية الأولى في الحجاز، كثرت في أيامه المدارس والمعامل في الديار المصرية، وأرسل البعثات لتلقي العلم في أوروبا، وكان يحتم على من يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزويوا بالزبي العربي (المصري) ويتكلموا اللغة العربية، واعتزل الأمور لابنه إبراهيم (باشا) سنة 1848م، وأقام في قصر رأس التين بالإسكندرية مريضًا إلى أن توفي بها، ودفن بالقاهرة. ينظر: الأعلام للزركلي، (6/298)؛ والإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي، (ص 373).

(نابليون) وإخراجه من مصر، وقد كان محمد علي معجباً بأوروبا منذ نعومة أظافره، وخاصة فرنسا، وحاول أن يُنشئ دولةً قويَّةً خالصةً لنفسه وذريته من بعده، فأفادت منه مصر، وإن كان قد حكمها حكماً استبدادياً.

كان محمد علي طموحاً، يريد أن يرى مصر في أسرع وقتٍ لا تقلُّ في حضارتها وقوَّتها عن دول أوروبا، فوضع أسس نهضةٍ شاملةٍ في الجيش، والصِّناعة، والزِّراعة، والتعليم، والإدارة، ووجد أنَّ خير وسيلةٍ تنهض بالشعب المصري الاهتمام بالتَّعليم؛ فسلك في سبيل تعليم الشعب كافةً الطرق من بعثاتٍ، وطباعةٍ، وفتح مدارس، وتأسيس صحافةٍ، ونقل آثار الأمم الغربية في العلوم والآداب، ولهذا تُعدُّ مصر الحديثة ابنة محمد علي وأسرته. (1)

وقد عاش الشيخ محمد الخضر حسين أطول فترات مكثه في مصر تحت ظلِّ تلك الأسرة، إلى أن قامت الثورة المصرية سنة 1952م؛ وما من ريبٍ أنَّ لتلك الموجة التي ركبها محمد علي وأولاده من بعده من استلهاهم الحضارة الغربية في سبيل الإصلاح والبناء، وما ابتعنوه من بعثاتٍ، وما استقدموه من رجالٍ يحملون آراءً بلدانهم لينشروها في بلاد المسلمين، وينظر إليهم نظرة المنقذ للبلاد، السَّاعي إلى نهضتها - لاريب أنَّ لهذا كِّله أبلغ الأثر في نشوء حالة جديدةٍ، وأفكارٍ لم تعهدها بلاد المسلمين. (2)

يُضاف إلى ذلك ما كان في تلك البلاد من بدعٍ، وخرافاتٍ، وعقائدٍ باطلةٍ تنخر في جسد الأمة، وتمزِّق أوصالها، بالإضافة إلى موجة الإلحاد التي انتقلت من أوروبا إلى مصر، والتي لم تكن مألوفةً من قبل؛ ذلك أنَّ الأوروبيين في العصر الحديث صار لهم قوةٌ وغلبةٌ على أمم العالم، وقد كانوا من قبلُ قد اعتنقوا المسيحيةَ الجديدة، وبعد إطلاعهم على نتائج بحوثهم الحديثة، ورقيِّهم في الصناعات، وإطلاعهم على موقف الكنسية من هذا التَّقدُّم بدا لعقلائهم أنَّ دينهم الذي اعتنقوه لا يتفق مع العلم والعقل، ثم طردوا هذه النتيجة على كل دينٍ؛ فحدثت القطيعة بين

(1) ينظر: الأدب الحديث لعمر الدسوقي، (30-24/1)؛ ومصر الحديثة لجورجي زيدان، (ص 168-197).

(2) ينظر: الإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين، (ص 12-15)؛ والدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السُّقوط لعللي الصَّلابي، (ص 372-382).

العلم والكنيسة، فكان ذلك منشأ الإلحاد في أوروبا، وانتقل إلى مصر من خلال الغزاة المستعمرين، أو الذين ابْتَعَثُوا إلى أوروبا متعلِّمين. (1)

لذا فشلت عقلية الإلحاد بين المتعلِّمين المصريين في المدارس الجديدة التي لم يكن فيها صبغة دينية، ولم يتوقف الأمر عند مسألة الإلحاد التي تُعَدُّ نقضاً لأصول الدين، بل تعدَّى ذلك إلى مسائل أخرى؛ حيث نادى جماعة من المتعلِّمين المصريين في المدارس الحديثة بطرح الفروع الفقهية بدعوى عدم مناسبتها للحالة العصرية؛ فظهر حول حجاب المرأة كتابان لقاسم أمين⁽²⁾ هما (تحرير المرأة) و (المرأة الحديثة). (3)

كما ظهرت دعوات لنبد الحكم بما أنزل الله، والمطالبة بالعلمانية⁽⁴⁾، وأبرز ما كُتِبَ في ذلك كتاب الشيخ علي عبد الرزاق⁽⁵⁾ (الإسلام وأصول الحكم). (6)

(1) ينظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين لمصطفى صبري، (166/1 و 216).
(2) قاسم أمين: (1279-1326هـ = 1863-1908م): هو قاسم بن محمد أمين المصري، كردي الأصل، ولد ببلدة (طره) بمصر، وانتقل مع أبيه إلى الإسكندرية، فنشأ وتعلم بها، ثم بالقاهرة، وأكمل دراسة الحقوق في (مونيليه) بفرنسا، وعاد إلى مصر سنة 1885م فكان وكيلاً للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة، فمستشاراً بمحكمة الاستئناف، توفي بالقاهرة، له "تحرير المرأة"، و "المرأة الحديثة". وكان لصدورهما دويٌّ في العالم الإسلامي. ينظر: الأعلام للزركلي، (184/5).

(3) ينظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين، (111/1 و 293 و 311) (248/2-255).
(4) العلمانية: معناها أي: اللادينية أو الدنيوية، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل، ومراعاة المصلحة بعيداً عن الدين، وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مراجعة: مانع حماد الجهني، (131/1).

(5) علي عبد الرزاق: (1305-1386هـ = 1888-1966م) هو: علي بن حسن بن أحمد عبْد الرزاق، باحث، من أعضاء مجمع اللغة العربية بمصر، ولد بـ (أبي جرج) -من أعمال المنيا- وتعلَّم بالأزهر، ثم بأكسفورد، وأصدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) سنة 1925م فأثار به ضجةً كبيرةً، وسحبت منه شهادة الأزهر، وانصرف إلى المحاماة، وانتخب عضواً في مجلس النواب، فمجلس الشيوخ، وعيِّن وزيراً للأوقاف، توفي سنة 1966م، طبع من كتبه "أمالي علي عبد الرزاق" رسالة جمع بها دروساً ألقاها عام 1911م، و "الإجماع في الشريعة الإسلامية" محاضرات ألقاها في جامعة القاهرة. ينظر: الأعلام للزركلي، (276/4)؛ ومن أعلام العصر لمحمد رجب بيومي، (ص 305-311).

(5) ينظر: رسائل الإصلاح للإمام محمد الخضر حسين، (ص 184)؛ والهداية الإسلامية للشيخ الخضر، (ص 204)؛ وكتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 101).

وشاع في ذلك الوقت الطَّعنُ في الشَّريعة الإسلامية، واعتقاد عدم صلاحيتها لهذا الزمن⁽¹⁾، وشاع الانحراف في تأويل القرآن الكريم، والطَّعن في مقام النبوة، وفي السُّنة النبوية⁽²⁾، كما ظهرت دعوات كثيرة تُناقض الإسلام كدعوات التنصير⁽³⁾، والدَّعوة إلى اعتناق المذاهب الهدَّامة كالدَّعوة إلى البائية والبهائية⁽⁴⁾، والقاديانية⁽⁵⁾، ونحوها.⁽⁶⁾

- (1) ينظر: الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمان ومكانٍ للشيخ الخضر، (ص 7).
- (2) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية للشيخ الخضر، (ص 21)؛ والشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمان ومكانٍ، (ص 139-79).
- (3) التنصير: حركة دينية، سياسية، استعمارية، تستهدف نشر النصرانية بين الأمم المختلفة، وبين المسلمين خاصة، تستغل الفقر، والجهل، والمرض؛ للتغلغل بين الشعوب، معتمدةً على تشويه الدين الإسلامي، وكتابه القرآن، وسُنَّة الرَّسول ﷺ - لإدخال المسلمين ضمن نفوذهم الديني، والسياسي، والجغرافي. ينظر: التنصير: مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته لعلّي بن إبراهيم النملة، (ص 11).
- وينظر: رسائل الإصلاح، (ص 181)؛ والهداية الإسلامية، (ص 178-216)؛ وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 96).
- (4) البائية: نسبة إلى (الباب) وهو علي محمد الشيرازي، ولد سنة 1821م، وأعلن نفسه سنة 1845م باب المعرفة إلى الحقِّ الإلهي، ومن أجل هذا لقب بـ (الباب).
- والبهائية: نسبة إلى (بهاء الله) وهو ميرزا حسين علي نوري يقزوين، وهو خليفة (الباب) على حركته، التي يعتبرها أتباعه إصلاحاً إسلامياً، وقد أنشأت هاتين الطائفتين برعاية الاستعمار الروسي، واليهودية العالمية، والاستعمار الإنجليزي، بهدف إفساد العقيدة، وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم المعاصرة، كما أن لهم معتقدات وأفكار لا تمتُّ للإسلام بصلة، منها: أنَّ (الباب) هو الَّذي خلق كلَّ شيء بكلمته، وهو المبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء، ويقولون بالحلول، والاتحاد، والتناسخ، وخلود الكائنات، وينكرون معجزات الأنبياء، وحقيقة الملائكة والجن، كما ينكرون الجنة والنار، ويحرمون الحجاب على المرأة، ويحللون المتعة، وشيوعية النساء والأموال، وغير ذلك من الأفكار الفاسدة. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مراجعة: مانع حماد الجهني، (1/409-411).
- (5) القاديانية: فرقة أسسها ميرزا أحمد القادياني، طائفة كافرة، ونحلة هدامة، ظهرت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري في أرض قاديان من أرض الهند على يد رجلٍ اسمه ميرزا غلام أحمد القادياني، واتَّخذت من الإسلام شعاراً؛ لستر أغراضها الخبيثة، وعقائدها الفاسدة، أهم أهدافها: خدمة الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، وإلغاء فريضة الجهاد ضدهم، ورد المسلمين عن دينهم بتعلقهم بالإنجليز والسير في ركابهم، وتفكيك روابط الأخوة بين المسلمين وغيرها. ينظر: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام لعلوي السقاف، (10/26-30).
- (6) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية للشيخ الخضر، (ص 21)؛ ورسائل الإصلاح، (ص 117)؛ وبلاغة القرآن

كما شاع في ذلك دعواتٌ تنادي بالتَّغريب⁽¹⁾، وتطعن باللغة العربية، وتُنَادِي باستعمال اللهجات العامِّيَّة⁽²⁾، زيادةً على ذلك ما كان من استئراء البدع، والخرافات التي كانت فاشيةً في أكثر مجتمعات المسلمين.⁽³⁾

ولقد بدا جلياً أثر ذلك على الشيخ محمد الخضر حسين الذي كان ينظر في تلك الأحوال، ويواجهها بما أوتي من وسائل وقوَّة.

فهذا - بإيجاز - ذكر أهم العوامل المؤثرة على حياة الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - وشخصيته العلمية، والعملية، والدعوية الإصلاحية.

للشيخ الخضر، (ص 261-267)؛ والقاديانية والبهاية للشيخ الخضر، (ص 5-67-68)؛ وكتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 204).

(1) التَّغريب: هو تيارٌ فكريٌّ كبيرٌ، ذو أبعادٍ سياسيَّةٍ، واجتماعيَّةٍ، وثقافيَّةٍ، وفنيَّةٍ، يرمي إلى صَنع حياة الأمم بعامة، والمسلمين بخاصَّة بالأسلوب الغربي، وتغيير قيم الأُمَّة ومُثُلَها، أي تغيير عقيدتها، وثقافتها، وأخلاقها، وإبعاد المسلمين عن دينهم باسم المدنية، والتَّطوُّر، والتَّقدم، وإحلال ما يقابل ذلك في الحضارة الغربية. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مراجعة: مانع حماد الجهني، (6/698)؛ وحاضر العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة لجميل المصري، (ص 165).

وينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، (ص 81-98).

(2) ينظر: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمواعده، (ص 142).

(3) ينظر: أسرار التنزيل للشيخ الخضر، (ص 45-366)؛ وبلاغة القرآن للشيخ الخضر، (ص 637)؛ والانحرافات العقديَّة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، علي بن بخت الزهراني، (ص 269 و 427).

الفصل الثاني

جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ -
العلمية والتطبيقية المتعلقة بالدعوة والدَّاعية.

ويتضمن ثلاثة مباحث:

✽ المبحث الأول: جهوده فيما يتعلق بواجبات الدَّاعية.

✽ المبحث الثاني: جهوده فيما يتعلق بإعداد الدَّاعية.

✽ المبحث الثالث: جهوده فيما يتعلق بالدعوة.

المبحث الأول: جهوده - رَحِمَهُ اللهُ - فيما يتعلق بواجبات الداعية.

لقد دعا الإسلام إلى فعل الخير، وتجنب الشرِّ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وجعل ذلك فرضاً من الفروض على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، كلٌّ على قدر طاقته واستطاعته. ففي الحديث عن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»⁽¹⁾.

ولما كانت الدَّعوة هي عمل الأنبياء والرسل كان لابدَّ من وجود الدَّاعية الذي يدرك هذه المعاني، ويحسُّ بعظم المسؤولية، ويشعر بأهمية هذا الواجب الذي يقوم به، ولا بدَّ له من معرفة الكثير من القواعد والأصول التي تسهل عليه الوصول إلى قلوب المدعوِّين، وكذلك أداء واجباته في الدعوة وهي: واجبه تجاه ربِّه أولاً، ثم تجاه نفسه، وأسرته وأقاربه، وتجاه إخوانه الدُّعاة، وتجاه ميادين الدعوة التي تعدُّ أمكنة الانطلاق بالدَّعوة والالتقاء بالمدعوِّين فيها؛ حتى يكون قادراً على حمل هذه الأمانة، ويحقِّق الله على يديه هداية الناس، وإنقاذ العباد.

وقد كان الشيخ محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - أحد أولئك الدعاة الأجلاء القائمين بالدَّعوة وفق أصولها وقواعدها الجليلة، وهذا ما سأستعرضه في هذا المبحث وفي مطالبه القادمة.

(3) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، (1/69 - رقم 49).

المطلب الأول: واجبات الداعية تجاه ربه.

أولاً/ الإخلاص:

إخلاص الدَّاعِيَةِ هو سرُّ توفيقه، وعنوان تفوقه، ودليل نجاحه وثباته؛ ذلك لأنَّ الإخلاص شرطٌ لقبول أيِّ عملٍ، وهو أكثرُ اشتراطاً في عمل الدَّاعِيَةِ؛ لأنَّ الأبصار تتَّجِه إليه، والأنظار تُسلِّط عليه، وربما خالطه عُجْبٌ أو رغبةٌ في ثناءٍ أو مجدٍ، لذا كان من أهمِّ الضَّرُورَات أن يتجرَّد الدَّاعِيَةُ من حظوظ النَّفْس، وأن يحرص على تجريد عمله لله تعالى عملاً بالآيات والأحاديث التي دلَّت على وجوب تصفية النِّيَّاتِ مما يشوبها من صرف العمل لغيره - ﷺ -.

وإذا كان الصواب شرطاً أساساً للنجاح؛ فإنَّ الإخلاص شرطٌ أساسٌ للثواب والقبول، ولا غنى للدَّاعِيَةِ عن هذا وذاك. (1)

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ [البينة: 5]، ويقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]. وقد حذَّر النَّبِيُّ - ﷺ - من الرِّياء، وحثَّ على الإخلاص، وأوضح أنَّ آثار وثمرات الأعمال الصالحة إنما تكون نتيجة الإخلاص وسلامة المقاصد، ففي الحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». (2)

ولهذا؛ فقد اهتمَّ الشيخ محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - بجانب الإخلاص، وأكَّد على ضرورته وأهميته في مواضع كثيرة، وأفرد له بحثاً خاصاً عنوانه (فضيلة الإخلاص)، حيث قرر - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ من شروط قبول العبادة، وبلوغها مبلغ الرضا عند الربِّ - ﷻ - كونها صالحةً، وصالحها يكون بإخلاصها لله تعالى، وابتغاء وجهه. (3)

(1) ينظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي لعبد الكريم بكار، (ص 126).

(2) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان الوحي إلى رسول الله - ﷺ -، (3/1 - رقم

1)؛ ومسلم، كتاب: الإمارة، باب قوله ﷺ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"، (1907)، (3/1515 - رقم 1907).

(3) ينظر: أسرار التنزيل، (ص 123).

يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "والعمل القِيم ما كان موافقاً لما رسمه الشَّارع، وصحبته نِيَّةٌ طَيِّبَةٌ، فإن كان العمل غير موافقٍ لما ورد عن الشَّارع، فهو عملٌ باطلٌ، وإن قصد به صاحبه التَّقَرُّبُ إلى الله، وذلك هو البدعة التي سَمَّاها النَّبِيُّ - ﷺ -: ضلالةٌ، وإن كان العمل على نحو ما رسمه الشَّارع، ولكن صاحبه لم يقصد به امتثال أمر الله، فهو مردودٌ على صاحبه؛ لأنَّه فقد الروح الذي يعطيه حياةً وبهجةً، وهو الإخلاص". (1)

ويقول في موضعٍ آخر: "وإنما يكون العمل عبادةً وطاعةً يستحقُّ صاحبُها ثواب الله إذا صحبه إخلاصٌ، ووقع على الوجه الذي رسمه الشَّارع الحكيم". (2)

وهو - رَحِمَهُ اللهُ - لم يُغفل بيان معنى الإخلاص وحقيقته، فقال عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: 139]: "وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ": من الإخلاص، وهو أن يقصد بالعمل وجه الله وحده. وقد وردت في تعريفه عبارات نُبِّه بها على بعض علاماته، فقالوا: هو أن يعمل الإنسان في الباطن كما يعمل في الظاهر، وقالوا: هو أن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، وقالوا: لا يبلغ الإنسان حقيقة الإخلاص حتى لا يحبَّ أن يُحمد على عملٍ". (3)

وإذا كان مدار الإخلاص أن يكون الباعث على العمل -أولاً- امتثال أمر الله؛ فإنَّه لا حرج على من يطمح بعد هذا إلى شيءٍ آخر، بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها، ولا يقدح ذلك في أصل الإخلاص ولا يُذهبُ برونقه كما يقرِّره الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ -، حيث يقول: "لا يذهب بالإخلاص - بعد ابتغاء وجه الله - أن يخطر في باله أنَّ للعمل الصالح آثاراً في هذه الحياة؛ كطمأنينة النَّفس، وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهون، إلى غير هذا من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد به إقبال النَّفوس على الطاعات قوَّةً على قوَّة". (4)

(1) رسائل الإصلاح، (ص 76).

(2) أسرار التنزيل، (ص 253).

(3) المرجع السابق، (ص 254).

(4) رسائل الإصلاح، (ص 76-77).

وقد كان - رَحِمَهُ اللهُ - يذكر في كثيرٍ من كتبه أهمية الإخلاص، وثمراته الطيبة، وآثاره الجليلة على الفرد والمجتمع، والعواقب السيئة التي تلحق من فقدته، فذكر - مثلاً - أثر الإخلاص وقيّمته في الأعمال، وأنَّ تخلُّفه عن هذه الأعمال يفضي إلى مفاسد كبيرة، فقال - رَحِمَهُ اللهُ -: "والإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقي للفلاح، وهو الذي يحمل الإنسان على مواصلة عمل الخير، فمن يصلي رياءً، أو حياءً من الناس، لا بدَّ أن تمرَّ عليه أوقاتٌ لا ينهض فيها إلى صلاةٍ، ومن يحكم بالعدل ابتغاءَ السمعة، أو خوفَ العزل من المنصب، قد تعرض له منفعةٌ يراها الدُّ من السمعة، أو يصادفه عهد حكوميَّة يأمن فيه من العزل، فلا يبالي أن يدعَ العدل جانباً، ومن يدعو إلى الإصلاح ابتغاءَ الجاه، قد ينزل بين قومٍ لا يحظى بينهم إلَّا من ينحط في أهوائهم، فينقلب داعياً إلى الأهواء". (1)

وقال - أيضاً - : "فالإخلاص الذي يقوم على الإيمان الصادق، والتهذيب الديني، هو الذي يسمو سلطانه على كلِّ سلطانٍ، ويبلغ أن يكون مبدأً راسخاً تصدر عنه الأعمال الصالحة بانتظام، وهو الذي يجد له صاحبه حلاوة". (2)

ومن آثار الإخلاص على العزائم ما ذكره بقوله: "هو الذي يجعل في عزم الرّجل متانةً، ويربط على قلبه، فيمضي في عمله إلى أن يبلغ الغاية، وكثيرٌ من العقبات التي تقوم دون بعض المشروعات لا يساعدك على العمل لتذليلها إلَّا الإخلاص، ولولا الإخلاص يضعه الله في نفوس زاكياتٍ؛ لحرم الناس من خيراتٍ كثيرةٍ تقف دونها عقباتٌ. فقد يخلص الرجل في بعض الأعمال، ويتغلب عليه الهوى في بعضٍ؛ فيأتي بالعمل صورة خالية من الإخلاص، والذي يرفع الشخص إلى أقصى درجات الفضل والمجد، إنما هو الإخلاص الذي يجعله الإنسان حليف سيرته، فلا يقدم على عملٍ إلَّا وهو مستمسكٌ بعروته الوثقى. ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إنَّ النَّفس التي تتحرَّر من رِقِّ الأهواء، ولا تسير إلَّا على ما يمليه عليها الإخلاص، هي النَّفس المطمئنة بالإيمان، المؤدبة بحكمة الدين ومواعظه الحسنة". (3)

كما أنَّه - رَحِمَهُ اللهُ - قرَّر الآثار الحميدة للإخلاص في مجالات كثيرة كالعلوم، والإنفاق،

(1) رسائل الإصلاح، (ص 77).

(2) المرجع السابق، (ص 78).

(3) المرجع نفسه.

والقضاء، والتربية، والتجارة، والكتابة، ونحو ذلك في تحريرِ يعزُّ نظيره مع وجازته فقال - جزاه الله خيرا - : "والإخلاص الذي يخالط النفوس حتى يكون القابض على عنائها هو في نفسه فضيلة؛ وهو لا ينزل إلا حيث تنزل فضائل كثيرة، فالإخلاص يمد جأش صاحبه بقوة، فلا يتباطأ أن ينهض للدفاع عن الحق، ولا يبالي ما يلاقي في دفاعه عنه من أذى. والإخلاص يشرح صدر صاحبه للإنفاق في بعض وجوه البر، فتراه يؤثرها بجانب من ماله، وإن كان به خصاصة. والإخلاص يعلم صاحبه الزهد في عرض الدنيا، فلا يخشى منه أن يناوئ الحق، أو يلبسه بشيء من الباطل، ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضة أو ذهباً. والإخلاص يحمل القاضي على تحقيق النظر في القضايا، فلا يفصل في قضية إلا بعد أن يتبين له الحق. والإخلاص يوحى إلى الأستاذ أن يبذل جهده في إيضاح المسائل، وألا ييخل على الطلاب بما تسعه أفهامهم من المباحث المفيدة، وأن يسلك في التدريس الأساليب التي تجدد نشاطهم لتلقي عنه. والإخلاص يصون التاجر عن أن يخون الذي يأتمنه في صنف البضاعة أو قيمتها؛ ويحمل الصانع على إتقان عمله حسب الطاقة. والإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب بعض الحقائق، أو يكسوها لوناً غير لونها؛ إرضاءً لشخص أو طائفة". (1)

وبعد تقريره لأصل شرعي وهو أن تفاضل الأعمال مرجعه إلى نصوص الشريعة، أو عظم الثواب، أكد أن ارتفاع منزلة عمل على الآخر إنما يكون بما يخالطه من إخلاص قلّة وكثرة، فيقول: "ويرتفع - أي الأعمال - بعضها فوق بعض منزلةً بقدر الإخلاص فيها، وما يقصده العامل عند مباشرتها". (2)

ولم يقف - رَحِمَهُ اللهُ - في بيان دخول هذه الخصلة في شتى مناحي الحياة، وأنها ملازمة لصالح كلّ شيء ونجاحه، وراح يؤكّد على ضرورة استصحاب الإخلاص حتى في مواطن الحرب، وأنه أكبر باعث على الثبات حتى الفوز أو الموت، فقال: "نجاح كلّ عمل على قدر ما يقارنه من طيب السريرة، وحسن القصد، وأحق ما يقصد إليه الناهضون إلى الحرب: حماية

(1) رسائل الإصلاح، (ص 80).

(2) المرجع السابق، (ص 252).

أوطانهم؛ ليسلم لهم دينهم وأعراضهم وأموالهم، وتكون كلمة الحق هي العليا، وهذا القصد أكبر باعثٍ على الثبات في مواقف الدِّفاع، فالذي يحارب ليحرزَ منصباً أو مالاً، أو ليتحدَّث الناس عن شجاعته، قد يقف في إقدامه عند حدٍّ، وما هو من الانخزام والفرار من مواقع الدِّفاع ببعيدٍ، أما الذي يقاتل دفاعاً عن شيءٍ يرى الحياة بدونهُ شراً من الموت، وهو العزَّة والحريَّة اللتان يرى بهما الحقَّ في إشراقٍ وصعودٍ، فإنَّه يثبت في مواقع القتال، ولا يلوي عنقه عنه إلا أن يفوز أو يموت". (1)

وأما ما يتعلَّق بالإخلاص في مهمَّة الداعية إلى الله تعالى، واستحضار النية من أهم الأمور التي ينبغي على الداعية إلى الله العناية بهما؛ لأنهما مدار الأعمال كلها وثوابها متعلقة بهما، وجهود الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - ظاهرةً ومتكاثرةً في تقرير الحاجة إليه، وأنَّه واجبٌ من الواجبات المتحمَّمة تجاه ربِّه، وبيان ثمراته وأثاره، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

يَبَيِّن - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّ الإخلاص للداعية رأس كلِّ فضيلة. (2)

وَأَنَّ شأن المخلص في قول الحقِّ أن ترمقه القلوب بمباهة. (3)

وَأَنَّ على الداعية إلى الله تعالى أن يوجِّه قصده ويخلصه لغرض صلاح العالم، وانتظام شؤونه على منهج السعادة، وأنَّه متى انحرف عن هذا القصد - ولو قيد أنملة - رأيته يضطرب في حال دعوته كالريشة تخفق بها الرياح أينما تصرَّفت. (4)

وَأَنَّ تشوُّف الدَّاعي إلى ما في أيدي القوم، وتطلُّعه إلى أن ينال من وراء إرشاده شيئاً من متاع هذه الحياة، قاذخٌ في صدقه، وداخلٌ بالريبة في إخلاصه. (5)

(1) الهداية الإسلامية، (ص 20).

(2) ينظر: محمد رسول الله وخاتم النبيين، (ص 129).

(3) ينظر: محاضرات إسلامية، (ص 62).

(4) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 25).

(5) ينظر: المرجع نفسه.

ثم يذكرُ أنَّ النَّاسَ لَا يَقُونُ لِلدَّاعِيَةِ كَيْلَ الاحْتِرَامِ والثِّقَةِ إِلَّا إِذَا اسْتَقَامَت سِيرَتُهُ، وَوَثَقُوا بِصَفَاءِ سِرِّهِتهِ وَإِخْلَاصِهِ، وَلِهَذَا تَرَى خُصُومَ الْعَالَمِ الْعَظِيمِ إِذَا أَرَادُوا الْقَضَاءَ عَلَى سَمْعَتِهِ، يَجْنَحُونَ إِلَى الطَّعْنِ فِي عَدَالَتِهِ، فَيَرْمُونَهُ بِالْمَأْثَمِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا لِدَلِّكَ سَبِيلًا، التَّجَاؤُوا إِلَى اتِّهَامِهِ بِقِلَّةِ الْإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِهِ. (1)

وَأَنَّ مِمَّا يَجْعَلُ لِلخُطْبَةِ أَثَرًا بَلِيغًا فِي النُّفُوسِ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ مُخْلِصًا فِي وَعْظِهِ، حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرَاتٍ طَيِّبَةٍ مِنَ الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الشَّرِّ، وَقَدْ يَظْهَرُ لِهَذَا الْإِخْلَاصِ أَمَارَاتٌ فِي وَجْهِ الْخَطِيبِ أَوْ صَوْتِهِ؛ كَاسْتِدَادِ الْغَضَبِ عِنْدَ الْإِنْدَارِ. (2)

وَيَقَرَّرُ - رَحِمَهُ اللهُ - شَوَاهِدَ الْإِخْلَاصِ فِي الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمُظَاهِرَ طَيْبِ سِرِّهِتهِ، فَيَقُولُ - رَحِمَهُ اللهُ -: "وَيَدُلُّكَ عَلَى سَلَامَةِ نِيَّتِهِ مِنْ إِحْرَازِ رِيَاسَةٍ أَوْ وَجَاهَةٍ: أَنْ يَنْشَأَ فِي بَيْتِ مَسَاجِدَ، وَيَحُوزَ فِي الشَّرَفِ مَكَانَةً سَامِيَةً، فَيَقُومُ وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَنْ مَجَارَاتِهِ لِلْقَوْمِ، وَإِغْضَاءَهُ عَمَّا يَشَاهِدُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعُوجِ يَزِيدُ فِي إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ، وَيَضَعُ قُلُوبَهُمْ فِي الرِّضَا عَنْ سِرِّهِتهِ، فَيَضْرِبُ عَنْ مَدَاجَاتِهِمْ، وَيَنَاضِلُهُمْ بِالْحُجَّةِ، وَلَا يَنْفَكُ يَعْضُرُ شَمْسَ الْحَقِيقَةِ عَلَى أَبْصَارِهِمْ وَهُمْ لَهَا كَارِهُونَ. وَمِنْ شَوَاهِدِ طَيْبِ السَّرِيرَةِ: أَنْ يَنَادِيَ قَوْمَهُ لِلْإِصْلَاحِ سَنِينَ، وَيَتِمَادَى فِي سَعْيِهِ الْمُتَوَاصِلِ إِلَى آخِرِ رَمَقٍ مِنْ حَيَاتِهِ، دُونَ أَنْ يَفْلَ عَزْمَهُ تَبَاطُؤُهُمْ عَنْ إِجَابَتِهِ، أَوْ مُقَابَلَتِهِمْ لَصْنِيعِهِ بِالْكَفْرَانِ. وَالشَّأْنُ فَيَمْنُ أَنْطَوَى صَدْرُهُ عَلَى سَرِيرَةٍ غَيْرِ طَيِّبَةٍ أَنْ يَتَغَيَّ إِلَيْهَا الْوَسِيلَةُ، فَإِذَا أَبْطَأَتْ بِهِ، وَلَمْ تَقْعَ عَيْنُهُ إِلَّا عَلَى خِيبةٍ وَإِخْفَاقٍ، مَلَّ الْعَمَلِ، وَصَرَفَ جِهْدَهُ إِلَى وَسِيلَةٍ أُخْرَى". (3)

كَمَا قَرَّرَ مَفَاسِدَ تَخْلُفُ هَذِهِ الْخُصْلَةِ، وَأَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْفُشْلِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَدَمُ الْإِخْلَاصِ لَهُ - ﷺ -، وَلَوْ تَحَقَّقَ الْإِخْلَاصُ فِي وَاقِعِ الصِّفِّ الْمُسْلِمِ لَمَا كَانَ هَذَا الشَّتَاتُ بَيْنَ الدُّعَاةِ، وَتِلْكَ الْفَرْقَةُ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ، عَلَمًا بِأَنْ الْبِنَاءَ وَاحِدٌ، وَالْغَايَةُ وَاحِدَةٌ. (4)

(1) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 178).

(2) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، (ص 202).

(3) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 27).

(4) المرجع نفسه.

ولأجل هذه الخصال الحميدة والمآثر الحميدة للإخلاص يوصي القائمين على التربية من أولياء ومرتبين بقوله: "وإذا كان للإخلاص هذه المآثر العظيمة، فحقيق علينا أن نربي الناشئين على أن يكونوا مخلصين في كلِّ ما يقولون أو يفعلون، ونلقنهم ماذا يناله المخلص من حمدٍ وكرامةٍ وحسنٍ عاقبة؛ لكي تُخَرَّجَ لنا معاهدُ الدِّين والعلم رجالاً يقوم كلُّ منهم بالعمل الذي يتولاه بحزمٍ وإتقانٍ". (1)

ثانيا/ المتابعة للنبي - ﷺ -:

إنَّ مما يجب على الدَّاعية إلى الله على الدوام هو اتباعه للنبي - ﷺ -، والالتزام بسنن الشرع ومستحباته إضافة إلى محافظته على الفرائض والواجبات؛ فإنَّ ذلك أزيد في توقيره، وأنفى للطعن في دينه.

وهو الأصل الثاني في قبول أي عبادة بعد الإخلاص لله تعالى، فمن أراد لعبادته القبول فلا مناص له من تجريد المتابعة للنبي - ﷺ -، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: 31] قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (2): "هذه الآية الكريمة حاکمة على كل من ادَّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمَّدية، فإنه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر حتى يتَّبَعَ الشَّرعَ المحمَّديَّ، والدِّينَ النَّبويَّ في جميع أقواله وأفعاله؛ كما ثبت في الصَّحيح عن عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - (3): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ

(1) رسائل الإصلاح، (ص 80).

(2) ابن كثير: (701-774هـ = 1302-1373م): هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي؛ ولد بالبصرة، عالم بالتفسير والتاريخ والحديث، شافعي المذهب. من مصنفاته "تفسير القرآن العظيم"، و"البداية والنهاية". ينظر: طبقات المفسرين لمحمد بن علي الداوودي، (111/1).

(3) عائشة أم المؤمنين: (9 ق هـ - 57هـ = 613-678م): بنت أبي بكر الصديق، الصديقة بنت الصديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، زوج النبي - ﷺ - وأحب نساءه، تزوجها رسول الله - ﷺ - قبل الهجرة بسنتين، وهي بكرٌ، وبني بها وهي بنت تسع سنين بالمدينة، ولما توفي النبي - ﷺ - كان عمرها ثمان عشرة سنة، وهي من المكثرين لرواية حديث النبي - ﷺ -. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، (4/1881)؛ وأسد الغابة لابن الأثير، (7/186).

عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»⁽¹⁾، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: 31]⁽²⁾.

بَيِّن - رَحِمَهُ اللهُ - سَبِيلَ النَّجَاةِ مِنْ مَوَارِدِ الْهَلَاكِ كَالْجَهْلِ، وَالْغُرُورِ، وَالتَّلَبُّسِ بِالْبَدْعِ، وَأَنْوَاعِ الضَّلَالِ وَالْفُسَادِ، وَالْكِبَرِ وَالْحَسَدِ، وَمَخَالَطَةِ أَهْلِ الْفُجُورِ وَالضَّلَالِ، فَقَالَ: "سَبِيلُ النِّجَاةِ مِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَلْتَبَسِ بِهَا، هُوَ الرَّجُوعُ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْإِقْتِدَاءِ بِسِيرَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ".⁽³⁾

تَكَلَّمَ الشَّيْخُ الْخَضِرُ عَنْ شُرُوطِ قَبُولِ الْعِبَادَةِ، وَقَرَّرَ أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ مَقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِتَوْفَرِ شَرْطَيْنِ هُمَا: الْإِخْلَاصُ، وَقَدْ مَضَى بَيَانُهُ، وَالْمَتَابَعَةُ، وَيَعْبَرُ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: "وَالْعَمَلُ الْقَيِّمُ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِمَا رَسَمَهُ الشَّارِعُ، وَصَحْبَتُهُ نِيَّةً طَيِّبَةً، فَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا وَرَدَ عَنِ الشَّارِعِ، فَهُوَ عَمَلٌ بَاطِلٌ، وَإِنْ قَصِدَ بِهِ صَاحِبُهُ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْبَدْعَةُ الَّتِي سَمَّاها النَّبِيُّ ﷺ - ضَلَالَةً".⁽⁴⁾

وَيَقُولُ: "وَالْعِبَادَةُ الصَّحِيحَةُ مَا تَحَقَّقَ فِيهَا أَمْرَانِ: الْإِخْلَاصُ، وَمُوَافَقَتُهَا لِلْوَضْعِ الَّذِي رَسَمَهُ الشَّارِعُ".⁽⁵⁾

وَيَقُولُ: "وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي عَرَفِ الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ: مَا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، وَيَكُونُ مُوَافِقًا لِلْوَضْعِ الَّذِي اعْتَدَّ بِهِ الشَّارِعُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ، وَالْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ".⁽⁶⁾

وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: "وَإِنَّمَا يَكُونُ الْعَمَلُ عِبَادَةً وَطَاعَةً يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهَا ثَوَابَ اللَّهِ إِذَا

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (3/1343 - رقم 1343).

(2) تفسير القرآن العظيم، (2/32).

(3) السعادة العظمى، (ص 203).

(4) رسائل الإصلاح، (ص 76).

(5) أسرار التنزيل، (ص 10).

(6) المرجع السابق، (ص 123).

صَحْبِهِ إِخْلَاصٌ، وَوَقَعَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي رَسَمَهُ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ". (1)

ويقول: "والإسلام الذي هو الخضوع لله بحق إنما يتحقق بعقيدة التوحيد، وتحرِّي ما رسمه الشَّارِعُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ". (2)

وَفِي صَدَدِ بَيَانِ حَقِيقَةِ الْإِتِّبَاعِ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - يَقُولُ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [آل عمران:]: "تَصْرِيحٌ يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ مِنْ امْتِثَالِ الْمَأْمُورَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ؛ إِذْ لَا يَتِمُّ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ إِلَّا بِامْتِثَالِ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ". (3)

وَذَكَرَ فِي سِيَاقِ بَيَانِ حَقِيقَةِ الْمُتَّبِعِينَ لِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي زَمَنِهِ، وَبَعْدَهُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -، وَأَتَمَّهُمْ هُمُ الْمُسْتَحْقُونَ لِلْبَشَارَةِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 55]، فَقَالَ: "هَذِهِ بَشَارَةٌ ثَلَاثَةٌ لِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، هِيَ أَنَّ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ يَكُونُونَ أَعْلَى مِمَّنْ كَفَرُوا بِهِ، وَكَانَ الْمُتَّبِعُونَ لَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ النَّصَارَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا، وَالْمُتَّبِعُونَ لَهُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ هُمُ الْمُسْلِمُونَ؛ لِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ فِي أَصُولِ الدِّينِ، وَاتَّبَعُوا النَّبِيَّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ، وَدَعَا إِلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ". (4)

مِنَ الْمَعَانِي الْجَمِيلَةِ الَّتِي نَبَّهَ عَلَيْهَا الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي بَابِ الْإِتِّبَاعِ أَنَّ الْحَرَصَ عَلَى تَعَلُّمِ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفَنِّ الْبَلَاغَةِ فِي حَقِّ الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ وَجَهٌ مِنْ أَوْجِهَةِ الْمُتَابَعَةِ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ - ﷺ - أَوْتَى جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَقَدْ تَصَدَّى لِلدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَايَةِ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ بَلِيغٍ، فَاسْتَرَعَى الْأَسْمَاعَ، وَأَخَذَ بِالْقُلُوبِ، لِذَا عَلَى الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى اسْتِحْضَارُ هَذِهِ النِّيَّةِ الْجَلِيلَةِ عِنْدَ تَعَلُّمِهِ عُلُومَ الْبَلَاغَةِ؛ لِيَحَقِّقَ بِذَلِكَ الْإِقْتِدَاءَ وَالْمُتَابَعَةَ، يَقُولُ - رَحِمَهُ اللهُ -: "هَذِهِ الْخَصْلَةُ مِنْ خِصَالِ كَمَالِهِ - ﷺ -، وَهِيَ الْفَصَاحَةُ، وَحَسَنُ الْبَيَانِ، تَدْخُلُ فِيهَا يَطْلُبُ الْإِقْتِدَاءَ بِهِ فِيهَا؛ فَإِنَّ دَرَأَةَ

(1) أسرار التنزيل، (ص 253).

(2) المرجع السابق، (ص 234).

(3) المرجع السابق، (ص 381).

(4) المرجع السابق، (ص 357-358).

علوم البلاغة، ومطالعة منشآت البلغاء، والتمرين على الخطابة والتَّحْرِي، كل ذلك مما ينهض بالناشئين إلى أن يكونوا فصحاء بلغاء، حتى إذا تصدوا لبيان حقٍّ، أو دعوةٍ إلى خيرٍ، استطاعوا أن يسترعوا الأسماع، ويأخذوا بالقلوب". (1)

ومن جملة الأسباب الشرعية لمتابعة النَّبِيِّ ﷺ - ما ذكره الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: 21] بقوله: "هذه الآية الكريمة من جوامع الكلم التي تحمل تحت ألفاظها القليلة معاني جميلة غزيرة؛ فقد أرشدت إلى الاقتداء برسول الله - صلوات الله وسلامه عليه -، وأومأت إلى أنه أقوم الخليفة منهجاً، وأشرفهم حالاً، وأطيبهم كَلِمًا، وأفضلهم أَعْمَالًا". (2)

ويرى أنَّ الطريق للتَّأَسِّي بأفضل الخليفة - صلوات الله وسلامه عليه -، هو البحث عن سيرته؛ لأنَّ البحث عن سيرته مِرْقَاةٌ إلى معرفة خصال الشَّرف الإنساني، وصالح الأعمال التي يعرج بها الإنسان إلى الحياة الطَّيِّبَةِ في الأولى والآخرة، كما أنَّ سبب دخول البدع في الدِّين إنما حصل من قومٍ لم يدرسوا سيرة النَّبِيِّ ﷺ - دراسةً تُكسبهم تمييز فاسدِ العبادات من صحيحها. (3)

وقرَّر - رَحِمَهُ اللهُ - جملةً من مظاهر الاتباع والتَّأَسِّي بالنَّبِيِّ ﷺ - للناس عامَّةً، ولأهل العلم والإصلاح والدُّعاة إلى الله تعالى على جهة الخصوص؛ لأنهم أهل ميراثه، وصفوة أتباعه، ومن هذه المظاهر (4):

1- التَّأَسِّي به - ﷺ - فيما كان يتقرَّب به إلى الخالق من العبادات، وهذا يقتضي البحث عن العبادات التي كان يؤدِّيها تقرُّباً إلى الخالق تعالى؛ مثل: الصلوات، والصيام، والحج، والأذكار؛ حتى نتبين كيفيتها، وأوقاتها، ومبلغ اجتهاده في القيام بها، وبهذا يسلم الرجل من أن

(1) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، (ص 183).

(2) المرجع السابق، (ص 188).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 189-191).

(4) ينظر: المرجع السابق، (ص 189-190-191).

ينحدر في البدع، أو يضع العبادة في غير وقتها، أو يقع في حرج التنطع في الدين.

2- الاقتداء به في الصبر على الأذى، واحتماله ما يصيبه من صروف الأقدار، وتلقيه لها بالصبر والاحتساب، وهذا حال المستقيمين من المؤمنين في هذا الخلق العظيم، فيتلقون الخطوب من نحو: فقد المال، أو موت الولد بمحنة عزم، ورسوخ في الصبر.

3- يتأسى به - ﷺ - في احتماله لما كان يلاقيه في سبيل الدعوة إلى الحق من العناء والمكاره؛ كما لاقى من المشركين في مكة أذى كثيراً، ولم يُفلَّ ذلك من عزمه فتياً. وما لاقاه في واقعة أُحُدٍ؛ من شجٍّ وجهه، وكسر رباعيته، وجرح شفته السفلى، حتى صُلَّى الظهر من الجراح التي أصابته قاعداً، ودرس هذه الناحية من سيرته السنية - كما قرر الشيخ - يرفع هم علماء الدين، ودعاة الإصلاح عن التملُّق لأولي الأمر، ومجاراة أهوائهم الجامحة عن قصد السبيل؛ فيجعلون رضا الله، وظهور الحق والفضيلة، هما الغاية التي يعملون لها في حياتهم، فلا يُبالون سوء العذاب، أو العزل من المناصب الذي ينذرهم به المستبدُّون الظالمون.

4- ويُتأسى به - ﷺ - في صلته بالأفراد والجماعات، ومعاملته لهم؛ من نحو: الرفق بهم، والإحسان إليهم، ودعوتهم إلى الحق، وإرشادهم إلى وجوه الخير، وسبل السعادة، ومعاقبة الجناة على قدر جناياتهم، ودرس هذه الناحية من سيرته الطاهرة يفتح أمام الناظر الطريق التي يُتوسَّلُ بها إلى امتلاك قلوب فضلاء النَّاسِ على اختلاف طبقاتهم، وتباين مواطنهم، بل يفتح أمامه الطرق التي تُعرَفُ بها كيف يسوس النفوس الواقعة في أسر الشهوات، ويعيدها إلى سيرة الطهر والعفاف؛ إذ يجد الناظر في حكمة أساليب دعوته، وحسن معاملته حتى لخصوم دينه، معالم لا ينجح صاحب دعوة صادقة إلا أن يهتدي بها.

5- ويتأسى به في احتماله الأذى من النَّاسِ، ومقابلته بالعفو، وهو قادر على مقابلته بالانتقام، ومن درس هذه الناحية في السيرة، عرف أنَّ حلمه وعفوه - ﷺ - مواضع، ولأخذه بالحزم مواضع، وقد أشارت عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - إلى ذلك بقولها: ((وَمَا انتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ - ﷻ -))، وفي رواية: ((إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مُحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ - ﷻ -)). (1)

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كم التعزير والأدب، (8/174 - رقم 6853)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب مباحثته - ﷺ - للآثام واختياره من المباح، (4/1813 - رقم 2327).

وقد بيّن - رَحْمَةُ اللَّهِ - أنَّ سبب دخول البدع في الدِّين إنما حصل من قوم لم يدرسوا سيرة النَّبِيِّ - ﷺ - دراسةً تكسبهم تمييز فاسد العبادات من صحيحها. (1)

وبما أنَّ من واجبات الدَّاعية إلى الله تعالى تجاه ربِّه اتباع نبيِّه - ﷺ -، واقتفاء أثره، والتَّأسي بسيرته، فعليه مقابل ذلك الحذر مما يضادُّ الاتباع، والتحذير من البدعة وأهلها، وقد كان للشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - جهودًا عظيمة في هذا الباب العظيم من أبواب الدين.

من ذلك تقريره - رَحْمَةُ اللَّهِ - وجوب تضافر جهود العلماء والحكَّام من أجل محاربة البدع، والأخذ على أيدي أصحابها، لأنَّهم شوَّهوا نقاء الدين الحنيف، وعكَّروا صفوه، فيقول: "وإذا كانت البدع تشوِّه وجه الدِّين الحنيف في نظر من يجهلون حقائقه، فضلًا عما تجرُّه من المفسد العظيمة والمآثم، فمن الواجب على أهل العلم أن يحاربوها بما استطاعوا، وعلى القوَّة الحاكمة أن تشدَّ أزرهم في تغييرها، وكثيرٌ من البدع لا تقتلع عروقها، ويطمس على آثارها إلا أن تتعاقد القوَّتان: العلمية والتَّنفيذية على إماتتها". (2)

ثالثًا/ تعزيز اليقين بالله تعالى:

إنَّ من أعظم الواجبات المتحتمات على الناس كافة، وعلى الداعية إلى الله تعالى خاصَّةً تعزيز اليقين بالله تعالى، وكمال معرفته، وتقوية الواسطة إليه، والسَّعي في تثبيت الإيمان بالقلب، وربطه بالاعتقاد الصحيح؛ ذلك لأنَّ الاعتقاد بصحَّة الإسلام ليس أمرًا عاطفيًّا، بل هو حقيقة مبنية على أدلَّة وبراهين كثيرة متنوعة قاطعة، تخضع لها العقول والقلوب.

وفي هذا السياق يقرِّر أثر اليقين بالله تعالى والإيمان به على قلب المسلم، فيقول: "وكذلك الإيمان تخالط بشاشته القلوب، فيخلق من الضعف عزمًا، ومن الخمول نهوضًا، ومن الجزع صبرًا، ومن اليأس أملًا، ومن الجبن شجاعةً، ومن الدَّلة عزًّا". (3)

(1) ينظر: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، (ص 189).

(2) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 138).

(3) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، (ص 78).

ويرى أنَّ الأُمَّةَ العربيَّةَ قبل البعثَةِ المحمَّديَّةِ ظَلَّتْ "تتخبط في هذه العماية، فخسرت الحياة الطَّيِّبَةَ، وضَلَّتْ سبيل السَّعادة، حتى بعث الله مُحَمَّدًا -ﷺ-، فجاهد في إخراجها من ظلمات الوثنية إلى عقيدة التوحيد الخالصة، فأصبحت أُمَّةً راجحةً الأحلام، صافيةً البصائر، شديدةً الثِّقة بالله، حقيقةً بأن تحمل الهداية العامَّة، والإصلاح الإلهي إلى الشرق والغرب". (1)

ثم هو يبيِّن أثر كمال المعرفة بالله تعالى، وصلاح الاعتقاد على الفرد فيقول: "إنَّ الدِّين الإسلامي يقوِّم العقيدة ويصلحها، ومتى استقامت العقيدة وصلحت، أقامت على المرء رقيباً منه عليه في حركاته وسكناته، وفي سرِّه وعلايته، وجعلت قلبه عرشاً لحكومةٍ ساهرةٍ، حاكمها قديرٌ عادلٌ، عينه لا تنام، ومملكه لا يُرام، وهذه العقيدة الصالحة تحفِّز الهمة إلى التَّهْوُض والعمل، وتملأ النَّفس بالشجاعة والأمل، وتطبع الإنسان على الإباء والشَّمَم، وترفع القلب البشريَّ عن الدِّلة والعبودية لغير من له السُّلطان وحده، وتنأى بالعقل الإنساني عن الخضوع للخرافات والأوهام، والتحاكم لغير الدليل والبرهان". (2)

بل يقرِّر أنَّ ثمرة تعزيز اليقين بثوابت الإسلام تشمل حياة العامَّة - أيضاً -، وهو أصلُ الأصول في الإصلاح الاجتماعي الذي يجب على الدَّاعية الاهتمام به، فيقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "أمَّا الإيمان، فهو النُّور الذي يسعى بين أيدي الجماعة، يردُّ بها كلَّ وَرْدٍ عذبٍ، ويرتاد بها كلَّ مرعىٍ خصبٍ، وهو الوسيلة التي يبتغون بها رضا الخالق - جلَّ شأنه -، وإذا ظفروا برضا الخالق، وفَقَّهم لكلِّ عملٍ مجيدٍ، وجعلهم إذ يُجَارُونَ غير المؤمنين هم السَّابِقين، وإذا يناضلون غير المؤمنين هم الفائزين". (3)

ويقول: "وهذه العقيدة الصالحة - أيضاً - تفتح أمام النَّاس مستقبلًا أوسع من هذا المستقبل الضَّيق الذي يتطاحنون من حوله، وتجعل ميدان المجد مَتَّسِعًا للجميع بما ترسم بين

(1) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، (ص 152).

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 183).

(3) المرجع السابق، (ص 73).

يدي صاحبها من حياة أسعد وأبقى وألذ وأمتع من هذه الحياة".⁽¹⁾

ويرى أنَّ "الشَّابَّ المسلم: هو الذي يؤمن بالله من الشِّرك، أو ما يشبه الشِّرك، فيعتقد من صميم قلبه أنَّ الله وحده هو المتصرف في الكون، فلا مانع ولا ضارَّ إلا هو، وبهذه العقيدة السَّليمة يحمي نفسه من أن تلابسها مزاعم مزرية، ويصغر في عينه كل جبارٍ، ويهون عليه احتمال المصاعب، واقتحام الأخطار في سبيل الجهاد في الإصلاح والدعوة إلى الحق".⁽²⁾

ولذلك فعلى الداعية إلى الله أن يتعاهد قلبه بالإخلاص والمتابعة، وتعزيز اليقين بثوابت الشريعة، ومعرفة الله تعالى، وحسن الظنِّ به، فالاتصال الوثيق بالله - ﷻ - أهم واجب من واجبات الداعية إلى الله تعالى.

(1) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 183).

(2) المرجع السابق، (ص 117-118).

المطلب الثاني : واجبات الداعية تجاه نفسه.

أولاً/ نحو بدنه:

إِنَّ تكاليف الإسلام لا يمكن أن تؤدَّى كاملةً إلا بالجسم القويِّ، فالصَّلَاةُ، والصَّوْمُ، والحُجُّ، والدَّعْوَةُ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لا بدَّ لها من جسمٍ يحتمل أعباء الكسب والعمل والدَّعْوَةِ، وفي الحديث عن رسول الله - ﷺ - يقول: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ»⁽¹⁾.

إِنَّ من الواجبات المهمَّة على الدَّاعية إلى الله تعالى هو أن يعتني بصحَّة جسمه، ويأخذ في علاج ما يظهر من الأمراض، ويهتم بأسباب القوة البدنية، والرقابة الصَّحيَّة، ويتعدى عن أسباب الضعف.⁽²⁾

فالحالة الجسمية للدَّاعية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة النَّفسية له، وهذا بدوره يؤثِّر في قدرة الدَّاعية على إيصال دعوته على الوجه المراد، وهذا الأمر يبيِّن لنا أهمية الصِّلة بين الحالة النفسية والحالة الجسمية للدَّاعية.

وفي هذا السِّياق يقرِّر الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّ قوة الأجسام، وسلامتها من العلل والأمراض، والقيام عليها بالتطبُّب واتخاذ أسباب العلاج يُنشئ جيلاً قويَّ الأجساد، صحيح الأبدان والعقول، فيقول: "لا جرم أن يتجه الإسلام بشيءٍ من العناية إلى الطِّبِّ، ذلك أنه يريد من الأُمَّة أن تكون عزيزة الجانب، مهيبة السلطان، حتى تستطيع أن تنفِّذ ما أمر الله به من إصلاح، وتتحامى ما نهي عنه من فسادٍ، وإنما يعزُّ جانبُها، ويُهاب سلطانها، متى كانت كثيرة العدد، قوية الأيدي، والطِّبُّ من أهم الوسائل إلى تكثير النِّسل، وقوة الأجسام".⁽³⁾

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير، (2052/4 - رقم 2664).

(2) ينظر: رسائل فتاوى الدعوة لجاسم بن محمد بن مهلهل الياسمين، (ص 141).

(3) بلاغة القرآن، (ص 48).

ويذكر أنَّ في سلامة الأجسام انتظام الأفكار، ورجاحة العقول، وسداد الآراء فيقول: "ومن المعروف أنَّ في سلامة الأجسام معونةً على انتظام الأفكار، وسداد الآراء، وسماحة الأخلاق، وإنما تتفاضل الأمم برجاحة عقولها، واستقامة أخلاقها". (1)

ثم إنَّ الحالة الجسمية للداعية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة النفسية له، وهذا بدوره يؤثر في قدرة الداعية على إيصال دعوته على الوجه المراد، وهذا الأمر يبين لنا أهمية الصلة بين الحالة النفسية والحالة الجسمية للداعية، يقول الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ -: "وقد جعل القرآن الكريم اطمئنان النفوس من أعظم نعم الله على الناس، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 3-4]. فامتئ على قريش بالإطعام من الجوع الذي هو أساس الحياة الجسمية، وأتبعه بالامتنان عليهم بالأمن من الخوف، ذلك أنَّ التَّمَتُّع بالحياة الجسمية لا يتمُّ إلَّا مع راحة النفوس، وعدم اضطرابها بالخوف من الأيدي العادية". (2)

ومن العناية بصحة الجسم العناية بالنظافة، فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يعنى بالنظافة في كلِّ شيء، في المسكن، والملبس، والمطعم، والبدن، ومحل العمل عنايةً فائقةً، فقد اهتمَّ الشرع بالنظافة والطهارة اهتماماً بالغاً.

ومن عناية الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - بهذا الباب كتابته لمقالٍ نشره في مجلة "لواء الإسلام"، تحت العدد الخامس من السنة الحادية عشرة بعنوان: (النَّظَافَةُ فِي الْإِسْلَامِ).

يقول الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - في هذا الصدد: "لما كان الإسلام ديناً عاماً لا يختصُّ بقوم دون قوم، وديناً خالداً لا يختصُّ بجيلٍ دون آخر، أتى بكلِّ ما فيه إصلاح الدارين: الأولى، والآخرة، ومما فيه إصلاح الدارين: النظافة... فالإسلام اعتنى بالنظافة، وأعطاهما من العناية ما تستحقُّ". (3)

(1) بلاغة القرآن، (ص 48)

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 114).

(3) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 172-175) - بتصرفٍ -.

ثمَّ راح الشيخ يعدّد مظاهر الطّهارة والنّظافة في الشرع الحكيم، وفي الفروع الفقهيّة المختلفة، كالوضوء للصلاة، وإزالة النّجس، والغسل من الجنابة، والحيض والنّفاس، ومشروعية سنن الفطرة، واجتناب أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وسائر الآداب الشرعيّة: كالنّهْي عن استعمال الإناء الذي وَلَغ فيه كلبٌ إلا بعد غسله مراتٍ، ونهي القائم من النّوم أن يُدخل يده في إناء الوضوء حتى يفرغ عليه الماء مرّتين أو ثلاثاً، والنهي عن التّنفس في الإناء، والتّفخ فيه، وغير ذلك، كلّ هذه الخصال للدلالة على مكانة النّظافة في الإسلام، وأنّ هذا الدّين دين الطّهارة والتّنزه من الأقدار الحسيّة والمعنوية، وكلُّ هذا يعود - بلا شكٍّ - على جسم المسلم بالسّلامة والصّحة، وعلى روحه بالتركيّة والتّطهير. (1)

وهو - رَحِمَهُ اللهُ - ينعى على الذين يلبسون وَسَخَ الثياب، ومُرَقَّها، مع القدرة على لبس الحسن منها، ويظنّون أنّ ذلك من دين الله تعالى، وأنه من الزهد في الدنيا، فيقول: "فلا يعتبر من الزهد في الإسلام لبس ثوب غير نظيف، ولا لبس مرقعة لا يراد بترقيعها استدامة الانتفاع بها". (2)

ثانياً/ نحو خلقه:

يؤلي الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - عنايةً كبيرةً بالجانب الخُلقي، وقد أغرق في الحديث عنه، وحملت مقالاته وأبحاثه الكثير من ذلك، لما له من تأثير كبير في حياة الناس، ونهضة الأفراد والأمم، وحاجة المصلح والداعية إلى الله إلى هذا الأصل، "فالأمم النّاهضة تحتاج نفوسها إلى الغذاء الجيّد من الأخلاق والسّجايا، لتقوى به على مواصلة النهوض إلى المعالي، كما تحتاج أجسامها إلى الغذاء الجيّد من الطعام؛ لتقوى به على مواصلة الكفاح في سبيل المعاش". (3)

وفيما يلي عرضٌ لبعض هذه الواجبات الخلقية:

(1) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 172-175).

(2) المرجع السابق، (ص 176).

(3) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 159).

1- الصدق:

الصدق في حد ذاته ملازم للإيمان، ومرتبطة بالتقوى، بل لا يمكن أن يجتمع إيمانٌ عميقٌ كاملٌ وكذبٌ صريحٌ في قلب مؤمنٍ واحدٍ أبدًا⁽¹⁾، لذا فإنَّ من واجبات الدَّاعِيَةِ الأساسية أن يكون صادقًا في جميع أحواله، صادقًا مع ربِّه، ومع نفسه، ومع الآخرين. وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالصدق، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

وقد اعتنى الشيخ الخضر بهذه الخصلة الجليلة، وبيَّن حاجة المصلح إليها في كل حاله، وله كلامٌ كثيرٌ مبثوثٌ في مجموع مؤلفاته، كما خصَّها بالبيان في مقال خاصٍ نشره بمجلة الفتح⁽²⁾، حيث بيَّن فيه مفهوم الصِّدْق في اللغة والشرع، وبيَّن ضده وهو الكذب، وكيف تُعرف أماراته على المتكلم الواعظ.⁽³⁾

ثم ذكر جملةً من ملامح الصِّدْق في اللهجة، من ذلك: التنويه بمسألةٍ دقيقةٍ لا يتفطن لها كثيرٌ من الناس، وقد يقع فيها الإنسان وهو يظن أنه صادقٌ فيما يقول، غير أنَّ صدق اللهجة يأبى هذا الفعل، وهو أنَّ الرجل قد يحدث عن أشياء يحسُّ بها في نفسه أو يدركها بحواسه، ثم هو لا يحترس أن يقول: "أحببتُ" وهو مبغضٌ في نفسه، أو يقول: "سمعتُ" و"رأيتُ" وهو لم يشهد المسموع أو المرئي.⁽⁴⁾

ومن ذلك: الاحتراس فيما يتحدَّث به عن روايةٍ، أو يتحدث به عن ظنٍّ واستنباطٍ؛ لأنَّ هاذين الصنفين يعثران بصاحبهما في مخالفة الواقع أحيانًا، وينزلان به إلى أن تحوم حوله الظُّنون.⁽⁵⁾

(1) ينظر: صفات الداعية لحمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، (ص 73).

(2) العددان (64 و 65) من السنة الثانية 1346 هـ- 1927 م - القاهرة.

(3) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 64).

(4) المرجع نفسه.

(5) المرجع نفسه.

ومن ذلك: نقد الأخبار التي تأتي من طريق الرواية، والاحتباس في الحديث الذي يستند فيه إلى ظنٍّ وأَمارةٍ: أَلَّا يطرحه إلى النَّاسِ في صورة المقطوع به، بل يَنْبِئُهُ على أَنه تَحَدَّثَ به على وجه الظَّنِّ؛ فمن حَدَّثَ بما علم، واحتسب فيما روى أو ظنَّ، فقد قضى حقَّ فضيلة الصِّدْقِ ووفَّى. (1)

ثم ذكر - رَحِمَهُ اللهُ - فصولاً متعلِّقةً بصدق اللهجة، وهل الواقع فيها، والمتلبس بها محتسبٌ واقفٌ على سياج الصِّدْقِ، أو هو واقعٌ في حماء، من ذلك: الصدق والمجاز، حيث قرَّر أنَّ الواعظ البليغ لا يخرج عن حدود الصِّدْقِ ما يجري على لسانه من ضروب الكناية وفنون المجاز. (2)

وتحدَّثَ عن الصدق والقصاص الخيالية، وأنها ضروبٌ ثلاثة، لا تخرج عن حدِّ مجانبة الصدق على اختلاف درجاتها، وأشد ذلك: ما يختلقه الواعظ على ألسنة ذوي نفوسٍ ناطقةٍ، ولا يَنْبِئُهُ على أنَّها غير واقعةٍ، يريد بوضعها ما تحتويه من عبرةٍ أو أدبٍ لغَةٍ. (3)

وتحدَّثَ عن علاقة الصِّدْقِ بإخلاف الوعد، وإذا كان الوفاء بالوعد يجعله صادقاً، فإنَّ خلافه يجعله كاذباً لا محالة (4)، وعن علاقته بإخلاف الوعيد، وقرَّر أنَّ الرجل الذي يوعدُ آخر، ثم يضرب عنه عفوًا، إنما يمدح من جهة أنَّ مصلحة إخلاف الوعيد أرجح من مصلحة إنفاذه، ففضيلة العفو تغمر عيب الكذب، وتجعله في نظر الأخلاق شيئاً منسياً. (5)

وتحدَّثَ عن الصِّدْقِ والمعارض (6)، ويبيِّن أنَّ المسلم قد يقع في حالٍ لا يليق معه التَّصريح بأمرٍ واقعٍ، فترغمه على أن ينطق بما يكره، لعلمه أنَّ حديثه فيها على نحو ما يعلم يكون جالباً

(1) رسائل الإصلاح، (ص 65).

(2) ينظر: المرجع نفسه.

(3) المرجع السابق، (ص 66).

(4) المرجع السابق، (ص 67).

(5) المرجع نفسه.

(6) المعارض: عرفها الشيخ الخضر بقوله: "هي ألفاظ محتملة لمعنيين، يفهم السامع منها معنى، ويريد المتكلم منها معنى آخر". المرجع السابق، (ص 68).

عليه أو على غيره ضرراً فاحشاً، فها هنا يفسح له - بمقتضى قانون الأخلاق الذي أتقن الإسلام صنّعه - أن يأخذ بالمعاريض، ولا يكون بذلك مجانباً للصِّدْق، فإنَّ علم مكارم الأخلاق - الذي رفع الإسلام قواعده - فسيح الصِّدْر بمقدار ما يسع مقتضيات الحياة الفاضلة. (1)

وقد استدل لذلك بقصة أبي بكرٍ الصِّدِّيق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في هجرته المباركة مع النَّبِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - من حديث أنس بن مالك - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - (2) قال: «أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ شَيْخٌ يُعْرِفُ، وَنَبِيُّ اللَّهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - شَابٌّ لَا يُعْرِفُ، قَالَ: فَيَلْقَى الرَّجُلُ أَبَا بَكْرٍ فَيَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ؟ فَيَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ، قَالَ: فَيَحْسِبُ الْحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الْحَيْرِ». (3)

2- حسن السمّت:

خلق الله الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض، وأودع فيه العقل والفهم؛ ليدلّ الناس على معرفته، ويبين لهم الأحكام التي يوحى بها إليهم، ويجريها عليهم إذا اختلفوا، وأرسل الأنبياء - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مثلاً علياً، وأكملهم - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، فكان الإمام الأعظم الذي يُقتدى بأقواله وأفعاله التي منها: حُسن السمّت.

وقد نوّه الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - بهذا الخلق الذي يجب على الداعية إلى الله تعالى أن يتحلّى به، وقرّر أنّه بقدر محافظة الإنسان على حُسن السمّت تكون مهابته في قلوب الناس، وبيّن أنّ ضابطه - بعد التزام الأوامر واجتناب النواهي - ألاّ ينحط في الهزل والمجون، وأن يتعد عمّا يستهجنه الناس في أمثاله. (4)

(1) رسائل الإصلاح، (ص 68).

(2) أنس بن مالك: (10 ق هـ - 93 هـ = 612-712م): هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصاري، خادم رسول الله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، يكنى أبا حمزة، سمي باسم عمه أنس بن النضر، كان مقدم النبي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - المدينة وهو ابن عشر سنين، وقيل: ابن ثمان سنين، مولده بالمدينة، وأسلم صغيراً، وخدم النبي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إلى أن قبض، يُعدُّ من المكثرين من حديث رسول - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -. ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر، (109/1).

(3) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وأصحابه إلى المدينة، (62/5 - رقم 3911).

(4) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 196-198).

وذكر - رَحِمَهُ اللهُ - مظاهر حسن السَّمت في الدَّاعية إلى الله ⁽¹⁾، من ذلك: أن يلبس ملابس أمثاله في البلد الذي استوطنه، وألا يفِرَّ من صفِّ القتال خوفاً من الموت؛ فإنَّ الفار من صفِّ القتال يُعدُّ من قبيل الجبناء الذين يحبُّون الحياة على أي حالٍ، ويؤثرونها على الموت في سبيل الدَّعوة إلى الحقِّ، ومن هذا الفرار المذموم ترك الدَّعوة إلى الحقِّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك: ألا يخالف شريعة الله في نفسه وأهله، فإنَّ العامَّة والخاصَّة يرون فيمن خالف شريعة الله قد اختلَّ سَمته، وأنَّ تحمُّل الأذى، والصَّبْر على المكاره يزيد في حسن سمِّ الدَّاعية إلى الله، فمن رضي من الدُّعاة إلى أن يُضرب أو يموت في السِّجن، ولا يخالف الشريعة بما يُطلب منه، فقد حافظ على حسن سمته الذي أمره الله بالمحافظة عليه، فهذا مالكٌ - رَحِمَهُ اللهُ - وأحمد - رَحِمَهُ اللهُ - ما ازدادا بسجنهما وضربهما وأذيتَّهما إلا رفعةً، وزيادة هيبة، وعلو مكانةٍ، وحسن سمِّ وذكرٍ في الناس.

ويرى - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ من جملة ما يُخرج الداعية إلى الله تعالى من حسن السَّمت بالقول؛ النُّطق بالفحشاء، وذكر العورات بالأسماء، فإنَّ النَّبيَّ - ﷺ - لم ينطق بالفحشاء، ولم يكن متكلفاً النُّطق به؛ أي: لم يكن الفحش حُلُقاً له، ولا مكتسباً، وللأدباء في الكناية والمجاز مندوحةٌ من الخروج على حسن السَّمت بالقول إذا اضطروا إلى ذلك. ⁽²⁾

وقد ذكر نماذج عن العلماء الذين حفظوا سمَّتهم، وراعوا أن تحتل مروءاتهم بشيءٍ مما قد يُنقصها، أو يلحقها الدُّم، من ذلك ما ذكره عن خاله الإمام العلامة محمد المكي بن عزوز - رَحِمَهُ اللهُ - حيث قال: "كان أستاذنا الشيخ محمد المكي بن عزوز يدرِّس لنا في جامع القصر بتونس شرح ابن هشام لقصيدة كعب بن زهير في مدح النَّبيِّ - ﷺ -، ومن جملتها أبياتٌ غزليَّة، وكان الشيخ يشرح الأبيات الغزلية، فدخل جماعة من العامَّة، وجلسوا بالحلقة، فخشى الشيخ أن ينكروا عليه شرح الأبيات الغزلية، فانتقل في الحال إلى حديث زاهر - رَحِمَهُ اللهُ - ودخول النَّبيِّ - ﷺ - السُّوق، وزاهر يبيع شيئاً أمامه". ⁽³⁾

(1) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 198-199).

(2) ينظر: المرجع السابق، (ص 199-200).

(3) المرجع السابق، (ص 199).

3- نزاهة اللسان عن المكروه:

قال - رَحِمَهُ اللهُ -: "خلق الله الإنسان، وجعل له لساناً يبين به الحقيقة، ويتوسَّل به إلى ما تقتضيه الحياة من المرافق، فمن استعمله للحكمة، أو القول النَّافع، فقد أقرَّ بالنَّعمة، ووضع الشَّيء في الموضع الذي خُلِق من أجله، ومن كمال الإنسان: ألا ينطق إلا بالحكمة، أو القول المفيد له، أو لسامعه، والشرعية أمرت بإلانة الكلام حتى للأعداء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34]". (1)

ثم بيَّن أنَّ على الدَّاعية التحلِّي بهذا الواجب؛ لأنَّه من هدي النَّبيِّ - ﷺ - وخُلِقَ، فقال: "وكان النَّبيُّ - ﷺ - يسمع الكلمة النَّابية، أو يبلغه أنَّ قومًا منافقين تكلموا بسوءٍ، ونسبوا إلى مقام النَّبوَّة ما لا يليق به، فيقول بعض الصحابة: دعنا نقتلهم، فيقول: «دَعُوهُمْ لِنَلَّا يَقُولَ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» (2). وقال أنس بن مالك - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: ((خَدَمْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ أَفٍّ، وَلَا: لَمْ صَنَعْتُ، أَوْ هَلَّا صَنَعْتُ)) (3)". (4)

وقد ذكر عن نفسه - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّه لم يكن يقابل من أساء إليه بالقول إلا بحسنه، وأنَّه كان يتنزَّه عن فاحش القول، ويصون لسانه عن السُّوء، فقال - رَحِمَهُ اللهُ -: "ووقع بيني وبين أحد العلماء نزاعٌ في مسألةٍ، فلم يقتصر على ما يراه صحةً لرأيه، بل زاد على ذلك كلاماً لا يتعلَّق بالبحث، فأجبتَه بذكر الحقيقة والتاريخ، وقلت له: ما زاد على ذلك، فغير أهل العلم أقدر عليه من أهل العلم". (5)

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 127).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما يُنهى من دعوة الجاهلية، (4/183 - رقم 3330)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، (4/1998 - رقم 2584).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسَّخاء، (8/14 - رقم 6038)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، (4/1804 - رقم 2309).

(4) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 127).

(5) المرجع السابق، (ص 128).

ومن جميل تقريراته المتعلقة بأدب الخلاف بين العلماء: أَنَّهُ نَعَى عَلَى مَنْ يَصِفُ قَوْلَ مُخَالَفِهِ بِالضَّلَالِ، أَوْ خُرُوجٍ عَنِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، بَلْ عَلَى الْمُجْتَهِدِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى ذِكْرِ الدَّلِيلِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى تَأْيِيدِ رَأْيِهِ، دُونَ أَنْ يَصِفَ رَأْيَ الْمُخَالَفِ بِضَلَالٍ، أَوْ خُرُوجٍ عَنِ الشَّرِيعَةِ. (1)

وقد مثَّلَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ مَا كَانَ يَصْدُرُ عَنِ الْإِمَامِ ابْنِ حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللهُ - (2) فَقَالَ: "وَابْنُ حَزْمٍ عَالِمٌ فَاضِلٌ، غَيْرَ أَنَّهُ نَقَصَ مِنْ قَدْرِهِ أَنَّهُ أَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي الْأُئِمَّةِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى بَيَانِ رَأْيِهِ وَالْحُجَّةِ عَلَيْهِ، أَوْ بَيَانِ بَطْلَانِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ غَيْرِهِ مِنَ الْأُئِمَّةِ". (3)

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَكَانَةِ هَذَا الْأَدَبِ بِالنَّسْبَةِ لِلدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ، وَمَدَى تَأْثِيرِهِ عَلَى شَخْصِهِ، وَعَلَى دَعْوَتِهِ بِالْإِجَابِ أَوْ السَّلْبِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّ هَذَا الْأَدَبَ لَا بُدَّ أَنْ يَصْحَبَ الْمُسْلِمَ حَتَّى فِي عَادَاتِهِ الدِّيُونِيَّةِ، فَقَالَ: "وَمِنَ الْعَادَاتِ الْجَارِيَةِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ: أَنْ يَتَّخِذَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ خَادِمًا يُسَاعِدُهُ فِي شُؤُونِ الْمَنْزِلِ، وَمِنَ الْمَحَافِظَةِ عَلَى آدَابِ الْإِسْلَامِ أَلَّا يَدْعُوَ الْخَادِمَ بِلَقَبٍ يَجْرَحُ عَاطِفَتَهُ، وَلِيَكُنَ الْخَادِمُ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ أَوْ الْأَخِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَلْبَسِهِ، وَإِنْ كَلَّفَهُ بِعَمَلٍ يَشْقُ، أَعَانَهُ عَلَيْهِ". (4)

4- المروءة:

وهي أول واجب خُلُقِيٍّ يلتزمه الدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وهي خَصْلَةٌ رَفِيعَةُ الْقَدْرِ - كَمَا قَرَرَهُ

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 128).

(2) ابن حزم: (384-456هـ = 994-1064م): هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري القرطبي، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، كان شديدًا في ردوده على خصومه، وخاصة المالكية منهم، توفي سنة 465هـ، من مصنفاته: "المحلى"، و"الفصل في الملل والأهواء والنحل"، و"الإحكام في أصول الأحكام". ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، (3/325)؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، (184/18).

(3) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 128).

(4) المرجع السابق، (ص 131).

الشيخ -، تجري في منشآت الأدباء على جهة المدح والفخر، ويُحدَّث عن معناها في علوم اللغة والشريعة والأدب والأخلاق، وهي تعني الإنسانية، والرجولية الكاملة، وعظم النفس، وصيانتها عن كلِّ حُلُقٍ رديٍّ، وكمال الرجولية ينتظم من الأخلاق الحميدة، والآداب السَّامية، فهي - إذاً - جِماع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، فمن يفوته جانبٌ من هذه المكارم أو المحاسن، يفوته جانبٌ من العناصر التي تتكون منها المروءة. (1)

وقد ذكر الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - آدابًا لا يعلو مقام الداعية في المروءة إلا بالمحافظة عليها، منها: الأناة والثُّودة في القول والفعل، وأن يضبط نفسه عن هيجان الغضب، أو دهشة الفرح، ويقف موقف الاعتدال في حالي الضراء والسَّراء، وألاَّ يتخذ الظهور بخلاف ما يضر عادهً مثلما يفعل قوم لا تشمئز نفوسهم من الملق والرياء، وألاَّ يعمل في السِّر ما يستحي منه في العلانية، وأن يحفظ لسانه عن أعراض النَّاس يلتقط معايبهم، أو يختلق لهم معائب، متخيلاً أنه يحظى باسم المروءة من إصاق العيب بغيره، وأن يحفظه من أن يلفظ مثلما يلفظ أهل الخلاعة من سفه القول، وأن يتجنب تكليف زائريه، ولو بعملٍ خفيفٍ.

ومن ذلك: أن يسود في مجلسه الجدُّ والحكمة، وألاَّ يُلَمَّ في حديثه بالمزاح إلا إماماً مؤنساً في أحوال نادرة، وأن يحسن الإصغاء لمن يحديثه من الإخوان، وأن يحتمل ضيق العيش، ولا يبذل ماء حياته وكرامته في السَّعي لما يجعل عيشه في سعة، أو يدنيه في ثراءٍ، ولا يُظهر الشَّكوى من حوادث الدَّهر إلا أن يتقاضى حقاً، وأن يكون حافظاً لما يُؤتمن عليه من أسرارٍ، ويحذر أن يؤذي شخصاً، وأشدُّ ما يحذر أن يؤذي ذا مروءةٍ مثله. (2)

5- الشجاعة، والجرأة في الحق:

لا يستطيع الدَّاعية أن يقوم بأيِّ عملٍ من الأعمال دون امتلاك قِسطٍ من الشَّجاعة؛ ذلك لأنَّ طبيعة الدَّعوة تكمن في تجاوز الشُّكون والسَّلبية والقصور الدَّاتي، إلى التَّأثير في الآخرين،

(1) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 8-9).

(2) ينظر: المرجع السابق، (ص 11-14).

وإعادة صياغتهم من جديد، والشَّجاعة تعني أشياء كثيرة، منها: مواجهة الظُّلم، والتَّغَلُّب على الصعوبات والأخطار، والاعتراف بالخطأ وغيرها. (1)

والشَّجاعة والجرأة تُعدَّان من الغرائز الفطرية، ولكن في الوقت نفسه يمكن تقويتها وتنميتها بالتربية الجهادية، والمران، والتدريب، وخوض المواقف؛ لأنَّ كثرة اعتياد الشَّيء تجعله طبعاً (2)، ويستحيل أن يكون المسلم جبناً أو نذلاً - كما يقول الشيخ الخضر -؛ لأنَّ الإسلام صبَّ البطولة في أعصاب المسلمين، وأجراها في دمائهم. (3)

وقد حرص الإسلام على اتِّصاف الدَّاعية بالقوَّة والشَّجاعة والجرأة، وذلك لأهميتها في بيان الحقِّ وقوله دون خوفٍ أو وجلٍ.

ويقصد الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - بالشَّجاعة في هذا الموضع: الإقدام على قول الحقِّ، وإبداء النَّصيحة، ولو لذي جاهٍ أو سلطانٍ يكره أن يُؤمر بمعروفٍ، أو يُنهى عن منكرٍ، وهذا ما يُسمَّى شجاعةً أدبيَّةً. (4)

وقد بيَّن حاجة النَّاس إلى شجاعة الدَّاعية المصلح، ليكونوا على بصيرةٍ من الحقِّ والباطل، والصَّواب والخطأ، فيقيمون الحقَّ، ويرجعون إلى الصَّواب، يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "يظهر أثر الشَّجاعة الأدبيَّة في: إقامة شعائر الدِّين، وتقويم الأخلاق، وإصلاح السِّياسة، وانتظام المعاملات بين النَّاس، فالشَّجاعة الأدبية هي التي تطلق لسان الأمين بوعظ جاهلٍ غليظ القلب، أو مُتَرَفٍّ متشعِّب الأهواء، أو صاحب سلطانٍ لا يحبُّ النَّاصحين، يعظه ليؤدِّي طاعةً يثقل عليه أدائها، أو ليتعلَّق بفضيلةٍ كان منقطعاً عنها، أو ليستقيم في سياسةٍ انحرف عن رشدها، أو يعدل في قضايا جارٍ في أحكامها، أو يحترم في معاملته حقوقاً أجحف بها". (5)

(1) ينظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي لعبد الكريم بكار، (ص 134-135).

(2) ينظر: الاحتساب وصفات المحتسبين لعبد الله بن عبد المحسن المطوع، (ص 97).

(3) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 159).

(4) ينظر: المرجع السابق، (ص 33).

(5) المرجع السابق، (ص 35).

وذكر - رَحِمَهُ اللهُ - أمورًا تُعين المصلح على اكتساب أدب الشَّجاعة، فقال: "وأكبر ما يَقْوِي الشَّجاعة الأدبية في النفوس: تعظيم أمر الله تعالى، وشِدَّة التَّيَقُّن بما وعد به أنصار الحقِّ من العِزَّة في الدنيا، والسَّعادة في الآخرة، ومن قرأ التاريخ، وقف على أسماء رجالٍ كثيرٍ لم ينالوا رفعةً في حياتهم، وذكَّرًا جميلًا بعد مماتهم، إلا لأنَّهم كانوا يجهرون بكلمة الحقِّ في وجوه الوجهاء أو الرؤساء، لا يصدُّهم عن الجهر بها خوفٌ من مكرهم، ولا طمعٌ فيما بأيديهم". (1)

6- علوُّ الهمة:

نقل الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - عن علماء الأخلاق بيان هذا الخلق الذي يجب أن يتَّصف به المسلم، والداعية المصلح على وجه الخصوص، وأثنى: استصغار ما دون النِّهاية من معالي الأمور⁽²⁾، ثم بيَّن أنَّ عاليَ الهمة لا تهدأ نفسه إلا حين يضع نفسه في أسمى منزلةٍ، وأقصى غايةٍ، فلا عظمة لهم قومٌ يبتغون النِّهاية في زينة هذه الحياة، ويغرقون في التمتع بلذاتها. (3)

وليس عاليَ الهمة - في نظر الشيخ - من ينزع إلى خصلةٍ شريفةٍ، حتى إذا شعر بالعجز عن بلوغ غايتها البعيدة، انصرف عنها جملةً، والتحق بالطائفة التي ليس لها في هذه الخصلة من نصيبٍ، فإنَّ الذي تقتضيه الحكمة، أن يذهب الرجل في همِّه إلى الغايات البعيدة، ثم يسعى لها سعيًا، ولا يقف دون النِّهاية إلا حين ينفد جهده، ولا يهتدي للمزيد على ما فعل سبيلًا. (4)

ويرى الشيخ أنَّ عِظَم الهمة ينشأ عن طريق الاقتداء، كأن ينشأ الفتى تحت رعاية وليٍّ، أو أستاذٍ يطمح إلى النِّهايات من معالي الأمور، أو من طريق تلقين الحكمة، وبيان فضل عظم الهمة، وما يكسب صاحبه من سُؤددٍ وكَمالٍ، أو من طريق درس التاريخ، والنَّظر في سير أعظم الرجال. (5)

(1) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 37).

(2) المرجع السابق، (ص 49).

(3) المرجع السابق، (ص 50).

(4) المرجع السابق، (ص 50-51).

(5) المرجع السابق، (ص 51).

وتظهر قيمة علو الهمة في أمرين جليلين - كما يرى الشيخ -:

أَوَّلُهُمَا/ عظم الهمة في العلم⁽¹⁾؛ لأنّها وسيلة تجعل المعارف غزيرةً، والمباحث محرّرةً، والآراء مبتكرةً، وهي الوسيلة التي سعدت بعلمائنا الذين خدموا الدّين والعلم والمدنية، فكانت لهم المكانة التي يصفها التاريخ بإجلال وإعجاب⁽²⁾.

ويذكر الشيخ لكبر الهمة في العلم مظاهر منها: قضاء الوقت في الدّرس، أو المطالعة، أو التحرير، واقتحام المصاعب لأجل ذلك، ودفع العوارض والعوائق، وبسط النظر في كل مسألةٍ مبحوثةٍ حتى تصل إلى لبّائها، ووضع اليد في كلّ علمٍ تستطيع إليه طريقاً، وتتويج ذلك كلّه بالعمل به، والسّير على ما يرسمه من خططٍ صالحةٍ في هذه الحياة⁽³⁾.

ويرى الشيخ أنّه "لم يقض حقّ العلم، بل لم يدر ما شرف العلم، ذلك الذي يطلبه لينال به رزقاً، أو ينافس فيه قريباً، حتى إذا أدرك وظيفةً، أو أنس من نفسه الفوز على القرين، أمسك عنانه ثانياً، وتنحّى عن الطلب جانباً"⁽⁴⁾.

ثم يسرد الشّيخ صفات العالم والمصلح عالي الهمة في العلم، ومنها: أنّ كبير الهمة في العلم يريد أن يكون النّفع بعلمه أشمل، مع احترامه لآراء أهل العلم، بنقدها بثبوتٍ، وعرضها على قانون البحث، ثم الفصل فيها من غير تطاولٍ عليها، ولا انحرافٍ عن سبيل الأدب في تنفيذها. وكبير الهمة يستبين خطأً في رأي عالمٍ، أو عبارة كاتبٍ، فيكتفي بعرض ما استبان من خطأٍ على طلاب العلم ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقّط الكلام، أو يخفّ إلى التبجّح بما عنده⁽⁵⁾.

(1) وقد أفرد لهذا العنصر مقالا بعنوان: كبر الهمة في العلم منشور مجلة "نور الإسلام" - العدد الثامن من المجلد الأول، الصادر في شهر شعبان 1349 هـ.

(2) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 160).

(3) المرجع نفسه.

(4) ينظر: المرجع السابق، (ص 161).

(5) المرجع السابق، (ص 162-163).

ويرى أنَّ من عِظَمِ الهِمَّةِ في العلم أن يدرس الدَّارس علمًا فيُتقنه، ثم ييسط نظره في علوم أخرى، لا ممن درس علمًا، ثم قعد لا يلقي لغيره من العلوم بالًّا، ولا يعرف لثمرها اللذيذ طعمًا. (1)

ثانيهما/ عِظَمِ الهِمَّةِ في النُّصح والإرشاد: إذ يقرّر أن سبيل الدِّفاع عن الحقِّ، والدعوة إلى الإصلاح عقبة لا يقتحمها إلَّا عظيم الهِمَّة، وأنصار الحقيقة ينصبون أنفسهم أمام طوائف المبطلين والمفسدين، مع ما فيهم من الأيدي الباطشة، وإثما "تعظّم همهم على قدر ما يتوقعونه من فقد محبوبٍ، أو لقاء مكروهٍ، فالذي ينكر على الحكام خرقًا في السِّياسة، أو خيْفًا في القضاء، يكون أعظم هِمَّةً ممن لا يحمي الحقيقة إلَّا إذا عبثت بها أيدي الضُّعفاء، والذين لا يجدون ما ينفقون". (2)

ويرى أنَّ من معالي الأمور الدَّعوة إلى الله، وأنَّ نهايتها التي يبلغها الناصح المصلح الإرشاد إلى الحقِّ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، غير حافل بما يحفل به ضعيف الإيمان، أو قليل الإخلاص من رضا الملأ الذين استكبروا. (3)

ثم يقول - رَحِمَهُ اللهُ - في ختم هذا التأصيل البديع: "رفع القرآن مكانَ الدعوة، ثم جعل الدعاة إلى حقٍّ أو إصلاحٍ خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس، وقد خرج بفضل القرآن رجالٌ عظمت همهم، فكانوا يؤثرون الحقَّ والنِّظام على منافعهم الخاصة، ويحتملون في سبيل النُّصح والإرشاد ما تدعوهم الحكمة إلى احتماله من فقد السَّرِّاء، أو لقاء الضَّرَّاء، وسرى - بتوفيق الله تعالى - من هذه المعاهد والمدارس رجالًا كثيرًا يقدرون عِظَمِ الهِمَّةِ في النُّصح للأُمَّة، وينهضون بهذا الواجب ضاربين بمنافعهم الخاصة إلى وراء، وإذا فاتهم أن يروا ثمرة جهادهم بأعينهم، ففي شرفِ الجهاد وإنارة السبيل للأجيال القابلة كفاية". (4)

(1) رسائل الإصلاح، (ص 53).

(2) المرجع السابق، (ص 56).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 57).

(4) المرجع السابق، (ص 57-58).

7- الحِلْم:

وهي إحدى الخصال التي جعلها الشيخ من أصول مكارم الأخلاق، والدَّاعِيَةُ إلى الله، المزاوِلُ لمهمة الإصلاح، أوَّلُ ما ينبغي التحلِّي به هذه الخصلة الرفيعة، لاختلاطه بأصناف الناس، على اختلاف طبائعهم وأخلاقهم. (1)

يقرِّر الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ الحليم بحقِّ هو من أخضع قوَّة غضبه للعقل خضوعاً يجري في النَّفس مجرى الطبيعة، حتى لا تهيج إلَّا للأمر الذي ينبغي أن تهيج له، وفي الوقت الذي ينبغي أن تهيج فيه، ولا تتجاوز الحدَّ الذي ينبغي أن تقف عنده، فلا يطغى الغضب عليه حتى يدفعه إلى الانتقام، أو يمنعه من الصَّفح حيث يكون الصَّفح أولى به. (2)

ومع ذلك فإنَّ "الحلم لا يُعارض الأخذ بالحزم، شأن الفضائل، يأخذ بعضها بيد بعض، وتلاقى لتتعاون على البرِّ والتقوى، فإذا كان الحلُّ سكونَ النفس، وعدمَ تهيجها للمكروه الذي يكفي في دفعه الصَّفح عنه، فإنَّ من الحزم الغضب للأذى الذي يصدر عن لؤم، ويتمادى ولو مع الإغضاء عنه". (3)

وخلق الحلم لا يشتهه بالدِّلة في حالٍ، فإنَّ الدِّلة احتمال الأذى على وجهٍ يُذهب بالكرامة؛ أما الحلم، فهو إغضاء الرجل عن المكروه حيث يزيده الإغضاء في أعين الناس رفعةً ومهابةً، كما لا يظهر معنى الحلم إلا مع القدرة على دفع الأذى باليد أو اللسان. (4)

ثمَّ بيَّن - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ كلَّ الأخلاق في حاجة إلى أن تتعهد بالتَّربية والتَّهذيب، وأشدّها حاجةً إلى ذلك التعهّد: الحلم، وأنَّ مكارم الأخلاق كلّها خيرٌ، وكلَّ مكرومةٍ ترفع صاحبها في الشَّرَف درجةً أو درجاتٍ، ومن أعظمها أثراً في سعادة حياة الأفراد والجماعات: حُلُقُ الحلم،

(1) ينظر: محاضرات إسلامية، (ص 162)، وقد خصَّها بمقال بعنوان: الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية، منشور بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء السادس من المجلد العاشر.

(2) ينظر: الهداية الإسلامية، (ص 107).

(3) المرجع السابق، (ص 108).

(4) المرجع نفسه.

ويكفي الحِلْمَ شرفاً أنَّ اسمه أُخِذَ من بين أسماء الفضائل، وسمي به العقل. ⁽¹⁾

ثم راح - رَحِمَهُ اللهُ - يسردُ الآثار الجميلة لهذا الخلق، ويستدلُّ عليها بالقرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة، وكلام العرب شعراً ونثراً، ليختم الحديث عنه بقوله: "وصفوة الحديث: أنَّ الحِلْمَ يحتاج إليه عميد الأسرة في منزله، والتَّاجر في محلِّ تجارته، والعالم في مجلس دراسته، والقاضي في مقطع أحكامه، والرئيس الأعلى في سياسة رعيته، بل يحتاج إليه كلُّ إنسان مادام الإنسان مدنيّاً بالطبع، لا يمكنه أن يعتزل النَّاسَ جملةً، ويعيش في وحدةٍ مطلقة". ⁽²⁾

(1) الهداية الإسلامية، (ص 110).

(2) المرجع السابق، (ص 113).

المطلب الثالث: واجبات الداعية تجاه أسرته وأقاربه.

إنَّ أول من يجب على الدَّاعية أن يحرص على هدايته ونجاته هي نفسه التي بين جنبيه، ثم أهله الذين هم أولى الناس به، وبشفقته عليهم من عذاب الله تبارك وتعالى، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105]، أي: أقبلوا على أنفسكم فانظروا ما ينفعكم في أمر آخرتكم فاعملوا به، واعملوا في خلاصها من عقاب الله تعالى. (1)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: 6] فأمر الله تعالى المؤمنين عامةً بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار بطاعته، والعمل بمرضاته، وبالآداب الصالح. (2)

وفي هذه الآية أمر الله تعالى بإصلاح النَّفس، ثم أمر بدعوة الأهل؛ بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وألا يدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة. (3)

وأول ما أمر الله تعالى نبيّه - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بالدَّعوة أمره بدعوة أهله، وإنذارهم من عذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] فقام النَّبيُّ - ﷺ - بهذا الآية ونفَّذَ هذا الأمر، فدعا قريشاً، فاجتمعوا فعَمَّ وخصَّ، فقال: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبْلُهَا

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، (138/11).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير، (240/5).

(3) ينظر: تفسير الطبري، (491/23).

بِبِلَالِهَا»⁽¹⁾.

وقد بيّن الشيخ محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - حقّ العشيرة في الدعوة، وأنّ هذا من لازم الانتماء إليهم ومحبتهم، فقال: "مِثْلُ الرَّجُلِ إِلَى قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ أَمْرٌ مَغْرُورٌ فِي الطَّبِيعَةِ؛ كَحَبِّهِ أَبَاهُ وَابْنَهُ وَأَخَاهُ، وَهِيَ فِطْرَةٌ لَا يُمْكِنُ اقْتِلَاعُهَا مِنْ نَفُوسِ الْبَشَرِ مَا دَامُوا بَشَرًا، بَلْ لَا يَنْبَغِي الْعَمَلُ عَلَى مُحْوَاهَا؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَقْوَى وَسَائِلِ الْعِمْرَانِ، وَأَشَدِّ الْبَوَاعِثِ عَلَى التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ... يَحْتَئِ الْإِسْلَامُ عَلَى إِيثارِ الْعَشِيرَةِ بِخَيْرٍ لَا يَعُودُ عَلَى غَيْرِهِمْ بَشَرًا، وَيَأْذَنُ بِنَصْرَتِهِمْ حِينَ يُسَامُونُ ضِيَمًا، أَوْ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ حَقٍّ".⁽²⁾

فبيّن الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - أنّ للعشيرة مكانةً في قلب الدّاعية، كما أن لهم حقًا عليه في دعوتهم، والعناية بصلاحهم، والتعاون معهم، ونصرتهم، وأعظم التعاون يكون في دعوتهم إلى الحقّ، وأعظم النصرة يكون بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والبدء بدعوة الأقربين فيه حَكَمٌ منها:

- 1- أنّ الحجّة إذا قامت عليهم تعدّت إلى غيرهم.
- 2- ألاّ يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحاييهم في الدعوة والتخويف، فلذلك نصّ له على إنذارهم.⁽³⁾
- 3- أنّ هذا مقتضى الشّفقة عليهم أن ينذرهم من عذاب الله تعالى ويدعوهم إلى الإيمان به.
- 4- أنّ هذا مقتضى الإحسان إليهم، وأداء حقّهم الذي أمر الله تعالى به في قوله:

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجنائز، باب ذكر شرار الموتى، (2/104 - رقم 1394)؛ ومسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، (1/192 - رقم 208). وقوله: «سأبلها ببلاها»، أي: أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً، والبال جمع بلل. وقيل هو كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، (1/153).

(2) نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 199-200).

(3) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، (8/503).

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 36].

5- أن هذا مقتضى الرِّعاية التي سيسأل العبد عنها أمام الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» (1).

وقد نبّه الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - إلى الأدب مع الأهل، حتى مع الخادم، فيجب إحسان معاملته والرفق به، واعتباره كالأخ أو الابن، فقال: "ومن المحافظة على آداب الإسلام ألا يدعو الخادم بلقبٍ يجرح عاطفته، وليكن الخادم بمنزلة الابن أو الأخ في مطعمه وملبسه، وإن كلفه بعمل يشقُّ أعانه عليه". (2)

فأهل الداعية من الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم، فيخاطبهم باللين من القول، ويؤنسهم بما لا يخلُّ بمهيبتهم، وسرد الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - قصة موعظة لقمان لابنه دليلاً على الرفق واللين، لما فيها من نصيح وحنان. (3)

واستدلَّ بحديث جاء فيه أنَّ نساء النَّبِيِّ ﷺ - كنَّ يراجعنه في الكلام، ويتقبَّل منهن ذلك؛ وكان رجال قريش لا يتقبلون مراجعة الكلام من نساءهم. (4)

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، (2/5 - رقم 893)؛ ومسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، (3/1459 - رقم 1829).

(2) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 131).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 186).

(4) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها، (3/133 - رقم 2468)؛ ومسلم في الصحيح، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، واعتزال النساء، (2-1111 - رقم 1479).

وحديث أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَشْرَ سِنِينَ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي: أَفَّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ: لَمْ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟» (1)، (2).

كما نَبَّهَ الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - على ضرورة رعاية الأبناء، وتربيتهم على مكارم الأخلاق، وحفظ دينهم، وترسيخ عقيدتهم، في حديثه عن الوسائل الثلاث التي ساعدت على زيق العقيدة، وهي:

"أحدها: هذه المدارس التي يفتحها الأجانب في أوطاننا باسم العلم، ويغفل بعض المسلمين عن سريرتها، فتأخذهم بمظاهرها، حتى يسلموا أطفالهم - وهم على الفطرة - إلى من يصبغ هذه الفطر بسوادٍ، وينزع منها روح الأدب الذي يجعلهم أولياء لعشيرتهم، نصحاء لأمتهم. ثانيها: تهاون بعض الآباء بواجب أبنائهم، إذ يرسلون الناشئ إلى معاهد العلم بأوروبا قبل أن يتلقن من علوم الدين ما يجعل عقيدته مطمئنةً، فيلاقي في أثناء الدراسة هنالك، أو في بعض المحادثات شُبَّهًا لا يجد في نفسه من الحجج ما يدفعها، وإذا تواردت الشُّبه على الناشئ، رانت على قلبه، وأصبح يبصر وجه الحقِّ أسودَّ قاتمًا، فيعود إلى وطنه وهو يحمل لأبويه عقيدة أُنهما في ضلالٍ قديمٍ، وذلك جزاء من يستهين بهدى الله، ولا يهْمُهُ إلا أن يكون لابنه مورد رزقٍ واسعٍ، أو منصبٍ في أحد الدواوين.

ثالثها: أن كثيرًا من الحكومات الإسلامية ضعف فيها روح الاعتزاز بالدين الحنيف، فاستباح واضعو برامج التعليم العام في مدارسها أن لا يضربوا لعلوم الدين بسهمٍ، ومن يضرب لها، فبسهمٍ لا يغني من جهلٍ، والتعليم الذي يهضم فيه جانب العلوم الدينية، لا يُرجى منه تهيئة نشءٍ تتساقط عليهم الشُّبه فيطردونها، أو توسوس إليهم الشياطين فيستعيذون منها". (3)

فنبَّهَ على ضرورة الانتباه للتعليم الذي يتلقاه الأبناء في المدارس، وعدم الثقة في المدارس الأجنبية، وعدم التهاون بواجب الأبناء من التربية، وتعليم أمور الدين.

(1) سبق تخريجه صفحة 103.

(2) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 186).

(3) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 92-93).

المطلب الرابع: واجبات الداعية تجاه إخوانه الدعاة.

لابدَّ من الدَّاعية إلى الله أن يراعي أخلاق الدعوة وآدابها في جميع النَّواحي، والتي من بينها الآداب مع غيره من الدُّعاة، فلا بدَّ من تكاتف الدعاة وتعاونهم، بأن يكمل بعضهم بعضاً، وهذا ما وصى به النبي ﷺ - معاذاً (1) وأبا موسى (2) حين بعثهما إلى اليمن فقال: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا» (3)، أي "كونا مُتَّفَقِينَ فِي الْحُكْمِ وَلَا تَخْتَلِفَا، فَإِنْ كُنَا لَوْ اخْتَلَفْتُمَا وَحَكَمَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا حُكْمًا آخَرَ لاختلفَ النَّاسُ، واقتدى كلُّ جَمْعٍ مِنْهُمْ بِأَحَدِكُمَا، وحينئذ يقع بينكما وبين أتباعكما العداوة والمحاربة". (4)

والشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - قد قرَّر هذا الباب تقريراً بديعاً، وأورد تفاصيله في أحد مباحث كتابه "الدعوة إلى الإصلاح" وسمَّاه: (التعاقد على الدعوة). (5)

فالدعوة - كما يقرر الشيخ - لابدَّ أن تقوم على التكاتف والتعاقد بين الدُّعاة، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، حيث عبر بلفظ (أمة)

(1) معاذ بن جبل: (20 ق هـ - 18 هـ = 603-639م): هو معاذ جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابيٌّ جليلٌ، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو أحد البُتَّة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ -، أسلم وهو فتى، وأخى النبي ﷺ - بينه وبين جعفر بن أبي طالب -، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ -، وبعثه رسول الله بعد غزوة تبوك قاضيًا ومرشدًا لأهل اليمن. ينظر: معجم الصحابة للبغوي، (5/265)؛ والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، (3/1402).

(2) أبو موسى الأشعري: (21 ق هـ - 44 هـ = 602-665م): هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار ابن حرب، من بني الأشعر، من قحطان: صحابي، من الشجعان الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - بعد حرب صفين. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، (4/1782).

(3) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، (4/65 - رقم 3038)؛ ومسلم في الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير، وترك التنفير، (3/1359 - رقم 1733).

(4) المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري، (4/309).

(5) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 17-19).

دون لفظ (قوم) فلفظ (أمة) فيه إشعاره بمعنى اتحادهم وتآلفهم، أقوى مما يشعر به لفظ: (القوم)، "فالقرآن يرشد إلى أن يكون دعاة الإصلاح جماعةً، وأن يكون أدب هذه الجماعة الاتحاد والتعاقد، ومن الواجب صرف الهمة إلى مشروع الدعوة حتى تقام على نظام يحفظ الحقائق والمصالح، أما بقاؤها مطروحةً إلى داعية الأفراد، فقد يفضي بها إلى ضياع، وطالما جعلها تُفقد حيث يجب أن تكون".⁽¹⁾

وهذا من التعاون الذي أمر الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: 2]، كما قال الشيخ: "ومن التعاون على حفظ الدين: أن ينشط العلماء للإرشاد، فيطلقوا ألسنتهم وأقلامهم في نصح من في قلوبهم بقية من خير".⁽²⁾

كما بيّن الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - ضرورة ذلك التعاون بين الدعاة، إذا لا قوام للدعوة ولا نجاح إلا به، فلا بد للدعوة من أن تقوم على تكاتف الدعاة؛ فقال - رَحِمَهُ اللهُ -: "ذكر بعض أهل العلم أن قيام الواحد بفريضة الدعوة كافٍ، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، وقالوا في وجه الاستشهاد: إن الطائفة في لسان العرب⁽³⁾: الواحد فما فوقه، وهذا القول مستقيم بالنظر إلى إبلاغ الأمر والنهي، ووضع الحقي بين أيدي الغافلين عنه، أما من حيث فعل الدعوة في النفوس، ودخولها مدخل الإقناع، فمن البين بنفسه أن الدعوة التي تقوم بها الجماعة أثراً لا تبلغه دعوة الفرد".⁽⁴⁾

وذكر الشيخ أمثلة في تاريخ الدعوة على حاجة الداعية إلى من يعينه على أمر دعوته، فقال - رَحِمَهُ اللهُ -: "والداعي إلى الإيمان يقصد إلى نقل النفوس من ملّة إلى ملّة، وتحويل النفوس من عقيدة إلى أخرى يبلغ من الصعوبة أن يحتاج دعائه إلى من يشدُّ أزرهم في إبلاغ الحجّة، أو

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 19).

(2) هدى ونور، (ص 23).

(3) ينظر: لسان العرب لابن منظور، (226/9).

(4) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 17).

مطاردة الشُّبُهَة، وكذلك سأل موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَبَّهُ أَنْ يجعل أخاه هارون شريكاً له في الرسالة، فقال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَارُونَ أَخِي ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ (٣٠) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿طه: 29-32﴾، وبعث عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلى أهل أنطاكية (١) برجلين اثنين؛ ليدعوهم إلى الإيمان، فقابلوهما بعنادٍ وتكذيبٍ، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيِّد بعثتهما، قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ [يس: 13-14]". (٢)

ثمَّ وضَّح الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - فوائد التعاون في الدعوة إلى الله، وأنَّ الدعوة الجماعية أنفع وأنجع من دعوة الفرد، ثم ذكر أن هذا النَّفْع للدعوة الجماعية يتعلق بالمدعوين، وبالدَّعوة، وبما يقصد به الدعوة (٣):

1- أما بالنسبة للمدعوين فإذا اختلفت مشارب المدعوين، وتعددت نزعاتهم، فلكثرة القائمين بالدَّعوة، وتظاهروا عليها وقع في نفوسهم، فإنَّ أساليب الدُّعاة ومسالكتهم تختلف في الغالب، فيكتمل بعضهم بعضاً، من جهة:

أ- أنَّ الدَّاعية قد يبدو له من وجوه تحسين الأمر أو التنفير منه ما لا يخطر على بال آخر، وإن كان أغزر علماً، وأوسع نظراً.

ب- وأنَّ نفوس المدعوين تختلف، فقد تميل نفوس بعضهم لأسلوبٍ دون أسلوبٍ.

2- وأما بالنسبة لما تتعلق به الدَّعوة: فإنَّ الدُّعاة يكتمل بعضهم بعضاً كلٌّ منهم في مجاله، فهذا يبيِّن صحيح العقيدة ويعلم الناس ما يجب في الإيمان، وهذا يعلمهم أمور الفقه، وهذا يردُّ

(1) أنطاكية: بالفتح ثم السكون، والياء مخففة، أول من بناها انطيخس وهو الملك الثالث بعد الإسكندر، قيل: إن أول من بناها وسكنها أنطاكية بنت الروم بن اليقن (اليفز) بن سام بن نوح - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، أخت أنطالية، باللام، ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير. ينظر: معجم البلدان للحموي، (266/1).

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 18).

(3) المرجع السابق، (ص 17-18).

على المخالفين، إلى غير ذلك.

3- أما بالنسبة لما يقصد به الدعوة فإنَّ اجتماع الدُّعاة في مواجهة الطغاة الذين أفسدوا على المسلمين دنياهم وآخرتهم، فاجتماع الدُّعاة أمام هؤلاء يريهم أنَّ الأُمَّة التي تتقلد الإسلام شريعة لا تستطيع أن تبقى أمامَ تعسفهم هذا معقودة الألسنة، أو مقبوضة الأيدي، وأنَّ الأُمَّة رافضة لما هم عليه من الباطل، ويقوم بهذا جماعة من زعماء دعاة الأُمَّة، إذ صوت الواحد ونحوه لا يؤثر في دفع هؤلاء. (1)

فالشيخ يهدف من هذا التقسيم - إلى جانب تعاون الدعاة وتكاتفهم وتكاملهم في تبليغ الدعوة - ضرورة التنظيم، بأن يكون لكلِّ داعية دورٌ محدّد في مجالات الإصلاح، وأن يراعوا قواعد النِّظام التي أمر بها الإسلام، حتى تثمر جهودهم ولا تضيع، فإنَّ القليل من العمل بنظامٍ، والدوام عليه خير من الكثير مع الفوضى والانقطاع.

ومن واجبات الداعية نحو غيره من الدعاة أن يكون له معهم حوارٌ يستفيد فيه بعضهم من بعضٍ، ويكمل فيه بعضهم نقصَ بعضٍ، وإلى هذا أشار الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - في ثنائه على تلاميذ جامع الزيتونة حيث قرّروا إنشاء جمعية، فقال: "تحركت همّةُ نُخبَةٍ من تلامذة الجامع الأعظم إلى إنشاء جمعيةٍ تؤكّد بينهم روابط الإخاء والمحبة، وتُحدث فيهم قوّة التعاون على طلب الإصلاحات اللازمة لهم في ترقية حال التّعليم، كما أنهم اعتمدوا في أصل تأسيس هاته الجمعية على مساعدة فقراء التّلامذة، وإعانتهم على تحصيل العلوم والمعارف بتأسيس نادٍ يجمع شتاتهم على المباحثة والتوسع في تبادل الأفكار، وهو مقصدٌ جليلٌ نُؤمّل أن تُحمّد عواقبه، وتأمّن مبادئه من العوائق". (2)

فالدعاة إلى الله تعالى بأمرٍ الحاجة إلى الحوار المفيد البناء، القائم على العلم والمعرفة، الملتزم بأدب الإسلام، بين الدعاة وبعضهم، وبينهم وبين شيوخهم وتلاميذهم، وبينهم وبين المدعوين،

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 18-19).

(2) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 195).

لتقريب وجهات النظر، والاستفادة من التجارب والأفكار، وإزالة العوائق التي تفسد العلاقات بينهم.

وفي مقال له بعنوان (ما يلاقيه العلماء من سماحة أهل العلم) ⁽¹⁾ قرّر جملةً من واجبات الدعاة والعلماء تجاه بعضهم، من السّماحة، والصّدّاقة، والاحترام، والتقدير، ومراعاة ما يستحقونه من حفاوة وإجلال، ومودّة وألفة، وأنّه شأن أئمة علماء الشريعة، ثم راح يستشهد بأمثلة جميلة ونافعة في سير أئمة الإسلام وأعلام الملّة، قديماً وحديثاً. ⁽²⁾

ثمّ ختم حديثه الشّيّق بقوله: "فتلك الأمثال تبين ما كان عليه العلماء من السلف الكريم من التأخي والمحبة والإيثار، وتلك طبيعة العلم إذا تمكّن من الرّوح، ولم يكن نظريّاً صِرْفاً؛ فإنه يطبع الأخلاق والأعمال على الإحسان والمجاملة والمروءة، ولذلك زكى الله - ﷻ - العلماء أكرم تزكية، وأثنى عليهم أجمل الثناء بقوله - ﷻ -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]... وأمنيتنا في تحرير هذا المقال أن يستمر العلماء على الألفة والتوادد؛ حتى يمكنهم القيام بأمر الدعوة إلى الدّين الحقّ على أكمل وجه، ويحافظون على أدب البحث مادام المخالف طالباً للحقّ بقلب سليم، أو مادام ذو الرأي لم يخرج عن دائرة الإسلام المعروفة بين المسلمين". ⁽³⁾

والحقُّ أنّ هذا المجال قد أفاض فيه الشيخ وأجاد، ولو راح الباحث يستقصي فروعه وتفصيله لطلّ به المقام، وجال فيه المقال، بل يحسن أن يُفرد بمؤلّفٍ لطيفٍ؛ للحاجة الماسّة إليه في هذا الزمان.

(1) منشورٌ بمجلة "لواء الإسلام" - العدد الثاني عشر من المجلد التاسع.

(2) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 144-148).

(3) المرجع السابق، (ص 148) - بتصرفٍ -.

المطلب الخامس: واجبات الداعية تجاه أحوال الدعوة ومقتضياتها.

ميادين الدعوة كثيرةٌ متنوعةٌ، تختلف باختلاف الزمان والمكان، إلا أنَّ لها أصولاً تضبط عمل الدعاة في جميع هذه الميادين، ومن جهود الشيخ محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - أنه بيَّن هذه الضوابط، ووجَّه الدعاة والمصلحين إلى الالتزام بها في دعوتهم، ومن هذه الضوابط:

1- قيام من يستطيع بالدعوة في أحد الميادين غير قاصر على علماء الدِّين فقط، فقد يتوهم البعض في مصر - مثلاً - إنها شأن من شؤون علماء الأزهر، أو في تونس أنها شأن من شؤون علماء جامع الزيتونة.

وبناء على هذا الوهم نجد بعض من يدرس حقائق الإسلام وآدابه، ويستطيع بيان حكمتها، ودفع شبه المضللين عنها؛ يقصِّر في القيام بحقِّ الدَّعوة، معتذراً بأنه لم يكن من أصحاب العمام، أو من علماء المعاهد الدينية. (1)

2- أن يقوم الداعية بالدعوة إلى الله بالوسيلة التي يستطيعها ويقدر عليها، لذا يقول الشيخ مبيَّناً وسائل الدعوة: "تؤدَّى الدَّعوة باللسان تارةً، وبالقلم تارةً أخرى، ولكلٍّ منهما مقامٌ هو أحقُّ به من الآخر؛ ففي النَّاس من يُسعدُه لسانه، فيعبِّر كيف يشاء، ويمسك القلم، فلا يجده مطوعاً، وفي النَّاس من إذا نطق، وقع في كبوة، وإذا كتب أبدع، وبلغ ببيان ما يجول في ضميره الأمد الأقصى، فينبغي للدَّاعي أن يُبصر في نفسه، ويعرف من أيِّ صنفٍ هو، ثم يأخذ النَّاس بالطريق التي يركبها ذلولاً". (2)

3- أن يكون الداعية ذكياً فطناً في اختيار الوسيلة المناسبة لدعوته. (3)

4- التَّدرج في الدعوة: "كأن يتدبَّر المصلح بما هو أيسر عملاً، أو أقرب إلى المؤلف لدى الأُمَّة، أو أظهر حكمة لعقولهم". (4)

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 24).

(2) المرجع السابق، (ص 28).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 31).

(4) المرجع السابق، (ص 36).

وهذا هو منهج الإسلام في التكاليفات، فقد بدأ تشريع الصَّلَاة بالأمر بها، وسكت عن الكلام في أثنائها، ثم نهي عنه، وجعله من مبطلاتها، وفي الزكاة لم يبدأ الأمر فيها بالوجوب بل أمر في البداية بالتطوع، ثم شرع فريضة الزكاة، وتدرج في تحريم الخمر فبدأ الأمر بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]، ثم منع منها في حال الصلاة خاصة؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43]، ثم حرّمها في كل حال تحريماً لا هوادة فيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90].⁽¹⁾

5- مراعاة أحوال المدعوين فيما يدعوهم إليه، بحيث يتحرى الوسائل والسبل التي تجعلهم أسرع إلى الإجابة إلى ما يدعوهم إليه، مثل "أن يأخذ الداعي في تقرير المصالح بوجه عام حتى يأنس لها الناس، ويتفقهوا في طرق الخير على سبيل الإجمال، ثم يندبهم إلى الأعمال المندرجة تحتها ببيان وتفصيل؛ فإنّ من السهل على البشر قبول القضايا الكلية، وقلما نازعوا في صحتها، وأكثر ما يقع منهم الإنكار والاختلاف في المسائل الجزئية، وأحكام النوازل المعينة، وعلى هذا النمط أدار الإسلام سياسته، فأسس معظم قواعده العامة بمكة، وشرع أكثر الأحكام الفرعية بالمدينة المنورة".⁽²⁾

6- أن يكون الدّاعية قدوةً للمدعوين، فـ "يسبق إلى العمل بما يأمر، فقد يكون اقتداء الناس بأفعال المصلح أقرب من اتباعهم لأقواله، ويشهد بهذا سيرة النّبي - ﷺ - في شرع الأحكام، فتراه في بعض الأحيان يصرّح بالإذن في أشياء، فلا يبادرون إلى فعلها، ويستمرّون على الإحجام عنها حتى يقرّرها بالعمل".⁽³⁾

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 36).

(2) المرجع السابق، (ص 38).

(3) من ذلك: قصة صلح الحديبية، حين أمرهم النبي - ﷺ - بالخلق ونحر الهدايا فأبوا، حتى فعل ذلك بنصيحة من زوجه أم المؤمنين أم سلمة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -. والحديث أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (193/3 - رقم 2731).

7- ومن جملة الأحوال التي هي من سياسة الدعوة وفقهها: بذل المعروف، وملء يد المدعوِّ بالنِّعم، فإنَّ: "من الوسائل التي يكون لها أثرٌ في تألُّف الجاهلين أو المفسدين، وتهيئتهم إلى قبول الإصلاح: بسط المعروف في وجوههم، وإرضائهم بشيءٍ من متاع هذه الحياة؛ فإنَّ مواجهتهم بالجميل، ومصافحتهم براحه كريمة، قد يعطف قلوبهم نحو الدَّاعي، ويمهِّد السَّبيل لقبول ما يعرضه عليها من النَّصيحة.

والنُّفوس مطبوعةٌ على مصافاة من يُلبسها نعمةً، ويفيض عليها خيراً، ولمثل هذه الحكمة ذكر القرآن في مصارف الزَّكاة صنف المؤلِّفة قلوبهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60].⁽¹⁾

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 40).

المبحث الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رحمه الله - فيما يتعلق بإعداد الداعية.

المطلب الأول: وجوب تبليغ الدعوة.

شَرَّفَ اللهُ تعالى هذه الأمة، بأن أمرهم بما أمر به الأنبياء والرسل - رَحِمَهُ اللهُ - من الدعوة إليه والإرشاد إلى سبيله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108]، وأقام النبي ﷺ - أمته من بعده مبليغين عنه، فقال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»⁽¹⁾، وجعل الله تعالى مناط خيرية هذه الأمة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وقد قسَّم الإمام محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - الدَّعْوَةَ إلى نوعين:

الأول/ دعوة يُقصد بها إنقاذ النَّاس من ضلالةٍ أو شرٍّ واقعٍ: وهذا النوع يجب القيام به وقت إمكانها؛ واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَدْعُوكم اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 20]، فقوله: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ إظهارٌ لعناية هذا الدَّاعي، وشدة رغبته في الإصلاح، حيث لم يثبَّطه بُعد المسافة عن السَّعي إليه، والوفاء بحَقِّه، وقوله: ﴿يَسْعَى﴾ تذكُّرٌ لدعاة الإصلاح، وإيقاظٌ لهممهم؛ كي ينفقوا في هذه الغاية وسعهم، ويسارعوا إلى النصيحة جهدهم؛ لأنَّ السَّعي في لسان العرب بمعنى العدو والمشي بسرعة.

والثاني/ دعوة يُقصد بها تحذيرهم من أمرٍ يُخشى عليهم الوقوع في بأسه، وهذا النوع قسمان:

قسمٌ ينشأ عن تأخيره حرجٌ، فهذا واجبٌ حسب الطاقة.

والثاني: إن كان لا ينشأ عن تأخيره حرجٌ، فهذا يجوز تأخيره إلى وقت الحاجة.⁽²⁾

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (4/170 - رقم 3461).

(2) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 15).

وذكر الشيخ شاهداً على ما يجوز تأخيرهِ لوقت الحاجة، وهو ما حكاه القاضي عياض⁽¹⁾ في كتاب "المدارك"⁽²⁾: أَنَّ سحنون⁽³⁾ وصاحبيه عون بن يوسف⁽⁴⁾، وابن رشيد⁽⁵⁾ دخلوا على أسد بن الفرات⁽⁶⁾، فسألهم عن مسألة، فابتدر لجوابه صاحباً سحنون، وسكت سحنون، فلما

(1) القاضي عياض: (476-544هـ = 1083-1149م): هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش مسموماً، قيل: سمه يهودي. من تصانيفه: "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى"، و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك"، و"شرح صحيح مسلم". ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، (483/3)؛ والأعلام للزركلي، (99/5).

(2) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، (75/4).

(3) سحنون: (160-240هـ = 777-854م): عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون: قاض، فقيه، انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب، كان زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله، أصله شامي، من حمص، ومولده في القيروان، ولي القضاء بها سنة 234هـ، واستمر إلى أن مات، أخباره كثيرة جداً، وكان رفيع القدر، عفيفاً، أبي النفس. روى "المدونة" في فروع المالكية، عن عبد الرحمن بن قاسم، عن الإمام مالك. ينظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، (45/4)؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، (65-63/12).

(4) عون بن يوسف الخزاعي: (150-239هـ = 764-853م): كان رجلاً صالحاً، ثقة مأموناً، كان أسن من سحنون بعشر سنين، قال: وقدمت المدينة سنة ثمان ومائة بعد موت مالك بسنة، فأدركت بها أربعين رجلاً من معلمي ابن وهب منهم: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وسمع من المفضل بن فضالة، وابن وهب، وابن غانم، والبهلول، وغيرهم، وسمع منه ابنه، وبكر بن حماد، وابن طالب، وسليمان بن سالم، وجماعة من أصحاب سحنون وغيرهم، وكان يبيع الكتان في حانوته، وكانت له حبة شعير إذا أعطى جعلها على المئثال، وإذا أخذ جعلها مع الدراهم التي يأخذ، فيعطي بزيادة حبة، ويأخذ أنقص حبة. ينظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، (89-90/4).

(5) محمد بن رشيد: (ت: 221هـ = 834م): مولى عبد السلام بن المفرج القائد، كانت رحلته ورحلة سحنون إلى عبد الرحمن بن القاسم إلى مصر واحدة، كان فقيهاً فهِماً طویل اللسان، حسن البيان، وكان من أهل العلم والفقه، ثقة في نقله، ن ذكياً مصاحباً لسحنون، عند ابن القاسم، وكان ابن القاسم إذا تكلم في العلم أسرع ابن رشيد إلى فهمه، وكان إذا فهم شيئاً رسخ في قلبه توي سنة 221هـ. ينظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، (96/4).

(6) أسد بن الفرات: (142-213هـ = 759-828م): هو أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم بن قيس، كنيته أبو عبد الله، الفقيه المالكي، أصله من خراسان، ورحل أبوه إلى القيروان في جيش الأشعث، فأخذه معه وهو طفل، فنشأ بها ثم بتونس، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث، دَوَّن مذهب الإمام مالك، وكان يعمل قاضياً للقيروان، ثم مجاهداً في سبيل الله، وفتح جزيرة صقلية، واستشهد هناك. ينظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، (91/3).

خرجوا، قال له صاحبه: لَمْ تَكَلِّمْ؟ فقال سحنون: ظهر لي أَنَّ جوابكما خطأ؛ وبَيَّنَّ لهما ذلك، فقالا له: لَمْ تَكَلِّمْ بهذا ونحن عنده؟ فقال: "خشيت أن ندخل عليه ونحن أصدقاء، ونخرج ونحن أعداء". قال القاضي عياض: وسكت سحنون حين علم أَنَّ القضية لا يفوت أمرها، ولو علم ذلك لبادر، بما ظهر له". (1)

هذا من حيث التَّفْصِيل، أما إجمالاً؛ فالدَّعْوَةُ واجبةٌ على الكفاية؛ ومعنى وجوبها على الكفاية: أن "يُوجَّهَ خطابُها إلى الأُمَّة بقصد إفهامهم وإعلامهم، ومناط التَّكْلِيف والإلزام إنما هو طائفةٌ يتفق أهل الحِلِّ والعقد على تعيينها، أو تتقدَّم إليه من تلقاء نفسها.

وإذا قلنا: إِنَّ الخطاب بفرض الكفاية، والإعلام به يتوجهان إلى الأُمَّة، فإنَّما نريد من الأُمَّة: القادرين على القيام به خاصَّةً، وهؤلاء هم الذين تحقُّ عليهم كلمة العذاب حيث لا تنهض به طائفةٌ منهم، فلا جناح على من لا يستطيع الدُّعاء إلى خيرٍ، أو الدِّفاع عن حقٍّ إذا سكت المستطيعون إليه سبيلًا، ولو ضلَّ قومٌ عن سبيل الخير، أو جهلوا معروفًا، أو ركبوا منكراً، وقامت طائفةٌ تدعوهم، أو تأمرهم، أو تنهاهم بأسلوبٍ ليس من شأنه التأثير على أمثالهم، لبقيت هذه الفريضة ملزمة في أعناق الذين يستطيعون أن ينفذوا بألمعتهم إلى نفوس الطوائف، ويصوغوا إرشادهم وموعظتهم على الطراز الذي تألفه نفوس الطائفة التي يحاورونها". (2)

ويتأكد وجوب الدعوة - في نظر الشيخ - عند الحاجة إليها، خاصَّةً في هذا العصر الذي أُتِيحت فيه لأهل الباطل من الوسائل التي لم تُتَحَ للمضِلِّين من قبلهم، فيتأكد وجوب الدعوة إلى الله تعالى؛ "وهذا ما يقضي على حكماء الأُمَّة بأن يعدُّوا للدَّعْوَةِ ما استطاعوا من قوَّةٍ، ويكسروا شوكة هذه النفوس المحشَّوة بالغواية والشَّهوات، قبل أن تبلغ أمنيته". (3)

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 15-16). ونص كلام القاضي عياض: "لعلَّ سحنون عدل على ما عرف من فضلهم، من أنهما إذا بيَّنَّ لهما وجه خطأهما رجعا، فأعلم أسدًا يرجوعهما كما فعلا. وإن الحكم، كان بعد لم يحن وقت نفوذه. وإلا فهو في فضله وورعه كان لا يسكت على مثل هذا، إلا رجاء أن يستبين الحقَّ بلا تعلقة، ولا مخالفة". ترتيب المدارك وتقريب المسالك (75/4).

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 10-11).

(3) المرجع السابق، (ص 9).

وهنا ينوّه الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - على وجوب إعداد الدّاعية الذي يتولّى هذه المهمة، ويقوم بالدّعوة إلى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - والدّبّ عن دينه، ويشير إلى هذا قول الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، فالنافرون هم المجاهدون، والمتفقهون هم الباقون مع الرسول - ﷺ - ليتلقوا عنه العلم، ويبلّغوه إلى المجاهدين عند عودتهم". (1)

متى يُعذر الدّاعية في ترك تبليغ الدعوة؟

بيّن الإمام محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - أنّ واجب الدّعوة يسقط عن الداعية في موضعين:

"الأول/ أن ينشأ عن الأمر أو النهي مفسدة أعظم، فيرتكب الدّاعية أخفّ الضّررين بترك الدّعوة، ومن شواهد: أنّ النّبي - ﷺ - كره من الصّحابة تناولهم الأعرابيّ حين أخذ يبول في المسجد، ونهاهم عن ذلك، وقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»". (2)

ومنه أن يكون صاحب الضّلالة ممن يطغى على الدّاعي، ويستنكف أن يكون بمنزلة المصادر عن إرشاده أو تذكيره، فيأخذه الإعجاب بسطوته إلى ارتكاب جهالة أفطع من الأولى، حتى يغيظ داعيه إلى الخير، ويتظاهر بالغلوّ في مخالفة أمره أو نهيه.

ولا يسقط وجوب الدّعوة عن الدّاعية من أجل ما اعتاد النّاس عليه كترك سنّة، أو فعل بدعة، لكن إذا شدّ المصلح قلبه بإخلاص، وتحرّى الأدب جهده، فلا جرم أن يكون لدعوته الأثر النافذ، والعاقبة الحسنة، والسكوت عندئذٍ مداهنة وإيثارٌ للخلق على الحقّ.

الثاني/ أن يُوقعه الأمر أو النهي في بلاءٍ، ويلحق به ضرراً فادحاً، مثل الاستخفاف به على

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 39).

(2) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، (8/12 - رقم 6025)؛ ومسلم في الصحيح، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، (1/236 - رقم 284).

وجه يزري بكرامته، فهذا قد يكون عذرًا في صرف الدَّعوة عن طائفةٍ خاصَّةٍ عُرف منها هذا الخلق اللئيم، ولا يصحُّ أن يكون عذرًا في الإحجام عن دعوة الأُمَّة إلى صالح، خاصَّةً وقد اتَّخذ بعض المفسدين هذا السَّبَاب والمباهة سلاحيًا يشهرونه في وجوه من يعترضون دعايتهم بالإنكار". (1)

فلا يُعذر الدَّاعية بترك الدَّعوة إلا إذا ترَّتَّب على الدَّعوة فسادًا أعظم من المنكر الذي ينهى عنه، أو كان يترتب عليها ضررٌ بالغٌ يلحق به، وهذا من سياسة الشريعة، وكما أركانها، ومرونة أحكامها.

(1) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 42).

المطلب الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - في إعداد الداعية.

ينبغي على الدعاة والعلماء أن يسعوا في إعداد دعاة يحملون أمانة الدعوة إلى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأهيلهم للقيام بأعباء الدعوة، وتحمل تبعاتها، ونيل شرف أداء رسالتها، وهذا من إعداد القوة لأعداء الله تعالى الوارد في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]، فالعدو الذي يُحَارِبُ بالسلاح إعداد القوة له بتجهيز السلاح وإعداد الجنود، أمّا العدو الذي يواجه المسلمين بالفكر فإعداد القوة له بإعداد الدعاة الذي يجاهدونه، ويدفعون فكره الضال بالفكر الإسلامي الإصلاح، وقد قال النبي - ﷺ -: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ» (1).

وقد كان للإمام محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - جهوداً مباركة في تقرير هذا الباب، وتربية طلبة العلم وتجهيزهم لحمل أمانة الدعوة، ومن ذلك ما يلي:

1- إعداد طلبة العلم ليكونوا وفوداً إلى بلادهم وأهلهم يبلغونهم الدعوة، قال - رَحِمَهُ اللهُ -: "وكان لإسلام رؤساء هذه القبائل أثر كبير في إسلام من عداهم من العامة، ففي السيرة: أنَّ ضِمَامَ بن ثعلبة (2) قدم موفداً من بني سعد بن بكر، فأسلم، وعاد إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فما بقي في ذلك اليوم في حاضره رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً، كان هؤلاء الوفود يدينون بالإسلام، ويعودون إلى قومهم، وهم من أشدِّ الدعاة إليه". (3)

(1) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، (10/3 - رقم 2504)، والنسائي في الصغرى، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، (7/6 - رقم 3096).

(2) ضِمَامُ بن ثعلبة: هو ضِمَامُ بن ثعلبة من بني بياض من بنو سعد بن بكر بن هَوَازَنَ من قَيْسِ عَيْلَانَ، صحابي عُرف بأنه أفضل من وفد على النبي - ﷺ - من الأعراب، وعداؤه في أهل الحجاز، وهو وفد بني سعد ورئيسهم، وفد على النبي - ﷺ - سنة 9 هـ فأسلم، وقيل سنة 5 هـ، ثم عاد لقومه يدعوهم للإسلام. قال ابن عباس (فَمَا سَمِعْنَا بِوَفْدٍ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ) وقال عمر بن الخطاب عنه (ما رأيت أحداً أحسن مسألة، ولا أوجز من ضِمَامِ بن ثعلبة). ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، (751/2)؛ والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، (395/3).

(3) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 168).

2- إقامة المدارس والمعاهد التي تُعَدُّ الطلبة، وتؤَهِّلهم لحمل أمانة العلم، يقول - رَحِمَهُ اللهُ - بعد أن عدَّد عوامل النهضة والحضارة في تاريخ الأندلس: "هذه صحيفة من تاريخ علماء الأندلس تلونها كالتذكرة لشبابنا الناهضين، وعسى هذه المعاهد والمدارس الإسلامية أن تُخرج لنا رجالاً يبهرون النَّاسَ علماً وجلالةً، ويزودون عن الشريعة نفراً يتهافتون على إطفاء نورها". (1)

ويقول - أيضاً - : "هذا والأمل معقودٌ على أنَّ هذه المعاهد والمدارس، تُثبت لنا رجالاً تعظم همهم، فيجمعون من العلوم ما يجعل الشرق بحرًا زاخرًا، ويسيروا في كلِّ علمٍ سيرة الباحث الذي يفتح فيه طرقًا قيِّمة، ويجعل نتائجه في تجدد ونماء". (2)

ويقول: "أما اليوم، فالحال ما ترون وما تسمعون، فلا يمكن للدعوة أن تأتي بفائدتها إلا أن تضمَّ المعاهد الإسلامية بين جدرانها طوائف كثيرةٌ من أولي الغيرة والعزم، يصرفون جهدهم في الدِّفاع عن الدين، والدعوة إلى الخير، ويعيدون الدعوة مرَّةً بعد أخرى". (3)

3- أن يدرب الدَّاعية طلبته على الدَّعوة، ومن الأمثلة التي ضربها الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - قصة الشيخ ابن التلمساني (4)، أحد كبار علماء شمال أفريقية أنه سأله السلطان عن مسألة، فقال: إن تلميذي فلاناً يحسن الجواب عنها، فوجَّه السلطان السؤال إلى تلميذ ابن التلمساني، فأحسن الجواب، فأجازه، وأحسن منزلته، وكان ابن التلمساني أعلم من تلميذه فيما سأله عنه السلطان، لكنه لا يعتبره تلميذه بمنزلة ولده، أراد أن ينوِّه به في حضرة السلطان كما لو كان

(1) محاضرات إسلامية، (ص 76).

(2) رسائل الإصلاح، (ص 56).

(3) المرجع السابق، (ص 122).

(4) ابن التلمساني: (567-644هـ = 1171-1246م): هو شرف الدين عبد الله بن محمد بن علي، الفهري، المصري، المعروف بابن التلمساني، الأصولي الفقيه الشافعي، أصله من تلمسان، واشتهر بمصر، ومن مصنفاته: "المغني في شرح التنبيه"، و"شرح المعالم" في أصول الدين. ينظر: طبقات الشافعية للإسنوي، (1/152)؛ وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبه، (2/107).

ولده حقًا".⁽¹⁾

5- كان الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - يحمل همَّ الدعوة، فكان يسعى لإعداد جيلٍ من الدعاة يتصدَّى للإلحاد، وللدعوة المغرضة المناهضة للإسلام، ويعلم المسلمين أمر دينهم، وله في ذلك مؤلفاتٌ ومقالاتٌ عديدة، تدلُّ على حرصه على الدَّعوة، وإعداد جيلٍ يؤمن بقيَم الدَّعوة الإسلامية، ويقف على كلِّ ما يخدمها ويرفع شأنها، أو يضرُّ بها ويفسدها، ومن مقالاته: (الحاجة إلى الدعوة)، و(الدَّعوة في نظر الإسلام)، و(المبادرة إلى الدعوة)، و(التعاضد على الدعوة)، و(من الذي يقوم بالدعوة)، و(الإخلاص في الدعوة)، و(طرق الدعوة)، و(آداب الدعوة)، و(سياسة الدعوة)، و(الإذن في السكوت عن الدعوة)، و(علل إهمال الدعوة)، و(آثار السكوت عن الدعوة)، و(ما يُدعى إلى إصلاحه).⁽²⁾

(1) أحاديث في رحاب الأزهر، (ص 109).

(2) وهي مقالات ومحاضرات عن الإصلاح الديني، منها ما نشر في مجلة "الهداية الإسلامية" التي كان يصدرها الإمام في القاهرة، ومنها: محاضرات ألقاها في النوادي الاجتماعية، وألحقت بها مذكرات هامة وجهها الإمام إلى الحكومة المصرية في طلب العناية بالتعليم الديني، والتربية الدينية بالمدارس المصرية، وقد جمع كل ذلك في كتاب موسوم بـ "الدعوة إلى الإصلاح".

المبحث الثالث: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - فيما يتعلق بالدعوة.

المطلب الأول: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في الدعوة الجماعية.

الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - يحيا بروح الجماعة المؤمنة في الأمة المسلمة، ولقد اهتم ببيت تلك الروح الجامعة في مقالاته، وأعماله، ومحاضراته، ومن ذلك قوله حاثاً على روح الجماعة: "وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاحة: 5] بنون الجماعة، ولم يقل: أعبد؛ ليدلّ على أنه يعبد في جماعة المؤمنين، ويشعر بأن المؤمنين المخلصين يكونون في اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم كل واحد منهم في الحديث عن شؤونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جميعهم". (1)

ومن أبرز معالم الدَّعوة الجماعية والعمل المؤسسي الشائع في ذلك الزمان، والذي حظي باهتمام الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -، وبرزت من خلال جهوده العملية: تأسيس الجمعيات الدعوية، وإنشاء المجلات

أولاً/ إنشاء الجمعيات الدعوية:

من صفحات الجهاد الدعوي التي نطالعتها في سيرة الإمام محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - حرصه على الدعوة إلى اتحاد الأمة، والعمل على جمع الأفراد في جمعيات تُكسبهم قوّةً، وما تحقّقه الجماعة لا يحقّقه الواحد، فقد كان الشيخ يؤمن بالعمل المؤسسي الجماعي، ويؤمن بدوره الفعّال في الإصلاح؛ وكان ذلك بارزاً في سيرته طوال مراحل حياته، وهذه الجمعيات التي أسّسها الشيخ؛ أو شارك في تأسيسها تشترك في كثير من أهدافها، ويأتي في مقدّمة تلك الأهداف مواجهة العقائد الباطلة؛ والأفكار الهدامة التي تناقض الإسلام، والقيام بالرد عليها بما يناسب.

يقرر - رَحْمَةُ اللَّهِ - في مقال له سماه (الجمعيات الإصلاحية) (2) الأسباب التي حملته على

(1) أسرار التنزيل، (ص 10).

(2) منشور بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزآن الثالث والرابع من المجلد السابع عشر الصادران في عدد واحد عن شهري رمضان وشوال 1363 هـ - القاهرة.

الانحراف وتأسيس الجمعيات فيقول: "لم يكن المسلمون فيما سلف يشعرون بالحاجة إلى تأليف جمعيات إصلاحية؛ إذ لم تكن طرق الفساد والغواية مفتحة على الوجه الذي نشاهده في هذا العصر، ولم يكن الناس يتركون الخير جماعات يزعم أنه ليس بخير، وإنما هي الشبهوات الغالبة، أو الجهالات القائمة تأخذ بنفوس أفراد، حتى إذا قام دلل إلى الإصلاح، ولو لم يكن له أعوان، أمكنه أن يكبح جماحها، ويدفع شرورها.

أمّا اليوم، فقد انفجرت ينابيع الفتن بحال لم يكن له نظير في العهود الخالية، فإذا تقدّمت العلوم مراحل بعيدة المدى، فإنّ الفضيلة والهداية لقيتا فيه كسادًا، بل نُكِرَ وعداء".⁽¹⁾

وشارك الشيخ الخضر في تكوين عدد من الجمعيات، من بينها: (جمعية قدماء تلامذة الصادقية)، ثم (جمعية تلاميذ الزيتونة) عام 1324هـ، مع نخبة من العلماء وفي مقدمتهم العلامة محمد الطاهر بن عاشور، وخلال سنة 1324هـ انحلت هذه الجمعية، وتكونت جمعية جديدة باسم (الجمعية الزيتونية) وقد تولى رئاستها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وعضوية جماعة من العلماء منهم الشيخ الخضر.⁽²⁾

وخلال تواجده بمصر، ساهم في إنشاء (جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) سنة 1342هـ - 1924م، وسنّ قانوناً لها، وقد ضمت عدّة شخصيات مغربية من تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا، ويقول عنها الإمام: "تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات أفريقيا الشمالية؛ حتى يسيروا مع إخوانهم المصريّين جنباً إلى جنب، يسايرونهم في أفكارهم، في آدابهم، في معارفهم، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الرّاقية، وكذلك يجب على كلّ جالية تعيش بين قوم ناهضين، وكذلك يجب على كلّ جالية تعيش في بيئة هي أوسع من أوطانها حرية واحتمالاً للمشروعات الإصلاحية.

وللدعوة إلى المنافسة في الخير، والمسابقة في حلبة الشرف والسعادة، طرق شتى، ومن أقربها،

(1) هدى ونور، (ص 79).

(2) ينظر: الشيخ محمد الخضر حسين: حياته وآثاره لمحمد موعدة، (ص 47-48).

وأبلغها أثراً: إلقاء محاضرات تتمثل فيها سيرة رجال أدركوا بصفاء ألعيتهم، وكبر همهم مكانةً راسخةً، وشُعةً فائقةً". (1)

كما شارك في تأسيس (جمعية الشُّبَّان المسلمين)، وقد وضع لائحته الأولى مع صديقَيْه محبِّ الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا سنة 1346هـ - 1927م، وقامت هذه الجمعية برسالتها المخلصة في هداية الشباب الإسلامي، ومحاربة الإلحاد العلمي، والنزق الخلقي، واستطاعت أن تصد هجوم الحضارة الملحدة المادية بما تقوم به من ندواتٍ ومحاضراتٍ، وما تنشره من صحفٍ ومؤلفاتٍ.

يقول الشيخ الخضر عن هذه الجمعية: "وأذكر شاهداً على هذا: أني كنت لقيت أحد المتصلين بجمعية الشُّبَّان المسيحية في القاهرة، ففاجأني بنبأ هو: أن بعض الشُّبَّان المسلمين دخلوا في جمعية الشُّبَّان المسيحية، وصاروا من أعضائها، فأخذني أسفٌ يقطع الأكباد، وقلت في نفسي: هل من الميسور تأليف جمعية للشُّبَّان المسلمين تصرفهم عن غشيان جمعية بطانتها الدَّعوة إلى المسيحية؟ وذهبت توّاً إلى المطبعة السَّلفية، فلقيت طالباً من طُلاب دار العلوم، فعرضت عليه هذه الأمنية، وقلت له: اذكر هذا بين الطُلاب، وانظر ماذا ترى منهم، وأيدني في هذا الاقتراح الأخ الأستاذ محبُّ الدين الخطيب، فجاء الطالب من الغد، وقال: وجدت من بعضهم إقبالاً، وحضر بالمطبعة السَّلفية بعض طلاب الجامعة المصرية، وخاطبناهم على أن يقوموا بالدَّعاية للجمعية في الجامعة، ففعلوا، وكان هذا بداية تأسيس (جمعية الشُّبَّان المسلمين) في القاهرة، وعرفنا من ذلك النَّجاح أن الشَّابَّ المسلم إنما تأخذه الشُّبهة، ويحيد عن سبيل الرشد، حيث لا ترعاه قيادةً رشيدةً، أو يطرق سمعه دعوةً حكيمةً". (2)

ثم بعد ذلك أسَّس (جمعية الهداية الإسلامية) سنة 1347هـ - 1928م، وقد ضمَّ إليها نخبةً من علماء الأزهر، ونخبةً من الشُّباب المثقفين، وكوَّن بها مكتبةً كبيرةً كانت مكتبته الخاصة

(1) جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، (ص 18).

(2) هدى ونور، (ص 82).

نواةً لها، وهذه الجمعية من أعظم الأعمال التي قام به الشيخ في مساره الإصلاحية؛ بل أولها كلَّ جهده، وانصرف إليها نهاره وليله، حتى كانت الجمعية مع مجلَّتها طعامه وشرابه ومنامه. وقد أوضح الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - أهداف تأسيس هذه الجمعية فقال: "الغرض من تأسيسها: القيام بما يرشد إليه الدين الحنيف؛ من علمٍ نافعٍ، وأدبٍ رفيعٍ، وحُلقٍ كريمٍ، وتعتمد في تحقيق هذا الغرض على الوسائل الآتية:

- 1 - السَّعي لتعارف الشعوب الإسلاميَّة، وتوثيق الرابطة بينها، ورفع التجاني بين الفرق الإسلاميَّة، والتعاون مع كلِّ جمعيةٍ تسعى لهذه الغاية.
- 2 - نشر حقائق الإسلام بأسلوبٍ يلائم روح العصر.
- 3 - مقاومة الإلحاد والدعايات غير الإسلاميَّة في الأوطان الإسلاميَّة بالطُّرق العلميَّة.
- 4 - الجهاد في إصلاح شأن اللغة العربيَّة، وإحياء آدابها".⁽¹⁾

وقد كانت تصدر عنها مجلة "الهداية الإسلاميَّة" التي تُعدُّ لسان الجمعية؛ كما فتحت هذه الجمعية فروعاً بعدَّة مدنٍ في البلاد المصريَّة، وفي بعض البلدان العربيَّة كسوريا والعراق، وكان مقرُّ الجمعية منتدًى تُقام فيه المحاضرات، وتُلقى الكلمات، وأكثر من يقوم بذلك رئيسها الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ -.

وكان من مهامها إصدار البيانات التي تنكر من خلالها على من يسيء للإسلام، وكان أعضاؤها ينشطون خارج مقر الجمعية، فيقومون بإلقاء المحاضرات في المساجد عقب صلاة الجمعة؛ فكان لهذه الجمعية أبلغ الأثر في بيان حقائق الإسلام؛ والوقوف في وجوه الطاعنين عليه.⁽²⁾

ومن بين الأعمال التي حقَّقتها الجمعية، والتي تبين التزامها بالمنهج الذي رسمته منذ البداية؛

(1) كلمات وخواطر وآراء، (ص 175).

(2) ينظر: الهداية الإسلاميَّة، (ص 277).

مراسلتها للمسؤولين في الحكومة، والتدخل لديهم للوقوف ضدَّ أيِّ عملٍ قد يسيء إلى الأخلاق والدين، ومنها مراسلتها لوزير المعارف في مناسبات متعددة، وقد حققت بذلك نتائج مرضية في الإصلاح في مجالات متعددة. (1)

ثم دعا الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - جاليات المغرب العربي المقيمة في القاهرة إلى تكوين جبهة غايتها الدفاع عن شعوب شمال إفريقيا (تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا). وقد تحقق ذلك ونشأت جبهة تدعى (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) ومقرها في دار (جمعية الهداية الإسلامية)، وقد عقدت الجبهة اجتماعها الأول في شهر ذي الحجة سنة 1363هـ - 1944م.

وقد عملت هذه الجمعية أقصى ما يمكنها للتعريف بقضايا المغرب، وعقدت المؤتمرات واللقاءات مع المسؤولين العرب والمسلمين، وشرحت للناس كافة في المشرق ما تتعرض له شعوب المغرب، وحققت المهمم، وكشفت جرائم فرنسا وخططها الدنيئة أمام الرأي العام في بلاد لم تكن تسمع عن المغرب العربي إلا اسمه.

كما بذلت الجبهة وسعها في خدمة قضايا دول المغرب العربي، وكانت أعمالها ومواقفها المشرفة ومحاضراتها ونشرياتهما ومساعدتها مع ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية دعماً قوياً لحركات الاستقلال في المغرب العربي. (2)

كما سعت للتعريف بقضايا شمال إفريقيا، وراسلت جميع المنظمات العربية والعالمية، فقد أرسلت برقية إلى وزراء خارجية الدول الخمسة، بريطانيا، وأمريكا، وروسيا، والصين، وفرنسا، كما أرسلت عدة رسائل ومذكرات ونداءات موجهة إلى جهات ثانية أخرى. (3)

وهكذا قامت الجمعيات التي شارك فيه الشيخ الخضر أو قام بإنشائها بأعمال عظيمة؛

(1) ينظر: محمد الخضر حسين: النص القرآني في فكره الإصلاحية للطاهر بن سالم، (ص 29).

(2) ينظر: جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا، (ص 25).

(3) ينظر: الهداية الإسلامية، (458).

فحققت الكثير من الأهداف التي رُسمت لها، والأغراض التي قامت من أجلها؛ فكانت مثلاً يُحتذى في العمل الدَّعوي الجماعي المؤسس، وتركت أثراً طيباً ظهر بعد ذلك على مستوياتٍ شتى.

ثانياً/ إنشاء الصُّحف والمجلات الدَّعوية والإصلاحية:

لقد اهتم الشيخ بالمجلات والصُّحف ⁽¹⁾ التي تدعم الإصلاح العام للمجتمع، كونه وسيلةً من وسائل الدَّعوة الجماعية، فأنشأ المجلات، وشارك في الكتابة فيها، وكان من بين أهم المجلات والجرائد التي عمل بها، أو تولى تحريرها، أو ساهم بالكتابة فيها ⁽²⁾:

1 - مجلة "السعادة العظمى": حيث أسَّسها سنة 1904م، وهي أول مجلة تأسست وصدرت في تونس، وقد جعلها نصف شهرية، وذات اتجاهين: ديني، وأدبي.

2 - مجلة "الشبان المسلمين": صدرت سنة 1929م شهرية إسلامية أخلاقية، وكان الشيخ الخضر من أبرز مؤسسيها وكُتَّابها، وهي ناطقة باسم (جمعية الشبان المسلمين) التي كان له يد كبرى في تكوينها في نفس السَّنة.

3 - مجلة "الهداية الإسلامية": مجلة إسلامية شهرية، أسَّسها الشيخ الخضر في القاهرة بعد استقراره بها، وظهور شأنه وصيته فيها، وكانت المجلة لسان (جمعية الهداية الإسلامية)، وتولَّى رئاستها لآخر حياته.

4 - مجلة "نور الإسلام": مجلة شهرية إسلامية ذات مستوى رفيع في تحريرها وموضوعاتها، وقد أصدرتها مشيخة الأزهر، وعهدت برئاسة تحريرها إلى الشيخ الخضر، واستمر صدورها من سنة 1930 إلى 1934م، وفي أثناء سنتها الخامسة أبدلتها المشيخة بمجلة جديدة هي:

5 - مجلة "الأزهر": وهكذا حلَّت مجلة "الأزهر" محل "نور الإسلام"، وعهد إلى الشيخ

(1) المجلة والصحيفة كانت من وسائل الإعلام الحديثة في عصر الشيخ، لذلك تناولها الإمام.

(2) الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، (ص 143 - 149).

الخضر برئاسة تحريرها، كاستمرار لعمله في المجلة السابقة، ولكنه تخلّى عن هذه المسؤولية بعد سنواتٍ قليلةٍ، ولم ينقطع عن الكتابة فيها⁽¹⁾، وعن إصدار مجلته "الهداية الإسلامية".

6 - مجلة "لواء الإسلام": وفي سنة 1945م أصدر صديقه الشيخ العلامة أحمد حمزة⁽²⁾ مجلة "لواء الإسلام" شهرية دينية ثقافية اجتماعية، وطلب من الشيخ الخضر أن يتولى رئاسة تحريرها، فقبل هذه المسؤولية، واستمر في ذلك إلى أن تولى مشيخة الأزهر سبتمبر 1952م، وعندها تخلّى عن التحرير، واقتصر على الكتابة فيها، وظلّ كذلك إلى عدد شهر (فبراير) 1958م، وهو الشهر الذي توفي فيه - رَحِمَهُ اللهُ -.

7 - مجلة "الفتح": صحيفة أسبوعية إسلامية أسسها وأصدرها سنة 1926م صديقه الكبير الشيخ محب الدين الخطيب، وهو كالشيخ الخضر من رجيل الكفاح الإسلامي الأول في بلاد الشام، وفي دمشق كان تعرفه به، فلما استقرّ كلاهما بمصر، ربطت بينهما رابطة الهجرة، فضلاً عما كان بينهما من روابط العلم والمودة والنضال المشترك عن الإسلام والمسلمين، وللشيخ محب الدين دور هامّ في حياة الشيخ الخضر، فهو الذي ربط الصلة بينه وبين عدد كبير من العلماء والشخصيات المصرية والعربية ذات النزعة الإسلامية.

8 - مجلة "مجمع اللغة العربية": وهي حولية يصدرها المجمع في القاهرة متضمنةً بحوث

(1) ولا تزال هذه المجلة قائمة إلى يومنا، تولى على رئاسة تحريرها كبار أهل الفكر والأدب والعلم.
 (2) أحمد حمزة: (1317-1398هـ = 1891-1977م): هو أحمد حمزة باشا، ولد في قرية بمحافظة القليوبية، وأكمل دراسته الثانوية في القاهرة، ثم سافر إلى بريطانيا لدراسة الهندسة، وبعد أن أنهى دراسته عاد إلى مصر، وأسّس مصنعاً لتحويل الياسمين والزهور ذات الروائح الزكية التي زرعها إلى زيوت عطرية ثم تصديرها، انتسب لحزب الوفد، ثم اختير وزيراً للتموين في وزارة النحاس باشا عام 1942م، ثم وزارة الزراعة، أصدر مجلة "لواء الإسلام" سنة 1945م، وقد عمل على استمرار صدورها حتى في الفترات التي عانى فيها من مصاعب اقتصادية، أدى مناسك الحج سنة 1947م، وفي الأثناء زار المسجد النبوي فوجده يُضَاء بقناديل الزيت، وبعد عودته لمصر قرّر شراء مولدات كهربائية وعددٍ من المصابيح، ثم أرسلها للمسجد النبوي قصد إضاءته، ليتحول المسجد النبوي من الظلام الدامس إلى النور، وسمي أحمد حمزة الوزير الذي أضاء المسجد النبوي. ينظر: مقال: الوزير الوفدي الذي أضاء المسجد النبوي للدكتور محمد الجواد، منشور بموقع الجزيرة: <https://www.aljazeera.net/blogs/2021/3/8>

أعضائه، وقرارات المجمع، وقد صدر عددها الأول سنة 1935م محتويًا جملة أعمال الدورة الأولى المنعقدة في سنة 1934م، وهي السَّنة التي تأسَّس فيها المجمع، واختير الشَّيخ الخضر ليكون من بين أعضائه الأوَّلِينَ، وفي العدد الأول نجد للشيخ بحثًا بعنوان: "المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية".

المطلب الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - في الدعوة الفردية.

تُعَدُّ الدعوة الفردية الأنجح والأُنْجَح والأقوى أثراً، والأضمن نتيجة - بعد توفيق الله تعالى -؛ إذ تتميز بالتركيز على المدعو، وقوَّة التأثير فيه مما يعطي فرصة أكبر للنَّجَاح في الدعوة، والقدرة على إيصالها إلى ذلك المدعو. (1)

فحين بدأ النَّبِيُّ - ﷺ - دعوته في مكَّة المكرمة اعتمد بشكلٍ أساسيٍّ أسلوب الدَّعوة الفردية، مع أنه كان يدعو في النَّوَادي العامَّة إلى كلمة التَّوْحِيد، ونبذ الأصنام، إلا أنَّ التركيز الحقيقي كان على الاتصال الفردي؛ ولذا فإنَّ الثَّمار في المرحلة المكيَّة كانت محدودةً، لكنها كانت على أعلى مستوى من النَّضج والأصالة والالتزام والحماسة. (2)

وقد حرص الشَّيْخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - على الدعوة الفردية بكافة وسائلها وأساليبها، والشواهد في هذا كثيرةٌ، وسأقتصر على ذكر بعضٍ منها متعلِّقٍ بمخالفته، كونها ظاهرةً مشهورةً.

أولاً: طه حسين وكتابه (في الشعر الجاهلي):

أصل كتاب في الشعر الجاهلي ما ألقاه الدكتور طه حسين على طلابه في كلية الآداب بالجامعة المصرية بالقاهرة محاضرات في الشعر الجاهلي، ثم إنه قد جمع تلك المحاضرات في كتاب أسماه: (في الشعر الجاهلي)، ولقد أوضح الشيخ الخضر في صورة تحليلية مفصلة لكتاب (في الشعر الجاهلي) من نواح ثلاث، مبيِّناً في الجزء الأول من كتابه منهج البحث ومرآة الحياة الجاهلية في القرآن لا في الشعر الجاهلي، والشعر الجاهلي واللغة، والشعر الجاهلي واللهجات. (3)

وهذه عناصر بين من خلالها الشيخ رأي مؤلف الكتاب في جميع ذلك، مع الإشارة إلى أن هذه القضية لها خصوصية علمية، لما لها من صلات متعددة فتارة ينظر إليها من ناحية

(1) ينظر: رسائل فتیان الدعوة لجاسم بن محمد بن مهلهل الياسمين، (ص 331-332).

(2) ينظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي لعبد الكريم بكار، (ص 181).

(3) ينظر: نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 113).

اللهجات العربية، ومن ناحية ثانية علاقة الشعر العصر الجاهلي باللغة العربية، فضلاً عن الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي.

وأوضح الشيخ الخضر في الجزء الثاني علاقة الكتاب بالعقيدة الإسلامية؛ لأنَّه إن ثبت انتحال الشعر الجاهلي فلا يمكن الاعتماد عليه في فهم اللغة العربية، التي تعتبر الباب الرسمي لفهم القرآن الكريم، فالشعر ديوان العرب، الذي سجَّل فيه الأحوال المختلفة للرجل والمرأة العربية، وهو ما جعل الشيخ يتحدث عن أمرين (1):

الأمر الأول: الدِّين وانتحال الشِّعر؛ لأنَّ الدين مصدره القرآن، وفي القرآن من المفردات الغريبة التي استعملها الشاعر والناثر العربي فاستعملها القرآن لتناول العرب لها، فالتشكيك في الشعر الجاهلي تشكيل رؤية مذبذبة لجانب كبيرٍ يفسِّر القرآن، ويبيِّن غريبه.

الأمر الثاني: القصص وانتحال الشِّعر؛ لأن القرآن فيه من أخبار الأنبياء والرُّسل من خلال القصص القرآني كقصة إبراهيم وإسماعيل - عَلَيْهِمَا السَّلَام - في بناء البيت الحرام، فهل هذا منتحل كذلك، فيكون من أساطير العرب التي اختلقوها؟

والذي يهمُّ في ردِّ الشيخ الخضر مما له علاقة بمجال البحث: نقده للقضايا الفكرية والدينية التي أثارها طه حسين في كتابه، فقد أثار طه حسين بكتابه هذا نقاشاً فكرياً ودينياً، بالإضافة للنقاش الأدبي واللُّغوي، وجعل علماء الشريعة وأئمة الدين - ومنهم الشيخ الخضر - يثورون عليه، وينتقدونه، كونه خاض في مسائل لا يحسنها، وليست من تخصِّصه.

قال الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ -: "يتحدث المؤلف في مسائل دينية؛ ليُظهر للقراء أنَّه درس الشريعة؛ حتى يطمئنوا لما يقوله عن الإسلام في غير إخلاصٍ. يقول المؤلف: "القاعدة أنه لا يقبل من العربي إلا الإسلام أو السَّيف"، يقف القارئ في هذه الفقرة وقفة متردِّدٍ، ولا يدري هل هذا المؤلف يتكلم في الدِّين مجتهداً لنفسه، أو مقلِّداً لذوي الاجتهاد، أو كأجنبيٍّ يحكي قاعدةً في الإسلام، وليس له به صلة اجتهادٍ أو تقليدٍ؟

(1) نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 161).

نحن نعلم أنَّ ليس للمؤلف من صلةٍ اجتهدٍ أو تقليدٍ بالإسلام؛ لأنَّ كلاً من الاجتهاد والتقليد لا يقوم إلا على الإيمان بالقرآن، وشرط هذا الإيمان أن يدخل من ناحية العقل، لا أن يذهب من اليد أو الأذن إلى القلب رأساً، وقد رأيتُ المؤلف كيف يعبث حول القرآن، والقرآن قولٌ فصلٌ وما هو بالهزل، إذا ليس هو بذِي اجتهدٍ، ولا ذِي تقليدٍ". (1)

والحقُّ أنَّ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - قد أتى على كتاب طه حسين فنقضه بالحجَّة والبرهان، بل إنَّ العلماء والمفكرين في ذلك الزمن أقرُّوا أنَّ ردَّ الشيخ لهذا الكتاب هو أفضل ما كتب في نقضه. (2)

ثانياً/ علي عبد الرازق وكتابه (أصول الحكم):

أصول الحكم في الإسلام، ومفهوم الدولة الإسلامية، موضوعُ التفَّ حوله الداني والقاصي، وجذب إليه كثيراً من المفكرين والباحثين والكتَّاب، سواء من الذين أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، أو الذين تصدَّوا للرسالة الخالدة، ولم يزدِهم فحيحهم إلا خساراً.

خلال سنة 1344هـ - 1925م أثَّرت قضيةُ فكريةٍ سياسيةٍ بمصر، ترفع فيها علماء أجلاء، وتراشق كتَّاب مميَّزون، وكثُر اللَّغَط حولها في الصُّحف يومها، هي قضية علي عبد الرازق أحد علماء الأزهر، والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية؛ فقد ألف كتاباً سماه: (الإسلام وأصول الحكم).

جاء موضوع الكتاب يدرس قضية الخلافة في الإسلام، وعلاقة الدين بالحكم في العالم الإسلامي، وما ينبغي أن يكون عليه هذا الأسلوب في العصر الحديث، وقرَّر أنَّ نظام الخلافة لا يمتُّ إلى الدين الإسلامي بصلةٍ، وزعم أنَّ القرآن الكريم والسُّنة النبوية لم ينصَّا على ذلك،

(1) نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 272).

(2) منهم العلامة محمد الفاضل بن عاشور من كبار علماء تونس، حيث صرَّح في كثير من مجالس العلم والمحاضرات، أنَّ الدكتور طه حسين أسرَّ له في إحدى لقاءاته معه "أنَّ ردَّ الشيخ محمد الخضر حسين من أهم الردود، وأشدّها حجةً". ينظر مقدمة نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 4).

وَأَنَّ وجوده في هذا العهد غير ضروري لقيام حكومات إسلامية، وَأَنَّ الشريعة الإسلامية شريعة روحية خالصة، لا ارتباط لها بأمر الدنيا وشؤونها، وَأَنَّ جهاد الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كان في سبيل اتساع نفوذه، لا في سبيل الدعوة إلى الدين وإبلاغه، وَأَنَّ نظام الحكم في عهد الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كان غامضاً مبهماً موجباً للحيرة. (1)

كان الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - من جملة من شارك في هذه المعركة الفكرية، وأدلى بدلوه فيها، بل إنه أحسن البلاء فيها أيما إحسان (2)، وجرد قلمه، وردّ بكتاب في حجم كتاب علي عبد الرزاق، به دراسة قيّمة علمية نقدية تستند إلى الحجّة والدليل والمراجع، وسمّاه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم).

يقول الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - في مقدمة كتابه الماتع: "وقع في يدي كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرزاق، فأخذت أقرؤه قراءة من يتغاضى عن صغائر الهفوات، ويدراً تزييف الأقوال بالشبهات، وكنت أمرّ في صحائفه الأولى على كلمات ترمز إلى غير هدى، فأقول: إنَّ في اللغة كنايةً ومجازاً، ومعمياتٍ وألغازاً؛ ولعلها شغفته حباً حتى تخطى بها المقامات الأدبية إلى المباحث العلمية، وما نشبت أن جعلت المعاني الجامحة عن سواء السبيل تبرح عن خفاء، وتناديها قوانين المنطق، فلا تعباً بالتدء، وكنت - بالرغم من كثرة بوارحها - أصبر نفسي على حسن الظنِّ بمصنفها، وأرجو أن يكون الغرض الذي جاهد في سبيله عشر سنين حكمةً بالغةً، وإن خانه النظر، فأخطأ مقدماتها الصادقة، وما برحت أنتقل من حقيقة وضّاء ينكرها، إلى مزية مجاهد خطير يكتمها، حتى أشرفت على خاتمته، وبرزت نتائجه، وهي أشبه بمقدماته من الماء بالماء، أو الغراب بالغراب". (3)

(1) ينظر: الشيخ محمد الخضير حسين: حياته وآثاره لمحمد مواعده، (ص 151-152).

(2) يقول الأستاذ محمد عمارة - وهو أديب وباحث يظهر أنه منحاز للشيخ علي عبد الرزاق ويدافع عنه -: "إنَّ أجود دراسة فكرية كتبت ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم) هي التي كتبها الشيخ محمد الخضر حسين، وأخرجها في كتاب عنوانه: (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم)". ينظر: الإرث الفكري للشيخ محمد الخضر حسين، (ص 278).

(3) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 8).

ثم واصل الشيخ مبيِّناً ملخَّص ما جاء في كتاب المؤلف: "فَوَّقَ المؤلف سهامه في هذا الكتاب إلى أغراضٍ شتَّى، والتوى به البحث من غرضٍ إلى آخر، حتى جحد الخلافة، وأنكر حقيقتها، وتخطَّى هذا الحدَّ إلى الخوض في صلة الحكومة بالإسلام، وبعد أن ألقى حبالاً وعَصِيّاً من التَّشْكِيك والمغالطات، زعم أنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ما كان يدعو إلى دولةٍ سياسيةٍ، وأنَّ القضاء وغيره من وظائف الحكم ومراكز الدولة ليست من الدِّين في شيءٍ، وإنما هي حُطْطٌ سياسيَّةٌ صرفة لا شأنٌ للدِّين بها، ومسَّ في غضون البحث أصولاً لو صدَّق عليها ظنُّه، لأصبحت النفوس مطمئنة بحكمة الإسلام وآدابه مُزَلَّزَةً العقيدة، مُضْطَرِبَّةَ العنان". (1)

وكتاب الشيخ الخضر مرتَّبٌ على ثلاثة كتبٍ، كلُّ كتابٍ يحتوي على ثلاثة أبوابٍ، فموضوع الكتاب الأول: الخلافة والإسلام، وموضوع الكتاب الثاني: الحكومة والإسلام، وموضوع الكتاب الثالث: الخلافة والحكومة في التاريخ.

وطريقة الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - في النَّقْد أن يضع في صدر كلِّ بابٍ ملخَّص ما تناوله المؤلف من أمهات المباحث، ثم يعود إلى ما يراه مستحقاً للمناقشة من دعوى أو شبهةٍ، فيحكي ألفاظه بعينها، ويُتبعها بما يزيح لُبْسها، أو يُحُلُّ لغزها، أو يجتثها من منبتها، فجاء كتاب الشيخ شرحاً وإيضاحاً ونقداً لكتاب علي عبد الرازق، وبياناً لغموضه، وإظهاراً لعيوبه، وكشفاً لهفواته وزلاته، وإصلاحاً لشططه وفساده. (2)

(1) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 9).

(2) ينظر: المرجع السابق، (ص 10)؛ والإرث الفكري للشيخ محمد الخضر حسين، (ص 279).

الفصل الثالث

مجالات الدعوة عند العلامة محمد الخضر حسين

ويتضمن خمسة مباحث:

✧ المبحث الأول: البدء بالدعوة إلى عقيدة التوحيد.

✧ المبحث الثاني: الدعوة إلى أركان الإيمان.

✧ المبحث الثالث: الفقه الإسلامي.

✧ المبحث الرابع: الأخلاق.

✧ المبحث الخامس: قضايا اللغة العربية.

المبحث الأول: البدء بالدعوة إلى عقيدة التوحيد.

إنَّ عقيدة التَّوْحِيدِ، وإفراد الله بالعبادة هي التي بعث الله من أجلها الرُّسُلَ، وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: 36]، فهي أصل دعوة المسلم ومحورها، وأوَّل ما يجب على الدَّاعية العناية به في دعوته، سواء بين الكفَّار، أو بين المسلمين الذين انحرفوا عن العقيدة الإسلامية الصَّحيحة، المستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ -

وهذا ما كان عليه العلماء الصادقون من السَّلف الصالح على مَرِّ العصور، وعلى هذا سار الشيخ محمد الخضر - رَحِمَهُ اللهُ -، حيث أولى هذا الموضوع عنايةً خاصَّةً استغرقت كل جهوده وكتاباته، وتتجلى جهود الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - في إثبات أهمية العقيدة ومركزيتها من خلال ما يلي:

أولاً/ عنايته الخاصة بهذا الجانب، وتوافره في مؤلفاته، وذلك في مناسبات كثيرة، وسياقاتٍ مختلفة، حيث كانت العقيدة حاضرةً في ذهنه، متجليةً في جميع أطوار حياته، ظاهرةً في شئٍ موافقه، ولئن كان - رَحِمَهُ اللهُ - لم يؤلِّف في العقيدة استقلالاً؛ كأن يضع متنًا فيها، أو شرحًا لأحد متونها فإنه كان كثير الذكر لها في محاضراته، ودروسه، ومقالاته، وتأليفه، بل إنَّه لا يكاد يبحث في موضوعٍ من الموضوعات إلَّا ويربطه بالعقيدة، ويذكرها من خلاله، ولا نبالغ إن قلنا إنَّ منطلقه الأول في آثاره وأعماله كان خدمة العقيدة، لما لها من الأثر المباشر في الإصلاح الذي كان ينادي به، ويعيش لأجله.

ثانيًا/ تنويهه بشأن العقيدة، وتعداده لمزاياها؛ فهو في مناسباتٍ كثيرة يرى أنَّ عقيدة الإسلام هي أصحُّ العقائد، وأنها عقيدة معصومة، ملائمةٌ للفطرة والعقل الصَّحيح، صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأنها امتدادٌ لدعوة جميع الأنبياء، وأنها شاملةٌ لجميع البشر، وأنَّ السَّعادة مقرونةٌ باتباعها، والأخذ بها، وأنها أساسٌ كلِّ صلاحٍ، ورُقْيٍ، واجتماعٍ، وألفةٍ، وأنَّ الأعمال الصالحة،

والمدينة الفاضلة لا تُبْنَى إِلَّا عَلَى أَسَاسِهَا، وَإِنَّهَا أَعْظَمُ مَا يَرْتَقِي بِالْعُلُومِ، وَالْعُقُولِ، وَالْأَفْرَادِ، وَالْجَمَاعَاتِ، وَالْأُمَمِ. (1)

وَيَقَرَّرُ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنَّ: "الْإِيمَانَ تَخَالُطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ، فَيَخْلُقُ مِنَ الضَّعْفِ عِزْمًا، وَمِنَ الْخَمُولِ نَهْوضًا، وَمِنَ الْجَزَعِ صَبْرًا، وَمِنَ الْيَأْسِ أَمَلًا، وَمِنَ الْجُبْنِ شَجَاعَةً، وَمِنَ الذَّلَّةِ عِزًّا". (2)

وَيَرَى أَنَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ ظَلَّتْ: "تَتَخَبَّطُ فِي هَذِهِ الْعِمَايَةِ، فَخَسِرَتِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ، وَضَلَّتْ سُبُلُ السَّعَادَةِ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا - ﷺ -، فَجَاهَدَ فِي إِخْرَاجِهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الْوُثْنِيَّةِ إِلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الْخَالِصَةِ، فَأَصْبَحَتْ أُمَّةٌ رَاجِحَةٌ الْأَحْلَامِ، صَافِيَةٌ الْبَصَائِرِ، شَدِيدَةُ الْيَقَّةِ بِاللَّهِ، حَقِيقَةٌ بِأَنَّ تَحْمِلَ الْهُدَايَةِ الْعَامَةِ، وَالْإِصْلَاحِ الْإِلَهِيِّ إِلَى الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ". (3)

وَيَبَيِّنُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ شَيْئًا مِنَ الْآثَارِ الْحَمِيدَةِ عَلَى الْفَرْدِ فَيَقُولُ: "إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ يَقُومُ الْعَقِيدَةِ وَيُصْلِحُهَا، وَمَتَى اسْتَقَامَتِ الْعَقِيدَةُ وَصَلَحَتْ، أَقَامَتِ عَلَى الْمَرْءِ رَقِيْبًا مِنْهُ عَلَيْهِ فِي حَرَكَاتِهِ وَسُكُنَاتِهِ، وَفِي سِرِّهِ وَعِلَانِيَتِهِ، وَجَعَلَتْ قَلْبَهُ عَرْشًا لِحُكُومَةِ سَاهِرَةٍ، حَاكِمُهَا قَدِيرٌ عَادِلٌ، عَيْنُهُ لَا تَنَامُ، وَمُلْكُهُ لَا يُرَامُ". (4)

وَأَمَّا: "تَحَقُّزُ الْهَمَّةِ إِلَى النَّهْوضِ وَالْعَمَلِ، وَتَمَلُّؤُ النَّفْسِ بِالشَّجَاعَةِ وَالْأَمَلِ، وَتَطَبُّعُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْإِبَاءِ وَالشُّمَمِ، وَتَرْفَعِ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ عَنِ الذَّلَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ لَغَيْرِ مَنْ لَهُ السُّلْطَانُ وَحْدَهُ، وَتَنْأَى بِالْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ عَنِ الْخُضُوعِ لِلْخُرَافَاتِ وَالْأَوْهَامِ، وَالتَّحَاكُمِ لَغَيْرِ الدَّلِيلِ وَالْبَرْهَانِ". (5)

وَيَقُولُ مَقَرَّرًا أَثَرُ الْعَقِيدَةِ عَلَى الْجَمَاعَةِ: "وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ الصَّالِحَةُ - أَيْضًا - تَفْتَحُ أَمَامَ النَّاسِ مُسْتَقْبَلًا أَوْسَعَ مِنْ هَذَا الْمُسْتَقْبَلِ الضَّيِّقِ الَّذِي يَتَطَاخَنُونَ مِنْ حَوْلِهِ، وَتَجْعَلُ مِيدَانِ الْمَجْدِ مَتَّسِعًا

(1) ينظر: محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 8).

(2) المرجع السابق، (ص 78).

(3) المرجع السابق، (ص 152).

(4) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 183).

(5) المرجع نفسه.

للجميع بما ترسم بين يدي صاحبها من حياةٍ أسعدَ، وأبقى، وألذَّ، وأمتع من هذه الحياة". (1)
ويقول في معرض حديثه عن أصول الإصلاح الاجتماعي: "أمَّا الإيمان، فهو الثَّور الذي يسعى بين أيدي الجماعة، يَرُدُّ بها كلَّ وَرْدٍ عَذْبٍ، ويرتاد بها كلَّ مرعى خصبٍ، وهو الوسيلة التي يبتغون بها رضا الخالق - جل شأنه -، وإذا ظفروا برضا الخالق، وقَّعهم لكلِّ عملٍ مجيدٍ، وجعلهم إذ يجارون غير المؤمنين هم السَّابقين، وإذ يناضلون غير المؤمنين هم الفائزين". (2)

ثالثاً/ يرى - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ شأن العقيدة أعظم وأولى ما يُدعى إليه، وأنَّ الدعوة إليها أشقُّ ما يكون، فيقول في معرض حديثه عن الدَّعوة إلى الله بعد أن بيَّن حال ما تتعلَّق به الدَّعوة، أو ما يُقصد بالدَّعوة: "وأمَّا حال ما تتعلَّق به الدَّعوة، فإنَّ الإرشاد إلى أحكام الدِّين العملية - مثلاً - أيسر من إصلاح العقائد ووضع الإيمان موضع الجحود بالله، فداعي المطمئنين بالإيمان إلى مثل الأحكام العملية إنما يتلو قرآنًا أو حديثًا، أو نصوصَ من يُقتدى باجتهادهم، والدَّاعي إلى الإيمان يقصد إلى نقل النفوس من ملَّةٍ إلى ملَّةٍ، وتحويل النفوس من عقيدةٍ إلى أخرى يبلغ من الصَّعوبة أن يحتاج دعائه إلى من يشدُّ أزهم في إبلاغ الحُجَّة، أو مطاردة الشُّبهة". (3)

ويواصل حديثه في ذلك فيقول: "كذلك سأل موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ربه أن يجعل أخاه هارون شريكاً له في الرسالة، فقال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ ٢٩ هَرُونَ أَخِي ٣٠ أَشَدُّ بِهِ ٣١ أَرْرِى ٣٢ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِى ٣٣ ﴿ طه: 29-32]".

وبعث عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلى أهل أنطاكية برجلين اثنين؛ ليدعواهم إلى الإيمان، فقابلهما بعنادٍ وتكذيبٍ، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيد بعثتهما، قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ١٤﴾ [يس: 13-14]". (4)

(1) الدَّعوة إلى الإصلاح، (ص 183).

(2) المرجع السابق، (ص 73).

(3) المرجع السابق، (ص 18).

(4) المرجع نفسه.

ويقول في موضع آخر تحت عنوان: (ما يُدعى إليه) مبيِّنًا أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى إِصْلَاحِ الْعُقَائِدِ أُولَى وَأَوْجِبُ مَا يُدعى إِلَيْهِ: " فإذا زاغت العقائد، كانت أعمال صاحبها بمنزلة من يرمي عن قوسٍ معوجَّةٍ، أو يضرب برمحٍ غير مستقيم:

وَإِذَا كَانَ فِي الْأَنْبِيَاءِ حَيْفٌ وَقَعَ الطَّيْشُ فِي صُدُورِ الصِّعَادِ (1)
إِذَا، يجب على الدَّاعِي أَنْ يُوَجِّهَ عَنَانِيَّتَهُ إِلَى مَحْوِ الْمَزَاغِ الْبَاطِلَةِ، وَرَبِطَ قُلُوبَ النَّاسِ بِالْإِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ". (2)

وقال في معرض حديثه عن مقاصد الإسلام في إصلاح العالم: "فكان من مقاصد الإسلام: تقويم العقائد، وتطهير العقول من المزاعم السخيفة". (3)

وقال في خاتمة مقالة له بعنوان (إبادته - ﷺ - للأصنام) (4): "وختام هذه الكلمة: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ أَسَاسُ كُلِّ إِصْلَاحٍ، فَمَنْ وَاجِبُ دَعَاةِ الْإِصْلَاحِ أَنْ يَجَاهِدُوا فِي تَقْوِيمِ الْعُقَائِدِ، فَإِنَّ الْعُقَائِدَ السَّلِيمَةَ مَصْدَرُ كُلِّ خَيْرٍ، وَالْعُقَائِدَ الزَّائِعَةَ مَنْشَأُ كُلِّ فُسَادٍ". (5)

رابعًا/ رُدُّهُ الْمَزَاغِ الَّتِي تَزْرِي بِالْعَقِيدَةِ، وَتَقْدِّمُ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي مَعْرُضِ حَدِيثِهِ عَنِ الْإِلْحَادِ: "وَإِذَا وَجَدْتَ فِي زَائِعِي الْعَقِيدَةِ مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَخْلَاقِ، وَيُوْهِمُ النَّاسَ أَنَّ

(1) البيت للمتنبي، وكثيرًا ما يستشهد به الشيخ في مثل هذا السياق، والبيت في الديوان هكذا:
وَإِذَا كَانَ فِي الْأَنْبِيَاءِ حَيْفٌ وَقَعَ الطَّيْشُ فِي صُدُورِ الصِّعَادِ

والأنبياء جمع أنبؤ، والصعاد: جمع صعدة، وهي القناة المستقيمة، والطيش الحفَّةُ.
والمعنى كما يقول العكبري: أنه جعل الأنبياء مثلاً للأتباع، والصدور مثلاً للرؤساء، يعني: أنه إذا اختلفت الخدم جرى بين السادة التنازع والتحارب كالرماح إذا اختلفت أنبيائها لم تستقم صدورها. ينظر: ديوان المتنبي بشرح العكبري، (34/2).
وأما الشيخ الخضر فإنه يقصد بالاستشهاد بالبيت: أَنَّ الْأَصُولَ إِذَا قَامَتْ عَلَى عَوْجٍ سَرَى ذَلِكَ الْعَوْجُ إِلَى الْفُرُوعِ، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ إِذَا كَانَتْ زَائِعَةً دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْأَصُولَ لَمْ تَقُمْ عَلَى أُسَاسٍ مَتِينٍ صَحِيحٍ.

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 55).

(3) المرجع السابق، (ص 127).

(4) منشورٌ بمجلة "الهداية الإسلامية" الجزء التاسع من المجلد الثامن - ربيع الأول 1355 هـ.

(5) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 127).

الأخلاق تكفي في استقامة السيرة والاحتفاظ بالعفاف، فإنَّ ذلك كُلُّه رياءٌ ونفاقٌ.

نَعَمْ، للأخلاق أثرٌ في تقليل الشرِّ، ولكنها لا تأتي بأثرٍ عظيمٍ في انتظام حال الاجتماع، إلا حينما تسير تحت مراقبة عقيدة دينية ثابتة⁽¹⁾.

وقال في معرض حديثٍ له عن رأيه في التعليم، وموقف الإسلام منه: "وقد يظنُّ البعيدون عن معرفة أثر الدين في نفوس الجيل أنَّ العرض السطحي للأخلاق في كتب المطالعة وأمثالها يُغني الناشئة عن تثبيت عقيدتها بالله، وتوثيق معرفتها برسالات الله في مرحلتي التعليم الابتدائية والثانوية، وعن تحقيق ذلك بتطبيقه عملياً حتى يتمرن التلاميذ عليه، وتكون فضائله سجيّةً، لا عادةً".⁽²⁾

ويواصل عرضه الماتع في تقرير ذلك فيقول: "وكلُّ تقصيرٍ في ذلك يجعل الانحراف الناشئ عن زَيْغ العقيدة أصعب صلاحاً من الانحراف الناشئ عن طغيان الشهوة؛ لأنَّ زائغ العقيدة يستهين ببعض محاسن الآداب؛ بزعم أنَّها ليست من الحسن في شيء، أمَّا المغلوب للشهوة وحدها، فإنَّه ينصرف عن الحسنة معترفاً بأنه أقبل على سيئة؛ لذلك كانت معالجة المغلوب للشهوة أهون من معالجة من زاغت عقيدته؛ لتهاون المدرسة في حيطة هذه العقيدة، والقيام على أمانات الله فيها".⁽³⁾

خامساً/ تحذيره البالغ من التهاون بشأن العقيدة، وعزوه كثيراً من الانحرافات إلى زيغها؛ يقول -رَحِمَهُ اللهُ- في بحثٍ له عنوانه (محاكاة المسلمين للأجانب)⁽⁴⁾ بعد أن ذكر مظهرًا من مظاهر تلك المحاكاة، وهو محاكاتهم في شيءٍ لم يكن من شعائر دينهم، ولكنه مما نُهى عنه الإسلام على وجه الحرمة، كتقليدهم في اختلاط الرجال بالنساء، ورقص الفتيان مع الفتيات، أو نُهى عنه

(1) رسائل الإصلاح، (ص 24).

(2) أحاديث في رحاب الأزهر، (ص 23-24).

(3) المرجع السابق، (ص 24-25).

(4) منشور بمجلة "نور الإسلام" - العدد السادس من المجلد الثالث، الصادر في شهر جمادى الثانية 1351 هـ - القاهرة.

على وجه الكراهة كتقليدهم في تناول الطعام باليد الشمال، أو إطالة بعض الأظافر، قال: "والمحاكاة التي تُوقع في محرم، فسوقٌ عن أمر الله، والتي توقع في مكروهٍ يخسر بها صاحبها قسطاً من ثواب الله.

هذا إذا كانت المحاكاة عن مجرّد هوى، فإن كانت عن اعتقادٍ أنّ ما يفعله الأجنبيُّ أحكم وأليق، زلزلت أصل الإيمان، والتحقّت بمحاكاته فيما هو من شعائر ملّته". (1)

كما أنّه يرى أنّ زيغ العقيدة مصدر الأخلاق المردولة في كلّ حين، "وأنّ الانحراف الناشئ عن زيغ العقيدة أصعبُ علاجاً من الانحراف النَّاشئ عن طغيان الشّهوة؛ فإنّ زائغ العقيدة يستهين ببعض محاسن الآداب؛ بزعم أنّها ليست من الحسن في شيءٍ، ويخرج عن حدود المكارم؛ بدعوى أنّ هذه الحدود رُسمت على غير حكمةٍ.

والمغلوب للشهوة وحدها قد ينصرف عن الحسنة معترفاً بأنه أقبل على سيئةٍ، وينتهك حرمة الحق غير منازعٍ في أنه ارتكب جريمةً.

وإذا احتجت في تهذيب أخلاق الزائغ إلى إصلاح عقيدته بالحجّة، فإنه يكفيك في تقويم أخلاق المنحطّ في أهوائه شيءٌ من الموعظة.

وتأثير الموعظة في زجر من يعرف الحق حقّاً، والباطل باطلاً، أيسرُ من تأثير الحجّة فيمن يبصر الباطل حقّاً، أو الحقّ باطلاً". (2)

ويرى - رَحِمَهُ اللهُ - أنّه "قد يندى جبينُ المغلوب لأهوائه إذا أنبّته، ويعرف لك فضل النصيحة إذا ذكرته، أمّا زائغ العقيدة فإنّه يحمل بين حاجبيه وناصيته ما هو أشدُّ قسوةً من الحجارة، ويرى إرشادك له لغواً في القول، فلا يُعيرك فؤاداً صاعياً إلا أن تبقى فيه للإنصاف وحرية النظر بقيّة". (3)

(1) رسائل الإصلاح، (ص 247).

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 90-91).

(3) المرجع السابق، (ص 91)؛ وينظر: أحاديث في رحاب الأزهر، (ص 20-21).

ويقول في معرض حديث له عن (الانحراف في الدين: علله، آثاره، ودواؤه): "دلت المشاهدة على أَنَّ النَّاشِئَ الَّذِي يُصَابُ بِمَرَضِ الرَّيْبِ أَوْ الْجُحُودِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْحَطَّ فِي الْمَأْتَمِ، وَيَنْبَغِ الْأَدَبُ الرَّفِيعُ وَالْعَمَلُ الرَّشِيدُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَإِذَا رَأَيْنَاهُ يَتَجَنَّبُ إِثْمًا، فَبِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، أَوْ طَائِلَةَ قَانُونٍ، وَإِذَا عَمِلَ حَسَنًا فَلْيَنَالْ مَدْحًا وَإِطْرَاءً، أَوْ لِيَصِلْ إِلَى عَاجِلٍ مِنَ الْمَنَافِعِ الْمَادِيَةِ أَكْبَرَ، وَإِنَّ نَاشِئًا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَتَى اسْتَتَرَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، لَمْ يَبْقَ لَهُ فِيمَا يَفْعَلُ مِنْ رَقِيبٍ، وَلَا يَنَالُهُ عَلَى مَا يَأْتِي مِنْ جَزَاءٍ، لَا يَتَحَامَى فِي غَالِبِ أَمْرِهِ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَى نَفْسٍ أَوْ عَرَضٍ، أَوْ نَسَبٍ، أَوْ مَالٍ الْاِعْتِدَاءِ الَّذِي يَشِينُ وَجْهَ الْمَدْنِيَّةِ، وَيُجَدِّثُ فِي نِظَامِ الْجَمَاعَةِ وَهَذَا". (1)

إلى أن يقول: "ودلت التجارب على أَنَّ زَائِعَ الْعَقِيدَةِ، مَتَى مَلَكَ جَاهًا أَوْ سُلْطَةً، فَتَنَ الْأُمَّةَ فِي دِينِهَا، وَاتَّهَكَ حُرْمَاتِ شَرِيعَتِهَا، وَلَمْ يَخْلُصِ النَّظَرُ فِي إِصْلَاحِ أَمْرِهَا، وَلَا قَى مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ اضْطِهَادًا، وَالْجَاهِدُونَ وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ مُنَاصِرَةً وَإِقْبَالًا، فَيَكُونُ دَاعِيًا عَمَلِيًّا إِلَى الْخُرُوجِ عَلَى الدِّينِ، فَتَمُوتِ الْفَضِيلَةُ وَالْغِيْرَةُ عَلَى الْحَقُوقِ الْعَامَّةِ، وَيَنْقَطِعُ حَبْلُ اتِّحَادِ الْأُمَّةِ إِزْبًا". (2)

وفي معرض حديثه عن (علّة إعراض الشباب عن الزواج) يعزو السبب الأول في ذلك إلى زيغ العقيدة وضعفها، ويرى أَنَّ أَكْبَرَ جَانِبٍ مِنْ تَبَعَةِ ذَلِكَ يَقَعُ عَلَى الْمُتَوَلِّينَ لِتَرْبِيَةِ النِّشْءِ؛ حَيْثُ لَمْ يَعْمَلُوا لِتَلْقِينِهِمُ الْعُقَائِدَ الصَّحِيْحَةَ تَلْقِينًا يَجْعَلُهَا رَاسِخَةً رَسُوخَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، وَيَرَى أَنَّ عِلَاجَ هَذِهِ الْعِلَّةِ أَنْ نَسْعَى لِأَنْ يَكُونَ نَشْؤُنَا عَلَى تَرْبِيَةٍ صَحِيْحَةٍ، وَأَنَّ الدِّينَ هُوَ الَّذِي يَرْكَبِي النُّفُوسَ؛ فَلَا تَرَى الْقَبِيْحَ حَسَنًا، وَلَا الْخَبِيثَ طَيِّبًا. (3)

سادسًا/ غيرته الشديدة على العقيدة، واعتزازه بها؛ ومن أمثلة ذلك: ما جاء في بحث له عنوانه: (الغيرة على الحقائق والمصالح)، حيث قرر أَنَّ الْغِيْرَةَ عَلَى الْحَقِّ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْإِيْمَانِ، تَقْوَى بِقُوَّتِهِ، وَتَضَعُفُ بِضَعْفِهِ، وَتُفْقَدُ حَيْثُ لَا يَكُونُ الْقَلْبُ مُؤْمِنًا. (4)

(1) رسائل الإصلاح، (ص 182).

(2) المرجع السابق، (ص 183).

(3) المرجع السابق، (ص 265).

(4) المرجع السابق، (ص 144).

وقال بعد ذلك: "وفي النَّاسِ من يلهج بكلمة: "التسامح" يملأ بها فمه، حتى لا تنكر عليه حين تراه، قد اتَّخذ من المضلِّين أو المفسدين في الأرض أولياء، يُطيل التَّردُّدَ على أعتابهم، ويغمس لسانه أينما جلس في إطرائهم، ويجهد نفسه في تمويه باطلهم.

والتسامح المعقول: ألا تؤذي من خالفك في العقيدة، فتنسب إليه زورًا، أو تنفي عنه مكرمةً، أو تهضم له حقًا، أو تنكث له عهدًا، أو تخلف له وعدًا". (1)

إلى أن قال: "أمَّا الرجل يملك قلمًا، أو لسانًا، أو حُسامًا، أو جاهًا، فيصرفه في نقض أساس ما هو دينٌ حقٌّ، أو شريعةٌ صالحةٌ، فذلك ما لا يتولاه إلا غيٌّ لا يفرِّق بين الأعمى والبصير، أو زائع عن سبيل الرشd فما له من نورٍ، وقد أنكر الله على من يتزلف لأشباع الغي، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 139]، وفي الآية شاهدٌ صدقٍ على أنَّ العِزَّةَ بيد الله، يخلعها على من يغار على الحقائق غير مكترثٍ بمن يناوئونها، وإن كانوا أولي جاهٍ أو سلطانٍ". (2)

ثم ذكر بعض الصُّور في الغيرة على الحقِّ، وتفاضلها بتفاضل الحقائق والمصالح، وقال بعد ذلك: "وكذلك الغيرة على الحقائق تكون على قدر تفاضلها فيما يترتب عليها من العواقب، فالغيرة الصادقة: أن يتألم الرَّجل من الجهل على مقام الإلهية، أو الرسالة العظمى أشدَّ مما يتألم للطعن في نفسه، أو في أخٍ له، أو صديقٍ، ويتألم لهدم مسجدٍ، أو إلغاء مدرسةٍ أشدَّ مما يتألم لهدم بيت، أو إهمال حديقةٍ.

بعيدٌ من الغيرة عن الحقائق ذلك الذي يسمع سوء القول في الله أو في رسوله، فلا يجد في نفسه لسماع هذا السَّفه أثرًا، وإذا مُسَّ جانبٌ من يتَّصل به نسبًا، أو يمدُّ له من متاع هذه الحياة سببًا، هاج غضبه، وارتعدت فرائضه". (3)

(1) رسائل الإصلاح، (ص 144-145).

(2) المرجع السابق، (ص 145-146).

(3) المرجع السابق، (ص 146).

ثم استرسل في ذكر نماذج من قوّة الغيرة، وضعفها، وذكر أمثلة من سير العلماء ي ذلك، ثم ختم بحثه بأن قرّر أنّ الغيرة على الحق والمصلحة "ما غلبت على نفوس الأمة إلا استقامت سيرتها، وعلت في الأمم سمعتها، وحسنت في كلتا الحياتين عاقبتها". (1)

ومن مظاهر اعتزاز الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - بالعقيدة الإسلامية اعتداده بالتاريخ الهجري دون غيره، حيث كان - رَحْمَةُ اللَّهِ - يؤرّخ به، وينعى على من يدعه إلى التاريخ الميلادي، ويرى أنّ في الاعتماد على التاريخ الهجري محافظةً على ذكرى مبدأ علو الإسلام، وظهوره على الدّين كلّهِ (2)، ويثني على صاحبه العلامة أحمد تيمور باشا - رَحْمَةُ اللَّهِ - بأنّه يقتصر في مراسلاته على التاريخ الهجري، معتمداً هذا الاقتصار حتى في مخاطبة الجمعيات أو الشركات الأجنبية. (3)

ويثني في موطن آخر على من يعتزّ بدينه، فيستجيب لله فيما شرعه من عباداتٍ تقرّبه إلى الله زلفى، كالصلوات الخمس بقلبٍ حاضرٍ، "ويؤدّيها ولو بمحضر طائفة لم تذق حلاوة الإيمان، فتنظر إلى المستقيمين بتهكمٍ وسخرية". (4)

وينعى - في الوقت نفسه - على ضعفاء الإيمان الذين "لا يقومون إلى الصّلاة في مجالس الملاحدة وأشباه الملاحدة من المترفين، يخافون أن يسخروا منهم، أو تزديهم أعينهم". (5)

سابعاً/ تعظيمه لأئمة السّلف الذين نهضوا بالعقيدة، فقد كان - رَحْمَةُ اللَّهِ - كثير الذّكر والثناء على أئمة السّلف من الصّحابة، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان، وكان غالباً ما يستشهد ويتمثّل بمواقف أئمة السّلف ممن كان لهم قدّم صدقٍ في حفظ العقيدة، والدفاع عنها، والتضحية في سبيلها.

(1) رسائل الإصلاح، (ص 151).

(2) المرجع السابق، (ص 249).

(3) المرجع السابق، (ص 250).

(4) المرجع السابق، (ص 118).

(5) المرجع نفسه.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ - في معرض حديث له عن المعتزلة ⁽¹⁾: "وكان كثيرٌ من العلماء الذين عرفوا أصول الدِّين حقَّ اليقين، وأحكموا صناعة الاجتهاد في الأحكام لا يعنون بمناظرة أولي الآراء المبتدعة، بل لم يأذنوا في ردِّ شُبُه المبطلين بالطرق التي لم ترد منها، قيل لمالك: الرجل له علمٌ بالسُّنة، أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن ليخبر بالسُّنة، فإن قُبِلَ منه، وإلا سكت ⁽²⁾."

وقال ابن وهب ⁽³⁾: سمعت مالكا يقول إذا جاءه أحدٌ من الأهواء: أمّا أنا، فعلى بينةٍ من ربِّي، وأمّا أنت فشاكُّ، فاذهب إلى شاكِّ مثلك فخاصمه ⁽⁴⁾. وجاءه رجلٌ من أهل المغرب، فقال: إنَّ الأهواء كثرت ببلادنا، فجعلت على نفسي إن أنا رأيتك أن آخذ بما تأمرني به، فوصف له مالكٌ شرائع الإسلام، ثم قال: خذ بهذا، ولا تخاصم أحداً ⁽⁵⁾. ⁽⁶⁾

ويقول في معرض حديثه عن الشجاعة الأدبية: "والشَّجاعة الأدبية تقف بالرجل في حدود ما يعلم، فيصدر فتواه في صراحةٍ، لا يقول غير ما يعلم، ولا يرتكب طريق المواربة إرضاءً لذي

(1) المعتزلة: فرقةٌ كلاميةٌ، سميت نسبةً لأصحاب واصل بن عطاء؛ لأنه اعتزل حلقة الحسن البصري، وقد افترقت على عشرين فرقة كل منها تكفّر سائرهما، ونشأت في أواخر العصر الأموي، واعتمدت على العقل في فهم العقيدة الإسلامية، عندها أصول خمسةٌ هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالتوحيد عندهم مقتضى لنفي الصِّفات، والعدل يعني نفي القدر، والمنزلة بين المنزلتين فيه نفي وصف الإيمان عن عصاة أهل القبلة، وإنفاذ الوعيد فيه تخليدُ عصاة الموحِّدين في النار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه وجوب الخروج على أئمة الجور، ينظر: المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار، (ص 9)، والملل والنحل للشهرستاني، (1/43-48).

(2) ينظر لهذا الأثر عن مالك: ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، (2/39).

(3) ابن وهب: (125-197هـ = 743-813م): هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء، المصري، أبو محمد، فقيه من الأئمة، من أصحاب الإمام مالك، جمع بين الفقه والحديث والعبادة، وكان حافظاً ثقة مجتهداً، عُرض عليه القضاء فخجلاً نفسه ولزم منزله، مولده ووفاته بمصر. له كتب، منها "الجامع". ينظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، (2/228).

(4) ينظر لهذا الأثر عن مالك: أصول السنة لابن أبي زمين، (ص 301)، وترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، (2/41)، والإبانة الكبرى لابن بطة العكبري، (1/404).

(5) ينظر لهذا الأثر عن مالك: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، (1/555)، وترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، (2/47).

(6) محاضرات إسلامية، (ص 178-179).

وجاهةٍ أو سلطانٍ.

يحدثنا التاريخ أنَّ المأمون فتن النَّاسَ بمسألة: (خلق القرآن)، وأنَّ الإمام أحمد بن حنبل - رَحِمَهُ اللهُ - كان المثال الكامل للشجاعة الأدبية، فلم يجبن كما جبن غيره أمام السُّلطان، ولم يسلك كما سلك غيره طريق الإبهام في الجواب، بل قال: إِنَّ القرآن كلام الله قديمٌ، واحتمل في سبيل ذلك السجن والضَّرب بالسياط". (1)

وله كلامٌ كثيرٌ نحو هذا عن مواقف كثيرٍ من أئمة السلف كسعيد بن المسيب (2)، ويحيى بن أكتم (3)، وله مقالاتٌ في هذا الشأن كما في مقالاته (العلماء والإصلاح) (4)، و(العلماء وأولوا الأمر). (5)

ثامناً/ ويرى - رَحِمَهُ اللهُ - ضرورة التربية على العقيدة، فهي - في نظره - أعظم ما يريّ ملكات الخير، وينجّي من الشرِّ والفساد، فتراه يقرّر في كثيرٍ من المواضع هذا الأمر، ويرى

(1) رسائل الإصلاح، (ص 36-37).

(2) سعيد بن المسيب: (13-94هـ = 634-713م): هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب - رَحِمَهُ اللهُ - وأفضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، (2/375)، وسير أعلام النبلاء للذهبي، (4/217)، وينظر: مقالة الشيخ الخضر: (مثلٌ أعلى لشجاعة العلماء واستهانتهم بالموت) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 164-167).

(3) يحيى بن أكتم: (159-242هـ = 775-857م): هو يحيى بن أكتم بن محمد بن قطن التميمي الأسدي المروزي، أبو محمد: قاضي، رفيع القدر، عالي الشهرة، من نبلاء الفقهاء، يتصل نسبه بأكتم ابن صيفي حكيم العرب. ولد بمرو، واتصل بالمأمون أيام مقامه بها، فولاه قضاء البصرة (سنة 202) ثم قضاء القضاة ببغداد، وتعلّق به حتى أمر بأن لا يحجب عنه ليلاً ولا نهاراً، وكان مع تقدمه في الفقه وأدب القضاء، حسن العشرة، توفي بالمدينة سنة 242هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، (6/147)، وسير أعلام النبلاء للذهبي، (12/5)، ينظر: مقالة الشيخ الخضر: (شجاعة العلماء وإنصاف الأمراء) في كتابه: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 168-171).

(4) منشور مجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء الحادي عشر من المجلد الثاني - الصادر في شهر ربيع الآخر 1349 هـ. ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 116).

(5) منشور بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء الثاني عشر من المجلد الحادي عشر. ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 98).

ضرورته على كلِّ من يملك زمام التَّربية، وأنَّ التَّفْرِيط فيه سبب كلِّ شرٍّ وبليةٍ.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ - في سياق حديثٍ له عن أسباب الإلحاد ⁽¹⁾: "للإلحاد مهيئات:

منها: أن ينشأ الشخص في بيت خالٍ من آداب الإسلام، ومبادئ هدايته، فلا يرى فيمن يقوم على أمر تربيته - من نحو والدٍ أو أمٍّ أو أخٍ - استقامةً، ولا يتلقَّى عنه ما يطبعه على حبِّ الدِّين، ويجعله على بصيرةٍ من حكمته، فأقلُّ شُبهِ تَمَسُّ ذهن هذا الناشئ تنحدر به في هاوية الضلال.

ومن أسباب الإلحاد: أن يتَّصل الفتى الضعيف النَّفسِ بملحدٍ يكون أقوى منه نفساً، وأبرع لساناً، فيأخذه ببراعته إلى سوء العقيدة، ويفسد عليه أمر دينه، ومن هنا نرى الآباء - الذين يعنون بتربية أبنائهم تربية النَّاصح الأمين - يحولون بينهم وبين مخالطة فاسدي العقيدة، يخشون أن تسري إليهم العدوى من تلك النفوس الخبيثة، فتخبث عقائدهم وأخلاقهم ⁽²⁾.

ويقرّر أنَّ التربية على العقيدة تملأ القلب إجلالاً للواحد الخلاق، وأنَّ من أجلِّ مقام خالقه صُغُر في عينه كلُّ جَبَّارٍ مخلوقٍ. ⁽³⁾

ويرى أنَّ للتَّربية على العقيدة أثراً في ترقية النفوس، وتهذيب الأخلاق أعظم من كلِّ أثرٍ، وأنَّ "التربية غير الدِّينية قد تضعف أمام كثيرٍ من الأهواء الطاغية، فلا تستطيع كبح جماحها، أما التربية الدِّينية فلديها من المتانة ما يطارد هذه الأهواء، وليس الذي يؤمن بأنه سيقف بين يدي علام الغيوب، ويحاسبه على ما يرتكبه من جنایاتٍ، ويجازيه عليه جزاء العادل الحكيم، مثل الذي لا يعرف زاجراً عن الجنایة سوى أنها موضع لوم من يطلعون عليها، أو عقوبة من ترفع

(1) الإلحاد: مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق - ﷻ -، وإنكار الدين، ثم تطوّر فصار هو الميل عن الحقِّ، والانحراف عنه بشقّي الاعتقادات والتأويل. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، (803/2).

(2) رسائل الإصلاح، (ص 17-18).

(3) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 88).

إليهم قضيتها". (1)

ويقول: "وكما ينبغي أن يجهَّز الجيش بالدَّبَابَاتِ والمدافع الضخمة، والطائرات النفاثة والقنابل الذَّريَّة، فإنَّ كلَّ هذه المَعَدَّات لا تنفعه إن لم يستمد جنوده وضبَّاطه من أُمَّة تَرَبَّت على الصِّدْق، وآمنت بالحقِّ، ووطَّنت نفسها على محبَّة الخير". (2)

بل يعتقد أنَّ "تجهيز الأُمَّة بسجِّيَّة الصِّدْق، وتربيتها على الإيمان بالحقِّ، وعلى الإيمان بالخير، هو الذي ييسِّر لها الأسلحة من كلِّ نوع، والأنصار من كلِّ أُمَّة، وهو الذي يملأ بالهيبه والحرمة لها قلوب الأمم جميعاً". (3)

ويرى "أنَّ من النَّاشئين في بلاد الشَّرْق من ينبت نباتاً حسناً، ويتلقى آداب الدِّين وعقائده على يَنِيَّةٍ ورويةٍ، ومثل هذا الفريق لا يتزحزح عن عقيدته، ولا يتحوَّل عن مبادئ تربيته، وإن تغلغل في أحشاء بلادٍ أجنبيَّةٍ، وانغمس في عادات أقوامها أمداً طويلاً". (4)

ويرى أنَّ أعظم وسائل إصلاح عيوب التعليم "أن يُعْنَى بمنهج التَّعليم الدِّيني، فتتَّسع أبوابه حتى يشمل كلَّ ما يحتاج إليه التَّلْمِيذ والتَّلْمِيْذَةُ في العقيدة، والخُلُق، والعبادة، والحياة العملية، ويجب أن يُعْنَى بتدعيم العقائد الإسلامية في نفوس النَّاشئة بالأدلة التي تناسب عقولهم، والتي تترقَّى معهم في مراحل تعليمهم مسيرة لراقيهم.

ومن الواجب - أيضاً - أن يكون في كتاب الدِّيانة بابٌ واسعٌ لعلاج الشُّبهات التي تطرأ على التلاميذ في دينهم، وبابٌ آخر لبيان البدع والخرافات التي يُتوهم أنها من الإسلام، حتى يعلموا أنَّ الإسلام بريءٌ من كلِّ بدعةٍ، عدوٌّ لكلِّ خُرافةٍ، حربٌ على كلِّ تضليل". (5)

(1) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 110).

(2) المرجع السابق، (ص 162).

(3) المرجع السابق، (ص 163).

(4) المرجع السابق، (ص 172).

(5) المرجع السابق، (ص 211).

ويختتم بحثه (الغيرة على الحقائق والمصالح) بقوله: "فمن أهم واجباتنا: أن نرِّي نَشَأَنَا على الشعور بعظمة الله، ثم لا نفتأ نذكر لهم آيات نبوة محمد - ﷺ - حتى يطمئنوا إلى صحتها، ولا ندع أن نقرّر لهم أصول الشريعة على وجه يجعلهم على بصيرة من حكماتها، وهذا ما يرِّي فيهم الغيرة المهدّبة، ويُعدُّهم لِأَنْ يكونوا للحقائق والمصالح أنصاراً". (1)

فهذه معالم مختصرة تبين جهود الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - في تقرير عقيدة التوحيد، وبيان منزلتها من الدين، وحاجة الناس إليها، ووجوب عناية المصلحين والدعاة والمربّين بها.

(1) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 151).

المبحث الثاني: الدَّعْوَةُ إِلَى أَرْكَانِ الْإِيمَانِ.

مرَّ معنا أَنَّ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - لم يتقصَّد الكتابة في العقيدة، ولم يفردَها بأبحاثٍ مستقلةٍ، وإنَّما كانت كتابته عنها داخلةً في غضون كثيرٍ من أبحاثه، ومن ذلك الكلام عن أركان الإيمان وأصول العقيدة، وجهود الشيخ في تقرير هذه الأركان، والدعوة إليها متضافرةً مشهورةً، ومنهجه في تقريرها موافقٌ لمنهج السلف الصالح من جهة تعظيم النصوص الواردة في ذلك، ومن جهة إجرائها على ظواهرها، ورفض تحريفها عن معانيها وحقائقها التي لأجلها سيقت هذه النصوص، كلُّ ذلك برغم نشأته في بيئةٍ كانت كتب الكلام هي المقررة فيها.

وقد أدركته عناية الله وتوفيقه، فسَلِمَ منهجُه العامُّ في إثبات أصول العقيدة وأركانها ومسائلها، حيث سار على نهج السلف الصالح في جوانب التَّوْحِيدِ، والإيمان، والإسلام، وأمور الغيب، والنُّبُوتِ، والقدر، ونحو ذلك، كما كان على منهجهم في التَّلَقِّي والاستدلال.

وفيما يلي بيانٌ لبعض جهوده في الدعوة إلى أركان الإيمان وأصوله الواردة في حديث جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وذلك عندما سأل النَّبِيَّ - ﷺ - عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». (1)

(1) حديث جبريل المشهور في الصحيحين: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي - ﷺ - عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، (19/1 - رقم 50)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعَلَامَةُ السَّاعَةِ، (36/1 - رقم 8).

المطلب الأول: جهوده في الدعوة إلى الإيمان بالله - ﷻ -

أَوَّلًا/ قَرَّرَ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّ معرفة الله - التي هي طريق الإيمان به - تحصلُ بالنَّظر في أدلَّة الشَّريعة التي ينشرح بها الصدر، وتحصل بها الطمأنينة، لا ما يكون بمجرد التَّقليد، أو النِّشأة بين أبوين مُسلمين.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ - في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: 64]: "يؤخذ من الآية: بطلان التَّقليد في أمور الدِّين، وهو قَبول قول الغير مجردًا من الدليل، فلا ينبغي للإنسان أن يقرِّر رأيًا في الدِّين إلَّا أن يُسندَه إلى دليل، كما أنَّه لا يقبل من غيره قولًا إلَّا أن يكون مؤيَّدًا بدليل، أمَّا عدم صحَّة التَّقليد في أصول الدين - أي: فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان - فالأمر فيه جليٌّ واضح". (1)

ثم يزيد الأمر إيضاحًا فيقول: "ولا نريد من هذا أنه يجب على كلِّ مكلفٍ التَّعمُّق في الطرق المدوَّنة في علم الكلام، بل يُكتفى في إيمان الشَّخص بأيِّ دليلٍ ينشرح به صدره للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة؛ كأن يستمدَّ إيمانه بالله من التَّبُّه لحكمة الله في إتقان المخلوقات، أو في رعاية اللُّطف والرِّفق بالإنسان، ويستمدَّ إيمانه بصدق الرِّسول من الاستماع إلى القرآن الكريم، أو من سيرته التي لم يظهر بمثلها أو بما يقربُ منها بشرٌ غير رَسولٍ، والقصد إلَّا أن يكون إسلامه لمجرَّد أنَّه نشأ في بيئةٍ إسلاميَّة، أو وُلد من أبٍ وأمٍّ مسلمين". (2)

ثانيًا/ تطرَّق الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - كثيرًا لمسألة مفهوم الإيمان بالله وحقيقته، ولا غرو في ذلك؛ فقد عاش في عصرٍ كثرت فيه الانحرافات وتنوّعت، ويأتي على رأسها الإلحاد، وإنكار وجود الخالق - ﷻ -، لذا كان للشيخ عنايةٌ كبيرةٌ، وجهودٌ مباركةٌ في تقرير مفهوم الإيمان بالله، وإثبات وجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسماءه وصفاته.

(1) أسرار التنزيل، (ص 204).

(2) المرجع نفسه.

وكان يستدلُّ على ذلك بدلائل كثيرة: كدلالة الشَّرع، ودلالة الفطرة، ودلالة العقل، ودلالة الحسِّ، ودلالة الأنفس والآفاق. (1)

وكان يتطرَّق لمسألة الإيمان بالله بشمولٍ، فيرى التَّلازم بين وجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وإذا تطرَّق لشرح شيءٍ من أسماء الله تعرَّض لآثارها، ومقتضياتها، سالِّكاً في ذلك كَلِمَةً مسلك السَّلف وطريقتهم في تقرير مسائل الإيمان، وقد يستعين ببعض أدلة أهل الكلام التي لا مُشَاخَّةَ فيها، وقد يقعُ منه تأويلٌ لبعض معاني صفات الله تعالى، وذلك بسبب ما بقي عنده من آثار ما تلقَّاه عن بيئة الأشاعرة (2)، والتي لا يوافقها في كلِّ شيءٍ، وإمَّا كان الحقُّ رائئده، وما وقع فيه قليلٌ جدًّا منغمَّرٌ في بحر فضائله.

ومما قرَّره الشيخ في هذا الباب: أنَّ الإيمان بالله يتضمَّن التَّصديق بما اختص الله به من صفات الكمال، على وجه الجزم واليقين تصديقاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23].

وأنَّ المعرفة بالله لا تتمُّ إلَّا بالتَّصديق بوحدانيته، وماله من الصِّفات، وأنَّ إثبات الوجدانية يقتضي نفي الشريك في الإلهية. (3)

ويُثبت الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ معنى الإله: المعبود، وأنَّ معنى (لا إله الا الله): لا معبود بحقِّ

(1) ينظر مثلاً: أسرار التنزيل، (ص 8-20 و 29 و 42 و 52 و 105 و 241 و 289-293)، وبلاغة القرآن، (ص 563 و 721).

(2) الأشاعرة: فرقة كلامية كبرى، تنتسب لأبي الحسن الأشعري، ظهرت في القرن الرابع وما بعده، من أصولها العقدية: نفي الصفات الخبرية عن الله، وإثبات صفات سبعة دَلَّ عليها العقل، وسلوك مذهب التأويل، وأنَّ كلام الله نفسيٌّ، مع القول بالكسب الذي نشأت عنه نزعة الجبر، والقول بالإرجاء. ينظر: الملل والنحل للشهرستاني، (1/94). وينظر لقولهم: أصول الدين للبغدادى، (ص 253)؛ والمعتمد في أصول الدين لأبي يعلى ابن الفراء، (ص 190)؛ ومجموع الفتاوى لابن تيمية، (7/253-256-429).

(3) ينظر: أسرار التنزيل، (ص 247 و 288 و 312).

إلا الله، فثبتت العبادة لله وحده، وينفيها عن سواه خلافاً لطريقة أهل الكلام ممن يقولون: إنَّ الإله هو الخالق، أو القادر على الاختراع، فيفسرونها بتوحيد الربوبية لا الألوهية. (1)

يقول الشيخ الخضر في معرض تفسيره لقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]: "والإله: المعبود، ومعناه في الآية: المعبود بحق؛ بدليل الإخبار عنه بأنه واحد، والمعنى: وإلهكم الذي يستحقُّ العبادة، فمن عبد شيئاً دونه، أو عبد شيئاً معه، فعبادته باطلة، والعبادة الصحيحة ما يتجه بها إلى المعبود بحق، ومن العبادات: الدُّعاء، فالصَّحيح منه ما يُقبل به الإنسان على الإله الواحد موقناً بأنَّ لا نافع ولا ضارَّ سواه". (2)

ثم يقول في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: "أثبتت الجملة السابقة له تعالى الوحدانية، وإثبات الوحدانية يقتضي نفى الشريك في الإلهية، وجاءت هذه الجملة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مقرّرة لما تضمنته الجملة السابقة، فنفت عن الله الشَّريك صراحةً، وأثبتت له مع ذلك الإلهية، فمعنى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أنَّ الله إلهٌ، وليس شيءٌ مما سواه بإله". (3)

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164] قرَّر عدداً من الأدلة على وجود الله تعالى، ونفي إلهية ما سواه، وأنَّ الناظر المتدبِّر لهذه الآية يدرك بطلان ما يفعله طوائف من البشر من عبادة بعض المخلوقات كالكوكب، والنار، والحيوان، والأحجار؛ بزعم أنها آلهة، أو شركاء لله في إلهيته. (4)

(1) ينظر: أصول الدين للبغدادي، (ص 123)؛ والملل والنحل للشهرستاني، (100/1)؛ ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، (266/1).

(2) أسرار التنزيل، (ص 288).

(3) المرجع السابق، (ص 288-289).

(4) المرجع السابق، (ص 289).

ويذكر من جملة تلك الآيات الدالة على وجود الله تعالى، ووحدانيته، واستحقاقه العبادة دون غيره، وكمال قدرته، وحكمته: خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الفلك، وبثّ الدوابّ. (1)

ويختم ذلك بقوله: "ومعرفتنا لأسباب بعض المصنوعات الكونية البديعة لا يقف بنا حدّ هذه الأسباب، ويقطع النَّظَرُ عن أن يُعَدَّ تلك المصنوعات في جملة الآيات الدالة على الإله الواحد، بل ارتباطها بأسبابٍ يشهد بأنها قائمة على نظامٍ ليس من المعقول أن يحدث بنفسه، فنزداد يقيناً بأنها من صنع إلهٍ قادرٍ حكيمٍ، ويصل الناظر في هذه الآيات إلى معرفة وجود الله وتعالیه عن أن يكون له شريكٌ كما يزعم طوائف المشركين". (2)

وهكذا يقرّر ويستدلُّ لوجود الله، وربوبيته على خلقه، واستحقاقه الألوهية من خلال تفسيره لهذه الآيات الكريمة على نحوٍ متآلفٍ، يشهد بعضه لبعضٍ، ويؤيِّدُ بعضه بعضاً.

وفي مقالة له عنوانها: (الله موجود) (3) يسوق أدلّةً عديدةً على إثبات وجود الله، ووحدانيته، وربوبيته، وألوهيته، ويسلك في ذلك طُرُقاً في الاستدلال، منها: استدلاله على وجود الله تعالى بدليل إمكان الأشياء وحدوثها (4)، وهو دليلٌ يقول به علماء الكلام، ولكنّه لا يقدِّمه على غيره، ولا يجعله هو الدليل الوحيد على إثبات وجود الله. (5)

يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "والدليل المنبّه لوجود واجب الوجود (6) هو إمكان الأشياء وحدوثها،

(1) أسرار التنزيل، (ص 290-292).

(2) المرجع السابق، (ص 293).

(3) منشورٌ في مجلة "لواء الإسلام" - العدد الثاني عشر من السنة العاشرة.

(4) دليل الإمكان والحدوث: يقوم على حصر الأمر في قسمين ثم يطل أحدهما فيلزم ثبوت الثاني، كالقول: أنّ العالم إمّا حادث وإما قديم، ومحال أن يكون قديماً فيلزم منه لا محالة أن يكون حادثاً، فإن كان كل ما قام به حادثٌ هو حادثٌ، ثبت أنّ العالم لا بدّ له من محدث وهو الله ﷻ. ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، (ص 18).

(5) ينظر لشرح هذا الدليل: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، (389/2-390) و(30/3).

(6) واجب الوجود: يقصد به الله - ﷻ -، وهو مصطلحٌ أحدثه متأخرو الفلاسفة، وتبعهم في ذلك الأشاعرة، ويعنون به ضروري الوجود، والذي يستحيل افتراض عدم وجوده، وقد يُطلق على الله تعالى من باب الإخبار عنه - ﷻ -، وذلك في

أو بحدوثها، كما هو مقررٌ في علم الكلام.

ونذكر الاستدلال بحدوث الممكنات على وجه الاختصار، فنقول: إنَّ وجود الحوادث بديهيٌّ؛ كالحَيوان والنَّبات، فهذه الحوادث لم توجد بنفسها قطعاً، فلا بدَّ لها من مُوجِدٍ، فإن كان الموجد لها واجب الوجود، فقد تمَّ المراد، وارتفع النَّزاع، وإن كان الموجد لها حادثاً، فيلزم الدَّور والتَّسلسل⁽¹⁾.

والدور: هو أن يكون الشيء الذي وُجد بالحدث هو الذي أوجد الحادث، وهذا مستحيلٌ، والتَّسلسل يقتضي وجود حوادث لا أوَّل لها، وهو مستحيل أيضاً⁽²⁾.

وكذلك استدلاله بالممكن، قال - رَحِمَهُ اللهُ - بعد أن بيَّن الاستدلال على وجود الله بدليل إمكان الأشياء وحدوثها: "هذه الطريقة في الاستدلال أبين وأقصر من غيرها، وإن كانت طريقة الاستدلال بالممكن صحيحةً وقطعيةً أيضاً.

ولما كانت الأعراض لا توجد إلا بوجود الأجسام، كان الدليل على حدوث الأجسام متضمِّناً دليل حدوث الأعراض.

والقرآن الكريم أكثر من الاستدلال على وجود الخالق بحدوث الأعراض؛ لأنَّه أقرب الطرق وأظهرها لإفهام الخلق؛ فإنَّ القرآن نزل ليفهمه كلُّ النَّاس من الخاصَّة والعامة⁽³⁾.
ويذكر طريقةً أخرى فيقول: "وقد سلك القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الخالق

المناظرات والمناقشات مع من يستعمله، والوجوب الذي دلَّ عليه الدليل هو وجوده - ﷻ - بنفسه، واستغناؤه عن مُوجِدٍ، لكن الفلاسفة يضيفون إلى ذلك معانٍ أخرى غير صحيحة كنفي الصفات عنه - ﷻ -. ينظر: النجاة لابن سينا، (77/2)؛ والمطالب العالية للرازي، (134/1)؛ وشرح المقاصد للتفتازاني، (458/1)؛ ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، (391/2).

(1) الدور: هو توقُّف الشيء على ما يتوقف عليه، كما يتوقف "أ" على "ب"، وبالعكس. وقيل: هو توقف كل واحد من الشَّيْئَيْنِ على الآخر. ينظر: التعريفات للجرجاني، (ص 105)، والكيليات للكفوي، (ص 447).
والتسلسل: هو ترتيب أمور غير متناهية. وقيل: هو إمَّا أن يكون في الأحاد المجتمعة في الوجود أو لم يكن. ينظر: التعريفات للجرجاني، (ص 57)، والكيليات للكفوي، (ص 293).

(2) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 6).

(3) المرجع السابق، (ص 6-7).

طريقين:

أولهما: كمال القدرة.

وثانيهما: تمام النعمة واللفظ بالخلق؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]، فهذه الآية جمعت بين الاستدلال بكمال القدرة، وإتمام النعمة، ومثلها الآيات الدالة على كمال القدرة، والآيات الواردة في إتمام النعمة.

وانظر إلى قول موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فيما قصَّه القرآن عنه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]، أي: أعطى كلَّ شيءٍ صورته الخاصَّة، وشكله المعين المطابقين للحكمة والمصلحة⁽¹⁾.

ثم ينقل كلامًا عن الأئمة: أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد - رَحِمَهُمُ اللهُ - في الاستدلال بحدوث الأعراض على وجود الله. ⁽²⁾

ثم يذكر أنَّ المعجزات التي تجري على أيدي الرسل - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - هي من فعل الله، وأنها قد زادت الإيمان بالله قبل الإيمان بالرُّسل. ⁽³⁾

ثم يختم مقاله بالإشادة بدلالة القرآن، وأنها أعظم الدلالات، فيقول: "وأدلة القرآن قطعية الدلالة، فيها مقنع وكفاية لكلِّ ذي عقلٍ مفكِّرٍ، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35]، تجد الدليل القويَّ على وجود الخالق - عَزَّ وَجَلَّ -". ⁽⁴⁾

وفي مواضع أخرى نجده يُبيِّن الحكمة من خلق البشر، وأنها عبادة مبدع الكائنات وحده. ⁽⁵⁾

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 7).

(2) المرجع السابق، (ص 7-8).

(3) المرجع السابق، (ص 8).

(4) المرجع السابق، (ص 9).

(5) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 252).

وقد يستدل - رَحِمَهُ اللهُ - بالرُّبُوبِيَّةِ على الألوهية، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131] إذ قال: "ولم يقل: أسلمت لك؛ لِيَذْكُرَ اللهُ بما يدلُّ على عِظَمِ شأنه، ويشير إلى أَنَّ من كان ربًّا للعالمين لا يليق بأحدٍ من العالمين إلا أن يتلقَّى أمره بالخضوع وحسن الطاعة". (1)

وقد تطرَّق - رَحِمَهُ اللهُ - إلى مسائل كثيرة متعلِّقة بألوهية الله تعالى، واستحقاقه العبودية دون غيره، وتحدَّث عن جملةٍ من أنواع العبادات الظاهرة والباطنة في مواضع متفرِّقة، ومن ذلك: بيانه لحقيقة عبادة التَّوَكُّل، وشروطها الموجبة لحصول آثارها، وعلاقة ذلك بالطِّبِّ، وحاجة النَّفس البشرية إليه، فيقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "عُرف الإسلام بأنه يدعو إلى التَّوَكُّل على الخالق - جل شأنه -، ويوجِّه القلوب إلى تفويض الأمور إليه في كلِّ حالٍ، وهو إن عدَّ التَّوَكُّل والتَّفويض إلى الله في جملة آدابه، لم يُهمل النَّظر في الأسباب، وارتباطها بمسبباتها، فأذِنَ، بل أمر بتعاطي ما دَلَّت العقول والتجارب على أنه مجلبةٌ خيرٍ، ونهى عن القرب مما عُرف بأنه مجلبةٌ شرٍّ.

والتَّوَكُّل والأخذ بالأسباب يلتقيان في نفسٍ واحدةٍ ما شدَّ أحدهما بعضُ الآخر: التَّوَكُّل أدبٌ نفسيٌّ يبتغى به رضا الخالق ومعونته، والأخذ بالأسباب عملٌ يجري على سنن الله في الخليقة، فمن وكل أمره إلى الله، ثم تعاطى أسبابه، وصل إليه من أرشد الطرق، وعاد منه بأحسن العواقب". (2)

وهكذا يسير على هذا النهج الشُّمولي الاستدلالي في إثبات الإيمان بالله تعالى، وما يتضمَّنه من إثبات الوجود، والرُّبُوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

(1) أسرار التنزيل، (ص 240-241).

(2) الهداية الإسلامية، (ص 47).

المطلب الثاني: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، وقد تطرّق الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - لتقرير هذا الأصل من خلال ما يلي:

أولاً/ تطرّقه لتعريف الملائكة، وأوصافهم، وأعمالهم، حيث أثبت أنّ الملائكة حقيقة، وأنهم أجسام، وأنّ لهم أعمالاً يقومون بها.

قال - رَحِمَهُ اللهُ - عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] "الملائكة جمع ملاك⁽¹⁾ بمعنى ملك، وهم نوعٌ من الخليفة ذوو أجسام لطيفة، يستطيعون أن يتشكّلوا بأشكالٍ مختلفة⁽²⁾."

وقال في موضعٍ آخر: "والملك كائنٌ نعلم من حقيقته أنّه ذو حياةٍ ونطقٍ عقليٍّ، ومن مميزاته: أنه لا يعصي الله فيما يأمره به؛ أي: إنّهُ مفطورٌ على الطّاعة يأتيها من غير تكلفٍ".⁽³⁾

ثانياً/ تقريره أنّ الملائكة لا يعلمون الغيب، حيث يقول - رَحِمَهُ اللهُ - عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 31] موضّحاً كيف علّم الملائكة بما سيترتب على إهباط آدم إلى الأرض: "والملائكة لا يعلمون الغيب، فلا بدّ أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بوجهٍ من الوجوه التي يُطَّلَع الله بها على غيبه بعض المصطفين من خلقه".⁽⁴⁾

(1) هكذا في الأصل: مَلَاك، ولعلّه أراد: مَلَأَك؛ لأنّ المَلَك مشتقٌّ من أَلَك بمعنى أرسل، والأصل مَأَلَك، ثم قُلبت الهمزة إلى موضع اللام فقليل: مَلَأَك، ثم خَفِفت الهمزة بأن أُلقيت حركتها على السّاكن الذي قبلها، فقليل: مَلَك. ينظر: لسان العرب لابن منظور، (394/10).

(2) أسرار التنزيل، (ص 61).

(3) المرجع السابق، (ص 186).

(4) المرجع السابق، (ص 61).

وقال في موضع آخر: "ولو قال الملائكة: لا علم لنا بأسماء هذه المسميات، لكان جوابهم على قدر السؤال، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه، فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئاً غير ما يعلمهم الله". (1)

ثالثاً/ استخلاصه العبر من مراجعة الملائكة للرب - ﷻ -، وذلك من خلال حديثه عن قصة جعل آدم خليفة، ومراجعة الملائكة رَّبِّهم في ذلك، واعترافهم بالعجز والقصور، وأنهم لا يعلمون إلا ما علَّمهم الله.

قال - رَحِمَهُ اللهُ -: "وقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾... إلخ، إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يصدر منها الإفساد في الأرض وسفك الدماء.

وقطعهم بحكمة الله في كلِّ ما يفعل لا ينافي تعجبهم من بعض أفعاله؛ لأنَّ التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل، فمن تعجب من فعل شيء، وأحبَّ الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله، لا يُعدُّ مُنْكَرًا له في حالٍ". (2)

إلى أن قال في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]: "قلنا: إنَّ قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ لم يكن صادراً عن إنكارٍ، وإنما هو استكشافٌ عن الحكمة.

ولما كانت مكانتهم من طاعة الله، وبقينهم بأنَّ أفعاله تعالى لا تصدر إلا عن حكمة يقتضيان أن يتلقوا ما أعلمهم الله به من جعل خليفة في الأرض بتسليم تامٍّ، ويتمهلوا إلى أن يُطلعهم الله على الحكمة من خلق آدم بوجه من وجوه العلم، كانت مبادرتهم لسؤاله تعالى عن الحكمة غير واقعة الموقع اللائق بكمال أدب العارفين به، المقربين من حضرته.

(1) أسرار التنزيل، (ص 64).

(2) المرجع السابق، (ص 61-62).

واقترضى هذا أن يجيبهم بجوابٍ يذكرهم فيه بالأمر الذي شأنه أن يقف بهم في حدود الأدب اللائق بمقام الإلهية، وهو أنه تعالى عالمٌ بما لا يحيط به علمٌ أحدٍ من خلقه، فله أن يفعل ما يشاء، ويأمر بما يشاء، وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه - حين يأمرهم بشيءٍ، أو يعلمهم بأنه سيفعل شيئاً - عن حكمة ما أمر به، أو ما سيفعله، بل شأنهم أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر من أنفسهم، فإذا أدركوها، فقد ظفروا بأمنيتهم، وإن وقفت عقولهم دونها؛ ففي تسليمهم لقدر الله، وامتناعهم لأوامره الكفاية في القيام بحقِّ التكليف، والفوز برضا الله الذي هو الغاية من الإيمان به، والإقبال على طاعته". (1)

ثم ختم القول في نهاية القصّة بقوله: "والقصّة - مع كونها حقيقة واقعةً - تنطوي على حكمٍ شائقةٍ، وعبرٍ لاميةٍ، يجدها المتدبر لكتاب الله قريبة المنال، عزيزة المثال؛ كأن يفهم منها: أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى إنما تقوم على أساسٍ راسخٍ من العلم، ويفهم منها: أن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة، وأن روح الشرّ الخبيثة إذا طغت في نفسٍ، ذهبت البراهين عندها ضائعةً، ولا يوجهها إلى الخير وعدٌ، ولا يردعها عن الشرّ وعيدٌ.

ويستفيد منها الرئيس الأعلى كيف يفسح المجال لمرووسيه المخلصين يجادلونه في أمرٍ يريد قضاءه، ولا يزيد على أن يبين لهم وجهة نظره في رفقٍ، وإذا تجاوزوا حدَّ الأدب اللائق به، راعى في عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب، وتلقّى أوامره بحسن الطاعة.

ويستفيد منها المتقلب في نعمةٍ يغبط عليها: أن مخالفة ما أمر الله قد تكون سبباً لزوال النعمة، وذلك ما يدعوه إلى تحصينها بالتزام الطاعة في كلّ حالٍ". (2)

رابعاً/ إثباته كفر من أنكر الملائكة، أو عاداتهم، فقال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ [البقرة: 177] :

(1) أسرار التنزيل، (ص 62).

(2) المرجع السابق، (ص 77-78).

"فمن لم يؤمن بهذا النوع من المخلوقات ⁽¹⁾ على الوجه الذي وصفه الكتاب العزيز، فقد أنكر الوحي، وحُرم من إيمان يبنى عليه سيرة يصل بها إلى أَمْنٍ وسعادةٍ". ⁽²⁾

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98]: "عداوة العبد لله في كفره به، ومخالفته لأوامره عنادًا، وعداوته للملائكة في إنكار فضلهم، ووصفهم بما ينافي عصمتهم ورفعته منزلهم عند الله... وقوله: ﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: عدو له، أو لهم؛ ليدلَّ على أنَّ عداوة كلِّ واحدٍ ممن اشتملت الآية على ذكرهم كفرٌ، والمعنى: أنَّ من عادى الله، أو ملكًا من ملائكته، أو رسولًا من رسله، فقد كفر، وباء بعداوة الله له، ومن باء بعداوة الله، فجزاؤه الخزي وعذاب الحريق". ⁽³⁾

خامسًا/ إثباته أنَّ الملائكة عبادُ الله، وإنكاره على من عبدَهم دونه، حيث قرَّر أنَّ الملائكة مخلوقون لله، مريبون له، وليس لهم شيءٌ من خصائص الربوبية، ولا الألوهية، وأنهم لا يعلمون إلا ما علَّمهم الله، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. ⁽⁴⁾

وفي الوقت الذي يثبت فيه أنَّ الملائكة عبادُ الله يُنكر على مَنْ عَبدَهم من دون الله، يقول - رَحِمَهُ اللهُ - في بحثٍ له عن عبادة العرب قبل الإسلام: "من العرب من كانوا يعبدون الملائكة، ويزعمون أنهم بنات الله يشفعن لهم عنده، وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: 40]، وورد في القرآن الكريم أنَّ الله - ﷻ - يسأل الملائكة يوم القيامة عن عبادة الإنس لهم، فيتبرؤون منهم ومن ولايتهم، جاء هذا في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ

(1) يعني: الملائكة.

(2) أسرار التنزيل، (ص 313).

(3) المرجع السابق، (ص 179-180) - بتصرف -.

(4) المرجع السابق، (ص 61 و 186 و 313).

كَأَنَّا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ [سبأ: 40-41].

وسؤال الله تعالى للملائكة يدلُّ على أنَّ من الإنس من كانوا يتوجَّهون بعبادتهم إلى الملائكة، وقول الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ ظاهرٌ في نفي أن يكون من الإنس من يتوجَّه إليهم بالعبادة، وأنَّ المشركين إنما كانوا يقصدون بعبادتهم الجنَّ⁽¹⁾.

إلى أن قال: "ومن وجوه تفسير الآية التي يكون بها جواب الملائكة موافقاً للسؤال: أنَّ أولئك الإنس كانوا يتوجَّهون بالعبادة إلى الملائكة، ولكنَّهم كانوا يتخيَّلون للملائكة صوراً، وهذه الصورُ إمَّا تطابق حال الجنِّ، فيصحُّ أن يُقال: إنَّ هؤلاء الإنس إنما يعبدون أصحاب تلك الصور، وهم الجنُّ.

ومن الوجوه التي تجعل الجواب موافقاً للسؤال: أنَّ الملائكة جعلوا عبادة الإنس لهم عبادة للجنِّ؛ لأنَّ الجنَّ - وهم الشياطين - وسوسوا لهم بهذه العبادة، فنسبة عبادة الإنس للجنِّ من جهة أنَّهم وسوسوا بها"⁽²⁾.

سادساً/ رُدُّه على الانحرافات في تأويل الملائكة، وذلك كتأويلات بعض العقلايين أو الجامدين على الحسِّ - كما يسمِّيهم -

ومن ردوده في هذا الشأن ما جاء في بحثه المسمَّى (كتابٌ يهذي في تأويل الكتاب المجيد)، وهو نقدٌ لكتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن)⁽³⁾ لمحمد أبو زيد الدمنهوري⁽⁴⁾،

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبِيِّينَ، (ص 24).

(2) المرجع نفسه.

(3) والكتاب مطبوعٌ في ثلاثة أجزاء، من طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنة 1349هـ.

(4) محمد أبو زيد الدمنهوري: ولد بمدينة دمنهور البحيرة بدولة مصر، نشأ بعيداً عن العلم والعلماء، إلَّا أنَّه حفظ القرآن الكريم، والتحق بالأزهر، ثم بدار الدعوة والإرشاد التي أسَّسها بالقاهرة الأستاذ الشيخ رشيد رضا، وقد سافر في طلب المعاش إلى بعض الأقطار الشرقية كالحجاز وأندونيسيا فلم يلبث أن عاد مطروداً، له أبحاثٌ ومؤلفات يجمعها كونها مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة، وقد قصد بها الشهرة والسُّمعة مدَّعيًا التَّجديد، منها الكتاب الذي أثار به فتنةً عامَّةً وهو: (تفسير الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) والذي يُعدُّ من الأعمال المحسوبة على المدرسة التأويلية الحدائية المعاصرة،

حيث يقول الشيخ في مقدمة هذا الرَّدِّ متحدِّثًا عن الذين يتأوَّلون نصوص الشَّرْعِ تأويلًا متعسفًا، لا يستند إلى دليل: "ومن هؤلاء النَّفَرِ شخصٌ سَوَّلَ له نفسه أن يخوض في آيات الله كالَّذين خاضوا فيها على عِمَايَةٍ، فكتب جُمْلًا قصيرةً قذف فيها شيئًا من وَسَاوِسِهِ، وسمَّاهَا: تفسيرًا، بل تناهى في الافتتان بها، فسمَّاهَا: "الهداية والعرفان".

والَّذي يقرأ هذه الجمل لا يرتاب في أنَّ صاحبها جامدٌ على المحسوسات، جاحدٌ لكثيرٍ مما أخبر به القرآن، منكرٌ لأحكامٍ قرَّرها القرآن والسُّنَّةُ، وأجمع عليها الصَّحابة وأئمة الإسلام من بعدهم جيلًا بعد جيلٍ، ولكنه يريد أن يدلَّ على إنكاره بما يرتكبه في الآيات من سوء التَّأويل⁽¹⁾.

ثم ذكر الشيخ في غرضون هذا البحث تعرُّض المؤلف إلى تأويل الملائكة فقال: "يتخبَّط المؤوِّل عندما تجيء آيةٌ فيها اسم الملائكة، فمرةً يفسِّره برُّسل النَّظام والسُّنن في الكون؛ كما قال عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: 248]: (إشارة إلى أنه يأتيهم بسنن الله ونظامه؛ أي: بتغلُّبهم على العدو، وبقوَّة الحرب ونظامه، والملائكة - كما قلنا في (ص 24) - رُسل النَّظام والسُّنن في الكون)

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34]: (الملائكة: رسل

وقد صودر الكتاب وأُتلفَ بعد أن أفنى شيخ الأزهر إذ ذاك بأنه كتابٌ منحرفٌ، كما صدر حكمٌ بتكفير صاحبه ونسبته للإلحاد. وله مؤلَّفٌ آخر عنوانه (الزواج والطلاق المدني في القرآن) تبنيَّ خلاله الدَّعوة إلى إبطال بعض التَّشريعات الإسلامية المتعلقة بالزَّواج والأسرة بحجَّة عدم مسايرتها للعصر، وقد قام الأئمة المصلحون في زمنه برَّد افتراءاته ودحض تَرهاتِهِ، منهم الشيخ الخضر، والشيخ محمد حسين الذهبي صاحب كتاب (التفسير والمفسرون)، والشيخ محمد رشيد رضا، وغيرهم كثيرٌ. هلك سنة 1930م. ينظر: مقال: بين التجديد والتبديد، محمد أبو زيد الدمنهوري نموذجًا، للشيخ علي جمعة، المنشور بمجلة الفرائد في البحوث الإسلامية والعربية لجامعة الأزهر، المجلد 34، العدد 1، مارس 2017م، (ص 265-266).

(1) بلاغة القرآن، (ص 144-145).

النِّظام وعالم السنن، وسجودهم للإنسان معناه: أَنَّ الكون مسخَّرٌ له".⁽¹⁾

ثم يختم الشيخ كلامه عن تحريف الدمنهوري للملائكة بنتيجة قال فيها: "فتحريفه الآية بادِّعاء التَّمثيل مرَّةً، وذكره لسنن الكون ونُظْمه مرَّةً أخرى، وجعله جبريل وميكائيل قسمين من الملائكة، دون الاعتراف بأنَّهما فردان منهم، يدلُّ على أَنَّهُ يريد من الملائكة معنى غير المعنى المعروف في صريح الكتاب والسُّنة، ونصوص الشريعة في دلالتها على وجود الجنِّ والملائكة متساوية، وهما من جهة إمكان وجودهما في منزلة واحدة".⁽²⁾

هذا مجمل بيان جهود الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - في تقرير هذا الركن العظيم.

(1) بلاغة القرآن، (ص 159-160).

(2) المرجع السابق، (ص 161).

المطلب الثالث: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالكتب السماوية.

الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى على أنبياءه ورُسُلِهِ هو الرُّكنُ الثَّالث من أركان الإيمان، وتقديره حاضرٌ بين جهود الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - في الدعوة إلى الإيمان وأصوله، ومنهج الشيخ فيه كمنهجه في إثبات أصول العقيدة الأخرى، ويمكن بيان تقارير الشيخ وجهوده لهذا الركن من خلال ما يلي:

أولاً/ يقرّر - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ الإيمان بالقرآن الكريم يستلزم الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله - عَزَّوَجَلَّ - .⁽¹⁾

ويرى أنَّ الإيمان بالكتب إجماليٌّ وتفصيليٌّ، فأما الإيمان بالقرآن الكريم فيرى أنَّ الإيمان به يستلزم أن يكون على جهة الإجمال والتفصيل، وأما الإيمان بالكتب السابقة المنزلة على الأنبياء السَّابِقين فيكفي فيها الإيمان على وجه الإجمال.⁽²⁾

ويستدلُّ على ذلك بالحديث الذي المخرَّج في الصَّحيح: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: 136] الآية»⁽³⁾.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "والمراد بما لا نصدِّقهم فيه ولا نكذِّبهم: ما يكون محتملاً للصدق والكذب، فمن الجائز أن يكون في نفس الأمر صدقاً، فنقع بتكذيبه في حرج، أو يكون كذباً، ولا ينبغي لنا أن نتلقَّى الكذب، ونضعه بمكان الصِّدق".⁽⁴⁾

ثانياً/ يقرّر أنَّ الكتب السَّماوية تتفاضل، وأنَّ القرآن الكريم أعلاها رتبةً، وأكملها معنىً وهدايةً وحكمةً.⁽⁵⁾

(1) ينظر: أسرار التنزيل، (ص 313).

(2) ينظر: المرجع السابق، (ص 248).

(3) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: 136]، (20/6 - رقم 4485).

(4) ينظر: أسرار التنزيل، (ص 248).

(5) المرجع السابق، (ص 16).

ثالثاً/ يُثَبِّتُ أَنَّ الشَّرَائِعَ سَمَاوِيَّةً وَوَضْعِيَّةً، فيقول: "وتمتاز السَّماوية بأنَّ معاملات النَّاسِ على طرائقها، وتصرفهم على مقتضى حدودها، من قبيل العمل برضا واجب الوجود واختياره؛ بخلاف القوانين الوضعية؛ فَإِنَّ الدَّاخل تحت سلطتها إنما يكون سائراً على حسب إرادة بشرٍ يماثلها، ولهذا لا يمكنها أن تأخذ من احترامات القلوب الموضع الذي تأخذه الشَّريعة التي هي تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.

وتمتاز السَّماوية بأنها تعزِّز قوانينها بسلطةٍ غيبيةٍ، فتهدِّد المخالف بعقوبة آجلةٍ، أو بلاءٍ ينزل به القدر في هذه العاجلة، وتبشِّر الطَّائع بنعيمٍ خالدٍ، أو عيشٍ طيِّبٍ في هذه الحياة، ولا يختصُّ ذلك الانذار والبشارة بما هو حقٌّ لله خالصاً كالعبادات، بل ورد - أيضاً - في الأحكام الموضوعة لمصالح الخلق في الدنيا.

وهذه السُّلطة المحتجبة هي التي تدعو النُّفوس الزَّكية إلى احترام قانونها، ولو في المواضع التي لا تنالها يد السلطة الطاهرة (1)". (2)

ويواصل حديثه عن ميزات الشَّرائع السَّماوية على الوضعية فيقول: "وتمتاز السَّماوية بأنها توجب على الفرد إصلاح عمله، وتنهيه عما يضرُّ بشخصه، وإن لم يسر منه الضَّرر إلى غيره، فحجرت على الإنسان أن يُلقِيَ بعضوٍ من جسده في تلفٍ، أو يرمي بقسطٍ من ماله في سرفٍ. والقوانين الوضعية تقول: لا يجب استعمال القانون بين الناس إلا لمنعهم من إيذاء بعضهم لبعضٍ، ولهذا عرَّفوا القانون: بما يوضع للحكم بين الرعايا.

والسَّماوية تكلف الإنسان برفع الضَّرر عن غيره، وحمايته منه، وقد تلقى عليه التَّبعة إذا استطاع السَّبيل إلى خلاصه من أذى، أو وقايته من خطرٍ، فمسك يده عن مساعدته، وأعرض بجانبه متهاوناً، ولم تنظر القوانين الوضعية إلى هذا المطلب باعتبارٍ، وقد أخذ عليها بعض الكاتبيين في أصولها ورَجَّيَ منها حسن الالتفات إليه". (3)

(1) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: الظَّاهرة لمقابلتها لكلمة (المحتجبة).

(2) الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، (ص 76).

(3) المرجع السابق، (ص 76-77).

رابعاً/ التَّعَرُّضُ لما في الكتب السَّمَاوِيَّةِ من البِشَارَاتِ، خصوصاً ما جاء في التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ من البِشَارَةِ بِمَجِيءِ رَسُولٍ عَظِيمٍ، وَوَصْفِهِ بِصِفَاتٍ لَا تَنْطَبِقُ إِلَّا عَلَى حَالِ مُحَمَّدٍ - ﷺ -.

وَيَذَكِّرُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَبَّهَ عَلَى هَذَا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: 157]. (1)

وَيَقَرِّرُ أَنَّ: "هَذِهِ الْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْمُصْطَفَى - ﷺ - مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَالْمُرَادُ بِكِتَابَتِهِ فِيهِمَا: ذِكْرُ مَبْعَثِهِ، وَدَعْوَتِهِ، وَشَيْءٍ مِنْ نَعْوَتِهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي الْكِتَابَيْنِ يَقِينًا، فَقَدْ نَزَلَتِ الْآيَةُ عَلَى مَسْمَعٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَمَتَيْنِ: الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَيُخْبِرُ بِمَا فِي كِتَابِهِمْ مِنْ ذِكْرِهِ بِصِفَتِهِ وَعَلَامَاتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَنْكَرُ أَنْ يَكُونَ قَدْ ذُكِرَ فِي الْكِتَابَيْنِ رَسُولٌ بِهَذِهِ النُّعُوتِ وَالْعَلَامَاتِ، وَلَكِنَّهُ يَكَابِرُ فِي أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الْمُصْطَفَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ -، وَيَقُولُ: الْمَقْصُودُ مِنْهُ نَبِيٌّ آخَرُ.

وَفِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146]. (2)

وَبَعْدَ إِيرَادِهِ لِبَعْضِ هَذِهِ الْبِشَارَاتِ الْوَارِدَةِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، قَالَ: "وَإِنْ شِئْتَ الزِّيَادَةَ، فَارْجِعْ إِلَى الْكُتُبِ الَّتِي غُنِيَتْ بِجَلْبِ نَصُوصِ تِلْكَ الْبِشَائِرِ، وَبَيَانِ أَنَّهَا لَا تَنْطَبِقُ إِلَّا عَلَى حَالِ مُحَمَّدٍ - ﷺ -؛ ككِتَابِ "هُدَايَةِ الْحَيَارَى" لِابْنِ الْقِيمِ، وَكِتَابِ "إِظْهَارِ الْحَقِّ" لِلشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ الْهِنْدِيِّ.

وَلَشِدَّةِ مَوْقِعِ هَذِهِ الْبِشَارَاتِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: 197].

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 77).

(2) المرجع السابق، (ص 55).

وإنَّما كان عِلْمُ علماء بني إسرائيل من آيات صِدْقِهِ؛ لأنَّهم يستندون في هذا العلم إلى ما في التَّوراة من نعوته وعلاماته، مع القطع بأنَّ هذه النُّعوت والعلامات مطابقةٌ لحاله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -". (1)

خامساً/ ومن جهوده في تقرير عقيدة الإيمان بالكتب السَّماوية، وخاصَّةً القرآن الكريم، رُدُّه للشبهات المتعلقة بهذه الكتب، ومن هذه الشُّبه: أنَّ للقرآن الكريم مصادرَ من اليهودية والنصرانية، فيقول - رَحِمَهُ اللهُ - في معرض رَدِّه على طه حسين في كتابه (في الشَّعر الجاهلي): "ما يقوله المستشرقون، ويحكيه عنهم المؤلِّف؛ من أنَّ للقرآن مصادر، هي: اليهودية، والنَّصرانية، ومذاهبَ بَيْنَ بَيْنٍ، ليس بشبهةٍ جديدةٍ، ولا هو "من النتائج العلمية القيِّمة" التي انتهوا إليها على مناهج النَّظر الصَّحيح.

لا نزدري الغربيين وعلومهم الغزيرة، وإجادتهم النَّظر في الماديات، وما تنتظم به مرافق الحياة ووسائل العمران الذي نشهده بأبصارنا، ونلمسه بأيدينا، ولكنهم لم يبلغوا أن يمتازوا بالثقافة في كلِّ عِلْمٍ حتى المباحث التي لا يتوقف إدراك حقائقها إلَّا على ذكاء البَّاحث، وصفاء بصيرته". (2)

وبعد ذلك شرع - رَحِمَهُ اللهُ - في تفنيد تلك الشُّبهة من وجوهٍ عديدةٍ منها: أنَّ من درس حال الثِّقات من علماء الحديث أيقن أنَّهم يروون الأحاديث بأمانةٍ، ولا يخطر ببالهم أن يكتُموا من السَّيرة النَّبَوِّية صغيراً أو كبيراً.

وبناءً على ذلك يقرِّر الشيخ الخضر أنَّ من "توجَّه قصده إلى شيءٍ يتَّصل بالسَّيرة النَّبَوِّية، فليبحث عنه في كتب الآثار، وتاريخ عهد النَّبوة، فإنَّه يجد فيها الموثوق بروايته ما أمكن للجاهلين والمنافقين إلصاقه بأكمل الخليقة، ويرى قواعد أهل الحديث كيف تعمل في الروايات، فتدفع هذه الرواية إلى اليمين، والأخرى إلى الشِّمال". (3)

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبيِّين، (ص 56).

(2) نقض كتاب "في الشَّعر الجاهلي"، (ص 265).

(3) المرجع السابق، (ص 266).

ثمَّ يواصل سرد الأدلة التي تفنّد تلك الشبهة؛ فيثبت أنّه لا يصحُّ لأحدٍ أن يدّعي أنّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - تعلّم كتب اليهود والنصارى على مرأى من قومه؛ إذ لو وقع شيء من هذا لم يحنّ في القرآن آيات تصفه بعدم القراءة، والتلقّي من البشر، ولو جاءت هذه الآيات، وكان قد تعلّم من يهوديّ أو نصرانيٍّ لم يجد من قومه وعشيرته - الذين رأوه يقرأ ويتعلّم - أنصاراً إلى الله يؤمنون به، ويجلسون بين يديه كأنما على رؤوسهم الطير. (1)

ويقرّر أنّه: "لا يصحُّ أن يكون - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قد تعلّم كتب اليهود والنصارى، ومذاهب بَيْنَ بَيْنٍ في خلوة، وعلى حين غفلة من قومه، فإنّ تلقّي بعض الكتب في خفاء قد يمكن للرجل الغريب في مدينة لا يعرفه فيها إلا بضعة أشخاص يلاقونه في الشّهر، أو في الأسبوع، أو في اليوم مرةً أو مرّتين، أمّا رجل ذو عشيرة، وذو مزايا تلفت له الأنظار، وتجذب له القلوب؛ كمحمد بن عبد الله - ﷺ - ينشأ في بلدة لها طرق محدودة، وبيوت معدودة كمكة، فليس من المقبول أن يتمكّن من التردّد على موطنٍ يحتلي فيه بيهوديٍّ أو نصرانيٍّ دون أن يشعر به أحدٌ من قومه أو عشيرته الأقربين". (2)

ثمَّ عرّج على دليلٍ عقليٍّ، فيثبت أنّه: "ليس من المعقول أن يُقال: قد وقعت إلى يده نسخة من التّوراة، وأخرى من الإنجيل؛ لأنهما لم يخرججا إلى لسان العرب بعد، ولا يقرؤهما إلّا من درس اللغة العبرية.

ولو درس النّبيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - تلك اللّغة، وعرف كيف يقرأ حروفها الهجائية، لما عرّج القرآن على وصفه بالأميّة، ولما ظلّ النّبيُّ - صلوات الله عليه - يتلو آياتها، والنّاس يشهدون ويؤمنون.

إنّ رجلاً له أولو قري يجاورونه، وطائفة من غيرهم يعرفونه أو يصادقونه، لا يمكنه أن يتعلّم علماً أو لساناً دون أن يشعر له أحدٌ منهم، ولو اجتهد في أن يكتّم أمره، ويسدّ في وجوههم

(1) نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 266).

(2) المرجع السابق، (ص 267).

كلَّ سبيلٍ". (1)

وهكذا يواصل إيراد الحجج الدامغة التي تُبطل تلك الشُّبه التي تزعم أنَّ للقرآن مصادرَ من اليهودية والنَّصرانية، ثم يختم ذلك بقوله: "ولا بأس بأن يكون القرآن موافقاً للتَّوراة والإنجيل في بعض الشَّرائع أو الأنباء، بل تكون هذه الموافقة حُجَّةً على صدق الدَّعوة، وعلى أنَّ هذه الأحكام أو القصص من بقايا الوحي الذي نزل على موسى وعيسى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -، وإنما يُخلُّ بصحَّة الكتاب أن يشرع أحكاماً وسُنناً لا ترضى العقول الرَّاجحة عن حكمتها، أو يأتي بقصَّة تردُّها الطُّرق العلمية من حسنٍ أو عقلٍ، أو رواية قاطعةٍ، والقرآن بريءٌ من مخالفة الطُّرق العلمية، ومن كلِّ وجهٍ يخلُّ بالحكمة، إلا في نظر من يرى أنَّ السَّعادة في الخلاعة، وأنَّ راحة الضَّمائر في الجحود بمبدع الخليفة". (2)

فهذا ملخَّصُ إبطال هذه المزاعم، وبنهايته ينتهي الحديث عن تقرير جهود الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - في إثبات الرُّكن الثالث من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب.

(1) نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 267).

(2) المرجع السابق، (ص 269).

المطلب الرابع: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالرُّسل.

الإيمان بالرُّسل هو الرُّكن الرابع من أركان الإيمان، وجهود الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - في تقرير هذا الأصل وبيانه والدعوة إليه متظافرة كثيرة، وقد تناوله بالبحث والدَّرس من نواحٍ شتى، يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً/ إيضاحه مفهوم الإيمان بالرُّسل، وما يتضمَّنه، وبيانه لمعنى الرسل في اللغة، وأنَّه جمع رسول بمعنى مرسل⁽¹⁾.

ويُبيِّن معنى الرُّسل في الشَّرع، وأنه: "من أوحى إليه بشرع، وأمر بتبليغه"⁽²⁾.
وبيَّن الغاية من إرسال الرُّسل، وهي: "هداية النَّاس إلى السَّبيل، ودعوتهم إلى العقائد السَّليمة، والأخلاق الكريمة"⁽³⁾.

وقرَّر وجوب الإيمان بالرُّسل جميعاً، وترك التَّفَرُّقَ بينهم، قال - رَحِمَهُ اللهُ - في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 136]: "والمعنى: لا نفرِّق بين جماعةٍ من النَّبِيِّين، فنؤمن ببعضهم، ونكفر ببعض؛ كما فعل اليهود إذ كفروا بـعيسى ومحمَّد، وكما فعل النَّصارى إذ كفروا بمحمد - ﷺ -".

بل نؤمن بهم جميعاً، والإيمان بما أنزل إلى الرسول يستلزم الإيمان بهم جميعاً"⁽⁴⁾.
وقال في موضع آخر مبيناً معنى الإيمان بالنَّبِيِّين: "والإيمان بالنَّبِيِّين: التَّصديق بأنهم رجالٌ اصطفاهم الله لتلقِّي هدايته وكتبه، وإبلاغها للنَّاس في صدقٍ وأمانة".

والنَّبِيُّون الذين يجب الإيمان بهم: كلُّ من ثبتت نبوَّته بقرآنٍ، أو حديثٍ صحيحٍ"⁽⁵⁾.

(1) ينظر: أسرار التنزيل، (ص 159)؛ وينظر: لسان العرب لابن منظور، (1/283-284).

(2) أسرار التنزيل، (ص 237)، وينظر: أصول الدين للبغدادى، (ص 154)؛ والنُّبُوات لابن تيمية، (ص 225).

(3) محمَّد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبِيِّين، (ص 7).

(4) أسرار التنزيل، (ص 249).

(5) المرجع السابق، (ص 313).

ثانيًا/ عنايته ببعثة الأنبياء والرُّسل، وأخبارهم، وقصصهم مع أقوامهم، فنجده يقرّر أنّ حكمة الله -عَزَّوَجَلَّ- ورحمته اقتضت "أن يرشد العقول إلى حقائق لا تصل إليها بنفسها، ويريهما قصد السبيل؛ حتى لا تزيع نظراتها، فبعث الرسل -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- مؤيدين بالآيات البينات، داعين إلى سبيل الحق بأبلغ الحُكْم، وأحسن العِظَات". (1)

وفصّل القول في بعثة الأنبياء إلى أقوامهم، ودعوتهم إياهم إلى نبذ عبادة غير الله، وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده، وتبشيرهم لهم بأنّ الاستقامة على هدى الله أعظم وسائل السعادة في هذه الحياة، ووعدهم بعقوبة الدنيا والآخرة إذا تمادوا في غيِّهم، وإراءتهم الآيات والدلائل التي يؤمن على مثلها البشر.

كما أفاض القول في أولئك الأقوام الذين بُعثَ فيهم الأنبياء، حيث تكلم عن منازلهم، وأوصافهم، وانحرافاتهم، ومواقف أنبيائهم منهم، ومواقفهم من أنبيائهم، والعقوبات التي حلّت بالأقوام الذين استكبروا، وعتوا عن دعوة الأنبياء.

كما تعرّض للدروس المستفادة من تلك القصص، وما تنطوي عليه من العبر، والعظات، والأسرار، ومن الأمثلة على ذلك: حديثه عن بعثة هود -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لقوم عادٍ (2)، وبعثة صالح -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لثمود (3)، وبعثة إسماعيل -عَلَيْهِ السَّلَامُ- للعرب (4)، وبعثة شعيب -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إلى مدين. (5)

ثالثًا/ عنايته بدراسة دلائل النبوة، إذ إنّها من أشرف الموضوعات التي تُبحث في هذا الباب، ذلك أنّ دعوى النبوة من أعظم الدعاوى، ولا يدّعي النبوة إلّا من هو أصدق الناس أو أكذبهم، وقد اعتنى الشيخ الخضر -رَحِمَهُ اللهُ- بدلائل النبوة عنايةً بالغةً، فدرسها من نواحٍ

(1) محمد رسول الله -ﷺ- وخاتم النبيين، (ص 6).

(2) المرجع السابق، (ص 7-10).

(3) المرجع السابق، (ص 10-14).

(4) المرجع السابق، (ص 14-15).

(5) المرجع السابق، (ص 15-18).

عدَّةً، وفصَّل القول فيها تارةً، وأجمل تارةً أخرى.

ويرى أنَّ دلائل النبوة - خصوصاً نبوة النَّبِيِّ - ﷺ - أوفر من دلائل كلِّ نبوةٍ، وأنَّ الكلام فيها خوضٌ في بحرٍ لا ساحل له، وأنَّه ليس في استطاعة أحدٍ أن يستوعبها، أو يلمَّ ببعضها. (1)

ويرى أنَّ دلائل نبوته - ﷺ - ترجع إلى أربعة وجوه هي: " القرآن المجيد، وبشارة الرُّسل والأنبياء من قبله ببعثته، وسيرته البالغة في الكمال حدًّا تقف دونه سيرةُ كلِّ عظيمٍ، وخوارق عاداتٍ هي من جنس المعجزات على صدق الرِّسالة من وجوه كثيرة". (2)

وفي مواضع أخرى نجده يفصِّل في هذه الدلائل تفصيلاً دقيقاً يعتمد التَّنقل، والعقل، ومن ذلك: كلامه عن أعظم دلائل نبوته - ﷺ - وهو القرآن الكريم، حيث قال: "نزل القرآن الكريم على النَّبِيِّ - ﷺ - يحمل حقائق صادقةً، ومعجزةً باهرةً.

أمَّا الحقائق، فهي ما أرشد إليه من العقائد السَّليمة، والآداب النَّبيلة، والأحكام العادلة، والموعظة البالغة.

وأما المعجزة، فهي ارتفاعه في حكمة المعاني، وسموِّ المقاصد، وفصاحة الكلم، وجودة النظم، وروعة الأسلوب، إلى مرتبةٍ يقف دونها فطاحل البلغاء بمراحل". (3)

ويضيف: " ومن المعروف أنَّ معجزات الأنبياء تحيى مناسبةً لحال أقوامهم، ففي زمن موسى - عَلَيْهِ السَّلَام - كانت الغلبة للسِّحر، فكانت معجزته قلبَ العصا ثعباناً، وذلك ما يعجز عنه كل سحَّارٍ عليمٍ، وفي زمن عيسى - عَلَيْهِ السَّلَام - كان التَّنافس في الطِّبِّ، فجاء بما لا يصل إليه الأطباء، وهو: إحياء الموتى، وفي زمن خاتم النبيين - ﷺ - كان التَّفَاخر بالبلاغة وحسن البيان، فجاء بما أعجز كلَّ خطيبٍ مصقعٍ، وشاعرٍ مفلقٍ، وهو القرآن الكريم". (4)

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 50).

(2) المرجع السابق، (ص 194).

(3) المرجع السابق، (ص 50).

(4) المرجع نفسه.

ويذكر أنَّ من دلائل النبوة بشارات الأنبياء والرُّسل بالنبيِّ محمدٍ -ﷺ- قبل مجيئه، وفصل الحديث عنها، ومن أمثلة ذلك: سيرته -ﷺ-، فيقرِّر -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ: "من نظر في سيرته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وجدها من أعظم الدلائل على أنَّ بين جنبيه نفساً بالغَةً من الكمال ما لا يبلغه الإنسان الذي يطلب المعالي بنفسه، ولو بلغ من العبقريَّة ما بلغ، ولقِّن من الحكمة ما شاء أن يُلقِّن.

وأوجِزُ الحديث عنها في هذا الفصل فأقول: طالعُ كُتُبِ التاريخ، عريَّةٌ وغير عريَّةٍ، وأمَّعن النَّظْرَ في أحوال عظماء الرِّجال من مبدأ الخليقة إلى هذا اليوم، فإنَّكَ لا تستطيع أن تضع يدك على اسم رجلٍ من أولئك العظماء، وتقص علينا سيرته ومزايده، وأعماله الجليلة حديثاً يضاهي أو يداني ما نحدِّثُك به عن هذا الرُّسول العظيم". (1)

وهكذا يفصِّل في المعجزات المحسوسة التي وقعت للنبيِّ -ﷺ-، ويذكر بعضها: "كنع الماء من بين أصابعه الشَّريفة (2)، وتكثير الطعام القليل وإشباعه نحواً من سبعين أو ثمانين رجلاً (3)، وانشقاق القمر حتى رآه المشركون بمكة رأي العين (4)، وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه عندما اتخذ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- منبراً (5)". (6)

ويرى -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ: "هذا النوع من المعجزات قد ينفع في هداية الذين يؤخذون بالدلائل المحسوسة أكثر مما يؤخذون بالدلائل المعقولة، وقد يجري بمحضر المؤمنين؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، أو يجري حيث يكون في المعجزة دفعٌ حاجةٍ لا تُدفع إلَّا بها؛ كتكثير المال القليل (7) في

(1) محمد رسول الله -ﷺ- وخاتم النبيين، (ص 56-57).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة، (45/1- رقم 169).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (4/193- رقم 3578)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب، (3/1612- رقم 2040).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر، (5/49- رقم 3868).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (4/195- رقم 3585).

(6) محمد رسول الله وخاتم النبيين، (ص 195).

(7) هكذا في الأصل، والصواب: الماء القليل.

بعض الغزوات ليكفي حاجات الجماعات الكثيرة". (1)

رابعاً/ ردُّ الشُّبُهَاتِ المتعلِّقة بالنُّبُوءَاتِ، ودفاعه عن مقام الأنبياء والمرسلين، وذلك بابٌ واسعٌ جداً، تطرَّقَ له الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ -، وخاض غماره، وردَّ على كثيرٍ ممن تناول على مقام النُّبُوءَةِ، أو جانب الصَّوَابِ في إنزال ذلك المقام منزلته اللائقة به.

وأذكر مثلاً متعلِّقاً بجهوده في الردِّ على من أنكر دلائل النُّبُوءَةِ، خصوصاً المعجزات الكونية المحسوسة، حيث ظهر في عصره من يُنكر ذلك، وهم طوائف وكُتَّابٌ.

قال - رَحِمَهُ اللهُ -: "وحدث في هذا العصر آراء في التفسير يذيعها نفرٌ لا يرقبون في القرآن حكمةً ولا بلاغةً؛ كمن ينكر المعجزات الكونية بإطلاقٍ، فيؤول آيات المعجزات على وجوه تجعلها من الحوادث العادية، وإن كان تأويلها لا يجري على استعمال الألفاظ المعروف في اللغة، ولا تحتمله أساليب بلاغتها". (2)

وقال في موضعٍ آخر: "لم يُنقل عن أحدٍ ممن يؤمن بالرُّسُل - صلوات الله عليهم - إنكارُ المعجزات التي هي خوارق عاداتٍ يغيِّر الله بها بعض سننه الظَّاهرة؛ لتكون حجَّةً على صدق من يبعثه داعياً إلى سبيله، وإنما ينكرها طائفةٌ ممن أنكروا بعثة الرسل إذ قالوا: إنَّ الرسالة تتوقف على المعجزة، والمعجزة خرقٌ للعادة، وخرق العادة محالٌ.

وخرق العادة محالٌ، ودعوى استحالة خرق العادة قد أثختها الأدلَّة طعناً، فلا يقيم لها النُّظر الصَّحيح وزناً". (3)

ثم يضيف قائلاً: "وكم من عقولٍ ضلَّت سبيل الرُّشد، وآفتها عدم التَّفَرُّق بين ما لا يكون عادةً، وما يقتضي العقل بالألَّا يكون، فيغلطون في تصوُّر ما يستبعد العقل وقوعه استناداً للعادة، ويخالونه من قبيل ما لا يمكن وقوعه، واستبعادُ العقل لشيءٍ لم تجرِ العادة بوقوعه لا يقف أمام

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 58).

(2) بلاغة القرآن، (ص 27).

(3) المرجع السابق، (ص 126).

نصوص شريعة قامت الآيات البينات على أنها تنزيل من رب العالمين، وليس ما يقصّه القرآن من معجزات الرسل - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - إلاّ تغييراً لبعض السُّنن الكونية الظاهرة، وتغيير هذه السُّنن لا يقتضي بمنعه عقلٌ يقدر الخالق قدرها، ويسلّم أنّ هذه السُّنن من صنعها (1). (2)

وردّ في بعض المواضع على أحد الأفكار الشاذة المتعلّقة بهذا الباب فقال - رَحِمَهُ اللهُ -: "وقد ظهر في هذا العصر إنكار هذا النوع من دلائل النبوة، وممن سبق إلى إنكاره طائفة القاديانية اللاهورية (3)، فإنّنا نرى زعيمهم محمد علي (4) الذي ألّف ترجمة القرآن إلى اللغة الإنكليزية، يأتي إلى كلّ معجزة يقصّها الله تعالى في أنباء الرسل - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ويعلّق عليها بآخِر الصحيفة متأولاً لها على وجهٍ يُخرجها عن أن تكون معجزةً.

ونحن بعض الكاتبين في مصر هذا النحو من تأويل آيات المعجزات، وخفّ على آخرين أن يتكلموا في الدّين بآراء لا تمتّ إلى أصوله الصّحيحة بصلة، فأنكروا الأحاديث المتضمّنة لبعض

(1) هكذا في الأصل، ولعله خطأ مطبعي، وقد يكون الصواب هكذا: "يقدر الخالق قدره، ويسلّم أنّ هذه السُّنن من صنعها".

(2) بلاغة القرآن، (ص 146).

(3) الجماعة الأحمديّة اللاهورية: أو الجمعية الأحمديّة اللاهورية فرقة أسسها "خواجة كمال الدين"، و"مولاي محمد علي"، وكانت في الأصل تابعة للأحمديّة القاديانية التي أسسها المرزا غلام أحمد القادياني، وظلت تابعة لها إلى أن مات خليفته الأول: الحكيم نور الدين البهري سنة 1914م، ثم تولى خلافة القادياني: الخليفة الثاني: بشير الدين محمود أحمد، وبمجرد تولي بشير الدين الخلافة القادياني، انشقت عنهم الأحمديّة اللاهورية بقيادة الخواجة كمال الدين، ومحمد علي اللاهوري، وبدأت الجماعة في تكوين مرتكزاتها الفكرية والعقدية، كجماعة قائمة بذاتها. ينظر: مقال: الأحمديّة القاديانية، والأحمديّة اللاهورية للباحث عيد عايد العازمي، مجلة الدراسات العربيّة، كلية دار العلوم بجامعة المنيا، مصر، المجلد 42، العدد 1، يوليو 2020م، (ص 447) وما بعدها.

(4) محمد علي اللاهوري القادياني: (1874-1951م): هو أحد أتباع غلام أحمد القادياني مؤسس الفرقة القاديانية، ورئيس الفرع اللاهوري للقاديانية، قام محمد علي بنشاط كبير في عرض القاديانية، ولعل من أهم أعماله: ترجمته للقرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية، حيث ملأها بالأفكار القاديانية، مما جعل الكثير من الناس يقعون ضحية تلك الأفكار ظانين أنّها ترجمة رجلٍ مسلمٍ، وقد اتّجه هذا الرجل في تفسيره للقرآن وجهةً خطيرةً لم يتورع فيها عن الكذب والتّعسف ومخالفة أهل العلم واللغة والإجماع، وإنما فسّره بمعانٍ باطنيةٍ، فيها التركيز على إنكار الإيمان بالغيب وبالقدرة الإلهية، وأدّعاء نبوّة ميرزا غلام أحمد أول الأمر، ثم الاكتفاء بادّعاء الولاية. ينظر: المرجع السابق، (ص 452-453).

خوارق من عاداتٍ جرت على يدِ النَّبِيِّ - ﷺ - دون أن ينقدوها بقوانين علم الحديث، أو قوانين المنطق السليم". (1)

خامساً/ إثباته أصل ختم النبوة برسالة النَّبِيِّ - ﷺ -، وانتهاء إنباء الله النَّاسِ، وانقطاع وحي السَّماء.

ومعنى ذلك: اعتقاد أن النبوات قد حُتِمت بنبوة محمد - ﷺ -، وأن وحي السَّماء قد انقطع بموته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وأن ذلك من صميم عقيدة المسلمين، ولا يصحُّ من المسلم الإيمان بالُرسل والأنبياء إلا به، فمن ادَّعى خلاف ذلك فهو كافر بالله، مكذِّبٌ لِنَبِيِّهِ - ﷺ -، وقد دلَّ على ذلك الكتاب، والسُّنَّة، وإجماع المسلمين. (2)

هذا وإنَّ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - يثبت هذا الأصل، ويؤكد أن مُحَمَّدًا - ﷺ - خاتم النَّبِيِّينَ، وينكر أشدَّ الإنكار على مدَّعي النبوة، أو من صدَّق من ادَّعاهَا، ومعاركه ضارية مع الدَّعوات التي يدَّعي أصحابها النبوة كالكاديانية، والبايية، والبهائية.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ - بعد أن قرَّر معنى الإيمان بالنَّبِيِّينَ، ووجوب الإيمان بهم: "والدليل القاطع على أن مُحَمَّدًا - ﷺ - خاتم النَّبِيِّينَ يجعل المدَّعين للنبوة بعده مضلِّين، والمصدِّقين لمزاعمهم ضالِّين". (3)

ويقول في معرض حديثٍ له عن دوام شريعة النَّبِيِّ محمد - ﷺ - وختمه للنبوة: "وإذا كانت آية صدق النَّبِيِّ - ﷺ - باقيةً، ودينه قِيَمًا، وشريعته كافلة لمصالح العصور ما تجددت، كان ختمه للنبوة على وفق الحكمة البالغة، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ [الأحزاب: 40]."

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبِيِّينَ، (ص 195-196).

(2) ينظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة الحمديَّة لأحمد بن سعد الغامدي، (ص 16).

(3) أسرار التنزيل، (ص 313).

وقال - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النُّبُوَّةُ»⁽¹⁾.

وقال - رَحِمَهُ اللهُ -: «إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي، وَلَا نَبِيَّ»⁽²⁾، إلى غير هذا من الأحاديث البالغة مبلغ التواتر المفيد للقطع⁽³⁾.

ويقرّر زيف من ادّعى النُّبُوَّةَ، وبطلان دعايته، فيقول: "ومن قرأ التاريخ في الزمن البعيد أو القريب، ومَرَّ فيه على قصص الأشخاص الذين ادّعوا النُّبُوَّةَ من بعده - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وجدهم أخفَّ النَّاسَ عقولاً، وأسخفهم أقوالاً، وأبعدهم عن الفضل مكاناً، وسرعان ما تنكشف سرائرهم، ويظهر - حتى لغير النُّبهاء من الناس - زُورهم، وتنتهي بالحياة دعايتهم، ولا يبقى من آثارهم سوى نواذر يُتَفَكَّهُ بها السُّمَّار ترويحاً عن خواطهم" ⁽⁴⁾.

وقال في معرض ردّه على زعيم القاديانية غلام أحمد ⁽⁵⁾ في ادّعائه النُّبُوَّةَ والرِّسَالَةَ: "يدّعي غلام أحمد النُّبُوَّةَ والرِّسَالَةَ غير مبالٍ بالقرآن والسُّنَّة وإجماع الأُمَّة، في هذه الأصول الثلاثة حججٌ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، (1/371- رقم 523).

(2) أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب الرؤيا، باب ذهب النُّبُوَّةُ وبقيت البشارات، (4/533- رقم 2272) وقال: "هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه من حديث المختار بن فلفل"؛ وأحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك - رَحِمَهُ اللهُ -، (21/326- رقم 13823)؛ والحاكم في المستدرک، (4/433- رقم 8178) وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ".

(3) محمد رسول الله - رَحِمَهُ اللهُ - وخاتم النَّبِيِّينَ، (ص 60-61).

(4) المرجع نفسه.

(5) غلام أحمد ميرزا: (1255-1326هـ = 1839-1908م): هو أحمد بن مرتضى بن محمد القادياني، ويسمى مرزا غلام أحمد بن غلام مرتضى ابن عطاء حمد، ويلقب بالمسيح الثاني، زعيم القاديانية ومؤسس نحلته، هندي له كتابات عربية، نسبته إلى (قاديان) من قرى (بنجاب) ولد ودفن فيها، قرأ شيئاً من الأدب العربي، واشتغل بعلم الكلام، خدم الحكومة البريطانية أيام احتلالها للهند، بل كان صنيعةً لهم من أجل إحداث الانشقاق في وحدة المسلمين بالهند، وصرفهم عن التفكير في مقاومة احتلالهم لبلادهم، نعت نفسه بالمجيد، ثم أعلن أنه المهدي، وزاد فادّعى أن الله أوحى إليه، لا يزال له أتباع إلى اليوم في الهند وباكستان، وتصدّى كثيرٌ من معاصريه للرّد عليه وتكفيره، له مؤلفات عديدة. ينظر: الأعلام للزركلي، (1/264-265).

على أَنَّ المصطفى - صلوات الله عليه - هو آخر النَّبِيِّينَ والمرسلين".⁽¹⁾

ثم استرسل - رَحِمَهُ اللهُ - في بطلان دعاوى القاديانية بادِّعاء النَّبُوَّةِ، وإيراد الأدلة والبراهين على ذلك، وبيان معنى الختم وأقوال المفسِّرين فيه.

(1) القاديانية والبهائية، (ص 16).

المطلب الخامس: جهوده في تقرير ركن الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، والبحث في هذا الركن العظيم يشمل معنى الإيمان به، وهو التَّصديق الجازم بإتيانه، وبجميع تفاصيله، والعمل بموجب ذلك، ويشمل مفهوم الإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه كلُّ ما ورد من أخبار ذلك اليوم، وما يتعلق به، ويُبحث فيه مسائل كثيرة من أحوال البرزخ، وأُشراط الساعة، وأحوال القيامة.

والشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - بحث عددًا من المسائل المتعلقة باليوم الآخر ضمن مباحث أخرى، كتفسير آياتٍ، أو حديثٍ حول بعض مسائل الاعتقاد عمومًا، أو من خلال ردوده على المخالفين.

ويمكن إجمال جهوده المتعلقة بتقرير هذا الركن وبيانه بما يلي:

أولاً/ بيانه لمعنى الإيمان باليوم الآخر، ومفهومه، إذ يقول - رَحْمَةُ اللَّهِ - عند تفسير قوله الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 177]: "الإيمان باليوم الآخر: التَّصديق بالبعث، وما يقع بعده من حسابٍ، وثوابٍ، وعقابٍ على الوجه الذي وصفته نصوص الشريعة بأجلى بيان". (1)

ثانيًا/ بيانه ثمرات الإيمان باليوم الآخر، حيث بيّن ذلك في مواضع كثيرة يذكر فيها أثر الإيمان باليوم الآخر على سلوك الإنسان، وبُعده عن المنكر.

ومن ذلك قوله: "وللإيمان باليوم الآخر أثرٌ عظيمٌ في اجتناب الشرِّ، والاستكثار من الخير، ففي وصف المتّقين به تنبيهٌ على الوجه الذي أحرزوا به الغاية من تقوى الله في السرِّ والعلانية". (2)

ثالثًا/ بيان حكم من أنكر اليوم الآخر، إذ قال - رَحْمَةُ اللَّهِ -: "وحيث جاز وقوعه، وقام

(1) أسرار التنزيل، (ص 312).

(2) المرجع السابق، (ص 320).

الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ الْمَقْطُوعِ بِصَدَقِهِ عَلَى أَنَّهُ وَاقِعٌ، دَخَلَ التَّصْدِيقُ بِهِ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ.

وَمَنْ أَنْكَرَ جِزْءًا مِمَّا يَتَقَوَّمُ بِهِ الْإِيمَانُ، صَحَّ أَنْ يُنْفَى عَنْهُ الْإِيمَانُ، وَلَا يَوْضَعُ فِي حِسَابِ الْمُؤْمِنِينَ". (1)

ثُمَّ يَوْضَحُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "وَالْجَاهِدُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَبَالُونَ أَنْ يَرْتَكِبُوا الْقَبَائِحَ، وَيَسْطُوا أَيْدِيَهُمْ فِي الْبَغْيِ، إِلَّا حَيْثُ يَخْشَوْنَ أَنْ تَرَاهُمْ أَعْيُنُ النَّاسِ، وَتَنَالَهُمْ عَقُوبَةُ مَنْ ذِي سُلْطَانٍ". (2)

رَابِعًا/ إثباته أَنَّ النِّعَمَ الْآخِرِيَّ شَامِلٌ لِلرُّوحِ وَالْبَدَنِ، إِذْ يَقُولُ - رَحِمَهُ اللهُ -: " وَمِمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ نصوص الشَّرِيعَةِ الْغَرَاءُ دَلَالَةً لَا تَحُومُ بِهَا شَبَهَةٌ: أَنَّ لِلْأَجْسَامِ نَصِيبًا مِنْ ذَلِكَ النِّعَمِ أَوْ الْعَذَابِ، وَلَا يَخْتَصُّ بِهِ الْأَرْوَاحُ؛ كَمَا يَزْعَمُ بَعْضُ مَنْ لَا يَرِيدُ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ الْحَقَائِقَ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْكُرُونَ بَعَثَ الْأَجْسَامِ، وَيَزْعَمُونَ اسْتِحَالَتَهُ، وَيُورِدُونَ فِي ذَلِكَ الشُّبُهَةَ؛ كَمَا قَالُوا فِيمَا قَصَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 78].

وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِدَلِيلٍ نَظَرِيٍّ يَنْفِي اسْتِحَالَهَ وَقُوعَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]. (3)

خَامِسًا/ إثباته أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ دَائِمَتَانِ أَبَدِيَتَانِ لَا تَفْنِيَانِ، قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ -: "وَالنُّصوصُ الَّتِي قَامَتْ عَلَى أَبَدِيَةِ الْجَنَّةِ أَكْثَرُ مِنَ النُّصوصِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَبَدِيَةِ النَّارِ، وَلَمْ يَخَالَفْ فِي أَبَدِيَةِ الْجَنَّةِ عَالَمٌ بِحَقٍّ.

وَالْمَعْرُوفُ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ: أَنَّ الْخُلُودَ فِي النَّارِ مُتَأَبِّدٌ، وَأَنَّهَا كِدَارُ النِّعَمِ لَا يَلْحَقُهَا فَنَاءٌ، وَقَدْ تَحَدَّثَ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ (4)، وَبَسَطَ ابْنُ الْقَيْمِ الْحَدِيثَ عَنْهَا فِي كِتَابِهِ (حَادِي

(1) أسرار التنزيل، (ص 312-313).

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

(4) ينظر: الردُّ على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك لابن تيمية.

الأرواح (1) (2).

سادساً/ رُدُّه على من أنكر البعث، والجزاء، والحساب، وذلك كصنيع البهائيين؛ حيث أثبت أنهم لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة، ولا بالنار، وأنهم يفسِّرون يوم الجزاء بمجيء ميرزا حسين الملَّقب ببهاء الله. (3)

ابن تيمية (661-728هـ = 1263-1328م): هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين عبد الحليم بن محمد الدين الحراني، قال ابن سيد الناس: "فألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رأيته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو دان بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نخلته ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه"، توفي مسجوناً بالقلعة. من مؤلفاته: "السياسة الشرعية"، و"الفتاوى"، و"الإيمان"، و"منهاج السنَّة"، و"رفع الملام عن الأئمة الأعلام". ينظر: العقود الدرية لابن عبد الهادي، (ص 26)؛ والرد الوافر لابن ناصر الدين، (ص 26).

(1) ينظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم، (ص 340).

ابن القيم: (691-751هـ = 1292-1350م): هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعي الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله المشهور بابن قيم الجوزية، إمامٌ مصلحٌ، وأحد كبار العلماء الحنابلة، أخصُّ أصحاب ابن تيمية، مولده ووفاته في دمشق سنة 751 هـ. من كتبه: "إعلام الموقعين"، و"الطرق الحكمية في السياسة الشرعية"، و"زاد المعاد"، وغيرها كثير. ينظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، (5/170)؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، (10/249).

(2) أسرار التنزيل، (ص 148).

(3) ينظر: القاديانية والبهائية، (ص 84).

المطلب السادس: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، وهو تقدير الله تعالى للأشياء في القدم، وعلمه - ﷻ - أنها ستقع في أوقات معلومة، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدره، وحلّقه لها. (1)

وباب القدر من أعظم أبواب العقيدة، وهو يبحث في مسائل كثيرة، منها: مفهوم القدر وما يتضمّنه، ومراتبه، وأقسامه، والإرادة الربّانية، وعلاقة القدر بفعل الأسباب، ومشية العبد واختياره، ومسائل الحكمة والتعليل، ونحو ذلك من المسائل.

والشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - تعرّض لمسائل هذا الباب، وجهوده في تقريرها وشرحها واضحة جليّة، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

أولاً/ إثباته القدر، ومشية العبد واختياره، حيث قال في جواب له على أحد العلماء: "وسألني أحد علماء الجزائر سنة 1943م، وهو في طريقه إلى الحجاز عن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29]؛ فإن الآية تدلّ على ما يشاؤه الإنسان ويفعله من معاصٍ قد شاء الله، فكيف يتفق هذا ومسؤولية الإنسان عن أفعاله؟

فقلت حينذاك: إنّ المراد من المشية المسندة إلى العبد في الآية هي المشية المستلزمة للفعل؛ أي: التي يتبعها الفعل، فما يشاؤه العبد ويفعله، سواء كان من معصية أو طاعة، لا يقع إلا أن يشاء الله وقوعه، ويراد من مشية الله في الآية: المشية الكونية التي هي قائمة على الحكمة العامّة في نظام الكون، ولا يُراد من المشية المسندة إلى العبد المشية المطلقة، فقد يشاء العبد شيئاً، ويعدل عن فعله، فذلك الفعل الذي شاءه العبد ولم يفعله لم يشأ الله فعله، ومؤاخذه العبد على فعل المعاصي من جهة إرادتها وكسبها فقط، ومذهب أهل السُنّة: أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن". (2)

(1) ينظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم، (ص 29).

(2) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 62-63).

ثانياً/ تقريره لمفهوم التَّوَكُّل، وأنه لا ينافي فعل الأسباب، بل هو داعٍ للعمل، نافٍ للبطالة، ويذكر ثمرات التَّوَكُّل المقرون بفعل الأسباب، فنراه يُوَكِّد كثيراً على هذا المفهوم؛ لأنه يرى آثار الخلط والتفريط كثيرة في هذا الباب.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ - في مقال له بعنوان: (المدنية الفاضلة في الإسلام) ⁽¹⁾: "والتَّوَكُّل في لسان الدِّين إنما يُراد به: توجُّه القلب إلى الخالق حال العمل، واستمداد المعونة منه، فلم يكن داعيةً إلى البطالة والإقلال من العمل ألبتة، بل كان للتَّوَكُّل الأثر العظيم في إقدام عظماء الرِّجال على الأعمال الجليلة التي يسبق إلى ظنهم أن استطاعتهم وما لديهم من الأسباب الحاضرة يَقْصُرَان عن إدراكها.

وإذا فسَّرته فئة غير عالمةٍ بقبض اليد عن العمل، وطرح الأسباب جملةً، فذلك تفسيرٌ لا يقَرُّه الدِّين الذي يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]، ويقول: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ [النساء: 102].

فالشَّريعة الإسلامية تأمر بالعمل لهذه الحياة، وتجعل السَّعي على العيال، والعمل للتَّعْقُف عمَّا في أيدي الناس، أو للإِنْفَاق في سبيل الخير، من قبيل العمل الذي يستحقُّ صاحبه ثواب الله في الأخرى، وتكره للرجل أن يوصي بما فوق الثلث، وتقول له: «إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ» ⁽²⁾. ⁽³⁾

ويقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]: "والتَّوَكُّل

(1) منشورٌ بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء الثاني عشر من المجلد الثاني - الصادر في شهر جمادى الأولى 1349 هـ.

(2) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، (4/3- رقم 2742)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، (3/1250 - رقم 1628).

(3) رسائل الإصلاح، (ص 128-129).

على الله: الاعتماد عليه، والثِّقَّةُ به، والآية ظاهرةٌ في أنَّ التَّوَكُّلَ يكون عند تعاطي الأسباب، فقد أُمِرَت بالتَّوَكُّل عند العزم على العمل، فهناك عزمٌ وعملٌ يقارنهما التَّوَكُّل، وفي هذا ردُّ على من يتوهم أنَّ التَّوَكُّلَ نفْضُ اليد من الأسباب جملةً، ومن أثر هذا التَّوَهُّم: أنَّ وُجْدَ في الأُمَّة أشخاصٌ يرضون بأن يكونوا عالةً على النَّاس، وهم قادرون على أن يقوموا بمطالب حياتهم، ويعيشوا في عزَّةٍ وكرامةٍ". (1)

ويزيد هذا التقرير تأكيداً بقوله: "بيد أنَّ الشَّرِيعَةَ أَمَرَت العاملَ بأن يكون قلبه حال عمله مطوياً على سراجٍ من التَّوَكُّل والتَّفْوِيز؛ فإنَّ اعتماد القلب على قدرة الله وكرمه يستأصل جراثيم اليأس ومنابت الكسل، ويشدُّ ظهر الأمل الذي يلجُّ به السَّاعي أغوار البحار العميقة، ويقارع به السَّبَّاع الضارية في فلواتها". (2)

ويقَرَّر - أيضاً - أنَّه: "ما اقترن العزم الصَّحيح بأدب التَّوَكُّل على من بيده ملكوت كلِّ شيءٍ إلَّا كانت عاقبته نجاحاً ورشداً". (3)

ثالثاً/ إيضاحه لبعض الإشكالات المثارة في القدر، ومن ذلك ما بيَّنه في ردِّه على علي عبد الرزاق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) حيث قال علي عبد الرزاق زارياً على العلماء والشُّعراء: "وكذلك شاع هذا الرأي، وتحدَّث به العلماء والشُّعراء منذ القرون الأولى؛ فتراهم يذهبون دائماً إلى أنَّ الله - جلَّ شأنه - هو الذي يختار الخليفة، ويسوق إليه الخلافة". (4)

فالشيخ علي عبد الرزاق - كما نرى - يخلط بين نوعي الإرادة الرِّبَّانية، وهما:

1- الإرادة الكونية القدريَّة، التي ترادف المشيئة، وهذه الإرادة لا يخرج عن مرادها شيءٌ، ولا بدَّ أن تقع، فالبرُّ والفاجر، والمسلم والكافر، والطاعات والمعاصي كُلُّها بمشيئة الرَّبِّ وإرادته بهذا الاعتبار.

(1) أسرار التنزيل، (ص 394).

(2) محاضرات إسلامية، (ص 26).

(3) رسائل الإصلاح، (ص 143).

(4) الإسلام وأصول الحكم، (ص 17).

2- الإرادة الشرعية الدينية، وتتضمن محبة الرب - ﷻ -، ورضاه، ولا يلزم وقوعها، فقد تقع، وقد لا تقع. (1)

فمن عرف الفرق بين هاتين الإرادتين سلم من شبهات زلت بها أقدام، وضلت بها أفهام، ومن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر أو العكس كان أعور. (2)

وهذا ما تفتن له الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - في نقضه لعلّي عبد الرزاق في هذه المسألة، حيث قال في ردّه: "يعرف العلماء أنّ بين الخالق - جلّ شأنه - وأمر الخلافة صلة القضاء والقدر، وذلك معنى لا يختص بالخلافة، بل يتحقق في كلّ ما يحدث في الكون من محبوب ومكروه.

وهناك معنى آخر زائد عن القضاء والقدر، وهو الإرادة بمعنى: المحبة والرضا، وهذا - أيضاً - يتعلق بكلّ ما فيه خيرٌ وصالحٌ، ولا يتعلّق بأمر الخلافة إلّا بتفصيل، وهو أن يقال: متى كان الخليفة مستقيماً عادلاً، كانت ولايته خيراً وصالحاً، وصحّ أن يُقال: وقعت بإرادة الله؛ أي: محبته ورضاه، وإن كان جائراً فاسقاً عن أمر ربّه، كانت ولايته شراً وفساداً، واستحقت أن يقال عليها: إنّها لم تكن محبوبةً لله، ولا مختارةً عنده.

ومن نَبّه على حقيقة هذه الإرادة واختصاصها بما هو خير ومأمور به: أبو إسحاق الشاطبي - رَحِمَهُ اللهُ - (3) في "موافقاته" (4)، وابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - في "رسالة الأمر والإرادة" (5).

(1) ينظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية، (180/3-183)؛ وشفاء العليل لابن القيم، (ص 557).

(2) ينظر: الاستقامة لابن تيمية، (78/2).

(3) الشاطبي: (ت: 790 هـ = 1388 م): هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، كان أصولياً مفسراً فقيهاً، محدثاً لغوياً بيانياً نظاراً، ثبتاً ورعاً صالحاً زاهداً سنياً، شيخ المقاصديين، ومن اجتمع معه واستفاد منه العالم الحافظ الفقيه أبو العباس القباب، والمفتي المحدث أبو عبد الله الحفار وغيرهم. من تصانيفه: "الموافقات" "الاعتصام"، "أصول النحو"، "المقاصد الشافية شرح خلاصة الكافي". ينظر: الأعلام للزركلي، (75/1).

(4) ينظر: الموافقات، (370/3).

(5) ضمن مجموع الفتاوى له، (131/8).

فدعوى أَنَّ العلماء يذهبون دائماً إلى أَنَّ الله هو الذي يختار الخليفة، ويسوق إليه الخلافة، لا نجد في أقوال العلماء ما يحوم عليها، وما هي إلا كلمة سقطت من قلم المؤلف قبل أن تأخذ حظها من البحث وإمعان التفكير". (1)

رابعاً/ إثباته الحكمة والتعليل في أفعال الله، وردّه على من أنكرها، ومن ذلك ما جاء في نقضه لكتاب الإسلام وأصول الحكم بقوله: "قال المؤلف - يقصد علي عبد الرزاق - في (ص 85): (إِنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنْ عَقَائِدَ وَمَعَامِلَاتٍ، وَأَدَابٍ وَعُقُوبَاتٍ، فَإِنَّمَا هُوَ شَرْعٌ دِينِي خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلِمَصْلَحَةِ الْبَشَرِ الدِّينِيَّةِ لَا غَيْرِ، وَسَيَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَتَضَحَّ لَنَا تِلْكَ الْمَصَالِحُ الدِّينِيَّةُ، أَمْ تَخْفَى عَلَيْنَا، وَسَيَّانُ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا لِلْبَشَرِ مَصْلَحَةٌ مَدْنِيَّةٌ أَمْ لَا، فَذَلِكَ مَا لَا يَنْظُرُ الشَّرْعُ السَّمَاوِيُّ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الرَّسُولُ).

يقول المؤلف في هذه الفقرة: إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنْ مَعَامِلَاتٍ وَعُقُوبَاتٍ غَيْرُ قَائِمٍ عَلَى رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ الْمَدْنِيَّةِ، وَيَقْصِدُ بِهَذَا: أَنَّهُ لَا تَصْلَحُ لِأَنْ تَتَمَسَّكَ بِهَا الدَّوْلَةُ فِي سِيَاسَتِهَا، وَمَا هُوَ إِلَّا الْهَوَى تَزَوَّجَ بِالْعَقِيدَةِ الشَّوْهَاءِ، فَكَانَ مِنْ نَسْلِهِمَا هَذَا الرَّأْيُ الْعَنِيدُ". (2)

ثم شرع في نقض ما ذكره علي عبد الرزاق، فقال: "أحكام الإسلام ترجع إلى: عباداتٍ، ومعاملاتٍ، وعقوباتٍ. أما العبادات، فالقصد منها: مصلحة البشر الدّينية، وقد تتبعها مصالح دنيويّة؛ كما قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 10-11].

وأما المعاملات والعقوبات، فإنّه يُراد منها: إقامة المصالح في الدنيا، وتترتب عليها مصلحةٌ أخرويةٌ، وهي الثواب عليها في الدّار الباقية، متى صحّب العمل بها قصدُ الامتثال، وهذه المصلحة الأخروية لا تُخرج المصلحة الدّنيوية عن أن تكون هي المصلحة التي يبحث عنها أصحاب القوانين الوضعية، وإن شئت تحرير البحث في هذا الصدد، فإليك التحرير". (3)

(1) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 26-27).

(2) المرجع السابق، (ص 249).

(3) المرجع نفسه.

ثم أفاض - رَحْمَةُ اللَّهِ - في تفصيل ذلك في كلامٍ يطول ذكره، ويختتم نقضه هذه الفقرة بقوله: "وقد عقد أهل العلم خناصرهم على أَنَّ أحكام الشريعة معللةٌ بمصالح العباد في هذه الحياة وفي تلك الحياة، وأنَّ المصالح التي تقصدها الشريعة السماوية ترجع إلى حفظ النفس، والدين، والعقل، والعرض، والنسب، والمال". (1)

وأَنَّهُ نظرًا: "لبناء أحكام الشريعة على مصالح العباد في الدنيا، خاض أهل العلم في البحث عن هذه المصالح، وعقدوا الموازنة بينها وبين المفسد؛ لِيَبْنُوا الْحُكْمَ عَلَى الرَّاجِحِ مِنْهُمَا عِنْدَ التَّعَارُضِ". (2)

وله كلامٌ قريبٌ من هذا في معرض حديثٍ له عن النَّسخ في الشريعة الإسلامية، حيث قرَّرَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى مُرَاعَى فِيهَا مَصَالِحَ الْعِبَادِ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَأَنَّ الْمَصَالِحَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ، فَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ مَفْسُدَةً فِي وَقْتٍ، وَمُصْلِحَةً فِي وَقْتٍ آخَرَ، كَوُجُوبِ وَقُوفِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلْعَشْرَةِ مِنَ الْكُفَّارِ؛ حَيْثُ اقْتَضَتْهُ قَلَّةُ الْمُسْلِمِينَ، وَرُفْعُ هَذَا الْوُجُوبِ حَيْثُ اسْتَغْنَى عَنْهُ بِكَثْرَتِهِمْ. (3)

وهكذا يثبت الحكمة والتعليل في تشريع الشرائع، وينقض ذلك الرأي الذي ينفيهما، وله كلامٌ عظيمٌ في بيان الحكمة من خلق المرض، والابتلاء به، وذلك في بحثه (قصة أيوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ونقض آراء حديثه في التفسير) (4)، حيث قال: "يتلى الله بعض رسله بمرضٍ غير منقِرٍ، ثم يعافيه من ذلك المرض الشديد؛ لِيُظْهَرَ فَضْلَ صَبْرِهِ لِلنَّاسِ، وَيَتَبَيَّنُوا أَنَّ الْأَمْرَاضَ الشَّدِيدَةَ قَدْ تَعَرَّضَ لِلرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -، وَلَا يَخْدَشُ ذَلِكَ فِي نَبَوَّتِهِمْ، بَلْ يَزِدُّادُونَ بِهِ مِنَ اللَّهِ

(1) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 251).

(2) المرجع السابق، (ص 252).

(3) الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، (ص 104-105)؛ وينظر: تفسير الطبري، (269/11).

(4) منشور بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء العاشر، والجزء الثاني عشر من المجلد السابع لعام 1354 هـ، والأجزاء الثاني والثالث والرابع من المجلد الثامن لعام 1354 هـ.

قُرْبًا". (1)

خامساً/ تعرّضه لنشأة القول بالقدر، حيث تطرّق في معرض حديثٍ له عن المعتزلة إلى إنكارهم للقدر، وقولهم: إنّ العبد يخلق أفعاله، وقرّر أنّ معبداً الجهنّي (2) سبق المعتزلة في إنكار القدر.

(1) بلاغة القرآن، (ص 224).

(2) معبد الجهنّي: (ت: 80 هـ = 699 م): هو معبد بن عبد الله بن عليم الجهنّي البصري، أوّل من قال بالقدر في البصرة، سمع الحديث من ابن عباس وعمران بن حصين وغيرهما، وحضر يوم التّحكيم، وانتقل من البصرة إلى المدينة، فنشر فيها مذهبه، وعنه أخذ غيلان الدمشقي، كان صدوقاً، ثقةً في الحديث، من التابعين، وخرج مع ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف فجرح، فأقام بمكة، فقتله الحجاج صبراً، بعد أن عدّبه، وقيل: صلبه عبد الملك بن مروان بدمشق، على القول في القدر، ثم قتله. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، (4/185)؛ والأعلام للزركلي، (7/264).

المبحث الثالث: الفقه الإسلامي.

إذا أراد أحدنا أن يتابع الحياة الإنسانية للمرء المسلم، ويستقرئ ما يصدر عنه من أحداثٍ ووقائعٍ ومواقفٍ ونشاطاتٍ ومعاملاتٍ يمكنه أن يقسمها عدّة أقسام، فمثلاً: قسمٌ منها يخصُّ علاقة الإنسان بخالقه كالصلاة، والصوم، والحج، وقسمٌ منها يخصُّ علاقة الإنسان بنفسه، كالطهارة، والحفاظ على حياته، وقسمٌ منها يقع في دائرة علاقة الإنسان بالآخرين، كالعلاقة بالأفراد، والأسرة، والمجتمع، والدولة، مثل حقوق الزوجية، والميراث، والتجارة، والقضاء، والسياسة، وعلاقات العمل.

وكلُّ هذه النشاطات والعلاقات متشابكة، وتحتاج إلى تنظيمٍ وبيان موقفٍ محدّدٍ منها، كالوجوب، والحرمة، والإباحة، وإنَّ هذا التنظيم والتحديد الذي ينظم علاقة الإنسان ومواقفه ونشاطاته نسبيّ (حكماً)، فمثلاً: حكم الإسلام بوجوب معرفة الله، وبوجوب الصلاة، وبتحريم الظلم والخمر والغيبة، وبأنَّ الذي يقتل شخصاً عمداً عدواناً تربطه به رابطة الميراث لا يرثه، وغيرها من الأحكام.

فالإسلام في هذه الحالات نجده قد حدّد الموقف، وأوجد الحكم الذي يهدف إلى تنظيم الحياة والعلاقات الإنسانية المختلفة، وأنَّ هذا الحكم صادر عن الله - ﷻ -؛ لذا كانت دائرة هذه الأحكام تتسع باتّساع دائرة الحياة - صغيرها وكبيرها -، وتشمل كل وقائعها.

والشريعة الإسلامية تحوي طاقةً تشريعيةً عظيمةً، وهذا هو سرُّ دوامها، ومصدر حيويتها وأصالتها، فالمسلم يجد لكلِّ ما يهْمُ بفعله أو يصادفه حكماً تشريعياً، وما من قضية في الحياة ترتبط بعلاقة الإنسان إلّا ولها حكمٌ، وموقفٌ شرعيٌّ محدّد، يبيّن تكليف الإنسان، وربنا - ﷻ - يقول: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

وهذا المقياس العملي متاح للإنسان منذ سنِّ التكليف الشرعي ليسيّر على هداه، مما يحقِّق له السعادة، ويجلب له المصلحة، كما يدرأ عنه الشقاء والمفسدة.

وقد كانت الأحكام موضوعاً من موضوعات الدّعوة الإسلاميّة منذ فجر الإسلام الأول،

فقد بدأ النبي - ﷺ - يدعو إلى تثبيت العقيدة أولاً، ثم يتبعها بالدعوة إلى أركان الإسلام، وفقهه، وأحكامه: عبادات ومعاملات، وهذا الذي سار عليه علماء الأمة ودعاتها إلى عصرنا الحاضر.

ولقد أولى الشيخ محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - اهتماماً كبيراً بأمر الدعوة إلى الله، والدعوة إلى العقيدة الصّافية، وإلى شرائع الإسلام، ويتضح ذلك من خلال ما كتبه في مؤلفاته المختلفة، ومن خلال حياته الشخصية التي تُعدُّ ترجمةً حقيقيّةً لكلِّ ما قاله. ومن ذلك دعوته - رَحْمَةُ اللَّهِ - إلى إقامة أحكام الإسلام، والتي تتضمن عباداته ومعاملاته، وسأحاول في المطالب المقدمة إبراز جهوده في خدمة الفقه الإسلامي، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

المطلب الأول: الوعاء الفكري للشيخ الخضر في الفقه الإسلامي.

إنَّ طالب العلم في بداية طلبه للفقه، يكون مستقرًّا على مذهبٍ واحدٍ من المذاهب المشتهرة عند أهل السُّنَّة والجماعة وهي: المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي؛ تأصيلًا وضبطًا للأدلة عند طالب العلم.

ثمَّ يرتقي في طلبه إلى المذاهب الأخرى، ويتدرَّج في الفقه، حتى يتمكن من معرفة الرَّاجح من المرجوح، والأخذ بما دلَّ عليه الدَّلِيل، ولو خالف في المسألة المذهب الذي درس عليه وينتسب إليه.

والشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - ممن أخذ الطلب ابتداءً في الفقه على مذهب الإمام مالك - رَحْمَةُ اللَّهِ -، على عادة من نشأ ببلاد المغرب، وقد دلَّ على ذلك ما يلي:

1- أنَّه نشأ في بلاد المغرب العربي، وكان يسودها التَّفَقُّه على مذهب مالك - رَحْمَةُ اللَّهِ -، ومن خلال نشأته العلمية وطلبه للعلم نجده درس كتب الفقه المالكي، مثل: "شرح الزرقاني على مختصر خليل"، و"شرح الدَّردير على مختصر خليل".⁽¹⁾

2- تصريحه بذلك، حيث قال: "تفقهتُ في مذهب مالك - رَحْمَةُ اللَّهِ -"، ودرست الكتب التي اعتمدت رواية رفع اليدين عند التَّكْبِير في افتتاح الصَّلَاة فقط، دون رفعهما عند الركوع والرفع منه؛ "مختصر الخليل"، وغيره".⁽²⁾

3- أنَّه تولَّى تدريس المذهب المالكي في جامع الزَّيْتونة.⁽³⁾

وتتلمذُ الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - على مذهب مالك، وتدرسه له لا يعني التزامه به في كلِّ حالٍ، أو إذا خالف النَّصَّ الشرعيَّ، إذ إنَّ الشَّيْخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - ينعي على التعصُّب وأهله، ويرى أنَّ الاجتهاد ضرورةٌ شرعيةٌ، وأنَّ شريعة الإسلام عامَّةٌ، فلا يختصُّ بها قبيلٌ من البشر دون

(1) ينظر: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 100 - 126).

(2) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 218).

(3) ينظر: الإمام محمد الخضر الحسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، (ص 204).

قبيل، ودائمة، فلا يختص بها جيلٌ دون جيلٍ، وأفعال البشر - على اختلاف أجناسهم، وتعاقب عصورهم - لا تنتهي إلى حدٍّ، ولا تدخل تحت حصرٍ، ومن أجل هذا لم تنزل أحكامها في نسقٍ واحدٍ من التفصيل والبيان، بل أرشدت الشريعة إلى بعضها بدلائل خاصة، وقرّرت بقيّتها في أصولٍ كليّةٍ؛ ليستنبطها الذين أوتوا العلم عند الحاجة إليها. (1)

ويرى أنّه لا عصمة لعالمٍ من الخطأ، ولا يُعدُّ هذا منقصةً في حقّه، وهو حال الفقهاء المجتهدين، فيقول - مثلاً - في توجيه مخالفة ابن القاسم - رَحِمَهُ اللهُ - (2) لشيخه مالك - رَحِمَهُ اللهُ - في بعض الفتاوى والاجتهادات: "ومقتضى هذا: أنه يرى الإمام غير مُصيبٍ في استنباط هذا الحكم الخاصِّ، وليس في هذا غضاضةٌ على الإمام مالك؛ فإنّه لا يدّعي لنفسه العصمة، ولا أنّ أهل العلم من أصحابه يعتقدون فيه أنّه لا يخطئ في حالٍ، وقد نُقِلَ عنه أنّه قال: (إنما أنا بشرٌ أخطئُ وأصيبُ، فانظروا في رأيي، فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق فاتركوه) (3)". (4)

بل يقرّر أنّ عادة العلماء والفقهاء من لدن الصحابة الكرام - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - إلى من بعدهم الرجوع عن فتاويهم إذا دلّ الدليل على خلافه، ولا يُلْزَمُونَ النَّاسَ باجتهاداتهم، فيقول: "وإذا كان عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قد غفل عن قوله تعالى: ﴿وَعَاثَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: 20]، فأراد تحديد المهور حتى ذكّره بها امرأة، فرجع عن رأيه (5)، فمن المحتمل

(1) ينظر: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 7).

(2) ابن القاسم: (132-191 هـ = 750-806 م): هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري أبو عبد الله، ويعرف بابن القاسم، فقيه، جمع بين الزهد والعلم، وتفقه بالإمام مالك ونظرائه، مولده ووفاته بمصر، له "المدونة" ستة عشر جزءاً، وهي من أجل كتب المالكية، رواها عن الإمام مالك. ينظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون، (1/465).

(3) أورد الأثر ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، (1/775)؛ والقاضي عياض في ترتيب المدارك، (1/182).

(4) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 159).

(5) ولفظه: أنّ عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - خطب الناس يوماً فقال: ((أَلَا لَا تُعَالُوا بِصُدُقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ لَكَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَمْرَةً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَصْدَقَتْ أَمْرَةً

أن يقع الإمام مالك أو غيره من الأئمة في خطأ الاجتهاد، ولأصحابه من بعده أن ينقدوا فتواه، حتى إذا وجدوها غير مطابقة لقواعده، ردُّوها إلى أصلها، وصحَّح من هذا الوجه نسبة الحكم الذي يقرِّره بعض أصحابه إلى مذهبه.

وقد رجع الإمام نفسه في مسائل، فأفتى فيها بغير ما أفتى به أوَّلًا، وهذه المسائل معروفة في كتب الفقه، وربما اعتمد أصحابه القول الذي رجع عنه، حيث يظهر لهم أنه أوضح دليلًا، وأقوم قيلًا⁽¹⁾.

كما يرى الشيخ أنَّ رجوع العالم عن اجتهاده ورأيه إذا تبَيَّن له الصواب وتصريحه بذلك من الأمانة، ومما يحقِّق الخير والصلاح له، ولمن تبعه.

قال - رَحِمَهُ اللهُ -: "وإذا أبديت في العلم رأيًا، ثم أراك الدليل القاطع أو الرَّاجح أنَّ الحقَّ في غير ما أبديت، فمقتضى الأمانة أن تصدع بما استبان لك أنَّه الحقُّ، ولا يمنعك من الجهر به أن تُنسب إلى سوء النظر فيما رأيته سالفًا، فما أنت إلا بشرٌ؛ وما كان لبشرٍ أن يبرئ نفسه من الخطأ، ويدَّعي أنه لم يقل ولن يقول في حياته إلا صوابًا.

والأمانة هي التي كانت تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا في النَّاس رجوعهم عن كثيرٍ من آراء علميَّة، أو اجتهاداتٍ دينيَّة، تبينوا أنهم لم يقولوا فيها قولًا سديدًا.

تجد هذه الفضيلة في الأئمة المقتدى بهم؛ كمالك بن أنس، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل؛ والفتاوى التي رجع عنها أمثال هؤلاء العظام منبِّة عليها في كتب الأحكام، ولا يُعدُّ

مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةِ أُوقِيَّةً)). أخرجه أبو داود في السنن، كتاب النكاح، باب الصداق، (2/235- رقم 1206)؛ والترمذي في الجامع، كتاب النكاح، باب ما جاء في مهر النساء، (3/414- رقم 1114) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وابن ماجه في السنن، كتاب النكاح، باب صداق النساء، (1/607- رقم 1887).
وأما زيادة أنَّ امرأةً اعترضت عليه، فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر. فلها طرق لا تخلو من مقال، وقد أخرجها: عبد الرزاق في المصنف، (6/180)؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، (1/530)؛ والبيهقي في السنن الكبرى، (7/380- رقم 14335)، وضعفها الألباني في إرواء الغليل، (6/348).
(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 159).

شيءٌ منها فيما يصحُّ الاقتداء به إلا أن يراه بعض المجتهدين صحيحَ الاستنباط، ثابتَ الأصل، فحكمه العمل على ما رأى". (1)

ويرجع فكر الشيخ الخضر الفقهي في اعتماده على الدليل، وتحرُّره من التَّعَصُّبِ الفقهي؛ استجابةً لأمر الله - ﷻ -، وطاعةً لرسوله - ﷺ -، وتوقيراً للعلماء، والاستفادة من بحر علمهم، وقد بدا ذلك جلياً في مناقشاته العلمية، ومباحثاته الفقهية، فكثيراً ما يورد خلاف الأئمة، ويرجِّح، ويردُّ، ويناقش أقوالهم، دون التَّقْيُّدِ بمذهبٍ معيَّن، بل يحدوه في ذلك طلب الحقِّ وإظهاره، معتمداً على الأدلة الشرعية في ذلك.

والأمثلة على هذا التقرير كثيرة، وأكتفي بإيراد بعضها:

1- إيراده لخلاف العلماء في المراد بقوله - ﷻ -: «نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ» (2)، حيث قال في بداية الدراسة - بعد أن ذكر مجمل أقوال العلماء في المسألة -: "ونحن نذكر أشهر أقوالهم، ونقرِّر ما هو الرَّاجِح من جهة الدليل". (3)

وخلال مناقشته لمذاهب العلماء فيها؛ نجده ينتقد ويُضَعِّف بعض التعليقات بعبارات مختلفة كقوله: "ورُدَّ هذا الرَّأْيُ بأنَّ حديث... (4)"، وقوله: "ونرى من البعيد -أيضاً- أن يقصد الحديث... (5)"، وقوله: "ونحن نستبعد أن يُلاحَظ في الحديث... (6)".

2- ذكره للخلاف في أفعال النَّبِيِّ - ﷺ -، حيث قال في أثناء دراسته لهذه المسألة: "وقد

(1) رسائل الإصلاح، (ص 87).

(2) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، (3/122 - رقم 2419)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، (560/1 - رقم 818).

(3) بلاغة القرآن، (ص 273).

(4) المرجع نفسه.

(5) المرجع السابق، (ص 275).

(6) المرجع نفسه.

تختلف أنظارهم في فعلٍ من أفعاله لا يتَّصل بعبادة؛ كإرساله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - شعر رأسه إلى أذنيه، إذ ذهب طائفةٌ إلى أن هذا الفعل من السُّنَّة، وذهب آخرون إلى أنه من قبيل العادة، وهو الرَّاجح فيما نرى". (1)

3- قال في مسألة احتجاج مالكٍ بعمل أهل المدينة، وتقديمه على الحديث الصحيح: "والتَّحْقِيقُ: أَنَّ مَالِكًا إِنَّمَا يَحْتَجُّ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِيمَا طَرِيقُهُ النَّقْلُ الْمُسْتَفِيزُ؛ مِمَّا تَقْتَضِي الْعَادَةُ أَنَّهُ لَوْ يَغْيَرُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -، لَعُلِمَ؛ كَالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، فَإِنَّ الْعَهْدَ بِذَلِكَ الزَّمَنِ لَيْسَ بِبَعِيدٍ عَنْ عَصْرِ مَالِكٍ، وَالْفُقَهَاءُ وَالْمُحَدِّثُونَ بِهَا مُتَوَافِرُونَ، مَعَ مَا عُرفَ مِنْ تَنَافُسِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَمَّا مَا يَجْمَعُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمَأْخُوذَةِ بِصَنَاعَةِ الْاجْتِهَادِ، فَلَا يَسَعُهُ تَقْلِيدُهُمْ، بَلْ هُمْ وَغَيْرُهُمْ فِي نَظَرِهِ سَوَاءٌ". (2)

4- له رسالتان في تحقيق مذهب مالكٍ في مسألة رفع اليدين عند الركوع والرفع منه (3)، ومسألة تحقيق مذهب مالكٍ في إشارة المصلي في التشهد بإصبعه (4)، مما يدلُّ على تحرُّره في فقه مالكٍ - رَحِمَهُ اللهُ -، وتحرُّره من ربة التقليد والتَّعَصُّبِ لقولٍ دون الآخر.

(1) محمدٌ رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 239).

(2) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 80).

(3) وهو جواب لسؤالٍ وجَّهه بعض قراء مجلة "لواء الإسلام"، منشورٌ بمجلة "لواء الإسلام" - العدد الثالث من السنة العاشرة.

(4) جوابٌ له عن سؤالٍ حول حقيقة مذهب الإمام مالكٍ في تحريك المصلي إصبعه أثناء التشهد منشورٌ بمجلة "لواء الإسلام" - العدد الخامس من السنة العاشرة.

المطلب الثاني: مواكبته للنوازل والمستجدات المعاصرة.

وهذه سمة ظاهرة في كتابات الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ -، فكثيراً ما نجده يهرع إلى دراسة المسائل الحادثة، والمستجدات الفقهية، ويربطها بأصولها وأدلتها، ويجتهد في إظهار حكم الله تعالى فيها؛ ذلك لأن موضوع فقه النوازل الفقهية حظي باهتمام بالغ من العلماء عامة، وفقهاء المغرب العربي على وجه الخصوص؛ إذ عليه تتوقف مصالح الناس، ومن خلاله تتجلى واقعية الفقه، ومسايرته لتطور الحياة، وتغير أنماطها، وقدرته على حل كل ما يعترض المسلمين من صعوبات ومشكلات، بالإضافة إلى مراعاة أحوال المكلفين، وتغير عاداتهم وأعرافهم.

وللشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - مقالات وفتاوى درس فيها جملة من النوازل والمستجدات التي عمت بها البلوى في زمنه، ومست الحاجة لبيان الحكم الشرعي فيها، ومن ذلك على سبيل التمثيل:

1- دعوى تحضير الأرواح، أو ما يُسمى بـ (الروحية الحديثة)، حيث كان لها رواج كبير في القرن الرابع عشر هجري، حيث يدعي أصحابها استحضار أرواح الأموات، فيزعمون أنهم يستحضرون روح المسلم، وروح النصراني، وروح اليهودي، وروح البوذي، وغير أولئك من أهل الجاهلية على تباين نحلهم من مختلف بقاع الأرض، ويزعمون أنهم يعيشون في سعادة وهناء. (1)

وقد سئل الشيخ عنها، فتعرض لها بالبيان والدراسة من خلال بحث له عنوانه (استحضار الأرواح)، حيث ذكر أن هذه الدعوى كان يسمع بها ولا يظن أن لها صدقاً وأتباعاً، حتى شاعت في بلاد أوروبا، ووجد ذكرها حين رجوعه لمصر، فتصدى لدراستها، وقرر بطلانها، وحذر منها. (2)

2- من بين المسائل النازلة التي شاعت في مصر، وكثر الحديث عنها: مسألة اختلاط الجنسين في المدارس والجامعات والمعاهد التعليمية، وقد ألقى أحد الأساتذة الجامعيين محاضرة تعرض فيها لاختلاط الفتيان والفتيات في الجامعة، وأبدى استحسانه لهذا الاختلاط، ووقف

(1) ينظر: الروحية الحديثة دعوة هدامة للدكتور محمد محمد حسين، (ص 6).

(2) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 82).

موقف الدِّفاع عنه، فبلغ ذلك الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ -، فكتب بحثاً يردُّ فيه على الأستاذ، ويدرس هذه النازلة دراسةً متفحّصةً مبنيةً على أصول الشريعة ومقاصدها، مستدلاً بنصوص الشريعة، وسير الصالحين، على طريقة آداب البحث، وما تقتضيه قوانين المنطق - كما صرّح بذلك -⁽¹⁾.

3- دراسته لبعض المستجدات الفقهية في بحثٍ جُمع له بعنوان (الفتاوى والأحكام)⁽²⁾، تعرّض فيه لبيان حكم صرف الزكاة في بناء المدارس والمستشفيات⁽³⁾، وحكم تولّي المرأة القضاء في محاكم المسلمين⁽⁴⁾، وحكم استعمال وسائل حديثة لمنع الزوجة من الولادة⁽⁵⁾، وحكم اختلاط الجنسين - الذكور والإناث - في المدارس ومعاهد التعليم⁽⁶⁾، وحكم مباشرة المرأة للوظائف العامة⁽⁷⁾، وهذه المسائل ظهرت وعمّت بها البلوى، واحتاج الناس لمعرفة حكم الله تعالى فيها، فكانت له مشاركاته في بيان الحكم الشرعي، وإجابة السائلين عنها.

4- بالإضافة للمسائل الفقهية الشرعية المستجدة في عصر الشيخ، هناك مسائل أخرى جديدة ظهرت وشاعت في عصره، ولها علاقة بالانحراف الفكري والعقدي، وكان للشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - الأثر الكبير في معالجتها، والتّصدي لها، وفضحها، وبيان عورها، ونالت نصيباً وافراً من كتاباته وأبحاثه، منها: مسألة التّنصير، ومسألة الإلحاد، ومسألة التّغريب، ومسألة الاستشراق، وهي أمورٌ عاصرها الشيخ إبان توهّجها ونشاط أذعياءها في مصر خاصّةً.

(1) ينظر: محاضرات إسلامية، (ص 188).

(2) ينظر: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 270).

(3) المرجع السابق، (ص 271-272).

(4) المرجع السابق، (ص 272).

(5) المرجع السابق، (ص 273).

(6) المرجع السابق، (ص 275).

(7) المرجع السابق، (ص 282).

المطلب الثالث: اهتمامه الشديد بمقاصد الشريعة. (1)

لقد أولى علماء الشريعة - قديماً وحديثاً - مقاصد الشريعة عنايةً بالغة، لما لها من الشأن العظيم في حسن الفهم عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - ورسوله - ﷺ -، وحسن الامتثال للأحكام التكليفية، وإيقاعها على الوجه المطلوب شرعاً، فينال العبد ما يرجوه من الأجر والثوبة والقبول عند ربه - ﷻ -، ويسلم من آفات التفريط والغلو والجفاء والانحراف في تحقيق عبوديته لله تعالى، ويتقي شرَّ المخالفات المحظورة، والبدع المذمومة.

ومن هؤلاء الأئمة الإمام محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -، فقد شغلت مقاصد الشريعة الإسلامية حيِّزاً كبيراً في فكره، وأبدى اهتماماً كبيراً بها، وحرص على إظهار هذه المقاصد والأسرار، واهتمَّ ببيانها وتقريرها اهتماماً واضحاً، بل لا يكاد يجد مناسبةً للتنبيه عليها إلا واهتبلها، إمّا على جهة التقرير العام لها، أو من جهة بيان مقاصد وحكم بعض الأحكام الشرعية كالصلاة والزكاة وغيرها، ويمكن تلخيص مظاهر اعتناؤه بها فيما يلي:

أولاً/ كثرة المقالات والبحوث والمحاضرات التي عُنت بإظهار مقاصد الأحكام الشرعية، وحكمها المرعية، سواء أكانت استقلالاً، أم مضمّنةً في بحوث ذات موضوعات أخرى، ما يدلُّ القارئ على اهتمام الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - بهذا الجانب العظيم، وبيان مكانته وقيّمته في الدعوة إلى الله تعالى، ومن ذلك على سبيل التمثيل: بحث (الأحكام العادلة)، وبحث (الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان)، و(مقاصد الإسلام في إصلاح العالم)، و(بناء الشريعة على حفظ المصالح ودرء المفاسد)، و(مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها)، و(الذرائع: سدّها وفتحها)، و(حكمة الإسلام في العزائم والرخص)، و(الزكاة وأثرها في نخوض الأمة)، و(الغيبة وأثرها في النفوس)، و(صلاة الجماعة وأثرها في اتحاد الأمة)، و(مكافحة المظالم موجبة للسلام)، و(مكافحة الجشع والغش في المعاملات المالية)، و(مضار الإسراف)، و(السُّمُّ الخُلقي في

(1) وقد قام الباحث شمس الدين حمّاش بإعداد أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه الطور الثالث، بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر 1، عنوانها: مقاصد الشريعة عند الإمام محمد الخضر حسين - دراسة استقصائية تحليلية -

الإسلام)، و(في مفسد البغاء)، و(سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين)، وغير ذلك كثيرًا. ثانيًا/ أورد الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - إطلاقات متباينة في تعبيره عن علم المقاصد، فسَمَّاهُ (مقاصد الإسلام)، و(مقاصد الدين)، و(مقاصد الشرع)، و(مقاصد الشريعة)، و(أسرار الشريعة)، و(أسرار الدين)، و(الإرادة)، وهي كلها تدور حول مدلول مشترك، وإن كان التعبير بمقاصد الشريعة غالبًا في جملة الإطلاقات، وقد استعاره الشيخ الخضر كلما قصد الحديث عن فنٍّ، مما يدلُّ على العمق المقاصدي في كتابات الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ -⁽¹⁾.

ثالثًا/ اهتمام الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - بهذا العلم الجليل نابغ من قناعاته بأهميته وفوائده، وقد ذكر جملةً من هذه الفوائد أذكرها على جهة الاختصار⁽²⁾:

1- الاطمئنان إلى أحكام الشريعة، وبعث النفوس على الأخذ بها؛ إثر الوقوف على ما تضمَّنته من جلب المصالح، ودفع المفسدات.⁽³⁾

2- هداية الناس إلى الإسلام، من خلال التعريف بأحكامه العادلة، وحكمه الماثلة، والوقوف على حقائق الشريعة، والنفوذ إلى بالغ أسرارها.⁽⁴⁾

3- تقوية دافع الامتثال بمعرفة الحكم الجزئية المنطوية في الأحكام، وما ترمي إليه من إقامة المصالح العاجلة والآجلة، وتثبيت هذه الحكم وترسيخها في النفوس، بتنزيل المعلوم منزلة المحسوس.⁽⁵⁾

(1) ينظر: مقاصد الشريعة عند الإمام محمد الخضر حسين لشمس الدين حمَّاش، (ص 74-75-76). وقد أحصى الباحث في رسالته اختلاف إطلاقات الشيخ فعدها ثمانية وأربعين موضعًا، وقال في ختام ذلك: "ويُدْعَمُ التَّصَوُّرُ المقاصدي الشامل عند الشيخ أنَّ ما أحصيته لا يصدق عددًا إلَّا على ما صرَّح به من وسم المقاصد، وإنَّما بحوثه المقاصدية المطروقة أربى من ذلك كثيرًا". (ص 77).

(2) وقد استفدتها من رسالة: مقاصد الشريعة عند الإمام محمد الخضر حسين لشمس الدين حمَّاش، (ص 78) وبعدها.

(3) ينظر: محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 125).

(4) ينظر: الهداية الإسلامية، (ص 191-192).

(5) ينظر: المرجع السابق، (ص 150-151).

4- بيان حكمة الشريعة بصلاحتها لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإبطال أراجيف المعطلين لأحكام الشرع، بزعم تفويتها للمصالح المتجددة. (1)

5- رسوخ العلماء في العلم، وثبات أقوالهم فيه، ورفع الصواب في عقول المجتهدين؛ لإمامهم بمقاصد الشريعة، فزهد العقل عن التفكير المقاصدي إحجاماً عن مدارك الصواب، وإمام بمنازع الغلط. (2)

رابعاً/ تبرز أهلية العلم بمقاصد الشريعة عند الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - من خلال تفعيلها في مناحي الحياة العلمية والعملية، ومعرفة مدى استثمارها في مجال الدائرة الفقهية، وخصوصاً الأحكام التَّكْلِيفِيَّةِ العملية العادية، وذلك من خلال فهم النصِّ الشرعي؛ لأنَّ وظيفة المقاصد البيان والتفصيل؛ لإدراك مُراد الشارع من التشريع حكمةً وحدّاً، وعلى ما فهم منها يتمُّ تنزيل الأحكام على الوقائع، ومن خلال إدراك أفعال المكلفين، فالعمل إذا تعلَّق به قصدٌ؛ تعلَّقت به الأحكام التَّكْلِيفِيَّةِ، وإذا عرِيَ عن القصد لم يتعلَّق به شيءٌ منها، ومن خلال تنزيل الأحكام واستنباطها لتلك الأفعال؛ لأنَّ ذلك مبنيٌّ على النظر في موافقة مقاصد المكلفين في أفعالهم لمقاصد الشارع، وقد برز ذلك جليّاً من خلال الجانب التَّأْصِيلِي النَّظَرِي العام من جهة، وكذلك من خلال الجانب التَّطْبِيقِي الجزئي، بإظهار المقاصد الخاصَّة ببعض الأحكام الشرعيَّة. أمَّا فيما يتعلَّق بالجانب النَّظَرِي التَّأْصِيلِي فإنَّه ماثوثٌ كثيرٌ في أبحاث الشيخ ومحاضراته، ومن ذلك على سبيل التَّمثِيل:

1- يرى - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ قصد الشارع الحكيم بالأحكام التَّكْلِيفِيَّةِ هو حفظ مصالح العباد، ودرء الفساد عنهم، حيث يقول: "القوانين العادلة: التي تقوم على رعاية حفظ المصالح، ودرء المفساد، ولا يختلف علماء الإسلام في أنَّ أحكام الشريعة قائمةٌ على رعاية هذين الأصلين، وإذا كانت المصالح والمفساد قد تخفى في بعض ما يشرع على أنه عبادة، فإنَّ الأحكام المشروعة

(1) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 183).

(2) ينظر: محمد رسول الله ﷺ - وخاتم النبیین، (ص 127)؛ وتراجم الرجال، (ص 35).

لغير العبادات؛ من آداب الاجتماع، ونظم المعاملات والجنائيات، لا تقصر العقول السليمة عن إدراك أسرارها، ومن الميسور تقريرها على وجهٍ يظهر به فضل الشريعة السماوية على القوانين الوضعية". (1)

2- ويقرر أنَّ علماء الشريعة الباحثين في حِكْمِ وَعِلَلِ التَّشْرِيعِ قَسَّمُوا المصالح والمفاسد إلى ما هو متممٌ، وإلى ما هو مشتركٌ، وأنَّهم: "يذكرون أنَّ المصالح المحضة كالمفاسد المحضة نادرة الوجود، وأكثر الوقائع ما تجتمع فيه المصلحة والمفسدة، فما كان مصلحةً محضةً، فحكمه الإذن قطعاً، وما كان مفسدةً محضةً، فحكمه النهي بلا مرأى، فأما ما يكون مصلحةً من ناحية، ومفسدةً من ناحيةٍ أخرى، فالشَّارع الحكيم ينظر إلى الأرجح منهما، ويفصل الحكم على قدر الأرجحية، فما رجحت مصلحته على مفسدته، أذن فيه على وجه الإباحة، أو النذب، أو الوجوب، وما رجحت مفسدته على مصلحته، نهي عنه على وجه الكراهة، أو التحريم". (2)

3- وبَيَّنَّ - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ قصد الشَّارع في وضع الأحكام التَّكليفية هو حفظ مقاصد الخلق، وهذه المقاصد من حيث الاضطراب وشدة الحاجة إليها منها ما ضروريٌّ، ومنها ما هو غير ذلك، فيقول: "عقد أهل العلم خناصرهم على أنَّ أحكام الشريعة معلَّلةٌ بمصالح العباد في هذه الحياة، وفي تلك الحياة، وأنَّ المصالح التي تقصدها الشريعة السماوية ترجع إلى حفظ النَّفس، والدِّين، والعقل، والعرض، والنسب، والمال". (3)

4- كما يوظَّف - رَحِمَهُ اللهُ - المقاصد الضرورية في التَّعَرُّفِ على الأحكام الشرعية، فإنَّاطة الحكم بمصلحته المناسبة يعود به إلى خدمة واحدٍ من الكليَّات، وتظهر خلاله فائدةٌ معرفة المجتهد ودرايته بالمقاصد الضرورية، فيقول: "فالقصاص - مثلاً - مشروعٌ لحفظ النَّفس، وحدُّ الزنا لصيانة النَّسب، وحدُّ القذف لصيانة العرض، وعقوبة شارب الخمر لصيانة العقل، والجهاد لحفظ الدِّين، بل الاستعمار الأجنبي دَلٌّ على أنَّ الجهاد مشروعٌ لحفظ الدِّين والنفس والعرض

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 17).

(2) المرجع السابق، (ص 17-18).

(3) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 251).

والمال، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: 8]. وكلُّ ما شرع من أحكام المعاملات والتعازير لا يخرج عن الاحتفاظ بهذه الحقوق". (1)

5- يقرّر الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - المقاصد الخاصّة بأبواب الشريعة، وهو ما يُعتبر الجانب التطبيقي الجزئي على الأحكام الشرعيّة؛ وذلك من أجل إظهار انتظام الشريعة، وتجانس أحكامها، ففي باب العبادات؛ قرّر - رَحِمَهُ اللهُ - أنّ قاعدة الشريعة فيها خفاء المصلحة لقصد التّعبد، حيث يقول: "وأما ما كان من قبيل العبادات، كالصلاة والصوم والحجّ، فالأصل فيه بالنسبة إلى المكلف التّعبد، وحكمته العامّة الانقياد لأوامر الله تعالى، وإفراده بالخضوع والتعظيم". (2)

وقد يُخرق الأصل المقرّر ببيان عِللٍ تشريعيّة تعبدية، ونشر ما علق بتفاصيل العبادات وجملتها من حكم، والسّر في خفاء وجه المصلحة؛ تخليص القربات من عوالم الإرادات العاجلة، فقد "يبين له الشارع علّة خاصّة، لكن التّقرّب إلى الله تعالى بما لم يطلعنا على حكمته، أدلّ على كمال العبوديّة له، والإخلاص في التّوجّه إليه؛ لأنّ الإتيان بالقربات التي أدركنا حكمته المناسبة، لا يخلو عن شائبة القصد إلى المصالح المترتبة عليها، وهو وإن لم يكن محبطاً بعملها يهضم شيئاً قليلاً من خلوصها". (3)

وأما في جانب العادات، فقد استجمع الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - مقاصد هذا الباب في: التّمتّع بالطّيّبات من المأكّل والملبس، وترك الخبائث، والتّنزّه عن المستقذرات، فقال: "من مقاصد الإسلام: تقويم العقائد، وتطهير العقول من المزاعم السّخيفة، وإصلاح الأخلاق، وشرع العبادات الصحيحة، وبيان الطّيّبات من الرّزق، وما لا يخرج عن حدود الحكمة من نحو

(1) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 251). وينظر: مقاصد الشريعة عند الإمام محمد الخضر حسين لشمس الدين حمّاش، (ص 121).

(2) السعادة العظمى، (ص 101).

(3) المرجع نفسه.

الملابس والمراكب، وتنظيم المعاملات على وجه العدل والرفق".⁽¹⁾

وأما باب المعاملات فهو مهيعٌ مناسبٌ لجلاء مقاصد الشريعة الإسلامية، العامة منها والخاصة؛ وذلك لأنَّ الشارع أناط أحكامه بالعلل المعقولة، يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "المتفقه في علم الشريعة يدرك أنَّ أحكام المعاملات مبنية على رعاية المصالح المدنية التي يتييسر للعقول السليمة، متى تلقَّتها من الشارع؛ وغاصت في تدبرها من كل جانب، أن تقف على أسرارها".⁽²⁾

والقصد الأعظم من تشريع المعاملات - في نظر الشيخ - تنظيم علاقات الناس لصون حقوقهم من الاعتداء، فالدين الإسلامي "يقرّر من ضروب المعاملات ما ينظم صلة النَّاس بعضهم ببعض، ويضمن راحة غنيهم وفقيرهم، ويجعل الجميع في أمنٍ على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، بأفضل ما عرف البشر من القوانين المدنية والتجارية والشخصية والجناية والاجتماعية".⁽³⁾

ومن ذلك - أيضًا - حفظ المال أن يُصرف في وجوه الباطل، حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 188]: "وهذه الآية أصلٌ من الأصول التي يقوم عليه إصلاح المعاملات، وقد دلَّت على حرمة أكل أموال النَّاس بالباطل على وجه الإجمال، وفصّلت نصوصٌ أخرى وأدلةٌ وجوهٌ أكل الأموال بالباطل؛ مثل: الغصب، والسَّرقة، والقمار، والرِّبا، إلى ما هو مفصّلٌ في كتب الأحكام من المعاملات التي لا تختلف أنظار المجتهدين الرَّاسخين في تحريمها".⁽⁴⁾

وأما في باب الجنايات؛ فإنَّ الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - قرّر أنَّه قائمٌ على إقامة العدل بين الناس، وإقرار الأمن الذي يعود على المقاصد الضرورية بالسَّلامة، وهو ما حمل الشارع على الحزم في إنفاذ العقوبة.⁽⁵⁾

(1) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 127).

(2) الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، (ص 66).

(3) المرجع السابق، (ص 184).

(4) أسرار التنزيل، (ص 349).

(5) المرجع السابق، (ص 392).

المطلب الرابع: جهوده في تقرير الفروع الفقهية، وبيان ثمراتها الدنيوية والدنيوية.

لقد اهتمَّ الشَّيْخُ - رَحْمَةُ اللَّهِ - بذكر المسائل الفقهية، وبيان أحكامها العملية، وكان أكثر اهتمامه ببيان حِكْمِهَا وأسرارها، وما ينتج عنها من ثمراتٍ وفوائد تعود على المسلم في دينه ودنياه، فهو لا يكتفي بذكر الفرع الفقهي، وما يتعلَّقُ به من أحكامٍ تفصيليةٍ، بل كان همُّه وتركيزه على استنباطِ الحِكْمَةِ، وبيان أثر ذلك على الفرد والجماعة، ويمكن تفسير ذلك كون كتاباته موجَّهةً إلى عامَّة المسلمين اعتباراً لصفته رئيس جمعية لها مجلَّة ثقافية مشهورة، أو كونه شيخاً للأزهر، وهو ما يعود على القُرَّاء بالفائدة الجليلة، ويمكن إبراز هذا الجانب من خلال ما يلي:

أولاً/ كثرة المقالات والمحاضرات التي غني الشيخ فيها ببعض الأحكام الفقهية، وبيان أسرارها ومقاصدها الجزئية، ومن ذلك على سبيل التمثيل ⁽¹⁾: (الزَّكَاةُ وأثرها في نحوض الأُمَّة)، و(الغيبة وأثرها في النفوس)، و(صلاة الجماعة وأثرها في اتِّحاد الأُمَّة)، و(الشهادة وأثرها في الحقوق)، و(مكافحة المظالم موجبة للسلام)، و(الطلاق في الإسلام)، و(تعدد الزوجات في الإسلام)، و(مكافحة الجشع والغش في المعاملات المالية)، و(مضارُّ الإسراف)، و(السمو الخلقي في الإسلام)، و(في مفاصد البغاء)، و(سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين).

ثانياً/ أبان الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - عن قدرةٍ عالية، ومُكنةٍ من ضبط الحِكم والعلل والمقاصد الجزئية لكثيرٍ من الفروع الفقهية، ويظهر ذلك من خلال التمثيل على جهة الاختصار:

1- ففي باب الصلاة، قرَّر - رَحْمَةُ اللَّهِ - ارتباطها بمنافع دنيوية كالرَّاحة النَّفْسِيَّة، والطُّمَأْنِينَةُ القلبية، وتركبة النفس وعفافها، والسلامة من أذاها، وأخرى أخروية أعظمها الفوز بالجنَّة. ⁽²⁾

وحثَّ الشارع على إقامتها في جماعةٍ، لما فيها من مصالح ومقاصد تفوق صلاة الفرد، وقرَّر لها أحكاماً تدلُّ على عنايته بها، وأنَّ لها قصداً زائداً على عقد الصَّلَاة بين العبد وربِّه؛ فأمر ببناء

(1) وقد مرَّ ذكرها في المطلب السابق.

(2) ينظر: أسرار التنزيل، (ص 18).

المساجد، وروعي في ذلك المصلحة الاجتماعية، "وهي اطلاع أهل الحي وأهل القرية على أحوال بعضهم، فيتعاونون على ما يسد حاجتهم، ولرفع شأنهم". (1)

وفي صلاة الجماعة توطيئاً للمجتمع على سياسة النظام، وأدب الاجتماع، يتجلى ذلك في مظاهر ثلاثة: تسوية الصفوف، ومتابعة الإمام، وأخذ الزينة عند المساجد. (2)

2- وعن أسرار الزكاة وحكمها؛ ذكر أنها إنما شرعت لحكمة شكر نعمة المال، كما أن من حكمة الصلاة شكر نعمة البدن. (3)

3- ومما ينتظم في هذا السلك؛ اطلاع الشارع على الحكم المناطة بمنسك الحج، وكشف ما تعلق به من مصالح ومقاصد، إذ أثبت تعلق الحج بفوائد منها: التعارف، والتوadd، والاتحاد، والتعاون على إقامة المصالح العامة، ودفع الأخطار الفادحة، فهو أكبر مساعدٍ على أن تتوافق الآراء، وتتقارب المشارب، وتتماثل المرامي. (4)

4- ويقرر - رَحِمَهُ اللهُ - أن الجهاد يتركز على مقصدين أساسيين: الأول: ابتغاء الحياة الطيبة القائمة على الحرية والعزة، يقول: "ومما يُحْيِي المؤمنين الحياة الطيبة: جهاد العدو المحارب، ذلك أن العدو إذا استولى على الأمة، قبض على زمام أمرها بيد غاشمة، وأقام بينها وبين القوة والعزة حواجز، فلا تعيش إلا في ضعف وذلة ونكدٍ من العيش، وقتال العدو يدفع عنها هذه الكارثة، ويمكّنها من أن تفوز بسلامة أعراضها وأموالها، وتمتع بالحرية في إدارة شؤونها، وابتغاء وسائل رفعتها، وإقامة شعائر دينها، والتقاضي إلى أحكام شريعتها، وذلك عين الحياة الطيبة في الدنيا، ووسيلة الحياة الطيبة في الآخرة". (5)

وأما المقصد الثاني فهو التشوّف لاهتداء الناس إلى دين الله، إذ الجهاد وسيلة لدخول الأمم تحت سلطان الإسلام، ومعاينة أحكامه العادلة، يقول: "فالجهاد لا يُقصد به نقل القلوب من

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 114).

(2) المرجع السابق، (ص 118-119).

(3) المرجع السابق، (ص 96).

(4) ينظر: أسرار التنزيل، (ص 418).

(5) المرجع السابق، (ص 399).

الضَّلال إلى الهدى، وإشراجها الإيمان في الحال، وعدم إمكان هذا المعنى لا يمنع من أن يُراد من الجهاد النبوي قبل شرع الجزية: كَفُّ أذى القبائل المشركة العاثية في الأرض فسادًا، وإلباسها ثوب الإسلام - ولو في الظاهر - لتدخل في نظامٍ وشرعيةٍ، ويرجى منها بعد مشاهدة أنوار النبوة مرةً بعد أخرى أن تدرك الحقَّ حقًّا، فينقلب جهلها علمًا، ونفاقها إيمانًا، وتستنير صدورها كما صلحت ظواهرها. والجهاد لهذا القصد يلتئم مع قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالنِّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، فإنَّ الجهاد الذي يُساق به الوثنيون إلى الإسلام يُقصد به: إصلاح ظواهرهم، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، يُقصد به: إخراج القلوب من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان". (1)

5- كما ذكر مقاصد الزواج، وأنَّ أهمَّ مقصدٍ له تكثير النسل، وإبقاء النوع البشري، وهو ما حرَّره عند تفسير قوله الله تعالى: ﴿فَالْتَنَ بَشِيرُوهُنَّ وَأَبْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: 187]، بقوله: "وأقرب ما يفسر به: الولد. وهذا مُشعر بأنَّ النكاح شرعٌ لِيُبتَغَى به النسل؛ حتى يتحقق ما يريد الله من بقاء النوع الإنساني". (2)

ويتبع ذلك مصالح وحكم أخرى، منها: قضاء الوطر، والتعفف عن الفواحش ومُحرِّم النظر، فقال - رَحِمَهُ اللهُ -: "شرع الزواج لأغراضٍ ساميةٍ نبيلةٍ، ففي الزواج ابتغاء النسل الصالح، وفي النسل الصالح عِزَّةٌ وفخارٌ للوالدين والأسرة والأمة، وفي الزواج الاستعانة على التحلي بأبهى خِصلة من خصال المجد هي العفاف، وبالعفاف يسود الأمن، وتسلم علاقات التعاون والوفاق من الانقلاب إلى تناكرٍ وشقاقٍ، وفي الزواج التعاون على مرافق الحياة: الزوجة تدبِّر المنزل، وترعى الولد، والزوج يمدُّ المنزل بما يسدُّ حاجاته، ويقيم حوله سياجًا من المهابة والصيانة، وفي الزواج كسب صداقة أسرةٍ؛ إذ ينعقد بينك وبين آل الزوجة رابطةٌ المصاهرة، وقد تبلغ هذه الرابطة في قوَّتها وصفائها مبلغ قرابة ذوي الأرحام". (3)

(1) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 185).

(2) أسرار التنزيل، (ص 346).

(3) الهداية الإسلامية، (ص 60).

المطلب الخامس: طول النفس في دراسة المسائل الفقهية وتحقيقها.

لم يؤلّف الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - كتاباً فقهياً استقلالاً، ولكنه تعرّض لكثيرٍ من المباحث الفقهية من خلال بحوثه ومقالاته، وذلك عند الحاجة العلمية: كمناقشات علميّة مع غيره من العلماء، أو في مقام الردّ على بعض الأفكار والمقالات، أو في سياق الإجابة عن أسئلة الطلاب والمستفتين.

ولم يتعرّض الشيخ لكلّ الفروع الفقهية بالشرح والبيان، وإنّما اقتصر على بعض المسائل، وقد تميّز - رَحِمَهُ اللهُ - بالشمولية والاستيعاب في دراسة هذه المسائل، حيث يأتي على كلّ التفاصيل المتعلقة بالمسألة أو جلّها، ويسرد أدلتها، ويذكر أقوال العلماء، ويناقش أدلتهم، ويرجّح في بعض الأحيان.

وأذكر بعض الأمثلة في هذا المقام تدليلاً على هذا الحكم:

1- في حديثه عن الزكاة⁽¹⁾؛ عرّفها في اللغة والشّرع، وذكر المناسبة بينهما، وبين حكمتهما، ثم ذكر أدلة وجوبها من الكتاب والسّنة، وأوجه الدلالة على ذلك، وناقش مسألة وجوب إخراج ما زاد على الحاجة المنسوبة للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، وأبطلها، ثم بيّن مصاريف الزكاة والمستحقين لها، وخصّ المؤلفة قلوبهم بالشرح وبيان العلّة في ذلك، ثم ذكر المقصود بقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 60]، وأنه يدخل فيه السّلاح، ومصانع الأسلحة، وبناء القناطر، وما يُستعمل في وسائل الدفاع والجهد في سبيل الله، ثم ذكر حكم زكاة الفواكه والخضروات، مرجّحاً وجوبها، ثم ذكر الخلاف في مسألة زكاة الحلي المتخذ للزينة واللباس، وحكم زكاة الأوراق النقدية، وحكم المال الذي يأخذه الحاكم الظالم من المال، فقال عنه: "وسئلت في بلاد الجزائر عما يأخذه الحاكم الظالم من المال، هل يعدّ من الزكاة أم لا؟ فأجبت بما رأيت لبعض الفقهاء من التفصيل، وهو أنه: إن أخذ المال باسم الزكاة، يُحسب من الزكاة، وإن أخذه باسم الضريبة، أو الغصب، لا يُحسب منها، ويجب على صاحب المال إخراج الزكاة".⁽²⁾

(1) في بحث له بعنوان: الزكاة وأثرها في نخوض الأمة. ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 96-102).

(2) المرجع السابق، (ص 100).

ثم ذكر فروعاً أخرى منها: تعلُّق الزكاة بالمال، فتجب في مال العاقل البالغ والمجنون والصَّبي، وحكم نقلها عن موضعها، وخلاف الفقهاء في إعطاءها الفقير القادر على الكسب، وترجيحه لمذهب الشافعي الذي يمنع ذلك، وحكم من امتنع عن دفع الزكاة، وحكم زكاة الكافر الداخلة تحت مسألة: خطاب الكفار بفروع الشريعة، ثم ختم دراسة المسألة بقوله: "والزكاة ليست منحة من الغني للفقير، بل هي حق واجب الأداء، وركن من الإسلام يجب النهوض به، ودفعه لمستحقه؛ ليستطيع الفقير أن يعيش عيشة طيبة، وفي ذلك تقوية للأمة، وتثبيت لأركانها".⁽¹⁾

2- وفي حديثه عن الشهادة⁽²⁾ ذكر تعريفها في اللغة والشَّرع، وذكر شروطها، وفصل في بيانها، ثم ذكر خلاف الفقهاء في اشتراط الحرِّية في الشهادة، والفرق بين الشَّهادة والرواية، والمقاصد الشَّرعية للشَّهادة، ثم ذكر شرط العدالة في الشَّاهد ومعناها، وما يتبع ذلك من المروءة وحسن السمعة، ثم ذكر شهادة الفاسق، فشهادة الزور، والشَّهادة بغلبة الظنِّ، واختلاف الفقهاء في شهادة الاستغفال⁽³⁾، ومسألة تحليف الشهود وتفرقتهم، وقبول شهادة غير العدل.

3- وهكذا نجده يدرس مسألة رفع اليدين عند الركوع والرفع منه، ويحقِّق مذهب مالك فيها بعرض أقوال الفقهاء في المذهب كابن القاسم وغيره، وذكر خلافهم وأدلتهم وتوجيهها⁽⁴⁾، ومثل ذلك مسألة تحقيق مذهب مالك - رَحِمَهُ اللهُ - في إشارة المصلي في التَّشهد بإصبعه.⁽⁵⁾

يظهر مما سبق أنَّ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - قد أسهم كثيراً في خدمة الفقه الإسلامي، وهو من العلماء المجتهدين الذين ظهر في فقههم الفكر المقاصدي بقواعده وأصوله بوضوح،

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 102).

(2) في مقال له بعنوان: الشهادة وأثرها في الحقوق. ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 27-32).

(3) شهادة الاستغفال: أو شهادة الاختفاء، وعَرَّفَهَا الشيخ بقوله: "وهي أن يكون الشهود في موضع لا يراهم به المطلوب منه الإقرار بالحق، فيعترف بالحق وهو لا يعلم أنَّ الشهود يسجلون عليه هذا الإقرار". المرجع السابق، (ص 31).

(4) المرجع السابق، (ص 218).

(5) المرجع السابق، (ص 221).

متميِّزًا بسعة العلم، وعمق الفكر والتَّنَظُّر، دون تلبُّسٍ بالتَّعَصُّبِ المذموم، مع مواكبةٍ ومسايرةٍ للنوازل والمستجدات، وأنَّ فقهه مبنيٌّ على موافقةٍ وممازجةٍ لروح الشَّريعة ومقاصدها.

المبحث الرابع: الأخلاق.

بعث الله تعالى نبيّه محمّداً - ﷺ - لبيان التّوحيد، ودعوة الخلق لعبادته وحده - ﷻ -، ونبذ الشرك وأهله؛ وفي الوقت نفسه جعل من غايات إرساله نبيّه الكريم إتمام وإصلاح الأخلاق، فقال - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»⁽¹⁾؛ ولم يُعَدِّ الإسلام الخلق سلوكاً مجرّداً، بل عدّه عبادةً يؤجر عليها الإنسان، ومجالاً للتنافس بين العباد؛ فقد جعله النبي - ﷺ - أساسَ الخيريّة والتفاضل يوم القيامة، فقال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»⁽²⁾، وكذلك جعل أجر حُسن الخلق ثقيلاً في الميزان، بل لا شيء أثقل منه، فقال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»⁽³⁾، وجعل كذلك أجر حُسن الخلق كأجر العبادات الأساسية، من صيامٍ وقيامٍ، فقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»⁽⁴⁾، بل بلغ من تعظيم الشارع لحُسن الخلق أن جعله وسيلةً من وسائل دخول الجنة؛ فقد سئل - ﷺ - عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ فقال: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»⁽⁵⁾.

(1) رواه مالكٌ في الموطأ، باب ما جاء في حسن الخلق، (5/1330 - رقم 3357)؛ وأحمد في المسند، مسند المكثرين، مسند أبي هريرة - ﷺ -، (14/513 - رقم 8951)؛ والبخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق، (104 - رقم 273)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (45).

(2) أخرجه البخاري كتاب أصحاب النبي - ﷺ -، باب مناقب عبد الله بن مسعود - ﷺ -، (5/28 - رقم 3759).
(3) أخرجه أبو داود في السنن، أول كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، (4/253 - رقم 4799)؛ والترمذي في الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، (3/430 - رقم 2002)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (876).

(4) أخرجه أبو داود في السنن، أول كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، (4/252 - رقم 4798)؛ وأحمد في المسند، مسند النساء، مسند الصّديقة عائشة بنت الصّديق، (41/470 - رقم 25012)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (795).

(5) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، (3/431 - رقم 2004)؛ وابن ماجه في السنن، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، (2/1412 - رقم 424)؛ وأحمد في المسند، مسند المكثرين، مسند أبي هريرة - ﷺ -، (15/435 - رقم 9696)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (977).

قال ابن القيم - رَحْمَةُ اللَّهِ -: "الدين كُلُّهُ خُلُقٌ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين". (1)

فلا غرو أن يعتني به العلماء والدُّعاة إلى الله تعالى، ويشغل حيِّزًا كبيرًا من اهتمامهم وعنايتهم، والشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - من هؤلاء العلماء، فقد بذل جهودًا مباركة في تقرير المنهج الأخلاقي، واعتنى به غاية العناية، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (294/2).

المطلب الأول: حسن الخلق، وموافقة العمل للقول.

من الوسائل المهمة جدًّا في التربية والإصلاح، وتبليغ الدعوة إلى الله، وجذب الناس إلى الإسلام، السَّيْرَةُ الطَّيْبَةُ للداعي والمربي، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الزاكية، مما يجعله قدوةً طيبةً، وأُسوةً حسنةً لغيره، ويكون بها كالكتاب المفتوح يقرأ فيه النَّاسُ معاني الإسلام فيقبلون عليها وينجذبون إليها؛ لأنَّ التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثير بالكلام فقط؛ فكلَّما ازداد تمسُّك المسلم بمكارم الأخلاق وفضائلها زادت قيمته، وزاد رضا الله عنه، وأحبَّه الناس وتعلَّقوا به، وأصبح موضع ثقتهم واحترامهم.

وقد أصاب الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - بسهمٍ وافرٍ من حسن الخلق، ومطابقة القول للفعل، فطابت سيرته، وُحِّدَت سيرته، وكان دعوةً صامتةً إلى الإصلاح، فتميَّز - رَحِمَهُ اللهُ - بأخلاقٍ عالية، وصفاتٍ حميدة، كانت أشبه بصفات الأسلاف الأوائل في ذلك الشأن؛ فقد كان مشهورًا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشَّيْم، يشهد له بذلك كلُّ من عرفه، أو خالطه أو ترجم له. وهو الذي قال - تأصيلًا لهذا الشأن -: "إنَّ المعاهد والمدارس التي يُدرَّس فيها علم الأخلاق، ويكون رؤساؤها وأساتذتها أنفسهم مُثَلًّا كاملاً للأخلاق الرَّاقِيَّة، هي الكفيلة بأن تُخرِج لنا نشئًا نباهي بسموِّ أخلاقهم، قبل أن نباهي بغزارة علومهم، ورجاحة عقولهم، وطلاقة ألسنتهم.

قال عمرو بن عتبة ⁽¹⁾ لمعلِّم أولاده: ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فالْحَسَنُ عندهم ما صنعت، والقبيح ما تركت". ⁽²⁾

لقد ذكر معاصروه والمترجمون له أنَّه كان متَّصِفًا بالزُّهْد، والعِفَّة، والحِلْم، والكرم، والعدل،

(1) عمرو بن عتبة: هو عمرو بن عتبة ابن فرقد السلمي الكوفي، العابد الزاهد، من كبار تابعي أهل الكوفة، روى عن بعض الصحابة، وشغلته العبادة عن الرواية، وكانت لأبيه عتبة بن فرقد صحبة، روى عنه أهل العراق قتل بتستر في خلافة عُثْمَانَ، وذكره ابن حبان في الثقات. ينظر: الثقات لابن حبان، (5/173)؛ وتهذيب الكمال للحافظ المزي، (136/22).

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 76).

والإنصاف، والوفاء، وثبات الودِّ، والتواضع مع عزَّة النَّفْس، والغيرة على شرع الله، والشَّجاعة، والهيبة الوافرة، وكلُّ هذه المعاني الرفيعة كتب عنها الشيخ الخضر، وفصَّل في مفهومها وحدودها أحسن تفصيلٍ، وأنَّصف بها، وتمثَّلها خير تمثُّلٍ، فجمع بين التأصيل والتطبيق، وكانت حياته مرآة لما يقرره ويدعو إليه. (1)

يقول الأستاذ الكبير أحمد الشرباصي - رَحِمَهُ اللهُ - (2): "الشيخ محمد الخضر حسين رجلٌ أ همُّ ما يتَّصف به الهدوء والاتزان، والعمق، فهو يفكر طويلاً، ويستقصي في بحثه، ويستوعب، ويدير الفكرة في ذهنه أياماً، ويأخذ لها زادها من إحساسه ومعارفه، ومطالعاته واستنتاجاته، ثم إذا جلس ليكتب، كتب في هدوءٍ وأناةٍ، يزن لفظه قبل أن يخطَّه، ويتدبَّر عبارته قبل أن يصوغها، فإذا ما جئتَ بعد ذلك لتقرأ ما كتب، أعجبك أن ترى عقلاً واسعاً نيراً، وتفكيراً عميقاً سليماً، ونظرةً بعيدةً صحيحةً، وأسلوباً رزيناً محكماً" (3)، إلى أن قال: "وأنت حينما ترى الأستاذ الخضر حسين، أو تجلس إليه، تعجب لهذه الشَّخصيَّة النبيلة التي تفيض حُلماً وأدباً، وتُطيل الصَّمْت والسكوت، ولا تتكلم إلا بقدرٍ، ولا تنطق إلا بحياءٍ، وقد تقول: كيف استطاع ذلك الشيخ الكبير أن يصبر لمتاعب التفكير والتأليف والكتابة والطباعة؟ ولكنك لو علمتَ أنَّ في هذه الأثواب الرهيبة أسداً إسلامياً طالما ضحَّى وجاهد، وطالما دعا إلى الله، وعمل لله، ولو علمتَ ما يجب أن تعلمه من تاريخ الخضر حسين - لأدركتَ أنَّ وراء هذا الهدوء ثورةً، وأنَّ هذا الشخص يحكِّمه عقلٌ جبَّارٌ، وتزيّنه روحٌ مؤمنةٌ لا تعرف هواناً ولا ليناً، ولا راحةً في سبيل العمل للعلم والدين". (4)

(1) ينظر: تفاصيل ذلك في كتاب: الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر.

(2) أحمد الشرباصي: (1336-1400هـ = 1918-1980م): ولد بمحافظة الدقهلية بمصر، وتخرج في كلية اللغة العربية ثم نال شهادة التخصص، وعمل مدرساً في وزارة المعارف، ثم في عدد من المعاهد العلمية، وكان مبعوثاً علمياً للأزهر الشريف في الكويت، ثم أُسندت إليه أمانة الفتوى في الأزهر. وصدرت له العديد من المؤلفات في مباحث الدين والتاريخ والأدب والاجتماع.. ينظر: <https://tafsir.net/author/2355/ahmd-ash-shrbasy>

(3) رسائل الإصلاح، (ص 282-283).

(4) المرجع السابق، (ص 285).

ويقول الكاتب الكبير محمد عبد الله السَّمَّان - رَحِمَهُ اللهُ - ⁽¹⁾ متحدِّثاً عن الشيخ الخضر أول ما تولَّى مشيخة الأزهر: "والشيخ الجديد ليس من خَلْفِهِ أَشْيَاعٌ وَلَا أَتْبَاعٌ حتى يَهْرَجُوا له؛ لأنَّ وقاره يسمو به عن أن يتَّخذ من حوله أَشْيَاعًا أو أَتْبَاعًا، ولأنَّ اعتزازه بنفسه يربَّان عن اتخاذ هؤلاء الأَشْيَاعِ والأَتْبَاعِ... والشيخ الجديد أكبر وأجلُّ من أن يزهّد في ذرَّةٍ من كرامته، فهو مستعدٌّ لأن يبذل روحه وما يملك في سبيل كرامته، وليس مستعدًّا لأن يبذل ذرَّةً منها في سبيل الإبقاء على حياته، ولا في سبيل الدنيا". ⁽²⁾

ويقول الأستاذ محمد مواعده: "أهمُّ ما يمكن استنتاجه من التَّعرُّف عن مراحل حياة الشيخ وآثاره: أن هناك انسجامًا وترابطًا متينًا بينهما، فكانت مؤلفاته النثرية والشَّعرية صورةً صادقةً لما كان يؤمن به من أفكارٍ، ويعتقده من آراء في حياته، وهذا ما يجعل الرجل شخصيَّةً ثقافيَّةً متميِّزةً لها عناصرها الأصيلية، ومضمونها الجلي، ومركباتها البارزة". ⁽³⁾

ومن مظاهر تواضعه أنَّه كان يُجيد اللُّغة التركية، والألمانية، والفرنسية، ولكنه لم يكن يتظاهر بذلك، ولا يقول إنَّه يتقنها، وقد حكى مترجمه الأستاذ محمد فهمي عثمان التونسي، سفير الأفغان ببرلين عاصمة ألمانيا وقتئذٍ: أنَّ الشيخ الخضر يعرف الألمانية، ولا يتظاهر بمعرفتها، بل يتخذ أحد المترجمين كدليل له ظاهريًّا. ⁽⁴⁾

(1) السَّمَّان: (1335-1427هـ = 1917-2007م): هو محمد عبد الله السمان، أحد أعلام الدعوة الإسلامية في القرن العشرين، ولد بمصر، أتمَّ حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، تحصل على الليسانس في اللغة العربية، وآخر في القانون، انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في عام 1946م، وأصبح مسؤول الإخوان في قرية "طما" بسوهاج، عمل محررًا لعددٍ من المجلات، أثار كتابه (الإسلام حائر بين أهله) عاصفة فكرية (أيام الملك فاروق) لوضعه أسسا ومفاهيم لعودة الخلافة والحكم الإسلامي، فظل يتردد على المحاكم ثلاث عشرة جلسة إلى أن حكم القاضي بالبراءة، اعتقل - كغيره من الإخوان المسلمين - أيام جمال عبد الناصر، فقضى أصعب ست سنوات في حياته (1965 - 1970م)، ولم يفرج عنه إلا بعد موت عبد الناصر، توفي عن عمر ناهز التسعين عامًا، وله مؤلفات كثيرة منها: "الإسلام حائر بين أهله"، "المؤامرة على الإسلام في الجزائر". ينظر: <http://www.odabasham.net>

(2) كتابات حول الإمام الخضر حسين، مقال: في سبيل الله والوطن شيخ الأزهر الجديد لمحمد السَّمَّان، (ص 67).

(3) محمد الخضر حسين: حياته وآثاره، (ص 67)

(4) ينظر: جبهة الدِّفاع عن إفريقيا الشَّمالِيَّة، (ص 16).

ومن الصِّفَاتِ التي كانت تُمَيِّزُ الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - ثقته بالله تعالى، وحسن توكله عليه، وأنسه به، فقد كان في مصر وحيداً لا قرابة له، ولا أشياع، ومع ذلك كان يواجه أعتى الصِّراعات الفكرية، وسأله أحد الصَّحَفِيِّين قائلاً: "لقد طال تنقلكم شرقاً وغرباً، ولم يستقر بكم المطاف فترةً طويلةً من حياتكم، فهل كنتم تحسُّون أثناء ذلك باضطرابٍ أو قلقٍ أو وحشة؟ فأجاب في هدوئه المألوف: إنَّ الذي يؤمن بعقيدةٍ أو مبدأ، لا يحسُّ بغربةٍ مهما تنقل وارتحل، ما دام وفيّاً لعقيدته، متمكناً من مبدئه، ولقد طال تطواني في جهاتٍ عديدةٍ من أفريقيا وآسيا وأوروبا، ومَرَّتْ بي فتراتٌ كنت أصبح فيها في مكانٍ، وأمسي في مكانٍ غيره، ومَرَّتْ بي لحظاتٌ فيها سجنٌ وقسوةٌ، وعنفٌ وإتهامٌ وتهديدٌ، وحرمانٌ ومطاردةٌ، ومع ذلك كلِّه كان للمرء أنيسٌ، أي أنيسٌ من ربِّه وإيمانه، ولقد كنت سجيناً في الشَّام، ومع ذلك كنت أرى في النَّوم أحلاماً أَرْضَى بها وأستبشر، وبعض هذه الأحلام تحقِّق مفهوماً، أو ما يقرب منه". (1)

ومن صفاته البارزة: ورعه، وتنزُّهه عن المحارم والمكروهات، ومن مظاهر ذلك أنَّه كان يأبى أن يوقِّع على السَّاعة التي يدْرِسُها إلَّا إذا امتلأت من أول دقيقةٍ فيها إلى آخر لحظةٍ بالتعليم والإفادة، ومعنى ذلك أنَّ السَّاعات التي تذهب ببعضها فوضى الطُّلاب بسبب الشُّؤون العامَّة أو الخاصَّة لم يكن يرضى أن يأخذ عليها أجراً. (2)

وكان - رَحِمَهُ اللهُ - محلَّ ثناءِ العلماء، وتقديرهم، وإجلالهم، وقد مرَّ شيءٌ من ذلك، ومن ذلك ما قاله بعض من ترجم له من معاصريه: "إنَّ السَّيدَ الخضر طرازٌ نادرٌ في هذا الزمن! فهو - على امتلائه بقدر من العلوم والمعارف قلَّما يتيسر لغيره من معاصريه، وعلى نباهة شأنه بين أهل زمانه، حتى إنه ليُعدُّ حجَّةً من حجج الإسلام - هو - على هذا كلِّه - خافضُ الجناح، مصقَّى الخلق، متواضعٌ، يسير في طريقه كما يقف في صلاته، وناسٌ هذا الزمان أعلى رؤوسهم أفرغها، وأرفع أصواتهم أنكرها، فهم كالطُّبول تملأ الدُّنيا ضجيجاً، ولكنك إذا غمزتها بإبرة،

(1) كتابات حول الإمام الخضر حسين، (ص 80-81).

(2) ينظر: الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، (ص 129).

تكشفت لك عن تجويفٍ وفراغ".⁽¹⁾

كما أنَّه - رَحِمَهُ اللهُ - كان على درجةٍ عاليةٍ من الشَّجاعة، بل كانت شجاعته نادرةً، ومع ذلك فقد كانت تلك الشَّجاعة مقرونةً بالحكمة والرَّويَّة، وتدبُّر العواقب، وتقليب الرأي، والموازنة بين المصالح والمفاسد؛ كيف لا، وهو يؤكِّد على أنَّ الأُمَّة لا تحوز مكانةً يهابها خصومها، وتقرُّ بها عين الحلفاء إلا أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة، ولا يكون ذلك إلا حيث تكون قوة الجأش، والاستهانة بملاقاة المكاره، وهو ما يسمَّى الشَّجاعة.⁽²⁾

المواقف التي تُنبئ عن هذه الشَّجاعة في حياة الشيخ كثيرة جدًّا، أقصر على ذكر واحدٍ منها، ولعله أميزها، وهو في آخر عمره، فعندما أُسقط ملك مصر في زمنه، وقامت جمهورية مصر عام 1952م كان أوَّل شيخٍ للأزهر في ذلك الوقت من أصلٍ جزائريٍّ، ولم يكن له حزبٌ أو أشياعٌ، فقبل رئاسة الأزهر، وتعاون مع رجال الثورة، ولكن عندما اصطدمت قناعاته مع بعض الأعمال التي قام بها رجال الثورة؛ مثل الإصلاحات على مستوى الأزهر، وقضية المحاكم الشرعية، وقضية الإصلاح الزراعي في مصر، لم يرضَ الشيخ الخضر عن هذه الإصلاحات، فقدَّم استقالته.⁽³⁾

يقول الدكتور مولود عويمر: "وهذه الاستقالة - كما فسَّرها - هي استقالةٌ سياسيةٌ تختلف عن الاستقالات التي عرفها الجامع الأزهر: وقليلٌ من علماء الأزهر الذين استقالوا في تاريخه، ولكنها كانت استقالاتٌ علميةٌ أكاديميةٌ مرتبطةٌ بإصلاحاتٍ داخل الأزهر، وكان التعيين في مشيخة الأزهر من قبل هيئة كبار العلماء، وأصبح قرارًا سياسيًا، وقلَّما نجد عالمًا يأخذ هذا الموقف السِّياسي، ويرفض هذه المشاريع السِّياسية التي طرحها رجال الثورة في مصر. وأضاف الشيخ الخضر حسين ميزةً عندما قال: "إنَّ شيخ الأزهر لا ينتقل إلى الحاكم"، عندما طُلب إليه

(1) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 161).

(2) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 33).

(3) ينظر: ملقَى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر: محاضرة الإمام محمد الخضر حسين رجل العلاقات والمؤسسات العلمية للدكتور مولود عويمر، (ص 113).

الذهاب لمقابلة الرئيس محمد نجيب، وأعتقد أنَّ هذه ميزة نقلها الشيخ محمد الخضر حسين إلى مصر". (1)

ولعلَّ من أعظم المعالم البارزة في خُلُق الشيخ محمد الخضر ثباته على الودِّ، ووفاءه المنقطع النظير لأصدقائه، ومحافظة على علاقاته بهم، ولا ريب أنَّ الصداقة الفاضلة الطويلة لا تنبت إلاَّ في صدور الأوفياء العقلاء من الرجال.

وخيرُ مثالٍ في هذا الباب صداقته للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور التي استمرت ما يزيد على السِّتِّين عامًا، وكان أساسها صدق المودَّة، ورعاية الحقوق، ورقة الشعور، وحسن التَّدبُّم والوفاء، وحرارة الأشواق، والسلامة من المكدرات، وغير ذلك من المعاني الجميلة، فصارت تلك الصداقة مضرب المثل، حيث زامله في الزيتونة دراسةً، وتوجَّهًا فكريًّا؛ إذ انعقدت بينهما صداقة بدأت سنة 1316هـ، واستمرت إلى فارق الشيخ الخضر الدنيا عام 1377هـ، وكان في محطَّات حياتهما كثيرٌ من التَّشابه. (2)

وكان كثيرًا ما يكتب الشيخ، ويحرص على معرفة أخباره، ويردُّ على خطاباتهِ، ويبعث إليه بأشواقه، وتهانیه في كلِّ مناسبة تحلُّ على الشيخ الطاهر، منها: أنَّه لَمَّا تَوَلَّى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور التدريس في جامع الزيتونة سنة 1323هـ، هنَّاهُ الشيخ محمد الخضر حسين بقصيدة من ستة عشر بيتًا، مطلعها:

مَسَاعِي الْوَرَى شَتَّى وَكُلُّ لَه مَرَمَى وَمَسْعَى ابْنِ عَاشُورَ لَهُ الْأَمَدُ الْأَسْمَى (3)

وبعد هجرة الشيخ محمد الخضر حسين إلى دمشق من تونس سنة 1331هـ بعث صديقه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وهو قاضي القضاة بتونس رسالةً مصدرَّةً بالأبيات التالية:

(1) ينظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر: محاضرة الإمام محمد الخضر حسين رجل العلاقات والمؤسسات العلمية للدكتور مولود عويمر، (ص 113).

(2) ينظر: كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، (ص 25-28)؛ والإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 397).

(3) ينظر: خواطر الحياة، (ص 202).

بُعِدْتُ ونفسي في لقاءك تصيدُ
وَحَلَفْتُ ما بين الجوانح غُصَّةً
وأضحت أُماني القُرب منك ضئيلةً
أتذكرُ إذا ودَّعنا صبح ليلٍ
وهل كان ذا رمزًا لتوديع أنسنا
ألم تر هذا الدهر كيف تلاعبت
إذا ذكروا للودِّ شخصًا محافظًا
إذا قيل: مَنْ للعلم والفكر والتُّقى
فقل ليالي: جددي من نظامنا

فلم يُغنِ عَنْهَا في الحنانِ قصيدُ
لها بَيْنَ أحشاءِ الضُّلوعِ وقودُ
ومُرُّ الليالي ضَعُفُها سيزيدُ
يموجُّ بها أنسٌ لنا وبرودُ
وهل بعد هذا البَيْنِ سوفَ يعودُ
أصابعُه بالُدُّرِّ وهو نُضيدُ
تجلَّى لنا مرآكَ وهو بعيدُ
ذكرْتُكَ إيقانًا بأنَّكَ فريدُ
فحسبُكَ ما قد كانَ فهو شديدُ

وكتب ابن عاشور تحتها: "وهذه كلمات جاشت بها النَّفسُ الآن عند إرادة الكتابة إليكم، فأبثُّها على علَّاتها، وهي إن لم يكن لها رونق البلاغة والفصاحة؛ فإنَّ الودَّ والإخاء والوجدان النَّفسيَّ يترقُّ في أعماقها". (1)

فأجابه الشيخ محمد الخضر حسين بقصيدة؛ من ثلاثة عشر بيتًا منها:

أَيَنْعُمُ لي بالُ وأنتَ بعيدُ
إذا أَجَّجْتَ ذِكرَكَ شوقي أُخْضِلْتُ
بُعِدْتُ وآمادُ الحياةِ كثيرةٌ
بُعِدْتُ بجثماني وروحي رهينةٌ

وأسلو بطيفِ والمنامِ شريدُ
لَعَمْرِي - بدمع المُقلَّتَيْنِ - خُودُ
وللأمدِ الأسمى عَلَيَّ عُهُودُ
لديكَ وللودِّ الصَّميمِ قُيُودُ (2)

وهكذا نقف على عظم المحبة والموودة التي نشأت بين هذين العَلَمَيْنِ الجليلين، بدءًا من عهد الطَّلَب، وانتهاءً بافتراق الرجلين كلُّ منهما في قُطر، وهي تشير إلى الاحترام وتقدير العلم عنده، ونزعة الإصلاح التي يميل إليها الشيخ الطاهر، ويشاركه فيها محمد الخضر حسين، وهي أولاً وآخرًا مظهر رفيع من مظاهر حفظ الودِّ عند الشيخ محمد الخضر، ومدى اجتهاده في المحافظة

(1) خواطر الحياة، (ص 63).

(2) المرجع السابق، (ص 64).

على هذه الرابطة العزيرة، حتى مع كثرة الأشغال، والتَّنْقُل والتَّرحال، ليحفظ لنا التاريخ صفاتٍ جليلة القدر، عظيمة الشأن.

وبالجملة فإنَّ أخلاق الشيخ الخضر ومناقبه كثيرةٌ جدًّا، وسيرته حافلةٌ بما يؤكِّد ذلك، وهي تعبيرٌ حقيقيٌّ لأصول السَّيرة الحسنة التي بها يكون الداعية المسلم قدوةً طيِّبةً، وأنها ترجع إلى هاذين الأصلين العظيمين: حسن الخلق، وموافقة العمل للقول.

المطلب الثاني: كثرة الكتابة عن الأخلاق.

لقد تبوّأت الأخلاق منزلةً عاليةً عند الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ -، وتتجلى هذه الأهمية في كثرة الكتابات والأبحاث عن الأخلاق، مكارمها ومساوئها، وعن مكانتها في الإسلام، وعن أصولها، وكانت هذه الكتابة إمّا استقلالاً حيث أفردتها بالتأصيل والبيان، أو من خلال شرح لجملةٍ من هذه الأخلاق، أو ضمن موضوعاتٍ أخرى، فهي حاضرةٌ عنده على كلّ حالٍ؛ لما يعتقده من أهميّة الأخلاق عند الدّاعية، وما تتبوّأه من مكانٍ سامقٍ، ومنزلةٍ عظمى في الإسلام. وفيما يلي بيانٌ لمطابّر حديث الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - عن الأخلاق، مرتبةً حسب ورودها في موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ:

(الغيبة وأثرها في النفوس)، (فساحة الصّدْر ونزاهة اللسان عن المكروه)، (الرفق بالضعفاء)، (زينة الإنسان حسن السّمت)، (السّمُو الخُلُقِيّ في الإسلام)، (المروءة ومظاهرها الصّادقة)، (الشّجاعة)، (إباءة الضيم وأثرها في سيادة الأمم)، (عِظَمُ الهِمّة)، (صدق اللهجة)، (فضيلة الإخلاص)، (الإنصاف الأدبي)، (الأمانة في العلم)، (الشّجاعة وأثرها في عظمة الأمم)، (كبر الهِمّة في العلم)، (الدهاء والاستقامة)، (العزّة والتواضع)، (المداراة والمداهنة)، (الرفق بالحيوان)، (متى تكون الصّراحة فضيلةً)، (جيلٌ يؤمن بالأخلاق)، (شجاعة العلماء وإنصاف الأمراء)، (مناهج الشّرف)، (السّخاء وأثره في سيادة الأمّة)، (الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية)، (فقدان الحياء بين النّساء هو السبب في أزمة الزواج)، (النفاق والملق والمداراة أمام الحكام)، (الحِكْمَة وأثرها في النفوس)، (كبر الهِمّة)، (الأخلاق).

المطلب الثالث: حديث الأخلاق بين التأصيل والتطبيق.

مرَّ معنا أنَّ حديث الأخلاق كان حاضراً عند الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - كمَّا وكيفًا، وقد تنوَّع بين التَّنْظِير والتَّأْصِيل، ببيان منزلة الأخلاق في الإسلام، وآثارها الحسنة، وغير ذلك، وبين التَّطْبِيق العملي لها، حيث ذكر جملةً من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وتعرَّض لها بالشرح والتفصيل، وبيان أثرها على الفرد والجماعة.

أمَّا في الجانب التأصيلي فهو يرى أنَّ أصول الفضائل ومكارم الأخلاق هي من يقيم صرح العمران، ويحوز الناس بها مدنيَّةً فاضلةً، ويغنموا بها في الآخرة سعادةً خالصةً. (1)

ويرى أنَّ "العبادات والمعاملات لا تجري على وجهٍ صحيحٍ منتظمٍ، إلا أن تصدر عن آدابٍ نفسيَّةٍ نبيلةٍ راسخةٍ، فكان من حكمة الدعوة أن تُعنى بتهذيب الأخلاق، ولا تكتفي بتقرير أحكام الأفعال التي هي مناط التكليف، وبهذا أخذ النَّظَر في الأخلاق والآداب النفسية من علوم الشريعة مكاناً واسعاً". (2)

ويقول إنَّ: "شؤون الأمم شتَّى، وأعزُّ شؤونها مكارم الأخلاق" (3)، و "أنَّ من أصول سعادة الأمة سموُّ أخلاقها، لتستقيم أعمالها، وتنتظم المعاملات بينها". (4)

ويرى أنَّ أول وسيلةٍ لتكوين الأمة الصَّالحة تقويم أخلاق أفرادها وجماعتها، فيقول: "إنَّ عناية الإسلام بالنَّاحية الخُلُقِيَّة للفرد والجماعة من أبرز النواحي التي تناولتها نصوصه؛ لأنَّ من أكبر مقاصده: تكوين الأمة الصَّالحة، وأوَّل وسائل ذلك: تقويم أخلاق أفرادها وجماعاتها، وحسن توجههم إلى كل ما يرضي الله - وَجَّكَ - من مكارم الأخلاق". (5)

(1) محاضرات إسلامية، (ص 162).

(2) المرجع نفسه.

(3) رسائل الإصلاح، (ص 49)

(4) المرجع السابق، (ص 131)

(5) أحاديث في رحاب الأزهر، (ص 96)

ويجثُّ الدعاة إلى الإسلام بأن يكونوا أوَّل من يتحلَّى بمكارم الأخلاق، فيقول: "وهذه المزية - ويقصد بها براعة البيان، وحسن التصرف في القول - تستدعي أن يكون أول القائمين بالدعوة إليه - أي إلى دين الإسلام -، والجهاد في إنقاذ ما جاء من إصلاح، ذوي أخلاقٍ عظيمة، من نحو: الشَّجاعة، والصَّبْر على المشاق، وقَلَّة التَّعلُّق بالتَّرف وزخارف الحياة". (1)

وفي السياق نفسه يقول: "وإصلاح الأخلاق بالمقالات العامة نافع، وأقرب الوسائل في تربيتها أن يركبها المصلح في طبيعة كلِّ شخصٍ بعينه، فكثيرٌ من النَّاس يتعلَّم الأخلاق الحميدة، ولا يشعر بأنه عارٍ من حليتها، وقد يدرك حقيقة الخلق الحسن وحقيقة ضده نظرياً، وتتشابه عليه صورهما في الواقع، فلا يكاد يفرق بينهما:

وَفِي النَّاسِ مَنْ عَدَّ التَّوَاضُّعَ ذِلَّةً وَعَدَّ اعْتِزَالَ النَّفْسِ مِنْ جَهْلِهِ كِبَرًا (2)
ومن هنا كانت تربية الأبوِّين الصَّالحين أرسخ أثراً من الأدب الذي يتلقَّاه النَّاشئ من الدَّرس أو الكتاب". (3)

ويقول: "إنَّ المعاهد والمدارس التي يدرِّس فيها علم الأخلاق، ويكون رؤساؤها وأساتذتها أنفسهم مثلاً كاملةً للأخلاق الرَّاقية، هي الكفيلة بأن تُخرج لنا نشئاً نباهي بسموِّ أخلاقهم، قبل أن نباهي بغزارة علومهم، ورجاحة عقولهم، وطلاقة ألسنتهم". (4)

ويعرض لبعض العلل التي استدعت أن يكون العرب أوَّل من يظهر الإسلام في ديارهم، ويحملوا رايته لغيرهم، فيجعل من بينها ما كانوا عليه من أخلاقٍ ساميةٍ فاقت سائر الأمم، ويقول: "إذا نظرنا إلى الأُمَّة العربية من الوجهة النَّفسية، نجد أنها امتازت بأخلاقٍ ساميةٍ فاقت

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 159)

(2) ذكر الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - في غير هذا الموضع أنَّ البيت للشيخ محمود قبادو التونسي، وقد تحدَّث عنه في مقال (نظرة في أدب الشيخ محمود قبادو التونسي) منشور بمجلة "الهداية الإسلامية"، الجزء الثامن من المجلد السابع الصادر في صفر 135 هـ. ينظر: تونس وجامع الزيتونة، (ص 105).

(3) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 56).

(4) المرجع السابق، (ص 76).

فيها غيرها من الأمم؛ فقد كان العرب في الشَّجاعة والاستهانة بالموت في أقصى ذروة، تشهد بهذا أشعارهم في الفخر بالإقدام والبسالة، ثم تاريخهم المملوء بوقائع الحروب، وحديث الأبطال الذين يُؤثرون الموت في عزٍّ على الحياة في هونٍ، ويتَّصل بالشجاعة: ما كانوا عليه من إباء الضَّيم، وعزّة النفس، ومن يأبى الضَّيم، ويحمل في نفسه عزّةً، يقف في الدِّفاع عما يراه حقًّا أو إصلاحًا موقف الطُّود الرَّاسخ، لا يخضع له عُقْبٌ، ولا يتزلزل له قدمٌ". (1)

ويوعز الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - إلى قوة تأثير الطِّباع الراسخة، والأخلاق الفاضلة على الإرادات والأعمال، ويحمِّلها مسؤوليةً كبيرةً في توجيه تصرفات الناس، وإقبالهم أو إدبارهم، فيقول: "وللطباع الراسخة أثرٌ في المسابقة إلى الأعمال، أو التَّباطؤ عنها؛ كسجية الكرم تنهض بالأمة إلى إنشاء الجمعيات العلمية، وتبسط أيديهم بالبذل في سبيل المشروعات الخيرية.

ومما ينبِّهك على أنَّ للأخلاق سُلطاناً على الإرادة: أنَّك ترى المسلم يعتقد بفريضة الزكاة، ويقرأ ما يناله في تركها من عذابٍ، ثم لا يكون منه إلا أن يقبض يده عن قضاء واجبها؛ مطاوعةً لداعية الشُّحِّ، وإيثاراً للذة العاجلة على السَّعادة الباقية، وإذا كانت السَّجايا مُيسَّرةً للأعمال، ومُساعدةً على صدورها بسهولة، دخل في وظيفة المصلح الدعوة إلى نبذ الأخلاق السَّافلة، والتَّحلي بالأخلاق الفاضلة". (2)

ويعدِّد أصول الإصلاح الاجتماعي، فيجعل منها الأخلاق الكريمة، قائلاً: "وأما أثر الأخلاق في رقيِّ الاجتماع، فإنَّ كلَّ حُلُقٍ يسدُّ ثغرةً في بناء المجتمع لا يسدُّها غيره، فالحاجة إلى إقامة المشروعات الكبيرة ثغرةً لا يسدُّها إلاَّ حُلُق السَّخاء، والحاجة إلى دفاع البُغاة ثغرةً لا يسدُّها إلاَّ الشَّجاعة، ورباطة الجأش، والحاجة إلى حريّة الدَّعوة إلى الحقِّ لا يسدُّها إلاَّ إقدام الدَّعاة، وحِلْم أولياء الأمور وأناهم". (3)

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبِيِّين، (ص 160).

(2) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 55-56).

(3) المرجع السابق، (ص 75).

وقد ردَّ - رَحِمَهُ اللهُ - أصول الأخلاق التي تساعد على القيام بالواجبات العملية إلى ثلاثة عشر خُلُقًا هي: الحِلْم، والسَّخَاء، والشَّجَاعَة، والحياء، وصدق اللِّهْجَة، والصَّبْر، وعزَّة النَّفْس، والتَّواضع، وكِبَر الهِمَّة، والوفاء بالعهد، والرُّهْد، والعدل، والأمانة. (1)

ويقرِّر الشيخ أنَّ: "بين الأخلاق روابط، وكثيرًا ما يكون بعضها وليد بعض؛ كالعدل قد يكون وليد القناعة، وكالشَّجَاعَة قد تكون وليدة عزَّة النَّفْس، وكالجُبْن قد يكون وليد الطَّمَع، وكذلك خلق العناد وعدم الإذعان للحقِّ قد يكون وليد الحسد". (2)

وهكذا نلمس الاهتمام الكبير للشيخ بالتَّأصيل للمنهج الأخلاقي في الإسلام، ولا تأتي فرصة للتنبيه عليها، وبيان منزلتها إلا واغتنمها، مما يدلُّ على مكانة الأخلاق في فكر الشيخ الإصلاحِي.

(1) محاضرات إسلامية، (ص 162).

(2) رسائل الإصلاح، (ص 105).

المطلب الرابع: مكارم الأخلاق وأثرها على الفرد والجماعة.

ذكرتُ - سابقاً - أنَّ الحديث عن الأخلاق عند الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - تميَّز بالطابع التَّأصيلي التَّنظيري، وقد مضى الكلام عنه، واكتسب - أيضاً - الطابع التَّطبيقي، والمقصود بذلك: ذكر الفروع المتعلقة بمكارم الأخلاق ومساوئها، وتفصيل القول في مفردات هذه الأخلاق، حيث تناول عدداً منها بالشرح والتفصيل، وبيان معانيها اللغوية والشَّرعية، وأقسامها، ومكانتها، ولكن ما ميَّز حديث الشيخ عن هذه الأخلاق هو التركيز على أثرها على الفرد والجماعة، وتقرير الحِكم والمقاصد الناتجة عن التَّحلي بها.

ولستُ في هذا المطلب معنيّاً بالكلام عن هذه الأخلاق، وشرح معانيها، وبيان تفاصيلها⁽¹⁾، ولكن القصد إيراد تقارير الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - فيما يتعلق بالثمار الياينة، والآثار الطيبة التي تترتب على محاسن الأخلاق، وجميل الآداب، ومن جملة ذلك:

أولاً/ بيانه أنَّ لفضيلة الصدق ثماراً وآثاراً طيبةً على الفرد، والمجتمع:

أمَّا الفرد فإنَّه يشرف قدره، وتطيب حياته، ويصفو به: وشرفه في كون الصدق دالاً على نقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل، كما أنَّ الكذب عنوان سفَه العقل، وسقوط الهمة، وخبث الطوية، ولا يستقيم لأحدٍ سوءدُّ، أو يحرز في قلوب الناس مكانة، إلا حيث يهبه الله لساناً صادقاً. (2)

وطيب العيش في اطمئنان النَّاس إلى معاملة الصادق الأمين، وشأنهم الانصراف عن ألفوه يضع الكلمة في غير واقع، فالصدق يُكسب الرجل وقاراً، ويلقي له المودة في عشيرته والنَّاس أجمعين.

ومتى سار الإنسان في طريق الصِّدق، وأقام بينه وبين الكذب حصناً مانعاً، عاش في صفاء خاطرٍ، وراحة ضميرٍ، ومن يلطِّخ لسانه برِجس الكذب، لا بدَّ من أن تبدوَ سريرته، ويجرَّ عليه

(1) فقد مرَّ ذكرها في الفصل الأول المتعلق ببيان جهود الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - فيما يتعلق بواجبات الداعية.

(2) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 70).

شؤم هذه الرذيلة شقوةً، فلا يلاقي من النَّاسِ إلا ازدراءً، وربما رموه بالتوبيخ في وجهه، أما صادق القول، فإنه يظل صافي الكرامة، آمنًا من مثل هذا الخطاب المشين. (1)

وأما أثر صدق اللهجة في سعادة الجماعة فقد ذكر الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ الجماعة تسعد وتنظم شؤونها على قدر احتفاظها بفضيلة الصدق: فالمعاملات؛ كالبيع، والإجارة، والقرض، والشركة لا يتسع مجالها ويستقيم سيرها إلا أن تُديرها لهجة صادقة، والأمة التي تسود فيها فضيلة صدق اللهجة، حتى يكون القائم بأي عمل موضع ثقة الجمهور، تتقدم حالتها الاقتصادية، ولا يجد عدوها الوسيلة إلى مزاحمتها في نحو التجارة والصناعة، والصدقات التي تجعل أفراد الأمة كالجسد الواحد، إنما يشتدُّ رباطها على قدر ما يكون لهؤلاء الأفراد من الاحتفاظ بصدق اللهجة". (2)

ثانياً/ أدب الشجاعة، ومما ذكره عن مظاهرها وآثارها: أنَّها تدعو الرَّجُلَ إلى أن يؤدِّي الشهادة على نحو ما علم، دون أن يهاب عند أدائها ذا جاهٍ أو سطوة، وأنَّ القاضي لا ينتظم له عدلٌ حتى يتحلَّى بالشجاعة الأدبية؛ إذ هي التي تساعد على أن يقضي للضعيف على القوي، وبها يقف الرَّجُلُ في حدود ما يعلم، فيصدر فتواه في صراحةٍ، لا يقول غير ما يعلم، ولا يرتكب طريق المواربة (3) إرضاءً لذي وجهة أو سلطان، ويحدثنا التاريخ عن فتنة خلق القرآن، وأنَّ الإمام أحمد بن حنبل - رَحِمَهُ اللهُ - كان المثال الكامل للشجاعة الأدبية، فلم يجبن كما جبن غيره أمام السلطان، ولم يسلك كما سلك غيره طريق الإبهام في الجواب، بل قال: إنَّ القرآن كلام الله، واحتمل في سبيل ذلك السِّجْنَ والضرب بالسياط. (4)

ثالثاً/ وأما عن العفو فقال: "ووجه ارتباط خُلُقِ العفو بما دعا إليه الإسلام، هو أنَّ من

(1) رسائل الإصلاح، (ص 71).

(2) المرجع السابق، (ص 72).

(3) المواربة: المداينة والمخاتلة، مأخوذة من الإرب، وهو الدهاء، فحولت الهمزة واوا. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، (187/15).

(4) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 36-37).

مقاصد الدَّعوة تكوين أُمَّةٍ مؤتلفة القلوب، متعاونةٍ على البرِّ والتَّقوى، ولا يمكن تحقيق هذا القصد إلا أن تنتفي أسباب التَّجافي والتقاطع، وحيث كانت الجماعات الكبيرة لا تخلو من أن يتعرض طائفة لطائفة بمكروه من قولٍ أو فعلٍ، كان من الآداب التي عنيت بها دعوة الإسلام: الإغضاء عن أمثال هذه الهفوات، وشمولها بالعفو⁽¹⁾.

رابعاً/ وعن آثار حُلُق الحِلْم قال: "ولِلحلم - بمعنى عدم إظهار الغضب - أثرٌ عظيمٌ في نجاح السياسة:

وَلَرُبَّمَا ابْتَسَمَ الْكَرِيمُ مِنَ الْأَذَى وَفُؤَادُهُ مِنْ حَرِّهِ يَتَأَوَّهُ⁽²⁾
وقد عدَّ الحِلْم - بمعنى الإغضاء عن بعض الزَّلَّات - في مقتضيات السِّياسة الرشيدة، قال الشاعر في وصف سياسة أميره:

أَنَاةٌ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَّبَ بَعْدَهَا وَعَيْدًا فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ عَزَائِمُهُ⁽³⁾
وفي عهد ذوي الحِلْم والأناة من رجال الدَّولة يجد المصلحون مجال الدعوة أمامهم فسيحاً، فيعملون في طمأنينة وثقةٍ من إدراك أسمى المقاصد، وأحمد العواقب⁽⁴⁾.

والحِلْم: "يقطع شراً لو قبل بمثله لتمادى، أو عظم خطره... وبالحلم يحفظ الرجل على نفسه عزَّتها، إذ يرفعها عن مجارة الطائفة التي تلذ المهاترة⁽⁵⁾ والإقذاع⁽⁶⁾... ومن فضل الحلم أن الرئاسة صغيرة كانت أو كبيرة؛ لا ينتظم أمرها إلا أن يكون الرَّئيس راسخاً في خلق الحِلْم... ثم

(1) محاضرات إسلامية، (ص 163-164).

(2) وجدت البيت من غير نسبة في أكثر المصادر، وقيل هو لعلبي بن أبي طالب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وقيل هو للأحنف بن قيس، ويقولون: إنه أحكم بيت قالته العرب. ينظر: شرح مقامات الحريري للشريشي، (214/3).

(3) البيت لإبراهيم بن العباس الصولي، ذكره العسكري في الأوائل، (ص 269)؛ والقلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (296/6).

(4) محاضرات إسلامية، (ص 164).

(5) المهاترة: يقال: تهاثر القوم تهاترا ومهاترةً: إذا ادَّعى كل واحدٍ منهم على صاحبه باطلاً، وقيل: القول الذي ينقض بعضه بعضاً. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، (128/6).

(6) الإقذاع: رمي الغير بالفُحش من القول. ينظر: المرجع الساق، (144/1).

إن أَعَزَّ غاية تعمل لها الجماعات: التَّمَتُّعُ بنعمة الحرِّية، ولا تظفر الجماعات بهذه البُغْيَةِ إلا أن يكون الماسك بزمام سياستها على جانبٍ عظيمٍ من الحِلْم؛ فإنَّ الحليم هو الذي يُقَدِّم النَّاسُ على نقد تصرفاته، ويصِرِّحون له بأرائهم فيما لا يرضون عنه من أعماله... وأعظم فوائد الحِلْم: الفوز برضا الخالق - جل شأنه-؛ فإنه قد دعا إليه في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: 63]. (1)

خامساً/ وأما خلق السَّخَاء: "فإنَّ من مقاصد الشَّريعة سدَّ حاجات الفقراء، وإعانتهم على القيام بتكاليف الحياة، ومن أجل هذا فرضت الزكاة، وندبت إلى الصدقات، وقررت بعد هذا على الرجل حقوقاً مالية؛ كالإنفاق على الزوجات والأبناء وبعض ذوي القربى، فلا جرم أن يُعْنَى الإسلام بتطهير النفوس من رذيلة الشُّحِّ، وتحليتها بفضيلة السَّخَاء، حتى إذا ورد الأمر بالإنفاق في وجهٍ من الوجوه، سارعت إلى امتثاله عن طيب خاطرٍ، وجاءته كأعنا تنحطُّ من صَبَبٍ". (2)

بل اعتبر الشيخ أنَّ من أسباب العاقبة السيِّئة التي سار إليها كثيرٌ من الشعوب الإسلامية؛ انقباض الأيدي عن البذل في سبيل الله. (3)

سادساً/ أمَّا الحياء، والصبر، والعزَّة، والوفاء بالعهد فعَدَّد الشيخ آثارهم بقوله: "والواقع أنَّ الحياء حليَّةٌ يزداد بها الشيخ وقاراً، والشابُّ كياسةً... ومن مزايا الصبر: أن يساعد الإنسان على الاقتصاد في معيشته، ويحميه من أن يقع في غمِّ الدين ومذلَّته.

وأما العزَّة، وهي أن يعرف الإنسان قدر نفسه، ولا يرضى لها أن تُمسَّ بإهانةٍ، فإنَّ من مقاصد الشَّريعة: أن تتمتَّع الأمةُ بحياةٍ طيبةٍ، ولا حياةٍ طيبةٍ مع احتمال الدِّلة، ومن مقاصدها:

(1) الهداية الإسلامية، (ص 110-111-112-113) -بتصرفٍ-.

(2) محاضرات إسلامية، (ص 164).

(3) المرجع نفسه.

أن تكون للأمة دولةً قويّة السُّلطان، مهيةً الجانب، وخلقُ العزّة هو الذي يمنعها من أن تخفض جناحها لمن يريد أن يسومها ضيمًا، وخلقُ العزة يدعو الإنسان إلى تحنُّب كل ما قد يجرُّه إلى مهانةٍ، فقد يَنْبِهُ الموظف لأن يقوم بالمهمة التي تُناط به كراهةً أن يسمع عتابًا جافيًا من رئيسه المسؤول عنه، وخلقُ العزّة يَنْجِه الإنسان القادر على العمل إلى أن يعمل ويصرفه عن التَّشَوُّف إلى ما في أيدي الناس.

وأما الوفاء بالعهد، فمن أعزَّ الأخلاق التي رفع الإسلام شأنها، وشدَّد الوعيد على الإخلال بها، فأوجبه على الأفراد لتهذيب نفوسهم، وإصلاح معاملاتهم، وأوجبه على رجال الدولة لتثق الدول بمعاهداتهم، ويستقيم أمر سياستهم". (1)

وهكذا يجتهد الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - في التنبيه على الأخلاق كلّما سنحت الفرصة بذلك، وبيان ارتباطها بالهداية الإسلامية، وسمو مكانتها، وآثارها الحميدة على الفرد والجماعة، لتطيب أنفس الناس بالتَّجَمُّل بِحِلْيَتِهَا، ويحرصوا على أن يجعلوها شعارًا ودثارًا.

(1) محاضرات إسلامية، (ص 166-167-168-169) -بتصرفٍ-.

المبحث الخامس: قضايا اللغة العربية.

من القضايا التي حرص الإمام محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - على توجيه العناية الفائقة لها: علوم اللغة العربية وآدابها، حيث بدأ حياته العلمية بإتقانها ودراستها، وتفوق في ميدانها تفوقاً ظاهراً، ورافقه هذا الإبداع والتَّميُّز في كلِّ نشاطاته وحياته العلمية، ويمكن إجمال جهود الشيخ في خدمة القضايا اللغوية المتعلِّقة بالدعوة والإصلاح فيما يلي:

المطلب الأول: اهتمامه بقضايا اللغة العربية تأصيلًا وتطبيقًا.

ومن أبرز القضايا اللغوية التي عُني بها الشيخ: إصلاح متن العربية، وكيفية تطوير معجمها، وفضل العربية، وآليات حياتها ونموّها، ومعالجة مشكلة العاميّة، وقواعد وضع المصطلحات العلمية وتوحيدها، ومسألة مفهوم النحو العربي، وقضايا إصلاحه وتيسيره، والقياس في اللغة، وغير ذلك من المسائل التي تخدم لغة القرآن، وتستهدف تنميتها، وتحديد بنائها حتى تواكب مستجدات العصر، وتحفظ مقومات الأمة الإسلامية.

ومن مظاهر هذه العناية أنّ من أوائل بحوثه - رَحِمَهُ اللهُ - في تونس: محاضراته (حياة اللغة العربية)⁽¹⁾، وقد تناول فيها دلالة الألفاظ، وتأثير اللغة في الهيئة الاجتماعية، وأطوار اللغة، وفصاحة مفرداتها، واتساعها، وارتقاءها، وقال في مقدمتها: "فالغرض إنما هو البحث عن حال اللغة في حدّ نفسها من جهة أطوارها، ومحكم وضعها، واتساع نطاقها، وارتقاءها مع المدنية، وما يشاكل ذلك".⁽²⁾

وبعد هجرته إلى دمشق، وقع تعيين الإمام عضوًا عاملاً في (المجمع العلمي العربي) الذي عقد جلسته الأولى في 30 جويلية 1919م، واستمرّ في عضوية المجمع حتى انتقاله إلى القاهرة، وبقي عضوًا مراسلاً فيه.

وفي القاهرة صدر مرسوم بتعيين الإمام عضوًا عاملاً عند أوّل التأسيس لمجمع فؤاد الأول للغة العربية (مجمع اللغة العربية) سنة 1933م، وشارك في لجانه: الآداب والفنون، المعجم الوسيط، الأعلام الجغرافية، دراسة معجم المستشرق (فيشر) المتعلق بالألفاظ القرآنية، وبحوثه اللغوية منشورة في مجلة المجمع من مقالاتٍ ومحاضراتٍ وتعليقاتٍ، وشارك في عدة مؤتمرات لغوية.

ومن أهم عطائه اللغوي: بحثه (القياس في اللغة العربية) الذي نشره تبعاً في مجلة المنار سنة

(1) محاضرة ألقاها سنة 1327 هـ في جمهور غفير من الأدباء وأساتذة اللغة العربية في (الجمعية الصادقية) كبرى الجمعيات الأدبية في تونس، عندما كان مدرساً بجامع الزيتونة. ينظر كتاب: دراسات في العربية وتاريخها، (ص 117).

(2) المرجع السابق، (ص 119).

1922م، والذي نال به عضوية هيئة كبار العلماء بالقاهرة سنة 1950م، وضُمَّت لغويَّاته في كتابين: (دراسات في العربية وتاريخها)، و(دراسات في العربية)، كما أنشد قصائد مطولةً وعديدة حول مكانة اللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى العناية بها، واعتماد الفصحى، وبقي عضوًا بارزًا من أعضاء المجمع العاملين بجدٍّ وإخلاصٍ حتى تاريخ وفاته - رَحِمَهُ اللهُ -⁽¹⁾.

ولا غرو أن يكتب الشيخ الخضر في اللُّغة، فهو إمامٌ من أئمتها، وفارسٌ لا يُشَقُّ له غبارٌ في شئٍ علومها، وهو الذي وجَّه اهتمامًا خاصًّا إلى لغة القرآن، وذلك في المجلَّات التي أصدرها، أو ترأس تحريرها، حيث أفرد للغة أبوابًا ثابتةً، ودعا للكتابة فيها رجال اللغة والأدب، كما نفى الغبار عن أساليب اللغة في العصور المتأخرة، وألبسها ثيابًا جديدةً رائقةً.

(1) ينظر: مقدمة موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ محمد الخضر حسين بقلم المحامي: علي الرضا الحسيني، (ص 20-21).

المطلب الثاني: أثر اللغة في نجاح الدعوة إلى الإصلاح: (1)

يقرّر - رَحْمَةُ اللَّهِ - أنَّ العالم المتقن للعلوم المعدودة في وسائل السعادة يعدُّ من أركان نهضة الأمة، تنشرح الصدور لبقائه، وتحزن القلوب لفقده، ولكن العلم الذي يضيف إليه صاحبه الحِذْق في صناعة الأدب، يكون فضله أظهر، وأثره أقوى وأشمل؛ لأنَّ العالم الأديب يجذب إلى مجالسه الأذكياء من الطُّلاب، فيبذر علومه وآراءه في عقول خصبة، ويساعده على أن يقرّر الحقائق بعبارات رصينة أنيقة، ويصوغ المعاني في عبارات تألفها أذواق السَّامعين أو القارئین، وتُحوي إليها أفئدتهم، فيكون لها في نفوسهم أثر لا يوجد مع العبارات الخالية من روح الأدب. (2)

ويرى أنَّ للأدب العربي أثرًا في نجاح الوعظ، وفي سرعة استجابة القلوب لملاحظة ما تحويه القصّة، وللأدب أثرٌ في أن تستقرَّ الآراء العلمية في نفوسٍ كانت قد عُرضت عليها في غير أسلوبٍ أدبيٍّ، فلم تسكن إليها. (3)

يقول - رَحْمَةُ اللَّهِ -: "فالأديب يُحسن عقد المشابهة بين المعقولات والمحسوسات، أو بين المعاني الخفيّة والمعاني الجليّة، ويجيد الاقتباس من آيات القرآن الحكيم، ويضع الأمثال في المقامات الشبيهة بمواردها، وهو الذي يريد أن يتحدّث عن المعنى الواحد في المقام الواحد مرّاتٍ متعدّدة، فيستطيع أن يعبر عنه في كلّ مرّةٍ بطريقٍ يعرضه عليك في صورةٍ جديدةٍ، فتجد من الارتياح له ما لا تجده عندما يأتيك في صورته التي عرفته بها أول مرّةٍ". (4)

ثم إنَّ "في النَّاس من يَرُدُّ عليه الباطل في زُخرفٍ من القول، فيحسبه حقًّا، وتعرّض له الشُّبهة في حليةٍ من محاسن البيان، فلا يرتاب في أنّها حُجَّةٌ؛ ذلك لأنّه يتخيّل أن بين البراعة في القول، والسَّداد في الرأي صلةٌ لا تنقطع، فلا تراه يزن المعاني بميزان المنطق ليعلم صحيحها من

(1) وهو عنوان مقال منشور بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء الأول من المجلد الثامن.

(2) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 65).

(3) المرجع السابق، (ص 66).

(4) المرجع نفسه.

سقيمها". (1)

فإن كان أمر البراعة في البيان وتحبير القول سبيلاً لعصبة المضللين على المستضعفين، فإنه من الميسور لدعاة الإصلاح أن يسابقوهم في مضمار البراعة، فإنهم متى ألبسوا الدَّعوة إلى الحقِّ والفضيلة أساليب بديعة، أحرزوا الغاية، وأنقذوا أولئك المستضعفين من ضلالٍ بعيدٍ، ولهم الأسوة والقدوة في رسول الله - ﷺ -، فإنه كان يتخير لإبلاغ رسالته الملوك والرؤساء من عُرفوا بالحكمة، وفصاحة اللهجة. (2)

يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "وإذا اتَّخَذَ بعضُ الكُتَّابِ أو الخطباءِ أدبَ اللُّغةِ سلاحاً يقطعون به سبيلَ الخيرِ والفلاح، أفلا يجدر بدعاة الحقِّ والفضيلة أن يسبقوا إلى تقلُّدِ هذا السِّلاحِ، ويغوصوا في علمِ الأدبِ إلى غايةٍ بعيدةٍ، ويعملوا لإعلاء شأنِ هذا العلم، حتى تُخرجَ لنا المعاهد الدِّينية والمدارس العلمية رجالاً يوردون الحجج في أساليب سائغة، ويزيحون عن الشُّبه والمغالطات ما تضعه على وجوهها من صبغةٍ خادعة". (3)

(1) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 66).

(2) ينظر: المرجع السابق، (ص 67).

(3) المرجع السابق، (ص 68).

المطلب الثالث: اللغة من أبرز مقومات الأمة.

يرى الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ اللغة من أبرز مقومات الأمة، وإحدى ركائز هويتها، وأقوى عوامل وحدتها الوطنية، ولهذا ترى الداعي إلى الوحدة الوطنية يسعى في تعليم لغة الوطن، وتعميم نشرها، حتى تكون هي اللغة الجارية في خطاباتهم، ومتى أهملت الأمة لغتها، وزهدت في تعلُّمها، انفصمت عُرى جامعتها لا محالة، فإذا قام منادٍ يدعو أُمَّةً إلى نبذ لغتها، وأن تستبدل بها لغةً أخرى، فإنما يريد انقسام وحدتها، وإخراجها من صيغة جنسها. (1)

ويؤكد الشيخ على قوَّة الصِّلَة بين اللغة والمجتمع، وأنَّ التوافق في اللُّغة مما يزيد العلائق التي تؤلِّف النَّاسَ في نُظُمِ الاتحاد قوَّةً ووثوقاً، فالشَّخص الذي يُحِلُّ بين أقوامٍ يجهل لغتهم، يبقى منفرداً عن جامعتهم، غير معدودٍ في زمرتهم، وتتوعَّر أمامه الطُّرق الموصلة إلى انخراطه في سلكهم، وتبادل المنافع معهم، فإذا تعلَّم من لسانهم ما يطَّلَع به على آدابهم وعوائدهم ومعارفهم، انعقدت بينه وبينهم صلة التَّعارف والمعاشرة، وأصبح عضواً متَّصلاً بهم، عاملاً في هيئة مجتمعهم، هذا ما ينشأ عن مجرد حفظ اللغة. (2)

واللغة إحدى مرتكزات النهضة، وأبرز وسيلة لرفيِّ الأمة، ودوام حضارتها، يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "لن تتقدَّم أُمَّةٌ في معارج النهضة والرُّقي إلا بوسيلة لغتها، وعلى قدر ما تحتفظ بلغتها ترتقي في حياتها الأدبية، فَمَثَلُ اللُّغةِ مع حال الأمة كالمثاقيل التي توضع في مقابلة الموزون، فبحساب ما ينقص من اللُّغة، ينزل ما يقابلها من حال الأمة إلى دَرَكِ الشَّقَاءِ؛ إذ لا يؤثِّر على إحساسهم في تذكيرهم بمجد الآباء، أو يهيج بعواطفهم إلى الاتحاد، والأخذ بوسائل السَّعادة غير لغتهم الراقية، واعتبر في ذلك ببلاد الأندلس؛ فإنَّ من أسباب سقوطها، ونزع أيدي المسلمين من ولايتها: ضَعْفُ اللُّغةِ العربية عندهم، ومسوخ صورتها بما خالطها من

(1) ينظر: دراسات في العربية وتاريخها، (ص 123).

(2) المرجع السابق، (ص 121).

- الكلمات والأساليب التي لا تطابق وضعها، ولا تحملها طبيعته".⁽¹⁾
ويصفها أنها: "وسيلة من وسائل الارتقاء وسعادة الحياة".⁽²⁾

(1) دراسات في العربية وتاريخها، (ص 123).
(2) المرجع السابق، (ص 161).

المطلب الرابع: ارتقاء اللغة مع المدنية.

يقرّر الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّ اللغة العربية لم تبقَ حبيسة المعاني القديمة، واقفةً أمام ما يجدُّ ويحدثُ ناظرةً غيرِ مؤثّرة، بل سايرت التّطور بعد انتشار الإسلام، ودخل فيها من الألفاظ ما يوافق حاجة الناس في مختلف المجالات والعلوم، واقتبست من سائر اللغات لتحقيق المقاصد المرجوة منها.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "يعلم كلُّ من له حظٌّ من تعاليم هذه اللّغة أَنَّ موضوعاتها لم تقف عند الحدِّ الذي انتهت إليه قبل الإسلام، ولا في زمن نزول الوحي، فكثيرٌ من الألفاظ وقع التّصرف فيها، فنُقِلت إلى شرائع ومعاني لا تعرفها الجاهلية؛ مثل: الصلاة، والصّوم، والحجّ، والزّكاة، ومثل: المنافق، والفاسق، والمخضرم، ولما دُوِّنت العلوم على اختلاف فنونها، وحدثت معاني لم تكن؛ اشتقوا لها أسماء من اللّغة، وأجرّوها مجرى العربي الصّحيح في الاستعمال".⁽¹⁾

ولم يكن مجال الاشتقاق مقصوراً على لغة العرب فحسب، بل "سلكوا طريقة العرب في اقتباسهم من غير لغتهم، فنقلوا جملةً من الكلمات الأعجمية، واستعملوها بحالها؛ كالسّقمونية⁽²⁾، والإسطرلاب⁽³⁾ من اللغة اليونانية، والأسطوانة⁽⁴⁾ والبنج⁽⁵⁾ من اللغة الفارسية".⁽⁶⁾

(1) دراسات في العربية وتاريخها، (ص 159).

(2) السقمونيا: نبات يستخرج منه دواء مسهل للبطن ومزيل لدوده. ينظر: مفاتيح العلوم للكاتب، (ص 195)؛ والمعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين، (ص 437).

(3) الاسطرلاب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية، ومعرفة الوقت، والجهات الأصليّة. ينظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي، (1/135)؛ والمعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين، (ص 17).

(4) الأسطوانة: مشتقة من السطن، وهو المرتفع الطويل، والأسطوانة السارية، وقال الأزهري: "لا أحسب الأسطوان معرباً، والفرس تقول: أستون". تهذيب اللغة، (12/237)؛ وينظر: جمهرة اللغة لابن دريد، (2/838)؛ المخصص لابن سيده، (2/159).

(5) البنج: قال الخليل: "البنج من الأدوية، معرب". العين، (6/153)؛ وقال ابن سيده: "ضرب من النباتات، وأرى الفارسي قال: إنه مما ينتبذ أو يقوى به النبيذ". ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، (7/468).

(6) دراسات في العربية وتاريخها، (ص 159).

وينعى الشيخ على الذين يزعمون أنَّ العربية جامدة، ويتهمونها بضيق النِّطاق، وأنها وقفت عائقاً أمام النُّمُو والتَّطَوُّر، لا تسع تحريرات العلوم العصرية، ولا يمكن أن يوجد فيها أسماء لهذه المخترعات، فردَّ ذلك قائلاً: "وهذه قضية تردُّها شهادة التَّاريخ والعلم؛ فإنَّ علوم الحكمة، والطِّبِّ، والهندسة، والحساب، والفلك، والمنطق وغيرها قد ترجمت في عهد الدولة العباسية، ودُوِّنت بالقلم العربي، وأصبحت تُدرَّس بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ.

وأما شهادة العلم: فانه يمكننا أن نضع لهذه المعارف الحديثة أسماءً عربيةً، وهو أحسن الطرق وأفضلها؛ لئلا تكثر الألفاظ الدَّخيلة، وتتغلب على ما هو عربيٌّ، فتؤول بكثرتها إلى خروج الكلام وانسلاخه عن صِبْغته العربية؛ فإنَّ اللغات تتمايز بالأساليب، وبالمفردات، إلا ما كان قليلاً". (1)

وقد رغب الشيخ إلى المشتغلين بعلوم العربية وعلم الاشتقاق على جهة الخصوص في الاستفادة من صور الاشتقاق، والمجاز، والتعريب وغيرها من الآليات التي تستخدمها اللغة العربية، لتجدد خلاياها حتى تناسب العصر ومُحْدَثَاتِهِ، وفي ظلِّ مؤسسة علمية جامعة تسير العلوم والمدنية، مع احتفاظها بأصولها وألفاظها وقواعدها، فهي لغة الأدب والعلم والحضارة، لغة مفعمة بالحياة، تستوعب متطلبات الفنون والعلوم، وتواكب مستجدات العصر. (2)

وقد بيَّن الوسائل التي تزخر بها اللُّغة العربية مما يجعلها تستوعب حاجات العلوم العصرية، والحضارة الجديدة فقال: "وَسِعَتْ هذه اللغة العلمَ والسِّيَاسةَ والصِّناعةَ وضروبَ المعاملات، وكلَّ معنَى يراد نقله من ذهنٍ إلى آخر، وساعدها على ذلك كَلَّةُ غزارة مادتها، وما تفتح فيها من أبواب الاشتقاق والتَّصَرُّفِ في الكَلِمِ على وجوه المجاز أو النَّقل، ثم تهيؤها لقبول الكلمات الأعجمية بعد تهذيب حروفها، وحيث تدعو الحاجة إلى تعريبها". (3)

(1) دراسات في العربية وتاريخها، (ص 161).

(2) المرجع السابق، (ص 161-162).

(3) المرجع السابق، (ص 5-6).

ويرى ضرورة تربية النشء على كلام العرب وحكمهم؛ لأنهم مستقبل الأُمَّة، ووقودُ نهضتها ورقيةا، فيقول: "والخلاصة: أنَّ في آداب اللغة العربية حكماً غزيرةً في ألفاظٍ عذبةٍ وجيزةٍ، فنودُ من القائمين على تعليم النشء وتربيتهم تلقينها لهم بطريقةٍ واسعةٍ، حتى لا يحتاجوا إلى الاستشهاد بأقوال الغربيين، وفي كلام حكمائنا وبلغائنا ما يغني عنه". (1)

هذه أهم المعالم المتصلة بجهود الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - في خدمة اللغة العربية، وبيان مكانتها وعلاقتها بالإصلاح، ومدى أثرها في نجاح الدعوة الإسلامية، وأنها إحدى مقومات الهوية الإسلامية للأُمَّة، وأحد أبرز ركائز الحضارة والتنمية والرقى.

(1) هدى ونور، (ص 14).

الفصل الرَّابِع

مصادر العلامة محمد الخضر حسين في دعوته

ويتضمن أربعة مباحث:

✽ المبحث الأول: القرآن الكريم.

✽ المبحث الثاني: السُّنة النَّبَوِيَّة.

✽ المبحث الثالث: الإجماع.

✽ المبحث الرابع: التاريخ والسيرة

المبحث الأول: القرآن الكريم.

أنزل الله - ﷻ - القرآن الكريم على خاتم رسله محمد - ﷺ -؛ ليخرج العالمين من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]، والقرآن الكريم منهاجٌ مستقيمٌ، فيه هدى للعباد ومعاشهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153].

والقرآن الكريم ذمٌ من أعرض وصدٌّ عن تلاوته؛ وتوعده بالعمى والضلال وضيق المعاش في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124]، وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَةِ⁽¹⁾، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ⁽²⁾، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ». ⁽³⁾

ولعظيم منزلة القرآن الكريم، وشرف علمه، وقدسية مكانته لدى المسلمين؛ كدَّتْ أفئدةُ العلماء وعقولهم، وفنيت أعمارهم في سبيل العناية به حفظاً، وجمعاً، وتلاوةً، وتفسيراً، وتعليماً، وتصنيفاً، فخير الكلام كلام الله، وأهله هم أهل الله، تحفهم ملائكته في الدنيا، ويشفع لهم في

(1) الْأُتْرُجَةُ: من الأترج شجر يعلو ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون ذكي الرائحة حامض الماء. ينظر: المعجم الوسيط، (ص 4).

(2) الْحَنْظَلَةُ: من الحَنْظَل وهو الشجر المُرُّ. ينظر: لسان العرب لابن منظور، (183/11).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، (77/7 - رقم 5427)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فُضِيلَةِ حَافِظِ الْقُرْآنِ، (549/1 - رقم 797).

الآخرة، قال - رَحِمَهُ اللهُ -: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»⁽¹⁾.

وللشيخ محمد الخضر حسين - رَحِمَهُ اللهُ - إسهاماتٌ جلييلةٌ في خدمة القرآن الكريم، وتفسيره، ويمكن إجمال أوجه عنايه الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - بهذا المصدر الأصيل من خلال ما يلي:

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، أَبْوَابُ السُّنَّةِ، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، (146/1 - رقم 215)، وقال البوصيري: "إسناده صحيح رجاله موثقون". مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري، (29/1).

المطلب الأول: تعظيمه للقرآن الكريم، وكثرة الاستشهاد به.

فالشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - يعتمد كـمصدرٍ أصليٍّ في تقريراته العلمية، ولا يقدِّم عليه شيئاً، وقد عني به عنايةً فائقةً، ويظهر ذلك من خلال تعظيمه له، وإثباته أنَّه كلام الله تعالى، واعتقاد عصمته.

يقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "قد قام الدليل القاطع على أنَّ القرآن كلام الله، وأن رسوله محمداً - ﷺ - قد بلغ ما أنزل إليه من ربه، فكلُّ ما جاء في القرآن من خبرٍ فهو صادق، وإنما الصِّدْقُ مطابقة الكلام للواقع، ونستند في الجزم بصدق أخبار القرآن إلى الدليل القائم على صدق الرسول في دعوى الرسالة، والدليل القائم على أنَّ القرآن وحيٌّ من الله - جل شأنه - .

ولو كان القائل ⁽¹⁾: (إِنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إنما يصور واقعاً في نفسه، سواء كان ذلك الواقع متفقاً مع الحقِّ والواقع، أم مخالفاً) لا ينتمي إلى الإسلام، لقلنا: نحن معنا أدلةٌ لا تحوم حولها شبهةٌ على أنَّ القرآن لا يقول إلا حقاً، فإن أُبَيِّنَتْ أن تُصغى إليها بأذنٍ واعيةٍ فاعمد إلى قصَّةٍ من قصص القرآن، وأقم على أنها مخالفةٌ للحقِّ دليلاً يُقرِّه المنطق، ويتقبله العقل". ⁽²⁾

ويقول في موضع آخر: "أمَّا قصص القرآن فهي من كلام ربِّ العزة، أوحى به إلى الرسول الأكرم؛ ليكون مأخذ عبرة، أو موضع قدوة، أو مجلدة حكمة، وإيمان النَّاسِ بأنه صادرٌ من ذلك المقام الأسنى يجعل له في قلوبهم مكانةً محفوفةً بالإجلال، ويمنعهم من أن يدرسوه كما تُدرس تلك القصص الصَّادرة من نفوسٍ بشريةٍ تجعل أمامها أهدافاً خاصَّةً، ثم لا تبالي أن تستمد ما تقوله من خيالٍ غير صادق، أو تخرج من جدِّ إلى هزل، وتضع بجانب الحقِّ باطلاً". ⁽³⁾

(1) يعني به الدكتور محمد أحمد خلف الله في رسالته (الفن القصصي في القرآن).

(2) بلاغة القرآن، (ص 561-562).

(3) المرجع السابق، (ص 565).

ويقول في مقالة له بعنوان (القرآن لا يقول إلا حقاً) ⁽¹⁾: "والدليل القاطع قائم على أن الشرع من عند الله؛ فما يقوله يكون - ولا بد - صدقاً". ⁽²⁾

إلى أن قال: "ومن ظن أن في القرآن قصة باطلة، أو قضية تخالف العلم الصحيح، فقد وقع فيما يستلزمه هذا الظن لزوماً لا خفاء فيه من أن القرآن كلام ليس من عند الله". ⁽³⁾

والشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - يستشهد بالقرآن الكريم كثيراً، ويرجعه إليه في مواضع الاحتجاج وغيره، فلا تكاد تجد له بحثاً، أو مقالة، أو كتاباً، أو محاضرة إلا وهو مُتَمِّعٌ بآيات الكتاب العزيز، وذلك في جميع ما يتناوله من موضوعاتٍ، سواء كانت عقدية، أو أدبية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو غير ذلك.

وسواء كان ما يتناوله ردوداً، أو تعقيباتٍ، أو ما جرى مجرى ذلك، ويتخلل تلك الاستشهادات تنويه بالقرآن، أو توجيه لموضع الاستشهاد، أو تفسير لما يورده من الآيات، أو تصحيح لما يقع من خطأ في فهمها.

والأمثلة في ذلك كثيرة جداً، ويمكن التمثيل لذلك بما قاله في معرض رده على الشيخ علي عبد الرزاق: "لا يرتاب مسلم في أن الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لم يتولَّ فصل القضايا بين الناس من تلقاء نفسه، وإنما هو مَنْصِبٌ استمده بوحى سماوي، قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49]، فناط بعهدته فصل القضايا، ثم وضع في أعناق الأمة فريضة التسليم لقضائه، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]". ⁽⁴⁾

(1) منشورٌ بمجلة "الهداية الإسلامية" - العددان الحادي عشر والثاني عشر من المجلد الثالث والعشرين، الصادران في ذي القعدة وذو الحجة 1373 هـ.

(2) بلاغة القرآن، (ص 118).

(3) المرجع السابق، (ص 119).

(4) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 130).

المطلب الثاني: الإنتاج القرآني للشيخ محمد الخضر.

لقد ترك الشيخ محمد الخضر حسين إرثاً لا بأس به يتعلّق القرآن الكريم، فهو وإن لم يأت على تفسير القرآن الكريم كلّّه، غير أنّه له وقفاتٍ معتبرة في تفسير آيات الكتاب العزيز، وهي التي جمعت في كتابه (أسرار التنزيل)، وله دراسات وأبحاث ومقالاتٌ جادةٌ فيما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه، وموضوعاته القديمة والحديثة، وقد جُمعت له في كتابه (بلاغة القرآن)، وفي مقالاتٍ أخرى مبثوثة في سائر مؤلفاته المجموعة.

أمّا فيما يخصُّ التراث التفسيري فإنَّ الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - لم يتيسّر له تفسير القرآن الكريم كاملاً؛ وذلك لأسباب كثيرةٍ حالت دون ذلك، غير أنَّ له بصماتٍ بارزة في هذا العلم الشريف، سواءً من خلال التحرير والتدوين، أو من خلال ظهوره في الصحافة، ووسائل الإعلام، حيث جعلها منابر ووسائل لإيصال تفسير كلام الله تعالى.

أما كتاب (أسرار التنزيل) ⁽¹⁾ فقد جُمع فيه معظم تراثه التفسيري، وقد أتى فيه على تفسير سورة الفاتحة، والقسم الأكبر من سورة البقرة حتى الآية 195، وتفسير آيات قرآنية كريمة من سورٍ مختلفة، وهي: آيات من سورة آل عمران، وآيات من سورة الحج، وثلاث آيات من سورة الأنفال، وأربع آيات من سورة يونس، وخمس آيات من سورة ص.

(1) وهو أول كتاب في موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ، انتظم سلكه في أكثر من (400) صفحة، وقد جاء في تقديم الكتاب للأستاذ علي الرضا الحسيني: "وبقلمه البليغ بدأ - رَحِمَهُ اللهُ - نشر التفسير الذي وضعه في مجلة "لواء الإسلام" التي كانت تصدر بالقاهرة، وكان رئيساً لتحريرها، بدءاً من العدد الأول الصادر بتاريخ الأول من شهر رمضان المبارك لعام 1366 هـ الموافق التاسع عشر من شهر يوليو تموز 1947، واستمر في هذا العمل الجليل، حتى أثقلت السنين، وقد قارب عمره الطاهر على الثمانين عاماً، وتحت وطأة الشيخوخة، توقّف عن متابعة هذا الجهد الرائع، والإنتاج الفكري العظيم، وكانت آخر الصفحات من التفسير هي تلك التي نشرها في العدد الثاني عشر من السنة الرابعة لمجلة "لواء الإسلام"، والصادر في شهر شعبان لعام 1370 هـ الموافق شهر مايو أيار لعام 1951 م. ينظر: مقدمة الموسوعة، (ص 3).

وكان الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - كثيرًا ما يتطرق لتفسير آيات قرآنية في معرض ردِّ شبهةٍ أثارها كاتبٌ ما، أو تصحيحًا لمفهومٍ، أو دفاعًا عن ثوابت الإسلام، وبعض هذه الدُّروس كان قد ألقاها في جامع الأزهر، ثم سُجِّلَتْ وأعيدت تفرغها، ونُشرت في بعض المجلات.

وله كلماتٌ في تفسير آياتٍ مختلفةٍ، جاءت في سياق محاضراتٍ، أو ضمن بحوثٍ أخرى، ومن ذلك: تفسير الآية 21 من سورة الأحزاب، وتفسير الآية 3 من سورة النساء، وغير ذلك.

أمَّا كتابه الثاني (بلاغة القرآن) فقد حوى بحوثًا قيِّمةً تتعلق بالقرآن وعلومه، وسائر المسائل العلمية ذات الموضوع القرآني، حيث تعرَّض لدراسة العديد من الموضوعات في ذلك، خصوصًا ما كان يحتاج إلى دراسةٍ، وتحليلٍ، أو ما يحتاج منها إلى مزيدٍ بحثٍ وتحليلٍ.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

1- دراسته لأمثال القرآن الكريم: من حيث مفهوم الأمثال، وتحقيق معنى المثل في القرآن، والنَّظر في كلام من بحثوا في أمثال القرآن، وفي استعمال القرآن لكلمة (مثل)، والآيات الجارية مجرى الأمثال، وفوائد ضرب المثل. (1)

2- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم: حيث تعرَّض لمعنى المحكم والمتشابه في القرآن، وأقوال العلماء في ذلك. (2)

3- اليمين في القرآن والحديث: حيث تطرق فيه لمعنى اليمين، وصيغها في القرآن، وأقسام اليمين، واختلاف الفقهاء في تفسير لغو اليمين، كما تطرق لتغليب اليمين في الدعوى، ومسألة الحلف بالقرآن، وأنها تنعقد؛ لأنها بكلام الله، وكلامه صفةٌ من صفاته، إلى غير ذلك من مسائل اليمين في القرآن. (3)

(1) بلاغة القرآن، (ص 30).

(2) المرجع السابق، (ص 45).

(3) المرجع السابق، (ص 54).

4- الرقية والاقْتِباس والاستخارة في القرآن: حيث تطرق لمفهوم الرقية، وعن حكم الرقية بالقرآن، وكتابته في ورق لتُجعل حِرْزًا، كما تطرق للاقتباس من حيث مفهومه، وآراء العلماء فيه، وتحدّث عن الاستخارة في القرآن وحكمها، وعن الاستخارة الشرعية المعروفة، وعن بعض الاستخارات البدعية. (1)

5- حقيقة ضمير الغائب في القرآن: وهو بحثٌ ردّ فيه على الدكتور طه حسين. (2)

وله مقالات وبحوث أخرى منها: (بلاغة القرآن)، و(نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية)، و(إعجاز القرآن وبلاغته)، و(ترجمة القرآن).

وفي السياق نفسه، للشيخ ردودٌ علميةٌ، ومناقشاتٌ تتعلق بالقرآن الكريم، من هذه البحوث: (القرآن لا يقول إِلَّا حَقًّا)، و(الفن القصصي في القرآن)، و(تحريف آيات الحدود عن مواضعها)، و(كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد)، و(كتاب يلحد في آيات الله)، و(قصة أيوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ونقض آراء حديثه في تفسيرها).

(1) بلاغة القرآن، (ص 61).

(2) المرجع السابق، (ص 81).

المطلب الثالث: منهج الشيخ الخضر في تفسير القرآن الكريم.

لقد سار الشيخ الخضر في هذا الجزء من تفسيره على منهج يمكن إجماله بما يلي: ⁽¹⁾

1- أنه جاء بلغة عالية جزلة واضحة، ولا غرو في ذلك؛ فالشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - من أرباب البيان، وأمرائه.

2- أنه سار في مسائل العقيدة - خصوصاً في باب الصفات - على منهج السلف؛ فإذا مرَّ بشيءٍ من ذلك أثناء تفسيره لم يتعرَّض لها بتأويلٍ يصرفها عن ظواهرها، وإنما يسير فيها على وفق منهج السلف من حيث إثباتها لله - عَزَّوَجَلَّ - على الوجه اللائق به دون نفْيٍ لها، أو تعرُّضٍ لكيفيتها.

3- أن هذا الكتاب حافلٌ بالعلم الغزير، والفوائد الجمَّة، واللفَّات البارة، والاستنباطات الرائعة، والنكت البديعة، والإشارات التربوية والإصلاحية.

4- أن المؤلِّف - رَحِمَهُ اللهُ - حرص على ربط تفسيره بواقعه الذي يعيش فيه؛ فلذا نراه يتعرَّض لهداية الآيات، وعلاجها لكثيرٍ من مشكلات العصر، كما يَرُدُّ على بعض المعاصرين الذين تأوَّلوا بعض الآيات على غير وجهها الصحيح.

5- أنه كان يميل إلى الإيجاز، والبُعد عن الحشو والتطويل في إيراد الأقوال؛ فتراه لا يستقصي، ولا يُفصِّل، وإنما يبين ما يظهر له من معنى الآية، وربما استشهد بأقوال وآراء بعض أهل العلم السَّابِقين كابن القيم وغيره.

ولعل الحامل له على ذلك أن كتابه كان - في أصله - مقالاتٍ أو محاضراتٍ في التفسير، وذلك المقام لا يسمح بالاستقصاء.

(1) ينظر: بحث الإمام محمد الخضر حسين مفسِّراً للأستاذ أنور بن خليفة، ضمن: الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي، (ص 151-197)؛ ورسالة: منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية للشيخ محمد إبراهيم الحمد، (1/212-213).

6- أنه كان يُعنى بتحليل الألفاظ وشرحها دون تطويل - كما سبق -.

7- عنايته بجانب التوحيد، وتحذيره من الشرك ومظاهره المعاصرة، وذلك إذا مرَّ بآيات في هذا الشأن كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].⁽¹⁾

8- تعرّضه لبعض المسائل الفقهية كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]، وكما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

9- تنويهه بمكارم الأخلاق، وأثرها في سيادة الأمة، والرقي بها.

10- أنه أفاد من المصادر الأصلية في تفسير القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، واللغة، والنحو والأدب.

11- الاعتماد على التفسير بالمأثور، حيث يفسر القرآن بالقرآن، والقرآن بالحديث النبوي، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.

12- اعتنى بمعاني الحروف والاشتقاق، والمزج بين المباحث النحوية والبلاغية، وكثافة المادة النحوية عنده، وحرصه على استخراج الأسرار اللغوية، والاستشهاد بالشعر.

13- تفسير القرآن باعتماد أسباب النزول، والقراءات، والأخذ - أحياناً - عن التوراة والإنجيل، والأخذ بالتفسير بالرأي؛ مستخدمًا الترجيح إما باللغة، أو الأثر، أو العقل.

(1) أسرار التنزيل، (ص 45).

المطلب الرابع: بيانه للإعجاز البياني للقرآن الكريم.

عناية الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - بالقرآن الكريم فائقة، لكن عنايته بالجانب البلاغي والبياني في القرآن الكريم أظهر وأكثر، لما يتميز به الشيخ من اهتمام بالعربية وعلومها، فقد حرص الشيخ على إظهار بلاغة القرآن، وحسن بيانه المعجز، وتتلخص مظاهر هذا الإعجاز البياني فيما يلي:

أولاً/ فصاحة مفردات القرآن، فلا تكاد تمرُّ بك كلمة إلا وجدتها محكمة الوضع، خفيفة الوقع على السَّمع. (1)

ثانياً/ متانة نظمه التي بلغت الغاية التي ليس وراءها مطلعٌ، فلا يمكن العارف بقوانين البيان الناظر في منشآت البلغاء بِإمعانٍ أن يشير إلى جملةٍ من جمل القرآن فيقول: ليتها جاءت على غير هذا الوضع، أو يشير إلى كلمةٍ من كلمه فيقول: لو استُبدِل بها كلمةٌ أخرى لكانت الجملة أشدَّ انسجاماً، وأصفى ديباجةً. (2)

ثالثاً/ انتظام دلالاته على ما يقصد إفادته وإحضاره في الأذهان؛ فإنَّك ترى فيه التشابيه الرائعة، والأمثال البارعة، والاستعارات الطريفة، والمجازات اللطيفة، والكنائيات المنقطعة التَّظهير، والتعريض الذي يقتضيه المقام، فيكون أقرب إلى حسن البيان من القول الصَّريح. (3)

رابعاً/ استيفاءه للمعاني التي يستدعي الحال الإفصاح عنها أو الإيماء إليها؛ فإنَّك تنظر في الآية، وتتدبر المعنى الذي سيقت من أجله، فتعود منها ويدُّك مملوءةٌ من الفوائد التي تقع عليها؛ من حيث إنَّها تُقرِّر شريعةً، أو تقيم حجةً، أو تلقي موعظةً، أو ترسل حكمةً، إلى نحو هذا مما تستبين به سبيل الرُّشد، وتتنظَّم به شؤون الحياة، وترتفع به النُّفوس إلى أعلى درجات الفلاح في دنياها وآخرتها. (4)

(1) ينظر: بلاغة القرآن، (ص 7).

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع السابق، (ص 8).

(4) المرجع نفسه.

خامساً/ تناسبه في حسن بيانه دون تفاوتٍ أو تباينٍ؛ فأنت ترى البليغ من البشر يحسن البيان، ويأخذ لبك بالمنشآت الرائقة، حتى إذا طال به مجال القول، وقطع فيه أشواطاً واسعة، رأيت في جُمْلِه أو أبياته تفاوتاً في البراعة، وأمكنك أن تبصر فيها ضعفاً، وتستخرج بنقدك الصَّحيح من أواخر كلامه ما أخذ أكثر مما تستخرج من أوائلها.

ولكن القرآن الكريم على طول أمدّه، وكثرة سُوره، نزل متناسباً في حسن بيانه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 23]، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82].⁽¹⁾

وترى البليغ من البشر يخوض في فنون من الكلام متعددة، فإذا هو يرتفع في فنٍّ، وينحطُّ في آخر، ولكن القرآن الكريم يتصرّف في فنونٍ كثيرةٍ مثل الوعظ، وإقامة الحجج، وشرع الأحكام، والوصف، والوعد، والوعيد، والقصص، والإنذار، وغير ذلك من الوجوه التي تتصل بالهداية العامة؛ فلا تتفاوت فيها ألفاظه الرشيقة، وأساليبه البديعة.⁽²⁾

سادساً/ صَوْغُ الأقوال على قدر الحقائق، فمن المعروف أنَّ القرآن أتى بحقائق أُسَّسَ بها شريعةٌ واسعة النِّطاق، وليس من شأن هذه المعاني أن تظهر فيها براعة البلغاء كما تظهر فيما أَلْفَوْه من نحو: المديح، والثناء، والتهنئة، والغزل، ووَصَفِ المشاهد، إلى غير ذلك مما يطلقون لأفكارهم فيه العنان، فتذهب مع الخيال كل مذهبٍ، وترتكب من المبالغات ما استطاعت أن ترتكب، والقرآن الكريم يعبر عن تلك المعاني التي تستدعي صدق اللّٰهجة، وصوغ الأقوال على أقدار تلك الحقائق، فترى الفصاحة ضاربةً أطنابها، والبلاغة مرسلَةً أَشَعَّتْهَا.⁽³⁾

(1) ينظر: بلاغة القرآن، (ص 8-9).

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع السابق، (ص 10).

سابعاً/ خُلُوهُ مِنَ التَّصْنُوعِ، ففي بلغاء البشر من تحسُّ من شعره، أو خطبته، أو رسالته أنّه لم يكن يتصنّع فيما يقوله؛ ذلك أنّك تجد في كلامه الجيّد، والوسط، والرّديء، وفيهم من نحس فيما يقوله التّصنع، وهذا هو الذي يغلب على كلامه المنظوم أو المنتثر الجودة في تصوير المعنى، والتّعبير عنه بكلام موزون، أو غير موزون.

ولكن القرآن الكريم بالغ الغاية من حسن البيان فلا يجد فيه الرّاسخ في نقد المنشآت البليغة ما ينزل عن الدرجة العليا، بل يحسُّ روح البلاغة التي لا يحوم عليها شيءٌ من التّصنّع ساريةً في آياته وسوره، سواء في ذلك تصويره للمعاني، أو نظم الألفاظ الناطقة بها. (1)

ثامناً/ تكرار القصص في أكمل ما يكون من حسن البيان، إذ يُورد القصّة في أوفى درجة من حسن البيان، ثم يعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه مقام الوعظ، حتى إذا عقّدت موازنةً بين حكايتها هنا، وحكايتها هناك، وجدتهما في مرتبة واحدة من البلاغة، لا تنزل إحداها عن الأخرى بحالٍ، أمّا البليغ من البشر، فقد يسوق إليك القصّة في عباراتٍ أنيقة، ثم يريد أن يعيدها مرةً أخرى، فإذا هي في درجة من البراعة منحطة عن درجتها الأولى. (2)

(1) بلاغة القرآن، (ص 9).

(2) المرجع السابق، (9-10).

المطلب الخامس: نقضه لآراء حديثة في تفسير القرآن، ومواجهته للانحرافات في تأويله.

عُرف الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - بمتابعته واطلاعه على المقالات والآراء التي ينشرها بعض الكتّاب فيما يتعلّق بتفسير القرآن الكريم، أو موضوعات القرآن بصفة عامّة، وله جهود طيبة مباركة في مواجهة الانحرافات الفكرية في تأويل النصّ القرآني، والرّد على الشُّبه التي يلقيها أهل الضلالة والغواية، وقد مرّ ذكر بعض المقالات والبحوث في هذا الشأن.

من تلك البحوث التفسيرية التي أسَّسها الشيخ لرّد افتراءات وشبهات بعض الكتّاب، بحث بعنوان (قصة أيوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ونقض آراء حديثة في تفسيرها) ⁽¹⁾، وهو متعلّق بتفسير قوله الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ أَلَيْسَ رَبِّي أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ^(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذِكْرًا لِلْعَبِيدِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: 83-84]، حيث قدّم له بالقول: "اطَّلعت في إحدى المجلات التي تصدر في القاهرة على مقالٍ تعرّض فيه كاتبه لمفسّري القرآن الكريم، وبالع في نسبتهم إلى التّقصير في التفسير، وساق ما فسّروا به قصة أيوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مثلاً لذلك التّقصير، وأورد وجوهاً زعم أنها تُبطل ما أجمعوا عليه من التفسير، ثم ذكر تأويلاً للقصة، مدّعياً أنه هو الصواب، ووعد بأنه سينسج على هذا المنوال في بيان تقصير المفسّرين، وقد وقفت في هذا المقال على آراء لا تدخل تحت قوانين المنطق، وأخرى لا تتقبّلها بلاغة القرآن، فأردت تنبيه طالّاب العلم لما في تلك الآراء من نُشوز؛ حتى يكونوا على بينة من أمرها". ⁽²⁾

ثم شرع - رَحِمَهُ اللهُ - في بيان المعنى الحقيقي لقصة أيوب - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وأنّ القرآن يكتفي من القصة بذكر موضع العبرة، وأنّه لم ينزل ليكون كتاب تاريخ، وأنّ موضع العبرة من قوله تعالى لأيوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَحُذِّ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ﴾ [ص: 44]

(1) وهي مجموعة ردود منشورة بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء العاشر، والجزء الثاني عشر من المجلد السابع لعام 1354 هـ، والأجزاء الثاني والثالث والرابع من المجلد الثامن لعام 1354 هـ.
(2) بلاغة القرآن، (ص 181).

"أَنَّ أَيُّوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رأى بعض أهله قد فعل، أو قال ما يستحقُّ عليه العقوبة، فحلف - وهو غاضب لله - على أن يعاقبه على ذلك بأسواطٍ معدودةٍ، فأراه الله وجهًا يجمع بين رعاية حرمة اليمين، ورفع جانبٍ من شدة العقوبة؛ فذلك من أثر الغضب لله، وهذا التَّخْفِيفُ من أثر رحمة الله بالمتقين من عباده". (1)

ثم قال الشيخ بعد ذلك: "هذا صفوة ما يقوله أهل العلم في تفسير قصة أيوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وقد خالفهم في أصل تفسيرها كاتب ذلك المقال، وسنريك في آخر مقالنا هذا أن لرأيه صلةً برأي محمد علي زعيم طائفة القاديانية الخارجة عن سبيل المؤمنين". (2)

وبعد ذلك شرع في مناقشة آراء صاحب المقال بأسلوبٍ علميٍّ رصينٍ هادئٍ، حتى بلغ السِّجَال فيه بينه وبين كاتب المقال خمس مقالاتٍ، نقض من خلالها آراء ذلك الكاتب بالحُجج العقلية والتَّقليية، وتخلل تلك المقالات دُرُرٌ وغُرُرٌ من العلم، والمُحاجة القوية الرزينة. (3)

ومن ذلك - أيضًا - رُدُّه على طه حسين في بحثه (حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم) وقد مرت الإشارة إليه. (4)

ومن ذلك: نقده لكتاب (الفن القصصي في القرآن) للدكتور محمد أحمد خلف الله (5)، وخلاصة رأي الكاتب في هذا الكتاب: أنه يرى أنَّ القَصصَ عملٌ فنيٌّ خاضعٌ لما يخضع له

(1) بلاغة القرآن، (ص 185).

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع السابق، (ص 181-271).

(4) المرجع السابق، (ص 81).

(5) محمد خلف الله أحمد: (1322-1403 = 1904-1983م)، أديبٌ مصريٌّ، وعالمٌ باللغة العربية، تخرج في مدرسة دار العلوم العليا 1928م، ثم درس الفلسفة وعلم النفس بجامعة لندن، وعاد إلى مصر ليشغل بالتعليم، وتدرج في المناصب الجامعية حتى صار رئيسًا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية 1947م، فعميدًا للكلية 1951م، ثم وكيلًا لجامعة عين شمس 1916م، وعضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، عُرف في شبابه بنظم الشَّعر الجيد، والبراعة في الخطابة، وله مؤلفات وبحوث عديدة منها: "معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها"، و"دراسات في الأدب الإسلامي". نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب 1970م. ينظر مقال: محمد خلف الله أحمد.. أول الأساتذة توظيفًا لعلم النفس في دراسة الأدب للدكتور محمد الجوادى منشور على موقع الجزيرة: <https://www.aljazeera.net/blogs>.

الفنُّ من خَلْقٍ وابتكارٍ من غير التزامٍ لصدق التاريخ والواقع، وأنَّ محمدًا فنَّانٌ بهذا المعنى، وأنَّ القصَّةَ في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي، وإنما تتجه كما يتَّجه الأديب في تصوير الحادثة تصويرًا فنيًا بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد، مثل أنَّ البشري بالغلام لإبراهيم أو لامرأته، بل قد تكون القصَّة مخلوقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]. هذا هو خلاصة رأي الدكتور محمد خلف الله في كتابه المذكور كما هو في تقرير الأستاذ أحمد أمين للرسالة. (1)

وبعد أن اطَّلَعَ الشَّيْخُ الخضر على ذلك التقرير، وعلى ما كتبه صاحب الرسالة، كتب كلمة فَنَدَ من خلالها ذلك الرأي، مستندًا إلى القرآن، والسُّنَّة، والإجماع، والعقل الصَّحيح، والفطرة السليمة. (2)

ثم ختم مقاله بقوله: "والواقع أنَّ القرآن لم ينزل ليُجاري الأدباء في أدبهم، ويذهب في المبالغات مذهبهم، ويستخفَّ بجرمة بعض الحقائق استخفافهم، وإنما نزل القرآن ليهدي الأدباء وغير الأدباء إلى ما يلائم الفطر السليمة من عقائد، وآداب، وأعمال؛ فَوُجِّهَتْهُ الدَّعْوَةُ إلى الإصلاح الشَّامِل، وليست هذه الدَّعْوَةُ الإصلاحية وليدة الدخول في ميدان التجارب الخاصَّة، ولا النسخ والتدرُّج بالتَّشريع من مظاهر الدخول في تجارب، بل الدَّعْوَةُ هدايةٌ من خالق التَّجارب والمُجَرِّبين، والنَّسخ والتَّدرُّج بالتَّشريع من مظاهر علمه القديم، كما هو مفصَّلٌ في أصول الشَّريعة". (3)

(1) ينظر بحث: (الفن القصصي) في كتاب بلاغة القرآن، (ص 120-121).

(2) المرجع السابق، (ص 120-134).

(3) المرجع السابق، (ص 134). وينظر: منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقديَّة والفكرية للشيخ محمد إبراهيم الحمد، (216/1-217).

ومن جهوده الجليلة في خدمة القرآن الكريم مواجهته للانحرافات في تأويل القرآن، خصوصاً تلك التأويلات التي تنحو منحى التأويل الباطني، والتي لا تستند إلى شرع، ولا عقل، ولا عُرف، ولا لغة؛ فهي تأويلات لا تتصل بمدلول الألفاظ، ولا بمفهومها، ولا بالسِّياق القرآني، بل هي مخالفة للنص القرآني تماماً، باحثة في كتاب الله عن أصلٍ تشبَّث به؛ لتأييد شذوذ أصحابها، وغايتهم في الصّدّ عن كتاب الله ودينه. (1)

وحاصل هذا الاتجاه الباطني في تأويل نصوص الشريعة هو الانحلال عن الدين، وعموم البشر على اختلاف لغاتهم يعدّون ظاهر الكلام هو العمدة في المعنى، وأمّا أسلوب التعمية والإلغاز فلا وجود له إلا في الفكر الباطني، ولو اتُّخذ هذا الأسلوب قاعدةً لما أمكن التفاهم بحال، ولما حصلت الثقة بمقال؛ لأنّ المعاني الباطنية لا ضابط لها ولا نظام، هذا في الكلام عموماً؛ فكيف بكلام الله المنزل، الذي وصفه الله -عزَّ وجلَّ- بأنّه: ﴿بَيَّانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138].

وفي الناس عالمون، وجاهلون، ومنهم أمّيون، وكاتبون قارئون، ولكن الله جعله بياناً لهم جميعاً، مُيسِّراً للذكر؛ ليعبد الناس ربهم على بصيرة.

والمتملّ لمقالة التأويل الباطني يدرك خطورتها في تفسير القرآن، وأنها تقتضي بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط الانتفاع بكلام الله ورسوله، ويصير ما يسبق إلى الفهم لا يُوثق به، وبهذا الطريق يحاول الباطنية التّوصُّل إلى هدم الشريعة بتأويل ظواهرها، وتنزيلها على رأيهم دون ضابط، أو رادع، ولو كانت تلك التأويلات الباطنية هي معاني القرآن ودلالاته لما تحقّق الإعجاز، ولكان من قبيل الإلغاز. (2)

(1) ينظر: منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية للشيخ محمد إبراهيم الحمد، (218/1).

(2) ينظر: التأويل: خطورته وآثاره لعمر الأشقر، (ص 66-73)؛ ومنهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية للشيخ محمد إبراهيم الحمد، (218/1-219).

ولقد شاعت تلك الفاشية في عصر الشيخ الخضر على تفاوت مقاصد أصحابها، وأخطرها شيوعاً في ذلك ما كان من تلك التأويلات التي يوردها دعاة البائية، والبهائية، والقاديانية، ولا يقلُّ عنهم خطراً من يسرون في ذلك الرِّكَّاب من بعض الكتَّاب.

ولقد تصدَّى الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - لتلك التأويلات المنحرفة بما يستطيع من قوَّة؛ فتصدَّى لتأويلات البائية، والبهائية، والقاديانية وغيرهم، كما تصدَّى لبعض الكتَّاب، والمنتسبين للعلم لمَّا تعسفوا في تأويل بعض الآيات والأحكام.

من ذلك: مقالة كتبها الشيخ، وعنوانها (تحريف آيات الحدود عن مواضعها) ⁽¹⁾، وهي ردُّ علميٍّ على مقالٍ للأستاذ عبد المتعال الصعيدي ⁽²⁾، وعنوانه: (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي).

وخلاصة رأي الأستاذ عبد المتعال في ذلك المقال: أنَّ الأمر في آية حدِّ السرقة، وآية حدِّ الزنا يُحمل على الإباحة لا على الوجوب؛ وبعد أن اطَّلَعَ الشيخ الخضر على ذلك المقال قام بالردِّ عليه، وفنَّده بحجَّة وبرهانٍ، ثم ختم مقاله بقوله: "ليصرف صاحب المقال نظره عما يزعمه غير المؤمنين؛ من أنَّ هذه الحدود عقوباتٌ لا تلائم حال المدنية، ويذكر لنا مثلاً من مصالح الزَّمان والمكان التي تقتضي أن تكون عقوبة مرتكب جريمة السرقة، أو فاحشة الزنا غير ما ورد

(1) منشورةٌ بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء السابع من المجلد التاسع الصادر في مارس 1937م. في الرد على مقال عبد المتعال الصعيدي المنشور في صحيفة "السياسة الأسبوعية" العدد السادس، 20 فبراير 1937م - القاهرة.

(2) عبد المتعال الصعيدي: (1311-1386 = 1894-1966م): هو عبد المتعال عبد الوهاب أحمد عبد الهادي الصعيدي، عالم لغوي من علماء الأزهر، وعضو مجمع اللغة العربية، وواحد من أصحاب الفكر التجديدي بالأزهر، ومن المناديين بالمنهج الإصلاحية في التعليم، والفكر، والتجديد الديني. له كتب كثيرةٌ مثل: "تاريخ الإصلاح في الأزهر"، "حكماء اليونان السبعة"، "قضايا المرأة"، "الفن القصصي في القرآن"، وشارك الصعيدي في العديد من المساجلات على صفحات الجرائد اليومية والمجلات حول قضايا الأدب وتاريخه، والإعجاز البياني في القرآن، وضرورة الاجتهاد في الأصول، وخصائص الإجماع والوحدة الإسلامية، مع كبار رواد الكلمة من أمثال محمد حسنين هيكل، وطه حسين، والعقاد، والشيخ الخضر، وغيرهم. ينظر: الفكر التجديدي عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي للباحث أحمد حسن عمر، حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، العدد (32)، 2019-2020م، المجلد الثاني، (ص 469) وما بعدها.

في الشَّرْع، ويقول لنا: ما هي العقوبة المبتدعة التي تفعل في حفظ الأموال والأعراض ما يفعله القطع أو الجلد". (1)

إلى أن قال: "بقيت آيات الحدود منذ عهد النُّبُوَّة محفوظة من عبث المؤولين، لا يختلف العلماء في أنَّ الأوامر فيها للوجوب، وأنَّ من أضاعها، وهو قادرٌ على إقامتها فهو فاسقٌ أو جاحدٌ، إلى أن ظهرت فئةٌ خاسرةٌ؛ مثل: زعيم طائفة القاديانية محمد علي؛ إذ حاول أن يفتح في حصن تلك الأوامر ثلمةً، فقال - وتابعه في رأيه أبو زيد الدمنهوري -: أنَّ السَّارق من اعتاد السرقة، والزاني: من اعتاد الزنا، وهو تأويلٌ خرج به عن قانون اللُّغة العربية، بعد أن خرج به عن سُنَّة النَّبِيِّ القولية والعملية، وجاء بعده كاتب المقال، فهجم على آيات الحدود بمَعُولِ ذلك التأويل الذي تُنكره اللُّغة والسُّنَّة وحِكْمَةُ التَّشْرِيع.

ولو جرى النَّاس على مثله من تفسير الكتاب المجيد لَكَفُوا خصوم الإسلام جانبًا من العمل لِهَدْمِ أركانه، وطَمَسِ معالمه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]". (2)

ومن جهاده - رَحِمَهُ اللهُ - في ذلك الشأن؛ مقالة كتبها بعنوان: (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) وهي نقدٌ لكتاب: (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) تأليف محمد أبو زيد الدمنهوري. (3)

وهذا الكتاب وقع في كثيرٍ من الانحرافات في تأويل القرآن، كانحرافه في تأويله لآيات المعجزات، ودعوته إلى الخروج عن أحكام الشريعة، وإنكاره للجنِّ والشياطين، وزعمه أن المسلمين يروون الأحاديث النبوية عن اليهود، ونحو ذلك.

يقول الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - في مقدِّمة رَدِّه على ذلك الكاتب بعد أن بيَّن نعمة إنزال القرآن، وعَهْدِ اللهِ ببيانه إلى الرسول - ﷺ -، وتلقِّي أصحابه ذلك الكتاب، وبيان ما يخفى

(1) بلاغة القرآن، (ص 140).

(2) المرجع السابق، (ص 140-141).

(3) سبقت الإشارة إليه في مطلب: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالملائكة في الفصل الثالث من هذا البحث.

عليهم من آياته، ثم تلقي التابعين والأمة من بعدهم ذلك الهدى والنور: "حتى ظهر أشخاص قلَّ في علم اللغة نصيبهم، أو خفَّ في علم الشريعة وزهم، فتناولوا القرآن بعقول لا تراعي في فهمه قوانين البلاغة، ولا تدخل إلى تفسيره من باب السُّنَّة الصَّحيحة؛ فأدخلوا في تفسيره آراءً سخيفةً، ومزاعمَ منبوذةً، ووجدت هذه الآراء وهذه المزاعم عند بعض العامة وأشباه العامة مُتَقَبَّلًا". (1)

إلى أن قال: "وشرُّ من هؤلاء طائفة الباطنية (2) الذين هم رهطُ المجوس (3)؛ ائتمروا على أن يكدوا للإسلام بتأويل القرآن على وجوه غير صحيحة؛ ليصرفوا النَّاس عن محجَّته البيضاء، ويأخذوهم إلى ما شأؤوا من نَحْلٍ خاسرةٍ وأهواء، ولولا رجالٌ يدرسون الدِّين ببصائر تنفذ إلى لبايه، ويُرزقون إيماناً يسوقهم إلى دفاع الخبائث عن حياضه؛ لكان لأولئك المضلِّين جولةٌ أوسع مما جالوا، واستدراجٌ للنفوس أكثر مما استدرجوا". (4)

ثم تطرق للبهاية وتأويلاتهم، وانتقل إلى أناس يضاهئوهم في طريقة التأويل، وهم - كما يقول -: "يضعون على رؤوسهم بياضاً، ويحملون في صدورهم سواداً، لم يرسموا لأنفسهم نَحْلَةً دينيةً، وإنما هي الغواية لعبت بعقولهم، وإكبار خصوم الدِّين الذي ران على قلوبهم؛ فانطلقوا إلى القرآن الكريم يؤولونه على ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجاتٍ في نفوس ساداتهم، يفعلون هذا

(1) بلاغة القرآن، (ص 143).

(2) الباطنية: فرقٌ كثيرة، يجمعها أنَّ للملَّة باطنًا يناقض ظاهرها، وأنَّ للخطاب الشرعي أسراراً وبواطنٍ خُصُّوا بمعرفتها دون غيرهم من الخلق، وهم على صنفين: القرامطة المظهرين للرِّض، والاتحادية الحلولية من غلاة الصَّوفية، وبعض غالبية المتكلمين، والجميع يعتقد أنَّهم الواصلون إلى البلاغ الأكبر، والتأموس الأعظم، فطووا بساط التَّكليف، وحطُّوا أعباء الشَّرْع عن المتعبدين، وسلَّطوا النَّاس على اتِّباع اللَّذَّات، وطلب الشَّهوات، وقضاء الوطر في المباحات والمحرمات، ولا يعتقدون وجوب الصَّلوات الخمس، ولا الزَّكاة، ولا صيام رمضان، ولا حجَّ بيت الله العتيق، ويقولون أنَّ الصَّلاة معرفة أسرارهم، والصَّوم كتمان أسرارهم، والحجَّ زيارة شيوخهم المعظَّمين. ينظر: فضائح الباطنية لأبي حامد الغزالي، (ص 14-47)؛ والملل والنحل للشَّهرستاني (1/192)؛ والصَّفدية لابن تيمية (1/93).

(3) المجوس: هم عبدة النيران القائلين إنَّ للعالم أصلين: نور، وظلمة، ينظر: الملل والنحل للشَّهرستاني، (2/38)؛ وبيان تلبس الجهمية لابن تيمية، (1/105).

(4) بلاغة القرآن، (ص 143).

ولا يرقبون في اللُّغة ذِمَّةً، ولا يرعون لِسُنَّةِ أَفْضَلِ الْخَلِيقَةِ حُرْمَةً، وتراهم ينبذون ما يقرره أئمة العربية، أو أئمة الدِّين نبذًا لا يَتَكَيُّ على دليلٍ، ويطلقون ألسنتهم في هؤلاء الأئمة الذين خدموا الدِّين والعلم والأدب، وإنما يعرف فضلهم العالم النَّاقِذُ النَّبِيلُ". (1)

ثم تطرَّق لذلك الكاتب، فقال: "ومن هؤلاء النَّفَرِ شَخْصٌ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَخُوضَ فِي آيَاتِ اللَّهِ كَالَّذِينَ خَاضُوا فِيهَا عَلَى عِمَايَةٍ؛ فَكَتَبَ جُمْلًا قَذْفَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ وَسَاوِسِهِ، وَسَمَّاها: تَفْسِيرًا، بَلْ تَنَاهَى فِي الْإِفْتِتَانِ بِهَا؛ فَسَمَّاها: (الهداية والفرقان)، والذي يقرأ هذه الجمل لا يرتاب في أَنَّ صاحبها جامدٌ على المحسوسات، جاحدٌ لكثيرٍ مما أخبر به القرآن، مِنْكَرٌ لِأَحْكَامِ قَرَّرَهَا الْقُرْآنُ، وَالسُّنَّةُ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ مِنْ بَعْدِهِمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى إِنْكَارِهِ بِمَا يَرْتَكِبُهُ فِي الْآيَاتِ مِنْ سُوءِ التَّأْوِيلِ". (2)

ثم شرع الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - بعد ذلك بتنفيذ تلك الآراء، والتأويلات الباطلة فقرةً فقرةً، كما هي عادته في إيراد كلام المؤلف، ثم تعقُّبه في ذلك بكلِّ قُوَّةٍ وَإِنْصَافٍ، معتمداً في ذلك على أدلة الكتاب، والسُّنَّةِ، والإجماع، والعقل، والفطرة. (3)

ومن جميل حُججه في ذلك قوله في معرض رَدِّهِ عَلَى الْكَاتِبِ فِي إِنْكَارِ الْجَنِّ: "وإنما يُنْكَرُ الْجَنُّ مِنْ جَمْدِ عَقْلِهِ فِي دَائِرَةِ الْمَحْسُوسَاتِ لَا يَتَخَطَّاهَا أُنْمَلَةٌ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْعَقْلَ وَحْدَهُ لَا يَصِلُ إِلَى الْعِلْمِ بِوُجُودِهِمْ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِقَامَةَ الدَّلِيلِ عَلَى نَفْيِهِمْ، بَلْ إِذَا سُئِلَ عَنْهُمْ وَهُوَ صَحِيحُ النَّظَرِ، مُجَرَّدٌ مِنْ كُلِّ تَقْلِيدٍ أَقَرَّ بِإِمْكَانِ وَجُودِهِمْ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ كُلِّ مَوْجُودٍ أَنْ يُدْرَكَ بِإِحْدَى الْحَوَاسِ الْخَمْسِ؛ فَقُدْرَةُ اللَّهِ تَسَعُ خَلْقًا يَنْشَأُ مِنْ عُنْصُرٍ لَطِيفٍ؛ فَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ النَّظَرُ.

وَإِذَا أَقَرَّتِ الْعُقُولُ إِمْكَانَ شَيْءٍ، وَأَخْبَرَ الدِّينَ الْقَائِمَ عَلَى الْبَرْهَانِ بِوُجُودِهِ، تَلَقَّيْنَاهُ بِالْقَبُولِ، وَلَمْ نَفَرِّقْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَدْرَكَاهُ بِالْمُشَاهَدَةِ، أَوْ ثَبَتَ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ مُبَاشَرَةً". (4)

(1) بلاغة القرآن، (ص 144).

(2) المرجع السابق، (ص 144-145).

(3) ينظر: منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية للشيخ محمد إبراهيم الحمد، (222/1).

(4) بلاغة القرآن، (ص 158).

كما أن له كلامًا حول أنواع تفسير القرآن، كالتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير الباطني، والتفسير الإشاري. (1)

وهكذا يتبين اعتماد الشيخ الخضر القرآن مصدرًا أساسًا في الدعوة والإصلاح، حيث وجّه بالغَ اهتمامه وعنايته إليه، بل ليس من المبالغة أن يقال: إنَّ الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - أمضى جُلَّ حياته في التَّفَقُّه في كتاب الله، والدَّعْوَة إلى سبيله، وبيان فضائله، والدِّفاع عنه، إلى جانب ما عمله من تفسير بعض الآيات القرآنية الكريمة، وتقريره لبلاغة القرآن، وإعجازه، وفصاحته في مقالاته، وإبداء رأيه في تفسير القرآن، ونقل معانيه إلى اللغات الأجنبية، أو ترجمته إلى اللغات الأخرى، وكذا التَّصَدِّي لكلِّ مَنْ حاول تحريف آياته، أو راح يهذي في تأويلها، أو يُلحد بها.

(1) ينظر: بلاغة القرآن، (ص 24-29).

المبحث الثاني: السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ.

إذا كان القرآن الكريم قد وضع أُسس التشريع الإسلامي، وقواعد الأحكام، فإنَّ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ جاءت له عضيداً، ومن لوازم الإيمان بالقرآن الكريم الإيمان بالسُّنَّةِ، وقد أفنى كبار علماء المسلمين أعمارهم في العناية بها، وحفظها من التَّبدِيلِ، والتَّزْوِيرِ، والتَّشْكِيكِ، فقوَّةُ المسلمين وفلاحهم وسعادتهم تكمن في التَّمَسُّكِ بكتاب الله، وسُنَّةِ رسوله ﷺ، ولولاها لاضمحَلَّ الدِّينُ، ولذلك تنوعت أفكار أعداء الإسلام في النِّيل منها، وإبطال العمل بها، إلا أنَّ الله حفظها بما حفظ به كتابه الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

والشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - له جهودٌ مباركةٌ في تقرير هذا الأصل العظيم، وقد اعتمده - إلى جانب القرآن الكريم - كمصدرٍ للتلقِّي وتقرير المسائل العلمية، ويرى عصمته، ويستمد منه عقائده، وأحكامه، وسائر أمور دينه.

كما أنه - رَحِمَهُ اللهُ - قد عني بالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ عنايةً عظيمةً؛ حيث تعلَّمها، وتفقَّه فيها، وعَلَّمها، وكان معظِّماً لها، منافعاً عنها، إلى غير ذلك من مظاهر عنايته بها، وفيما يلي بيان لبعض الأمور التي تدلُّ على ذلك⁽¹⁾:

(1) ينظر: منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقيدية والفكرية للشيخ محمد إبراهيم الحمد، (247-225/1).

المطلب الأول: مفهوم السُّنة عند الشيخ الخضر، وبيان منزلتها، وحجّيتها.

بيّن الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - مفهوم السُّنة، وأنها في أصلها اللُّغوي: الطريقةُ حسنةٌ كانت أو سيئةً، ويُراد بها في اصطلاح الشريعة: قول النَّبيِّ - ﷺ -، وفعله، وتقريره.

وذكر لها إطلاقاتٍ عند العلماء، من ذلك أنها تُطلق على ما يقابل القرآن، وعلى ما يقابل البدعة، وعلى ما يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه. (1)

وفي مقال له بعنوان (السُّنة والبدعة) (2) تطرّق للأفعال النَّبَوِيَّةُ وأقسامها باعتبارٍ مختلفةٍ، فمنها ما يردُّ على وجه السُّنة الشرعيّة، ومنها ما يكون من قبيل العادة والجبلة، كالقيام، والقعود، والاضطجاع، ومنها ما يكون من قبيل الاختصاص به - ﷺ -، كالوصال في الصوم، والزيادة في النكاح عن أربع، ومنها ما عُرف كونه بياناً للقرآن، كقطعه يد السارق من الكوع بياناً لقوله تعالى: ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38].

وذكر أنّ من الأفعال النَّبَوِيَّةِ ما لا يكون جبليّاً، ولا خصوصيةً فيه، ولا بياناً، وصفته في حقّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - من وجوبٍ، أو ندبٍ، أو إباحةٍ، وأنّ أمّته تابعةٌ له في الحكم؛ إذ الأصل تساوي المكلفين في الأحكام، وتحدّث عن أفعاله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وتركه، وتقريراته، وما يفهم فيها معنى القربة، أو الاقتداء، أو خلافه، إلى غير ذلك مما يدور في هذا السياق. (3)

وعرض لأثر التفقه في السُّنة، وأنّ التفقه فيها وفي الكتاب العزيز على نحو ما كان معلوماً من طريقة أهل العلم يحفظ الحقوق، ويسير بالأمة في أهدى سبل المدنية. (4)

(1) ينظر: الشريعة صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 123).

(2) منشورٌ بمجلة "نور الإسلام" - الجزآن الثامن والتاسع من المجلد الثاني، شعبان 1350 هـ.

(3) ينظر: الشريعة صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 122-131).

(4) المرجع السابق، (ص 27).

كما تطرق لمفهوم الحديث المتواتر والآحاد، واختلاف العلماء في ضبطهما، ومفهوم الحديث الصحيح، والحديث الضعيف، ومصطلح الرواية والدراية، إلى غير ذلك من المسائل المتعلقة بعلم الحديث ومصطلحه، متبعا في ذلك كله ما قرره أئمة الحديث وحفاظه. (1)

وفي السياق نفسه، بيّن الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - في كثير من أبحاثه ومقالاته، ومحاضراته منزلة السُّنَّة النبوية، وحجيتها، وقرّر أنّها هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، وأنّ الحديث النبوي مستقلّ بتشريع الأحكام، ومعدود في منزلة القرآن في العمل بتحليله وتحريمه، ويستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7]، وأنّ الحديث إذا كان بمنزلة القرآن في التشريع فلا يعدل المجتهد عن العمل بحديث إلا إذا ثبت لديه نسخه، أو ظفر بدليل أرجح منه في السُّنَّة، أو أقوى في وجه الدلالة. (2)

وفي مقال له بعنوان: (الحديث الصحيح حجة في الدين) (3) يقرّر حجّية الحديث النبوي في تقرير الشرائع بقوله - رَحِمَهُ اللهُ -: "والحديث الصحيح: هو الذي يرويه عدل ضابط عن عدل ضابط، وهكذا إلى النبي - ﷺ -، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم على أنّ الحديث الصحيح حجة في الدين، ووقائع احتجاجهم بالحديث النبوي كثيرة لا يسع هذا المقال ذكرها". (4)

وفي مقال له بعنوان (وجوب العمل بالحديث الشريف) (5) يقرّر أنّ الحديث الوارد في تقرير حكم شرعي يأتي على ثلاثة أوجه:

أحدها: ما يكون موافقا للقرآن من كل جهة، فيكون توارد القرآن والحديث على الحكم الواحد من قبيل تظافر الأدلة، وهذا الوجه من التأكيد يدل على شدة عناية الشارع بالحكم.

(1) ينظر: الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، (ص 23-85152-153-154-167).

(2) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 20-21)؛ والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 78-79).

(3) منشور بمجلة "لواء الإسلام" - العدد الثاني عشر من السنة الثامنة.

(4) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 22).

(5) منشور بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء الخامس من المجلد الثالث عشر، ذو القعدة 1359هـ.

الثاني: ما يكون بياناً لما جاء مجملاً في القرآن، فيتعيّن الأخذ بهذا البيان متى ورد في الصحيح؛ إذ لا بيان بعد رسول الله - ﷺ -، فالله تعالى يقول: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، ومثال هذا الأحاديث المفصلة لأحكام الصلّاة، أو الزكاة، أو الصيام.

الثالث: ما يُوجِبُ حكماً لم يُفهم إيجابه من القرآن؛ كحديث رجم الزّاني المحصّن⁽¹⁾، أو يُحرّم حكماً لم يفهم من القرآن تحريماً؛ كحديث تحريم الجمع بين المرأة وعمّتها أو خالتها في عصمة⁽²⁾، وحديث: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ».⁽³⁾

ونراه يشنّع على من ينكر العمل بالحديث، ويقرّر أنّ العمل بالحديث كان دأب السلف الصالح ومن تبعهم، حتى أخذت الرّندقة تعبت من وراء ستارٍ، فكان من مكايدها أن أجرت على السنة شياطينها أنّ مأخذ الدّين هو القرآن وحده، وأنّ السّنة لا تستقلّ بإنشاء الأحكام، ويرى أنهم يقولون هذا؛ لیسقطوا جانباً كبيراً من أحكام الإسلام⁽⁴⁾، وأنّ إنكار العمل بالأحاديث النبویّة الصحيحة إنّما نشأ عن زيغ العقيدة.⁽⁵⁾

(1) أحاديث رجم الزّاني المحصّن كثيرة، منها حديث عمر الطويل في خطبته بمعى، وفيه: «والرّجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى إذا أحصن من الرّجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الحبلی من الزنا إذا أحصنت، (168/8 - رقم 6830)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الثّيب في الزنا، (1317/3 - رقم 1691).

(2) ولفظ الحديث: «هَمَى النَّبِيُّ - ﷺ - أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا، وَالْمَرْأَةُ وَخَالَتُهَا». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، (12/7 - رقم 5110)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمّتها أو خالتها في النكاح، (1030/2 - رقم 1408).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع المستفيض، (170/3 - رقم 2645)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، (1071/2 - رقم 1447).

(4) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 20-21).

(5) ينظر: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 142).

ثم بيّن بعد ذلك أنّ الحديث الشّريف إذا قرّر حُكْمًا سكت عنه القرآن وجب الأخذ به؛ لأنّ السُّنَّةَ أصلٌ مستقلٌّ بالتّشريع، وإن كانت رتبها دون رتبته. (1)

ثم يقول بعد ذلك: "ولنا على هذا أدلّة من القرآن، والسُّنَّة، وعمل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصّحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ -" (2)، ثم شرع في تفصيل ذلك. (3)

وبعد أن أقام - كما يقول - الحجج الدّالّة دلالة قاطعة على أنّ السُّنَّة أصلٌ مستقلٌّ بالتّشريع، قرّر أنّ "مُنْكَرَ العمل بالحديث النبوي إنما هو خارجٌ عن دائرة الدّين، أو ضالٌّ عن سبيله بجهالة". (4)

(1) ينظر: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 142-143).

(2) المرجع السابق، (ص 143).

(3) ينظر: المرجع السابق، (ص 143-147).

(4) المرجع السابق، (ص 147).

المطلب الثاني: احتفاؤه بمصادر الحديث النبوي، والتَّنويه بشأنها ومكانتها في الشريعة.

لقد أبان الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - عن اهتمام كبير بمصادر السُّنَّة النَّبَوِيَّة، ونالت احتفاؤه وتنويهه بمنزلتها وأثرها في حفظ الشريعة الإسلامية، وذلك من خلال كثرة الرجوع إليها، والاستشهاد بها، خاصة (الصحيحين)، و(موطأ) الإمام مالك، وسائر السنن.

وظهرت عنايته الخاصة بالصَّحَّيْحين من خلال تقديمهما على غيرهما، وأتَّهما أصحُّ الكتب بعد كتاب الله تعالى، حيث يقول: "ومزية (الصَّحَّيْحين) على هذا المذهب في أنَّ ما رُوي فيهما صحيح لا يُحتاج إلى النَّظر والبحث؛ بخلاف ما يُروى في غيرهما من كتب الحديث، فإنَّما يُعتمد في الاستدلال بعد النَّظر في سنده، ومعرفة رتبته". (1)

ويقول -أيضاً-: "والحديث الذي يرويه أحد الأئمة، ويَصِلُهُ بما ينبئ عن صحَّته، يسوغ للفقهاء متى عرف مذهب الراوي أن يعتمد على صحَّته، ومن هذا القبيل ما يرويه البخاري ومسلم في صحيحهما، وأما ما يُروى في الكتب التي لا تخلو من الضَّعيف؛ فلا بدَّ من النَّظر في سند الحديث، والبحث عن سيرة مَنْ يُجهل حاله؛ حتى يكون على بَيِّنَةٍ من أمره". (2)

بل يقرّر - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ أكثر ما في الصَّحَّيْحين مما لم يبلغ درجة التَّواتر يفيد العلم كالتواتر، ويكون من قبيل المتواتر الخاصِّ، فيقول: "والحقُّ أنَّ في الأحاديث التي لا تبلغ مبلغ التواتر ما يأخذ حكم المتواتر في إفادة العلم، وهو ما يكون رواه من الصِّدْق والضَّبْط في مرتبة يطمئن بها السَّامع إلى روايتهم اطمئناناً لا يخالجه تردُّد؛ فالعلم يحصل من كثرة رواة الخبر تارةً، ويحصل من تحقُّق أمانتهم وضبطهم تارةً أخرى، وجمهور ما في البخاري ومسلم من هذا القبيل، وهذا ما يسمِّيه بعض الحفاظ: متواتراً خاصّاً؛ نظراً إلى أنَّ أهل الحديث قد يحصل لهم العلم برواية رجلين عُرفا بالاستقامة والضَّبْط ما يحصل لغيرهم من رواية جمعٍ كثيرٍ يستحيل تواطؤهم على الكذب". (3)

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، (ص 154-155).

(2) المرجع السابق، (ص 11).

(3) المرجع السابق، (ص 155).

وفي بيانه لحفظ الله تعالى لشريعته في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، بيّن أحد أوجه هذا الحفظ، وهو حفظ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ بجهود وعناية الصَّحابة والتَّابعين، وأئمة الحديث من بعدهم، من خلال الرِّواية والتَّدوين لحديث رسول الله - ﷺ -، وتحدّث عن الإمام البخاري - رَحِمَهُ اللهُ -، وتأليفه كتاب (الجامع الصحيح)، وكيف تيسّر له ذلك، وعن سبب تأليفه، وحسن أسلوبه فيه، ووجه تكراره للأحاديث، وعلى جمعه بين الرواية والتَّفَقُّه في الحديث، وعلى استحسان شيوخه له عند عرضه عليهم، وعلى تضافر العلماء على صحّته، وترجيحه على غيره من كتب الحديث، وعلى إقبال النَّاس على روايته، ودراسته، وشرحه، والتعليق عليه، ومدى أثر ذلك في تثبيت دعائم الإسلام، وحمايتها من أن تعبت بها أصابع الجاحدين.

وذكر جملةً من الوجوه التي بوأت (صحيح البخاري) هذه المكانة السَّامِقة في حفظ دين الله تعالى، منها: تلقي الأُمَّة الإسلامية لهذا الكتاب بالقبول والتَّسليم، ومنها سبقه في الوجود والظهور على سائر الكتب السِّتَّة، ممَّا كان له الأثر الطَّيِّب في توجيه أصحابها، وحسن تأليفهم فيها، ومنها رجوع المجتهد عن رأيٍ رآه إذا وقف على الحديث في البخاري يعارض هذا الاجتهاد، منها: مساعدته على حفظ اللغة العربية لإقامة قواعدها، وتأييد دعائمها، ومنها: اشتغال العلماء بـ (الجامع الصَّحيح) من خلال كثرة شروحه واختصاراته، والكشف عن مقاصد أبوابه وأحاديثه، وإيضاح مشكله، ووصل معلّقه، فجمعوا بذلك علماً غزيراً، وخلّفوا آثاراً زخرت بها المكتبات الإسلامية، لازال صداها إلى يوم الناس هذا. (1)

قال - رَحِمَهُ اللهُ - في هذا الصدد: "ومن هذه الوجوه: أنَّ نفرًا من زائغي العقيدة يحاولون اليوم وقبل اليوم أن يطرحوا السُّنَّة النَّبَوِيَّة من أصول الشَّريعة؛ بزعم أنَّ الأحاديث غير ثابتة الرِّواية عن النَّبي - ﷺ -، ووجود (الجامع الصحيح) - وهو كتابُ عرفه المسلمون بصحة السَّنَد، وأجمعوا على تلقيه بالقبول - يدفع هذا الزعم، ويكشف عن جهل صاحبه، أو سوء طويته". (2)

(1) ذكر ذلك في محاضرة له بعنوان: "صحيح البخاري وأثره في حفظ الشريعة"، ينظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 119-120).

(2) المرجع السابق، (ص 120).

ومن مظاهر احتفائه بكتب السُّنَّةِ عنايته بتراجم مصنِّفيها، وتعظيمه لعلماء الحديث ورواته، وثناؤه عليهم، والتنويه بجهودهم في خدمة الحديث، ونشر السُّنَّةِ، والدَّبِّ عنها، ووضعهم لعلوم الحديث التي بها يميَّز بين الصَّحيح والسَّقِيم. (1)

كما أشار - رَحِمَهُ اللهُ - إلى أنَّ هؤلاء العلماء لم يقتصروا على علم الرواية الذي يُعنى برواية الحديث، ومعرفة علله، والصَّحيح منه والضَّعيف، بل اجتهدوا في استخراج أحكام الشَّريعة وحكَمها من الحديث النَّبوي، وخدموا المتن كما خدموا السَّنَد، وهو ما يُعرف بعلم الدَّراية، قال - رَحِمَهُ اللهُ -: "فوضع العلماء منذ ذلك العهد عِلْمَيْن: علم رواية الحديث، وهو يبحث فيه عن كيفية اتِّصال الحديث برسول الله ﷺ - من حيث أحوال الرواة، وعدالتهم، وكيفية السَّنَد اتِّصالًا وانقطاعًا.

وعلم دراية الحديث، وهو علمٌ يبحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، وعن المراد منها، مع مراعاة ضوابط العربية، وقواعد الشَّريعة، ومطابقة أحوال النَّبيِّ ﷺ -". (2)

ومن ذلك: ترجمته لعددٍ من علماء الحديث ورواته، ومما كتبه في ذلك: (نظرة في حياة الإمام مالك بن أنس) (3)، و(أبو داود وكتابه السنن) (4)، و(أبو بكر ابن العربي) (5)، وكذلك ما ذكره في كتابه (محاضرات إسلامية) من الإشادة بعلماء الحديث في الأندلس كبقِّي بن مخلد، ومحمد بن وضاح، و ابن عبد البرِّ، وغيرهم. (6)

(1) ينظر: الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، (ص 151).

(2) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 22).

(3) ينظر: تراجم الرجال، (ص 55-69).

(4) المرجع السابق، (ص 86-88).

(5) المرجع السابق، (ص 115-123).

(6) ينظر: محاضرات إسلامية، (ص 65-66).

المطلب الثالث: كثرة استشهاده بالحديث، وعنايته بالعزو، والتّصحيح، والتّضعيف.

كان الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - كثيرَ الاستشهاد بالحديث النبويّ، معنيًا بالعزو إلى المصادر التي يستقي منها، حريصًا على بيان صحّة الحديث الذي يورده، وكان كذلك دأبه منذ بواكير عمره، وبداياته في الكتابة والنّشر إلى أن توفاه الله - عَزَّوَجَلَّ -، وقلما نقف على محاضرة له، أو مقال، أو كتاب، أو ردٍّ، أو تعقيب، أو بحث في أيّ شأنٍ من الشؤون، إلّا وتراه يورد في ذلك ما يناسب المقام من الأحاديث النبويّة الشّريفة.

وإذا أورد حديثًا عزاه إلى مصدره من السّنة، وبيّن صحته - في الغالب -، وكثيرًا ما يميل إلى الترجيح في المسائل المختلف فيها بحسب ما يتبين له من صحّة الأحاديث أو ضعفها. ومن أمثلة ذلك جوابه عن سؤال حول مشروعية إحياء ليلة النصف من شعبان، وما ورد في ذلك من الدُّعاء، والصلاة، وما يستتبع ذلك من الثواب، وهل هذه الليلة هي الليلة التي يُفَرَّقُ فيها كلُّ أمرٍ حكيم؟⁽¹⁾

فأجاب عن ذلك بأن ذلك الاحتفال لم يكن معروفًا في عهد النّبوة، ولا الصّحابة، ثم أطلّ في ذكر الخلاف، وانتهى به البحث إلى قوله: "ويتلخص الجواب: في أنّ ليلة النّصف من شعبان ليست هي الليلة المرادة بالليلة المباركة الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: 3]. وأنّ الصلاة المخصوصة التي يفعلها بعض الناس قد طعن كثيرٌ من الحفّاظ في صحّة حديثها، وأدخلوها في قبيل البدعة التي هي طريقة في الدين تُخَرِّعُ لِيُضَاهِي بها الطريقة الشّريعية.⁽²⁾

أما إحياء الرّجل لها بالعبادة في جملة ما يتيسر له إحياءه من الليالي؛ رجاء أن يكون لها - في استجابة الدعاء، وقبول العبادة - المزيّة التي وردت في أحاديث فضلها⁽³⁾، فليس فيه من بأس، وهذه الأحاديث تكفي داعيًا للإقبال فيها على العبادة، وتنفي أن يكون قيام الرّجل فيها

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 164).

(2) هذا تعريف الإمام الشاطبي للبدعة. ينظر: كتاب الاعتصام للشاطبي، (47/1).

(3) كأنّ العبارة فيها تقديم وتأخير، ولعل صوابها: (التي وردت في فضلها أحاديث). والله أعلم

بشيءٍ من العبادة المطلقة عن التقييد بعددٍ معينٍ، أو هيئةٍ مخصوصةٍ، وإن لم تبلغ هذه الأحاديث درجة الصَّحيح". (1)

وكذلك فعل عند حديثه عن المهدي، وذلك في مقال عنوانه: (نظرة في أحاديث المهدي)⁽²⁾ حيث تطرق للأحاديث الواردة فيه، وما قاله الأئمة في ذلك، وما جاء من الخلاف في شأن تلك الأحاديث، ثم قال في نهاية البحث: "الخلاصة أنَّ في أحاديث المهدي ما يُعَدُّ في الحديث الصَّحيح، وبما أُنِي درست علم الحديث، ووقفت على ما يُمَيِّز به الطيبُ من الخبيث أُراني مُلَجَّجًا إلى أن أقول - كما قال رجال الحديث من قَبْلِي -: إِنَّ قضية المهدي ليست بقضية مصطنعة". (3)

كما كانت للشيخ العناية الظاهرة في عزو الحديث النبوي إلى مصادر السُّنَّة المختلفة، محافظًا على طريقة أهل العلم في إيراد الأحاديث، ومن ذلك على سبيل التمثيل:

قوله: "جاء في الجامع الصحيح للإمام البخاري..."⁽⁴⁾، وقوله: "والحديث الذي أشار إليه الكاتب مرويٌّ في صحيح البخاري ومسلم، ولفظه في البخاري"⁽⁵⁾، وقوله: "وجاء في معنى خبر أبي هريرة حديث رواه البخاري ومسلم"⁽⁶⁾، وقوله: "فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند حسن عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: ..."⁽⁷⁾، وقوله: "وأخرج الإمام أحمد والترمذي وصححه من حديث جابر بن سمرة قال: ..."⁽⁸⁾، إلى غير ذلك مما هو مثل ما ذُكِرَ أو قريبٌ منه.

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 164-165).

(2) منشورٌ بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء الأول من المجلد الثاني والعشرين، محرم 1369 هـ.

(3) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، (ص 171).

(4) بلاغة القرآن، (ص 115).

(5) المرجع السابق، (ص 176).

(6) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 18).

(7) نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 220).

(8) المرجع السابق، (ص 221).

ومن عنايته - رَحِمَهُ اللهُ - بالحديث وعلومه، التنبية على الضعيف والموضوع، وذكر أسباب الوضع في الحديث النبوي، وأنَّ أهم سبب حمل الزنادقة على وضع أحاديث تناقض المحسوس، أو تصادم القواعد العلمية الصحيحة؛ هو إدخال الريبة في نفوس ضعفاء الأحلام؛ حتى يقعوا في ريبة، وتترزع من نفوسهم عقيدة أنَّ الإسلام تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ؛ ذلك لأنَّ أعداء الإسلام قد أدركوا أنَّه شريعةٌ محكمةٌ، ودينٌ قيِّمٌ، ولم يجدوا في مبادئه وتعاليمه ما تتجافى عنه الفطرة السليمة، أو ينبو عنه النَّظر الصحيح، واندمجوا في جماعتهم، فصنَّفوا أحاديث يناقضها المحسوس، أو يصادمها المعقول، أو تشهد أذواق الحكماء بسخافتها. (1)

ومن بين تلك الأسباب التي ذكرها: اختراع أهل الأهواء والبدع الروايات التي يؤيدون بها عقائدهم الفاسدة، ويقررون بها مذاهبهم في مسائل الاعتقاد والفقه، أو الغلو في حبِّ آل البيت أو غيرهم، أو التزلف للحكام وذوي السُّلطة، أو بيان فضائل البلدان والمدن، أو دواعي النَّفس المتجرِّدة عن طلب الحقِّ كالْبغض، والحسد، والتماس الدُّنيا، وحبِّ الشهرة، أو قد يكون من قلة ضبط الرُّواة وتثبتهم، إمَّا بضياغ الكتب أو احتراقها فلا يُوفَّق الرَّاوي لضبط حفظه فيقع منه الغلط، وقد أورد الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - أمثلة كثيرة في هذا المقام. (2)

ومن اعتنائه بهذا الباب بيانه للعلل التي يُردُّ بها الحديث بالنَّظر لمتنه، فأشار إلى "أنَّ العلماء لم يقفوا عند نقد الحديث من حيث سنده، بل تعدَّوا إلى النَّظر في متنه، فقضوا على كثيرٍ من الأحاديث بالوضع وإن كان سندها سالمًا إذا وجدوا في متونها عللاً تقضي بعدم قبولها". (3)

وذكر جملةً من هذه العِلل منها: مصادمة الحديث لصريح القرآن الكريم، ومناقضته للسُّنة الصَّريحة المسلَّمة، ومخالفته للمحسوس، واشتماله على بعض المجازفات التي يرتفع عنها كلام الثُّبوة، وسماجة الحديث، وكونه مما يُسخر منه، وتضمُّنه خبراً يشهد التاريخ الصحيح ببطلانه، وتضمُّنه أمراً شأنه أن تتوفر الدَّواعي إلى نقله، ويصرح الحديث نفسه بأنها وقعت في مشهدٍ

(1) ينظر: المغني عن الحفظ والكتاب، (ص 6)؛ والشرعية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 184).

(2) ينظر: المغني عن الحفظ والكتاب، (ص 7-8)؛ والشرعية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 149-150).

(3) ينظر: المغني عن الحفظ والكتاب، (ص 13).

عظيم من الصَّحابة، ثم لا يشتهر، ولا يرويه إلا واحد، ومنها مجيء الحديث على خلاف مقتضى الحكمة المتفق عليها بين ذوي العقول السليمة، وغير ذلك مما فصله. ⁽¹⁾

(1) ينظر: المغني عن الحفظ والكتاب، (ص 13-16).

المطلب الرابع: محاربته للانحرافات والتأويلات الفاسدة في فهم الحديث النبوي.

لقد حمل الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - على عاتقه نصيباً عظيماً من شرف الذِّبِّ عن سنَّة المصطفى - ﷺ -، وردِّ التأويلات الباطلة، والشُّبه الفاسدة التي يسلكها أعداء المِلَّة وأعدائهم، من أجل الطَّعن في الشَّريعة الإسلامية، وتقدير الباطل المبني على الفهم السَّقِيم لنصوص الأحاديث النَّبَوِّية، سواء أكان ذلك السبيل عن قصدٍ أو جهلٍ، وأمثلة ذلك كثيرة.

ومن أمثلة هؤلاء أقوامٌ تعسَّفوا في تأويل الأحاديث النَّبَوِّية، واجتهدوا في صرفها عن ظواهرها المرادة شرعاً، خصوصاً من يسلكون مسلك التأويل الباطني، ومن نحاً نحوهم؛ فقد كان للشيخ الخضر مواجهات كثيرة معهم.

ومن ذلك قوله في معرض حديثٍ له عن بناء الشَّريعة على حفظ المصالح، ودرء المفاسد، حين بيَّن أنَّ من أقوال النَّبِيِّ - ﷺ - ما يحمله المجتهد على أنَّه صادرٌ منه بصفة الإمامة؛ لأنَّه حُكْمٌ عامٌّ لسائر أحكام الشَّريعة التي يراد منها التبليغ، قال - رَحِمَهُ اللهُ -: "هذه من الوجوه التي يدخل فيها الاجتهاد الصَّحيح عند التَّفَقُّه في الأدلة السَّمعية، وها هنا قد تزلُّ أقدام بعض النَّاظرين في عجلٍ، أو يفتضح بعض من يكيدون للشَّريعة من طريق التَّأويل؛ حيث يعمدون إلى بعض النُّصوص الشرعية، ويذهبون في تفسيرها مذهباً يخرجون به عن مقاصد الشَّريعة، أو ينقضون به أصلاً من أصولها.

وجمهور أهل العلم على أنَّ الأحكام المقرَّرة بطريق السَّمع، وليس للمجتهد أن يتعدَّها هي ما جاء في كتابٍ، أو سنَّةٍ، أو إجماعٍ، وقول الصحابي فيما لا يقال بالرأي هو من قبيل المرفوع فهو داخلٌ في السنَّة.

أما قوله الذي يمكن أن يكون اجتهاداً، فليس بحجَّة تقطع غيره عن الاجتهاد؛ لأنَّ الصحابي غير معصومٍ عن الخطأ، ولأنَّ الصَّحابة كانوا يختلفون فيما بينهم من غير إنكارٍ، وما يقع في (موطأ مالك) من ذكر قول الصحابي في مقام الاحتجاج إنما يأتي به الإمام في معنى التأييد لاجتهاده، أو للترجيح بين الأخبار عند اختلافها". (1)

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، (ص 21) .

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قول علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم): "ذلك من الأغراض التي أنكر النبي ﷺ - أن يكون له فيها حكمٌ أو تدبيرٌ، فقال - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»⁽¹⁾ ".⁽²⁾

قال الشيخ الخضر معقبًا على التأويل الفاسد لحديث النبي ﷺ - : "كيف ينكر النبي - ﷺ - أن يكون له في سياسة الأمة حكمٌ أو تدبيرٌ؟ ونحن إذا قَلَبْنَا نَظْرَنَا في سيرته نجده كان يحكم فيما شجر بين الناس، ويقيم الحدود والزواجر على من يجني على نفسٍ، أو مالٍ، أو عرضٍ، أو عقلٍ، ويجمع المال من حيث أمره الله، وينفقه في وجوه المصالح، وإسعاد ذوي الحاجة، ويتولى عقد التحالف، والمعاهدات، والصُّلح، وإعلان الحرب، ويدبّر أمرها، ويرسم لها الخطط مع المشاورة في هذا السبيل والأخذ بأرجح الآراء، يتولّى هذه الأمور بنفسه، وقد يندب للقيام بها من فيه الكفاية والخبرة.

وهل بعد هذا التَّصَرُّفُ الثَّابِتُ كِتَابًا وَسُنَّةً متواترةً يخرج كتاب (الإسلام وأصول الحكم) في وادٍ حافلٍ بعلماء الشريعة، ويصيح بأن النبي ﷺ - أنكر أن يكون له في شؤون الأمة حكمٌ أو تدبيرٌ؟!.

وأما حديث «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» فَإِنَّهُ وَارِدٌ فِي واقعة تأبير النَّخْل، فيحمل علي هذا المعنى، وما شاكله من فنون الزِّراعة والصنائع وغيرها من وسائل العمران المادية".⁽³⁾

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره - ﷺ - من معاش الدنيا، على سبيل الرأي، (4/1836 - رقم 2362).

(2) الإسلام وأصول الحكم، (ص 87).

(3) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 227-228).

المبحث الثالث: الإجماع.

الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، ومن الموضوعات التي يتناولها العلماء بالبحث، والعناية، والدراسة، فنجدهم يبحثون في مفهومه، وحجتيته، ومكانته، وأنه حقٌّ مقطوعٌ به في دين الله -وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ- وأصلٌ عظيمٌ من أصول الدين، وكونه يستمدُّ مكانته من كتاب الله، وسنة نبيه -وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ-.

وقد عرّفه الشيخ الخضر -رَحْمَةُ اللَّهِ- بقوله: "والإجماع: اتفاق كلمة المجتهدين على حكم شرعيٍّ، فإذا انعقد في عصر، لم يسغ لمجتهدٍ حَدَثٌ خَرَقَ سِيَاحَهُ بِالْخِلَافِ".⁽¹⁾

والشيخ الخضر -رَحْمَةُ اللَّهِ- كان معنيًا بالإجماع، وكان يعدُّه مصدرًا من مصادره الأساسية في تقرير المسائل الشرعية، فتارةً يستند على الإجماع في تأييد ما يراه، وتارةً يستند عليه بإبطال كلام الخصم، وتارةً يزيل الشبهة التي تثار حول الإجماع، إلى غير ذلك مما كان يتعرض له في باب الإجماع، ويمكن إجمال مظاهر عنايته بهذا الأصل فيما يلي:

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 80).

المطلب الأول: بيان منزلة الإجماع، وإثبات حجّيته.

من الموارد التي بها تُعرف بها منزلة الإجماع عدّه شرطاً من شروط تحقّق الاجتهاد، وهذا ما قرّره الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - حين عدّد مدارك الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، فيقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "يذكر الأصوليون في شرط المجتهد: أن يكون عارفاً بمواقع الإجماع، وهذا في الواقع شرطاً لصحّة الاجتهاد بالفعل، وليس بشرطٍ في بلوغ رتبة الاجتهاد، وإنما أخذوا هذا شرطاً لصحته؛ لئلا يقرّر الفقيه حكماً يخرج به عن الإجماع؛ إذ كلُّ فتوى يخرق بها صاحبها الإجماع هي في نظر أئمة الدّين باطلة". (1)

ومن ذلك - أيضاً - اعتباره جحد الإجماع وإنكاره من الأمور التي يكفر به الإنسان، ولا يُعدُّ في سلك المؤمنين، فقال: "فغير المؤمن بالله من يحدد بواجب الوجود، أو صفة من صفاته العلية؛ كالوحدانية، والقُدَم، والقدرة، والعلم، أو أنكر الملائكة، أو شيئاً من كتبه، أو أحد رسله، أو البعث، أو جحد ما وقع عليه الإجماع". (2)

ويحقّق القول في مفهوم الإجماع الذي يُعتبر منكراً كافراً فيقول: "ومن المحقّق أنّ الإجماع الذي يُعدُّ مُنكراً غير مسلمٍ، هو الإجماع الذي لا يقع فيه خلافٌ، ويكون معلوماً عند المسلمين ضرورةً؛ كالصلوات الخمس، وأوقاتها". (3)

وبين أنّ اعتماد المفتي على رأي الجميع أولى من اعتماده لرأيه، وأنّه سببٌ لسداد الرأي، وإصابة الحقّ فقال: "ومن أجل تعرّض الفرد للزلل في الرّأي، جُعِلَ الإجماع حجّةً في الشريعة؛ لأنّ الحكم يمرُّ على أفرادٍ كثيرين، فيتمحص الرّأي، ويتبيّن الحقُّ، ويقطع الحكم، ويرشد المسلمون". (4)

(1) الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 15).

(2) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 59).

(3) المرجع السابق، (ص 81).

(4) المرجع السابق، (ص 158).

وقال مبيِّنًا منزِعَ أَخَذِ حِجِّيَّةَ الإِجْمَاعِ: "ولم تؤخذ حِجِّيَّةُ الإِجْمَاعِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِنُصُوصٍ مُعَدودَةٍ، بَلْ حِجِّيَّتُهُ مِنْ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَأَحَادِيثَ شَتَّى، وَإِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَدُلُّ بِانْفِرَادِهِ عَلَى حِجِّيَّةِ الإِجْمَاعِ دَلَالَةً ظَنِّيَّةً؛ فَإِنَّ الظَّنِّيَّاتِ الْكَثِيرَةَ إِذَا تَوَارَدَتْ عَلَى مَعْنَى أَفَادَتْ عِلْمًا لَا تَخَالُجُهُ رَيْبَةٌ". (1)

ويقول في موضعٍ آخر: "وأما الإِجْمَاعُ، فَقَدْ أَرَيْنَاكَ وَجْهَ حِجِّيَّتِهِ فِيْمَا سَبَقَ، وَبَيَّنَّا لَكَ أَنَّهُ دَلِيلٌ قَاطِعٌ؛ لِأَنَّ شَوَاهِدَهُ عَدَّةٌ فِي دَلَائِلِ الشَّرِيعَةِ، جَاءَتْ فِي مَوَارِدَ شَتَّى مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهَذِهِ الشَّوَاهِدُ إِنْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَفِيدُ ظَنًّا رَاجِحًا، فَإِنَّ مَجْمُوعَهَا يَفِيدُ عِلْمًا رَاسِخًا". (2)

ويرى أَنَّ مِنْ مَوَارِدِ الزَّلْزَلِ فِي الْفَتْوَا الَّتِي لَا يَصِحُّ الْبَقَاءُ عَلَيْهَا، أَوِ الْمَتَابَعَةُ فِيهَا تِلْكَ الَّتِي فِيهَا مَخَالَفَةٌ لِلْإِجْمَاعِ. (3)

(1) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 58).

(2) المرجع السابق، (ص 107).

(3) ينظر: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، (ص 135).

المطلب الثاني: الاستدلال بالإجماع في تقرير المسائل العلمية.

تقرّر أنّ الإجماع دليلٌ وأصلٌ من أصول الاستدلال الشرعي، وأنّه حجةٌ ثابتةٌ، فلا غرو أن يستند إليه الأئمة في تقرير المسائل الشرعية، والإمام الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - من هؤلاء العلماء الذين أوردوا هذا الأصل في دراسة المسائل، واستنباط الأحكام، وهو كثيرٌ عنده، وسأقتصر على بعض النماذج الموضّحة للمطلوب:

من ذلك استدلاله به في معرض تقريره لحكم الإسلام فيمن بلغته الدعوة المحمّدية فلم يُسلم مع إيمانه بالله، وعمله الصالحات، أنّه من أهل النار، فقال: "وجواب ذلك: أنه انعقد إجماع علماء الإسلام على أن من بلغته الدّعوة بلوغاً كافياً، ولم يؤمن برسول الله - ﷺ -، فلا ينجو من العذاب الخالد".

ثم وضّح مستند إجماعهم بقوله: "ومستند الإجماع فيما أجمعوا عليه: أنّ الله أرسل الرسل - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بالمعجزات الواضحة، فمن لم يؤمن برسولٍ، فقد جحد تصديق الله لرسوله في دعوة الرسالة، ومن جحد تصديق الله لرسوله، فكيف يكون مؤمناً بالله؟! فلهذا حكم الله على من لا يؤمن بالمعجزات البينات بأن لا يكون مؤمناً به حقيقة". (1)

وفي معرض تقريره لذمّ اتّباع الهوى يقول: "مما تكلفت المشاهدة ببيانه، أنّ الاسترسال مع الأهواء كلّما دعت، ومحاذاة الأغراض أينما توجهت، يُفضي إلى فوات المصالح الأخروية والدُّنيوية، ويقضي بالتّخبط في مضاجع الفساد، وأشدّها وطأة قطع رابطة الأخوة بعد توكيدها، ولذلك انعقد الإجماع بين جميع الشرائع على ذمّ كلّ من اتخذ إلهه هواه". (2)

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 88).

(2) السعادة العظمى، (ص 55).

وفي حديثه عن شروط الشهادة الخاصة يقول: "يُشْتَرَطُ لَصَحَّةِ الشَّهَادَةِ عَلَى الرَّثَا أَرْبَعَةَ رِجَالٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَجِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: 15]، وقد انعقد الإجماع على اشتراط الذُّكُورَةِ فِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ". (1)

وَيَقَرَّرُ خَتَمَ النُّبُوَّةِ بِرَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - بِقَوْلِهِ: "إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنَ الْأَحَادِيثِ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ الصَّرِيحَةِ فِي أَنَّ النُّبُوَّةَ انْتَهَتْ بِنُبُوَّتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَعَلَى هَذَا انْعَقَدَ إِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَصْبَحَ بِمَنْزِلَةِ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ". (2)

وكَذَلِكَ اسْتَدَلَّ بِالْإِجْمَاعِ فِي تَقْرِيرِهِ مَسْأَلَةَ وَجُودِ الْجَنِّ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَنْكُرُ وَجُودَ الْجَنِّ إِلَّا مِنْ جَمْدِ عَقْلِهِ فِي دَائِرَةِ الْمَحْسُوسَاتِ لَا يَتَخَطَّاهَا قَيْدُ أَمَلَةٍ. (3)

(1) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، (ص 26).

(2) القاديانية والبهائية، (ص 17).

(3) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 219).

المطلب الثالث: نقض شبهاتٍ عن الإجماع.

وذلك من خلال ردوده الكثيرة على جمعٍ من الكُتَّاب والمفكرين، ومما جاء فيه من هذا القبيل تعقيبهِ على كلام علي عبد الرازق في مسألة إنكار الخلافة عندما قال: "ولا نقول مع القائل: من ادَّعى الإجماع فهو كاذبٌ". (1)

قال الشيخ الخضر معقِّباً على هذا الكلام: "انتزع المؤلف هذه الكلمة المروية عن الإمام أحمد من (تاريخ التشريع الإسلامي) للشيخ محمد الخضري (2) وأطلقها في طليعة الباب؛ لتثير في نفوس القارئ شكاً، وتجعلهم على ريبةٍ من حجِّية الإجماع، أطلق هذه الكلمة كأنه يجهل موردَها، ويجهل أنَّ الإمام أحمد لا يعني بها الإجماع المعروف في الأصول، وإنما يعني بها الرَّدَّ على بعض الفقهاء الذين ينظرون إلى الواقعة، حتى إذا لم يطلَّعوا على خلاف في حكمها، سمَّوه إجماعاً". (3)

ثم ساق كلام ابن القيم في المسألة قائلاً: "قال ابن القيم في كتاب (إعلام الموقعين): "ولا يقدِّم - يعني الإمام أحمد - عدم علمه بالمخالف، الذي يستبَّيه كثيرٌ من الناس إجماعاً، ويقدمونه على الحديث الصحيح، وقد كذَّب أحمد من ادَّعى هذا الإجماع، وكذلك الشافعي -أيضاً- نصَّ في (رسالته الجديدة) على أن ما لا يُعلم فيه بخلافٍ لا يقال له: إجماع... وقال عبد الله بن

(1) الإسلام وأصول الحكم، (ص 22).

(2) محمد الخضري: (1289-1345 هـ = 1872-1927م): هو محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري بك، باحث، خطيب، من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام، مصريٌّ، كانت إقامته في (الزيتون) من ضواحي القاهرة، وتوفي ودفن بالقاهرة، تخرج بمدرسة دار العلوم، وعين قاضياً شرعياً في الخرطوم، ثم مدرِّساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، مدة 12 سنة، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف، من كتبه "أصول الفقه"، و"تاريخ التشريع الإسلامي" و"إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء". ينظر: الأعلام للزركلي، (269/6).

(3) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 59).

أحمد بن حنبل (1): "سمعت أبي يقول: ما يدَّعي فيه الرجل الإجماع فهو كاذبٌ، من ادَّعى الإجماع فهو كاذبٌ، لعلَّ النَّاسَ اختلفوا، ولكنه يقول: لا تعلم الناس اختلفوا، أو لم يبلغني ذلك"، هذا لفظه... فهذا هو الذي أنكره الإمام أحمد والشافعي من دعوى الإجماع، لا ما يظنُّه بعض النَّاس أنه استبعادٌ لوجوده (2) (3).

ثم أردف قائلاً: "فالإمام أحمد بن حنبل إنما ينكر على الفقيه أن يسمِّي عدم علمه بالخلاف: إجماعاً، وعلى مثل هذا جرى ابن حزم في كتاب (الأحكام)، فقال: "تَحَكَّم بعضهم فقال: إن قال عالم: لا أعلم هنا خلافاً فهو إجماعٌ، وإن قال ذلك غير عالم فليس إجماعاً، وهذا قولٌ في غاية الفساد، ولا يكون إجماعاً" (4) (5).

وله نقضٌ آخر لشبهة متعلِّقة بالإجماع، أوردها علي عبد الرازق حيث قال: "لو ثبت عندنا أنَّ الأُمَّة في كلِّ عصرٍ سكنت على بيعة الإمامة، فكان ذلك إجماعاً سكوتياً (6)، بل لو ثبت أنَّ الأُمَّة بجمليتها وتفصيلها قد اشتركت بالفعل في كلِّ عصرٍ في بيعة الإمامة، واعترفت بها، فكان ذلك إجماعاً صريحاً، ولو نُقل إلينا ذلك لأنكرنا أن يكون إجماعاً حقيقياً، ولرفضنا أن

(1) عبد الله بن أحمد بن حنبل: (213-290هـ = 828-903م): هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي، أبو عبد الرحمن، الإمام، الحافظ، الناقد، محدث بغداد، روى عن أبيه شيئاً كثيراً، من جملته (المسند) كله، و(الزهد)، وعن يحيى بن عبدويه صاحب شعبة، وعن شيبان بن فروخ، وسويد بن سعيد، ويحيى بن معين، وخلقٌ كثيرٌ، حدث عنه النسائي حديثين في (سننه)، والبغوي، وابن صاعد، وأبو عوانة الإسفراييني، والخضر بن المثنى الكندي، وأبو بكر بن زياد، وخلقٌ كثيرٌ، له "الزوائد" على كتاب الزهد لأبيه، و"زوائد المسند" زاد به على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث. ينظر: تهذيب الكمال للمزي، (14/285)؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، (13/516).

(2) إعلام الموقعين، (2/53-54) - بتصرفٍ -

(3) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 59).

(4) بحثٌ عن كلام ابن حزم الذي ساقه الشيخ ونسبه لكتاب "الإحكام في أصول الأحكام" فلم أجده، ولم أجده في كتابه "مراتب الإجماع"، ولا في "المحلّى".

(5) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 59-60).

(6) الإجماع السكوتي: هو أن يقول بعض أهل الاجتهاد بقولٍ، وينتشر ذلك في المجتهدين، ولم يظهر منهم موافقةٌ ولا مخالفة. ينظر: إرشاد الفحول للشوكاني، (1/223).

نستخلص منه حكماً شرعياً، وأن نتَّخذه حِجَّةً في الدِّين، وقد عرفت من قصَّة يزيد (1) كيف كانت تُؤخذ البيعة، ويُعتصب الإقرار". (2)

عقَّب الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - على هذا الكلام قائلاً: "اندفع المؤلِّف يخوض في الإجماع على غير بَيِّنَةٍ منه، ويُورد على الطَّعن في انعقاده في مسألة الإمامة قصَّة يزيد بن معاوية، علماء الإسلام في ناحية، وصاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) في ناحية أخرى.

يظهر جلياً أنَّ المؤلِّف اشتبه عليه الإجماع على وجوب نصب إمامٍ بالإجماع على مبايعة إمامٍ بعينه، والذي يتحدَّث عنه أهل العلم إنما هو وجوب نصب الإمام، وهذا الوجوب لم يحدث فيه خلافٌ بين أصحاب رسول الله - ﷺ - والتَّابعين لهم بإحسان، وأمَّا مبايعة إمامٍ خاصٍّ فيكفي في انعقادها اتِّفاق جماعةٍ من أهل الحلِّ والعقد؛ بحيث تكون كلمتهم العليا على من خالفهم". (3)

إلى أن قال: "فاستدلَّ المؤلِّف على إبطال الإجماع في حكم الخلافة بعدم الإجماع على ولاية يزيد منطقاً يترقَّع عنه أصحاب الأقيسة الشَّعرية، ولا يأتيه المولعون بالمغالطات إلا أن يصوغوه في أسلوبٍ أبرع من أسلوب المؤلِّف وأخفى". (4)

(1) يزيد بن معاوية: (64-25هـ = 645-683م): يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالمطرون، ونشأ بدمشق، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة 60 هـ)، وأبى البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين ابن علي، فانصرف الأول إلى مكة، والثاني إلى الكوفة، وفي أيام يزيد كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد "الحسين بن علي" سنة 61 هـ، وخلع أهل المدينة طاعته (سنة 63) فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المري، وأمره أن يستبجحها ثلاثة أيام، وأن يبائع أهلها على أنهم حَوَّلَ وعبيد ليزيد، ففعل بها مسلم الأفاعيل القبيحة، وقتل فيها كثيراً من الصحابة وأبنائهم وخيار التابعين، وفي زمن يزيد فتح المغرب الأقصى على يد الأمير عقبة بن نافع، وفتح سلم بن زياد بخارى وخوارزم، ويقال إن يزيد أول من خدم الكعبة وكساها الديباج الخسرواني، ومدته في الخلافة ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أياماً، توفي بحوارين (من أرض حمص) وكان نزوعاً إلى اللهو، يروى له شعر رقيق. ينظر: تاريخ الطبري، (338/5)؛ والأعلام للزركلي، (189/8).

(2) الإسلام وأصول الحكم، (ص 31).

(3) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 99-100).

(4) المرجع السابق، (ص 100).

ثم يزيد الأمر توضيحاً بقوله: "الإجماع الذي يُستند إليه في تقرير الأحكام، هو اتفاق مجتهدي الأمة، بل المدار في انعقادها على جماعة من أهل الحل والعقد، وإن لم يكن من بينهم مجتهد أصلاً، فيراد المؤلف قصة يزيد طعنًا في الإجماع المستدل به على حكم الخلافة تحبُّط في ليل دامس". (1)

ومن ذلك رده على أحد الكتاب إذ زعم أنَّ الأنبياء قبل النبوة كانوا على عقيدة آبائهم، فتعقبه الشيخ الخضر بقوله: "أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها، ومن حكي الإجماع على هذا الإمام عضد الدين (2) في كتاب (المواقف)، والقاضي عياض في كتاب (الشفاء).

ولكن كاتب الرسالة يقول: "إنهم قلدوا أهل والعشيرة في كل ما يقال ويُفعل، وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة، وعبدوا ما يُعبد من إله". وإنما يقول هذا، ويخرج عن إجماع المسلمين مَنْ استطاع أن يملأ يده من روايات تاريخية صحيحة، أو استطاع أن يُقيم دليلاً نظرياً يسعه المنطق السليم.

وليس بيد الكاتب نقل مقبول، ولا دليل معقول، وإنما هي دعوى عارية من كل شاهد، فلندع بسط الحديث عنها حتى نعرف الشبهة التي دفعت الكاتب إليها، حتى عبر عنها بجمل يؤكد بعضها بعضاً، وأسرف في تسويتهم بالمشركون إلى أن قال لك: وقلدوهم في كل ما يقال ويفعل!". (3)

(1) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 100-101).

(2) عضد الدين الإيجي: (ت 756هـ = 1355م): هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي الشيرازي، يذكر أنه من نسل أبي بكر الصديق -عليه السلام-، عالم بالأصول والمعاني والعربية، من أهل إيج (بفارس)، ولي القضاء، وخلف تلاميذ عظاماً، وجرت له محنة مع صاحب كرمات، فحبسه بالقلعة، فمات مسجوناً. من تصانيفه: "المواقف" في علم الكلام، و"العقائد العضدية". ينظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، (46/10).

(3) بلاغة القرآن، (ص 125-126).

المبحث الرابع: التاريخ والسيرة النبوية.

يُعَدُّ التاريخ رافداً من روافد المعرفة، ومصدراً من مصادر التأصيل المنهجي في الدراسات الشرعية، وحاجة الدعوة الإسلامية إليه ماسّة وضرورية، فهو يعمل على توسيع الآفاق من خلال الاطّلاع على أحوال الأمم، وتاريخ الرجال، فيرى الإنسان من خلال دراسة التاريخ بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور، وكيف ترقى الأمم وتهبط، وكيف تقوم الدول وتسقط، وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم، وكيف تحيا الحضارات وتموت، وكيف ينجح القادة ويفشلون، وكيف تنام القلوب وتصحو، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

والدّاعية يحتاج إلى أن يستشهد للمعاني والقيم التي يدعو إليها بأحداث التاريخ، ومواقف الأبطال، وأحوال الأمم، فهذا أعون على تثبيتها في العقول والقلوب، وأدعى لقبولها في مجتمع الدعوة، وأعلى مقامات التراث الإنساني السيرة النبوية العطرة، فهي المصدر المتجدد لنفع الأمة الإسلامية، في إرشاد الفكر، وتوجيه السلوك، وبناء المجتمع الإنساني على ركائز ثابتة، وفي السيرة النبوية المنهج الصحيح والأسلوب الأمثل في الدعوة إلى الله، من حيث طريقته - ﷺ -، وأخلاقه وآدابه وتواضعه مع المدعوين ورفقه بهم، إلى غير ذلك من الأمور التي هي من مقومات الدعوة إلى الله تعالى.

والنّاظر في تراث الشيخ محمد الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - يلمس جلياً أثر التاريخ في فكره، وحضوره القوي في مؤلفاته ومحاضراته، بل لا يكاد يخلو تقرير من تقاريره - على اختلاف العلوم والفنون - إلا وأحداث التاريخ فيه قائمة، ومواقف السيرة النبوية عليه شاهدة، ولو راح الباحث يتفحص هذه الباب لطلال به المقام، وخرج عن مقصد البيان، ولعل الإشارة إلى بعض ما ينتظم في هذا المسلك تحقّق المقصود، ويحصل بها التّصور المنشود.

المطلب الأول: تأصيله لفضيلة علم التاريخ، وكثرة الاستشهاد به.

من الواضح جدًّا في منهج الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - عند تقريره للمسائل العلمية كثرة استنطاقه للتاريخ، واستحضاره للوقائع والأحداث الماضية، سواء تعلَّق الأمر بالحضارات والأمم، أو الشخصيات والأفراد.

فنظرة سريعة في كتب الشَّيْخ نجده - مثلاً - قد استعمل كلمة "تاريخ" على اختلاف اشتقاقاتها في أكثر من ألف موضعٍ، مما يدلُّ القارئ على الحضور القوي لهذا العلم الجليل في فكر الشَّيْخ.

كما أنَّه - رَحْمَةُ اللَّهِ - ينوِّع عبارات الاستشهاد بالتاريخ، ويستحضر مواقف وأحداثه كأنه رجلٌ شاخصٌ أمامه يحدثه، أو يرشد غيره ليحدثه، فيقول - مثلاً -: "يحدثنا لسان التاريخ الإسلامي"، ويقول: "واسألوا التاريخ"، ويقول: "وانظروا إلى الأمم الرَّاقيّة فيما يقصُّه عليكم التاريخ"، و"يصف لنا التاريخ"، و"إذا أرانا التاريخ"، و"ينبئنا التاريخ"، و"لكن التاريخ قد حدَّثنا"، و"ها هو ذا التاريخ يحدثنا"، و"أولئك الذين يلهج التاريخ بأسمائهم"، و"قد قصَّ علينا التاريخ"، و"إذا حكى لنا التاريخ"، و"لو سألت التاريخ عن العلماء"، ويقول في عبارات أخرى: "ونجد في التاريخ الإسلامي منذ عهد الصحابة"، و"لم نر في التاريخ"، و"من قرأ التاريخ في الزمن البعيد أو القريب"، و"من شواهد التاريخ"، و"حفظ التاريخ"، و"دلَّ التاريخ"، و"ارجع بصرك إلى التاريخ كرتين"، وهكذا في عباراتٍ رائعةٍ تمهِّد لما يريد من استشهادٍ أو تمثيلٍ تجعل القارئ مشدودًا لما سيقرّره، مستحضرًا لهذه المواقف والمواقع كأنها شاهدةٌ يراها رأي العين.

كما ظهرت عناية الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - بالتاريخ عمومًا، والإسلامي منه على الخصوص؛ واعتماده كمصدرٍ من مصادر المعرفة الإنسانية، وموردٍ من موارد الإصلاح الفكري والدعوي، تنويهاً منه بمكانة هذا العلم الجليل، ودوره في ترسيخ المفاهيم، وتقدير القيم العلمية والعملية، خاصّة في مقام التربية والإصلاح، وهذا الباب كثيرٌ ومتنوعٌ في فكر الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ -، وحسب الباحث الإشارة إلى بعضه، ومن ذلك:

1- اعتبره علم التاريخ من العلوم الداخلة في الإيمان، والمطلوب ممارستها، إذ إنه يزيد الإيمان طمأنينةً، والأخلاق حسناً، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5].⁽¹⁾

2- يرى الشيخ -رَحْمَةُ اللَّهِ- أنَّ من موارد الدَّهَاءِ في السِّيَاسَةِ، والبراعة في فنونها الوقوف على شيءٍ من سنن الماضي، إما بتقلُّب الإنسان في الوقائع بنفسه، ومشاهدته لها عن رؤية عينٍ، وهي المسماة بالتَّجَارِبِ، أو بتلقِّيها على طريق النَّقْلِ؛ كدراسة فنِّ التاريخ.⁽²⁾

ويعدُّ أصول التَّفَنُّنِ في السِّيَاسَةِ والإجادة فيها فيقول -رَحْمَةُ اللَّهِ-: "وقد كان القوم يقومون على هذه الأصول، ويجمعون إليها علم التَّاريخ الذي هو الركن الأعظم لإجادة النَّظَرِ في السِّيَاسَةِ، ولهذا المعنى كانوا يتحرَّون في تقليد المناصب من له خبرة واسعة بأبناء الأمم وأيامها الخالية".⁽³⁾

3- يعتبر الشيخ أنَّ قوة الإرادة وصدق العزيمة تنشأ من درس التَّاريخ، ذلك أنَّ الذي يخطر في باله أمرٌ، فقرأ في سيرة شخصٍ قد همَّ بمثله، وعمل لحصوله، فنجح عمله، وصلحت عاقبته، شأنه أن يعزم على ذلك الخاطر، ويجعله بعد العزم عملاً نافذاً.⁽⁴⁾

4- يقرِّر الشيخ -رَحْمَةُ اللَّهِ- أنَّ التَّعليم المدرسيَّ قد أصابته آفاتٌ وقصورٌ عن الوفاء بحاجات النُّفوس، وتربيتها تربيةً دينيةً صحيحةً، تقيها شرَّ الزَّيغ والإباحة، وتحميها موارد الفسوق والفتنة، وأنَّ من مسالك إصلاح التَّعليم الدِّيني العناية بدراسة

(1) ينظر: دراسات في الشريعة الإسلامية (ص 178).

(2) ينظر: محاضرات إسلامية، (ص 104).

(3) نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، (ص 73).

(4) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 137).

التَّارِيخُ الْإِسْلَامِي دَرَاْسَةٌ حَيَّةٌ وَاسِعَةٌ تَطْبَعُ فِي نَفْسِ التِّلْمِيذِ طَابَعًا لَا يُمَحِّى؛ مِنْ الْاِعْتِزَازِ بِدِينِهِ، وَالْاِعْتِدَادِ بِأَسْلَافِهِ، وَالْإِجْلَالِ لِأَبْطَالِ أُمَّتِهِ، وَالطَّمُوحِ إِلَى تَرْسُومِ آثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي التَّوَثُّبِ وَالتَّهْوُضِ، وَأَنْ تُسَنَدَ مَهْمَّةُ تَدْرِيسِ هَذِهِ الْمَادَّةِ إِلَى أَسَاتِذَةِ مُسْلِمِينَ أَخْصَائِيَّينَ مُؤْمِنِينَ بِعَظَمَةِ الْإِسْلَامِ. (1)

(1) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 183-212).

المطلب الثاني: احتفاؤه بالسيرة النبوية وعنايته بها.

تعتبر السيرة النبوية من أهم المصادر الشرعية عند الدعاة إلى الله تعالى، وتزداد عنايتهم بها في تقرير المسائل، ونشر الحق؛ كونها مرتبطة بالأصل الثاني من أصول التشريع الإسلامي، وكونها راجعة إلى رأس المصلحين، والمثل الأعلى في الشرف والحسب وكمال الخلق والسيرة القويمة، وهو نبينا محمد - ﷺ -، حيث أرسله ربه - ﷻ - رسولاً إلى الناس كافة، هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الحق بإذنه وسراجاً منيراً، ومبعوثاً لنشر مكارم الأخلاق، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

والشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - من أولئك الأئمة المصلحين الذين اعتنوا عناية فائقة بالسيرة النبوية، وكان لها الحضور القوي في كتبه ومقالاته، ويمكن إجمال هذه المظاهر فيما يلي:

1- تعظيمه لسيرة النبي - ﷺ -، وحرصه على بيان مكانتها في الشريعة.

ويظهر هذا جلياً لمن طالع مؤلفات الشيخ ومحاضراته، فقد كان - رَحِمَهُ اللهُ - حريصاً على بيان منزلة السيرة النبوية، قاصداً استقصاء مواضع العظمة فيها، ومواطن الشرف والسُّؤدد في صاحبها - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، مستعملاً لغته الرّاقية، وأسلوبه البديع، فكان حقيقاً بالقارئ أن يشنّف سمعه ويمتّع بصره، وهذه بعض النقول المرشدة للمقصود:

يقول - رَحِمَهُ اللهُ - مبيناً علو مقام السيرة النبوية، وبلوغها ذروة الكمال البشري: "من نظر في سيرته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وجدها من أعظم الدلائل على أنّ بين جنبه نفساً بالغة من الكمال ما لا يبلغه الإنسان الذي يطلب المعالي بنفسه، ولو بلغ من العبقرية ما بلغ، ولُقِّنَ من الحكمة ما شاء أن يُلقَّن... طالع كتب التاريخ، عربيةً وغير عربية، وأمعن النظر في أحوال عظماء الرجال من مبدأ الخليقة إلى هذا اليوم، فإنّك لا تستطيع أن تضع يدك على اسم رجلٍ من أولئك العظماء، وتقص علينا سيرته ومزايده، وأعماله الجليلة حديثاً يضاهي أو يداني ما نحدّثك به عن هذا الرسول العظيم". (1)

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 56-57) - بتصرفٍ -.

ويذكر في معرض بيان العلوم التي لها صلةٌ بزيادة الإيمان وكماله: "لَمَّا كَانَتْ مَعْرِفَةُ سِيرَةِ النَّبِيِّ - ﷺ - تَزِيدُ فِي الْإِيمَانِ قُوَّةً، أَلْفَ فِيهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ كُتُبًا خَاصَّةً؛ كَمَا فَعَلَ الْقَاضِي عِيَّاضُ فِي كِتَابِ "الشِّفَاءِ"، وَغَيْرِهِ، فَكَانَ عِلْمُ السَّيْرِ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي يَزْدَادُ بِهَا الْإِيمَانُ كَمَالًا". (1)

وفي محاضرة ألقاها بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف (2) افتتح كلمته بقوله: "لَا يَوْجَدُ فِي سِيرِ الْعُظَمَاءِ مَا يَوْجَدُ فِي سِيرَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ - ﷺ - مِنْ خِصَالِ الشَّرَفِ، وَمُظَاهِرِ الْكَمَالِ، فَلَا شَرَفٌ يُذَكَّرُ، وَلَا كَمَالٌ يُنْعَتُ، إِلَّا أَخَذَ فِي السَّيْرِ النَّبَوِيِّ مَكَانًا أَوْسَعَ، وَكَانَ لَهُ أَرْفَعُ شَأْنٍ، وَلَيْسَ فِي الْوَقْتِ كِفَايَةً، وَلَا فِي اللِّسَانِ مَقْدَرَةٌ عَلَى أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ هَذَا الشَّرَفِ وَالْكَمَالِ بِمَا يَشْفِي غَلِيلَ السَّامِعِينَ، وَقِصَارَى مَا يَسْتَطِيعُهُ الْخَطِيبُ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةً يَلْمَحُ بِهَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ خِصَالِ كَمَالِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -". (3)

ويقرُّ بعجزه في بلوغ الكمال في الثناء عليه، ويُسند حوله وقوته لخالقه - ﷻ -، وأنه يكفيه أن يتلو آيةً من الآيات التي أثنى بها الواحد الخلاق على رسوله الأكرم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وتلك الآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، ثم يذكر أنَّ: "واجب هذه الآية علينا أن ندرس السيرة النبوية حتى نعلم ما هو الخلق العظيم الذي كان عليه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -؛ لنعمل لتربيته في نفوس نشئنا، ونأخذ به أنفسنا ما استطعنا". (4)

ثم يكمل خطابه البديع، موضحًا الثمار اليانعة، والفوائد الحسان التي تُجنى من دراسة السيرة النبوية، خاصةً في الجانب الخُلُقِي، وأثره في نجاح الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، فيقول: "ونحن إذا درسنا السيرة

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 187).

(2) ألقاها مساء يوم الجمعة 9 ربيع الأول 1361 هـ بمقر جمعية الهداية الإسلامية، ونُشرت بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء العاشر من المجلد الرابع عشر.

(3) كلماتٌ وخواطر وآراء، (ص 279-280).

(4) المرجع السابق، (ص 280).

النَّبَوِيَّةُ، نَجْدُهُ - رَحِمَهُ اللهُ - قَدْ تَجَمَّلَ بِأَكْمَلِ الْأَخْلَاقِ، وَأَسْنَاهَا، فَنَجَحَتْ دَعْوَتُهُ، وَاسْتَقَامَتْ سِيَاسَتُهُ، وَتَأَلَّفَتْ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَالتَّفَانِي فِي حَسَنِ طَاعَتِهِ.

إِنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - حَقٌّ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ لَا يَطْرُقُ الْأَسْمَاعَ، أَوْ يَتَجَاوِزُهَا إِلَى الْقُلُوبِ بِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَطْلُعُ عَلَى النَّاسِ بَوَجْهِهِ الْجَمِيلِ، وَتَتَمَلَّاهُ الْعُقُولُ لَا تَبْغِي عَنْهُ بَدَلًا، إِذَا كَانَ الْقَائِمُونَ بِعَرْضِهِ عَلَى النَّاسِ ذَوِي أَخْلَاقٍ عَظِيمَةٍ مُحْكَمَةٍ، تَسْعِدُهَا أَلْسِنَةُ تَضَعُ الْكَلِمَ مُوَاضِعَهُ.

فَلَنَدْرُسُ السِّيَرَةَ النَّبَوِيَّةَ؛ لَنُخْرِجَ لِلنَّاسِ دَعَاءً إِلَى الْإِصْلَاحِ وَهُمْ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، وَدِرَافَةٍ بِالْأَسَالِيبِ الَّتِي تَدْخُلُ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى الْقُلُوبِ، فَتَنْفِي عَنْهَا الْغَوَايَةَ وَخَوَاطِرَ الشُّوءِ، وَتَعْمُرُهَا بِالْهُدَايَةِ وَالرَّغْبَةِ الْبَالِغَةِ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ". (1)

وَيُعَلَّلُ - رَحِمَهُ اللهُ - شُمُولَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَخَيْرَتَهَا، وَكَمَالَ أَحْكَامِهَا كَوْنَهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، مُؤَيَّدَةً مِنْهُ - رَحِمَهُ اللهُ - بِمَا يَضَعُهَا فِي النُّفُوسِ مَوْضِعَ الْقَبُولِ، وَيَجْعَلُهَا قَرِيبَةً مِنْ مَتَنَاوِلِ الْعُقُولِ، وَمِنْ أَقْوَى تِلْكَ الْمُؤَيَّدَاتِ: "الْآيَاتُ الْقَائِمَةُ عَلَى أَنَّ الْمُبَلِّغَ لَهَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَسِيرَتُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَمْلُوءَةٌ بِأَرْقَى الْفَضَائِلِ، وَأَسْنَى الْأَدَابِ، وَأَجَلِّ الْأَعْمَالِ، حَتَّى إِنَّ الْبَاحِثَ فِي السِّيَرَةِ عَلَى بَصِيرَةٍ لَيَجِدُ فِي كُلِّ حَلْقَةٍ مِنْ سِلْسِلَةِ حَيَاتِهِ مُعْجَزَةً، وَلَوْ اسْتَطَعَتْ - وَلَا إِخَالَكَ تَسْتَطِيعُ - أَنْ تَضَعَهَا فِي كَفَّةٍ، ثُمَّ تَعْمِدَ إِلَى سِيرَةِ أَعْظَمِ رَجُلٍ تَحَدَّثَ عَنْهُ التَّارِيخُ، فَتَضَعَهَا فِي الْكَفَّةِ الْأُخْرَى، لَعَرَفْتَ الْفَرْقَ بَيْنَ مَنْ وَقَفَ فِي كَمَالِهِ عِنْدَ حَدٍّ هُوَ أَقْصَى مَا يَبْلُغُهُ النَّاسُ بِذِكَائِهِمْ وَحَزْمِهِمْ، وَبَيْنَ مَنْ تَجَاوَزَ ذَلِكَ الْحَدَّ بِمَوَاهِبِهِ الْفَطْرِيَّةِ، وَبِمَا خَصَّه اللَّهُ بِهِ مِنْ مَعَارِفٍ غَيْبِيَّةٍ، وَحُكْمٍ قُدْسِيَّةٍ". (2)

وَلَهُ - رَحِمَهُ اللهُ - تَقْرِيرٌ جَمِيلٌ فِي مَظَاهِرِ التَّأْسِي بِهِ - رَحِمَهُ اللهُ -، وَيَرْبِطُ ذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ سِيرَتِهِ الطَّيِّبَةِ فَيَقُولُ: "وَصَفْوَةُ الْمَقَالِ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَرَشَدَتْ إِلَى التَّأْسِي بِأَفْضَلِ الْخَلِيقَةِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ

(1) كلماتٌ وخواطر وآراء، (ص 280-281).

(2) هُدَى ونور، (ص 48-49).

عليه-، وهذا يقتضي البحث عن سيرته، وفي البحث عن سيرته مرقاةً إلى معرفة خصال الشرف الإنساني، وصالح الأعمال التي يعرج بها الإنسان إلى الحياة الطيبة في الأولى والآخرة". (1)

2- كثرة النتاج العلمي المتعلق بالسيرة النبوية وتنوعه:

فالشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- كثيراً ما يحرر المقالات، ويلقي المحاضرات في علم السيرة النبوية، سواءً في عمومها، أو في موضوع خاص من موضوعاتها، وذلك حسب الأحداث والمناسبات، خاصةً في مناسبة المولد النبوي الشريف، أو دخول السنة الهجرية، أو غيرها من المحطات البارزة في السيرة العطرة التي كان لها الأثر الواضح في ظهور الإسلام وعلو مقامه، فيدرس موضوعات شتى، بأساليب راقية، حيث يلبسها أثواباً قشبية من بلاغة الخطاب، وفصاحة البيان.

وقد تناول -رَحِمَهُ اللهُ- جوانب من السيرة الشريفة في مقالات عن رفقه، وحكمته في السياسة، وسيرته في الخليفة، وصبره ومتانة عزمه، وبلاغته، وشجاعته، ورجاحة عقله، وحكمة رأيه، وآداب خطبه، وهجرته، وإبادته للأصنام، ودعوته، وقضائه على المزاعم الباطلة، وعظمته، وغيرها من البحوث العلمية الفائقة.

لم يكتب الإمام السيرة النبوية شاملةً، وإنما تناول منها بحثاً كان يلقيها في محاضرات بالمناسبات الدينية، أو مقالات في المجلات، وله رسالة بحجم صغير بعنوان: (محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين) (2)، تحدّث فيها عن سيرته - ﷺ - بشكلٍ كاملٍ وموجزٍ، فتحدّث عن حال العرب عموماً قبل مبعثه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، ونشأته وسيرته الطاهرة قبل البعثة، وبعض دلائل نبوته مثل: القرآن الكريم، وكمال سيرته، وبعض المعجزات المحسوسة، وبشارات الأنبياء به، وسمو أخلاقه، وكرام خصاله، وكمال اجتهاده في عبادة ربه، وحسن توكله عليه.

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 191).

(2) وهي مجموع مقالات كانت تُنشر تباعاً بمجلة "الهداية الإسلامية"، الجزآن السابع والثامن من المجلد الثاني والعشرين، رجب وشعبان 1369هـ - والأجزاء من التاسع إلى الثاني عشر من رمضان إلى ذي الحجة 1369هـ، ثم طبعت في رسالة مستقلة لأول مرة سنة 1933م، ثم أعيد طبعها مرات.

وتحدّث عن عموم بعثته - ﷺ -، وشمول دعوته للخلق جميعاً، وحكمة أساليبها، من راحة عقله، وحكمة رأيه، ودوام شريعته، وأثر دعوته في إصلاح العالم.

كما تحدّث عن صبره - ﷺ -، ومتانة عزمه وشجاعته، وعن رفقه، وسياسته الرشيدة في إصلاح الرعية، وعظمة شخصيته، وهداية للخلق.

ومما تتحدّث عنه في هذه الرسالة: الهجرة النبويّة، ولماذا جعلت مبدأ التاريخ في الإسلام؟ وأثر هجرة صحابته الكرام إلى الحبشة في ظهور الإسلام، وكيف أنقذ رسول الله - ﷺ - العالم من الفساد، وأخرجهم من الظلمات، وإبادته للأصنام، وقضائه على المزاعم الباطلة. (1)

وللشيخ مقالات أخرى مفرقة تحدّث فيها عن جوانب من السيرة النبويّة العطرة ليست مضمّنة في الرسالة السابقة، منها مقال بعنوان (المنافقون في عهد النبوة والملاحدة بعده) (2)، وكثيراً ما يستشهد بأحداث من السيرة النبوية في تقرير المسائل والقضايا الشرعية من خلال نتاجه العلمي. (3)

3- تمثله لأحداث السيرة العطرة للتأسي والافتداء، وأخذه العبر والعظات منها:

فهو - رَحِمَهُ اللهُ - حين يطرق هذا الباب فإنّه يحاول ربط ذلك بواقع الناس، ويتمثّل السيرة النبوية قصد الاهتداء والافتداء، والامتنال لخصال الخير والبرّ في صاحبها - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، ولا يكتفي بالسرد التاريخي لأحداث السيرة حتى يشفع ذلك باستخلاص الدروس منها، وإرشاد القارئ والسامع لفقه معانيها وأسرارها، ولنضرب على ذلك أمثلة تقرّب هذا المعنى:

(1) ينظر: محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 47-158)، وقد حاولت الاختصار والاقتصار على أهم مباحث هذه الرسالة.

(2) منشورٌ بمجلة "لواء الإسلام" - العدد السادس من السنة التاسعة.

(3) ينظر مثلاً: رسائل الإصلاح، (ص 48)؛ والدعوة إلى الإصلاح، (ص 132) و(ص 149)؛ ونقض كتاب في الشعر الجاهلي، (ص 96)؛ وهدى ونور، (ص 48).

حدَّثنا عن صبر النَّبِيِّ - ﷺ - ومظاهره، ومن ذلك صبره على الطاعة، وملازمته للعبادة واجتهاده فيها، ثم يقول: "يَعْلَمُ مُحَمَّدٌ - ﷺ - بسيرته عظماء الرجال: أَنَّ القيام على العبادة الخالصة لا يُطَيِّى بالرجل أن يكون فاتحًا مظفرًا، أو سياسيًا راشدًا، أو طامحًا إلى همٍ تطلع وتغرب من تحتها كواكب الجوزاء، بل إِنَّ تقوى الله بحقِّ هي أساس كلِّ عزَّة وعظمة". (1)

وفي السيِّاق نفسه، يقرِّر بعض الدروس المستفادة من شدة عزمه - ﷺ - في احتمال ما تجري به صروف الأقدار من الشدائد والخطوب، كواقعة أُحدٍ، وما لاقاه فيها رسول الله - ﷺ - من البأس والشدَّة والبلاء، فيقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "يَعْلَمُ مُحَمَّدٌ - ﷺ - بسيرته المجاهد في سبيل الحقِّ أن يثبت في وجه أشياع الباطل، ولا يهن في دفاعهم وتقويم عِوجهم، ولا يهولُه أن تُقبل عليهم الأيام، فيشتدُّ بأسهم، ويجلبوا بخيلهم ورجالهم، فقد يكون للباطل جولةٌ، ولأشياعه صولةٌ، أما العاقبة، فإنما هي للذين صبروا والذين هم مصلحون". (2)

ويواصل - رَحِمَهُ اللهُ - في سرد الدروس والعبر من مواقف ووقائع يتجلَّى فيها صبر النَّبِيِّ - ﷺ -، ومن ذلك قوله: "يَعْلَمُ مُحَمَّدٌ - ﷺ - بمثل هذه الغزوة رؤساء الشُّعوب ألا يقعد بهم حبُّ الرِّاحة والنَّعيم العاجل، ويغيبوا عمَّا وراء بلادهم حتى يطلَّ عليهم العدوُّ بخيله ورجله، ويصبُّ عليهم من سيطرته عذابًا مهينًا..."

بمثل هذا الكلم النوابع يَعْلَمُ مُحَمَّدٌ - ﷺ - دعاة الإصلاح من بعده أن يكونوا من العزم الصامت بحيث يمحضون في سبيلهم مُضيَّ الشَّهاب الثَّاقب، ولا يتردَّد بهم في هذا السبيل أن يصانعهم الذين لا يحبُّون الناصحين، ولو ملأوا ما بين أيديهم جُئناً (3) وعسجدًا (4)...

فهذه السَّيرة ترشد رئيس القوم إلى أن يوسَّع صدره لمن يناقشه ويجادله، ولو صاغ أقواله في

(1) محمدٌ رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبِيِّين، (ص 74).

(2) المرجع السابق، (ص 75).

(3) اللُّجَيْن: الفضَّة. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، (56/11)؛ ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، (235/5).

(4) العسجد: الدَّهَب. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، (200/3)؛ والصَّحاح للجوهري، (508/2).

غِلْظٍ وَجَفَاءٍ، فسيرة رسول الله هي التي علّمت معاوية بن أبي سفيان ⁽¹⁾ أن يقول: والله! لا أحمل السيف على من لا سيف له، فإن لم يكن من أحكم سوى حكمة يقولها ليشتهي بها، فإني أجعل له ذلك دُبر أذني، وتحت قدمي ⁽²⁾. ⁽³⁾

ويحدثنا عن واجب المسلم تجاه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأحزاب: 21] فيقول: "ودرس هذه النَّاحِيَةِ من سيرته السَّنيَّةِ، يرفع هم علماء الدِّين ودعاة الإصلاح عن التَّمَلُّقِ لأولي الأمر، ومجاراة أهوائهم الجامحة عن قصد السبيل؛ إذ يجعل رضا الله، وظهور الحقِّ والفضيلة، هما الغاية التي يعملون لها في حياتهم، فلا يبالون سوء العذاب، أو العزل من المناصب الذي ينذرهم به المستبدون الظالمون". ⁽⁴⁾

ومثله قوله: "ويتأسى به - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - في صلته بالأفراد والجماعات، ومعاملته لهم... ودرس هذه النَّاحِيَةِ من سيرته الطَّاهِرَةِ يفتح أمام الناظر الطريق التي يتوسَّل بها إلى امتلاك قلوب فضلاء النَّاسِ على اختلاف طبقاتهم، وتباين مواطنهم، بل يفتح أمامه الطُّرُق التي تُعرف بها كيف يسوس النفوس الواقعة في أسر الشَّهَوَاتِ، ويعيدها إلى سيرة الطُّهْرِ والعِفَافِ؛ إذ يجد الناظر في حكمة أساليب دعوته، وحسن معاملته حتى لخصوم دينه، معالم لا ينجح صاحب دعوة صادقة إلا أن يهتدي بها.

(1) معاوية بن أبي سفيان: (20 ق هـ - 60 هـ = 603 - 680 م): هو معاوية بن أبي سفيان صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي، الصحابي الجليل، خال المؤمنين، وكاتب رسول الله - ﷺ -، مؤسس الدولة الأموية في الشَّام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار، كان فصيحًا حليماً وقوراً، ولد بمكة، وأسلم يوم فتحها (سنة 8 هـ) وتعلَّم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله - ﷺ - في كُتَّابه، وهو أحد عظماء الفاتحين في الإسلام. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، (3/1416)؛ والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، (6/120).

(2) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، (3/148)؛ والبداية والنهاية لابن كثير، (8/141).

(3) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبِيِّينَ، (ص 75-77) بتصرُّفٍ واختصارٍ.

(4) المرجع السابق، (ص 190).

ويتأسى به - صلوات الله عليه - في احتماله الأذى من الناس، ومقابلته بالعفو، وهو قادر على مقابلته بالانتقام، ومن درس هذه الناحية في السيرة، عرف أن حلمه وعفوه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مواضع، ولأخذه بالحزم مواضع⁽¹⁾.

4- دفاعه عن مقام السيرة، ورد سهام المغرضين، وتفنيد مزاعم المبطلين والزائغين:

لا تزال السنة النبوية الشريفة تتعرض لسهام المغرضين، وتشكيك المبطلين، ومن ذلك سيرته العطرة، ولا يزال علماء الإسلام، وأئمة الدين قديماً وحديثاً ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، بل تُعدُّ هذه الوظيفة من أجل المقامات، وجهاد في سبيل الله لا يقلُّ عن الجهاد بالأنفس والأموال.

وقد أخذ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - بحظٍّ وافٍ من هذا السبيل، وضرب بسهام مباركة في صدد الصائل المتطاول على حياض السيرة العطرة، وردوده على أهل الباطل والزيف معروفة مشهورة، بل إنه في أحيان كثيرة يكتب في السيرة النبوية، أو يحاضر في بعض فصولها لأجل ما قد يقرأه أو يسمعه من شبهات وانحرافات فكرية متعلقة بهذا الباب، وقد أفصح عن ذلك في مقدمة رسالته (محمد رسول الله - ﷺ - خاتم النبيين) فقال: "فقد كثر ما وقع في أيدينا من ضحف يضعها أولئك الذين سمو أنفسهم: (المبشرين)، ويتعرضون فيها لدين الإسلام بكلمات خبيثات، يتتغون بها إخراج أبنائنا وبناتنا من نور الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!".

ما أراه في تلك الصحف من زور وبهتان، ثم ما أذاعته الصحف السيّارة في العهد القريب من قصص محاولة تلك الطائفة لتنصير بعض الفتيان أو الفتيات، قد دعاني إلى تحرير رسالة في سيرة رسول الإسلام - ﷺ -، ودلائل نبوته السنّية⁽²⁾.

ومن أمثلة ذلك: ردُّه الشَّهير على طه حسين المسمّى: (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، وقد ضمَّ هذا النقض مناقشة الكاتب في مسائل متعلقة بالسيرة، وردُّه على شُبُه أوردها تمسُّ

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 190-191) - بتصرف -.

(2) المرجع السابق، (ص 5).

جناب السيرة النبوية، فيقول - رَحِمَهُ اللهُ -: "يرسل المؤلف قلمه على الحقائق، فيخمش وجوهها، ويضربه على أعظم الرجال، فينال من أعراضها، وقد اشتدَّ به هذا الخلق حتى أصبح الناس يعدُّون إنحاءه على مقامٍ بالعيب أمارَةً على رفعتِه، وكادوا يجعلون ثناءه على الشخص دأباً إلى الريبة في سيرته.

ألا ترون إلى ذلك القلم كيف تطَّوَّح به الغرور إلى أن يحوم على مقام أكمل الخليفة، فيقذف نحوه بما تملي عليه تلك الروح النازعة إلى غير هدى؟!.

قنع النَّاسُ بأنَّ محمداً - صلوات الله عليه - صفوة بني هاشم، بل صفوة الإنسانية؛ لأنَّ صحيفة حياته أبدع صحيفة طُويت بوفاة صاحبها، ولأنَّ ما جرى على يده ولسانه من حكمة وإصلاح، لم يأت بمثله إنسانٌ تقدمه، أو إنسان جاء من بعده". (1)

وفي مقال له بعنوان (العظمة) (2) ردَّ فيها على علي عبد الرزاق الذي كتب مقالاً تعرَّض فيه إلى معنى العظمة، وعبادة الناس للعظماء، وأنَّ محمداً - ﷺ - لم يكن عظيمًا حسب المفهوم المتعارف؛ لأنه لم يكن ملكًا، أو غنيًّا، أو فيلسوفًا، أو غير ذلك من تلك المعاني، وإنما تنحصر عظمتُه في كلمة واحدة وهي (لا إله إلا الله) !!!

وقد استهلَّ ردَّه ذلك بالقول: "فلا بدَّ إذن من أن نكون على مرقبة من دعايتهم، وننفق ساعاتٍ في التنبيه على أغلاطهم؛ لعلهم ينصاعون إلى رشدهم، أو لعلَّ الأُمَّة تحذر عاقبة هذا الذي يبدو على أفواههم". (3)

وقد أورد أقوالاً لبعض الغربيين في عظمة الرسول - ﷺ -، وبينَ نظرة المسلمين إلى النَّبيِّ - ﷺ - وإجلالهم له، ومعاني العظمة، وما يُرادُّ منها عامَّةً، وبالنسبة للرسول - ﷺ - خاصَّةً.

(1) نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، (ص 243-244).

(2) منشور بمجلة "الفتح" - العدد 68 من السنة الثانية 1346 هـ - 1927 م، وأصل المقالة محاضرة ألقاها الإمام في دار جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بالقاهرة يوم 12 ربيع الأول 1346 هـ.

(3) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النَّبيِّين، (ص 207).

ثم حصر نقاشه مع علي عبد الرزاق في موضوعين: الأول: تعرُّضه إلى مظاهر عظمة الرسول -ﷺ- من خلال الحديث عن مظاهر العظمة في ميادين مختلفة، وأمَّا الموضوع الثاني فهو حصره لعظمة النبي -ﷺ- في كلمة (لا إله إلا الله)، وردَّ هذا الكلام، ويبيِّن أنَّ العظمة تتمثل في علمه، وحكمته، وأخلاقه، وإخلاصه، وحسن بيانه، وغير ذلك من مظاهر العظمة التي فصلَّ فيها الشيخ الخضر -رَحِمَهُ اللهُ- موردًا كلام الكاتب قطعةً قطعةً، ثم يناقش المسائل واحدةً تلو الأخرى، في حسن بيانٍ، وقوَّة حجةٍ.

ومن مظاهر دفاعه عن السيرة النبويَّة العطرة رُده العلمي الرصين على مقال للشيخ محمود شلتوت -رَحِمَهُ اللهُ- (1) نشره في مجلة "الرسالة" بعنوان (الهجرة وشخصيات الرسول)، وخلاصة مراده فيه: أنَّ الذي يُعدُّ شرعًا دائمًا هو ما يرجع إلى شخصيات الرسول -ﷺ- من العقائد، وأصول الأخلاق، والعبادات، وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصية الإمام أو المفتي أو القاضي فليس بشرعٍ دائمٍ، وإنَّما هو شرعٌ مؤقتٌ يمكن أن يتأثَّر بالاجتهاد، وأن يُترك العملُ به لسببٍ من الأسباب. (2)

يقول الشيخ الخضر -رَحِمَهُ اللهُ- في مقدمة الرَّدِّ: "قرأت هذه الكلمة، فدعتني بإلحاحٍ إلى أن أطلع على مقال الأستاذ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء، ووكيل كلية الشريعة؛ لأتبين أمر هذا الذي يعزوه إليه كاتب تلك الكلمة، فأحضرت ذلك المقال المنشور تحت عنوان: "الهجرة وشخصيات الرسول"، وقرأته قراءة خالي الذَّهن مما قيل فيه، فما لبثت أن لاقتني جُمْلَ صِغَتٍ في قالبٍ ذي وجهين، وأطلت عليَّ آراءٍ قلت لما لمحتها: أما وجدت هذه الآراء واديًا

(1) محمود شلتوت: (1310-1383هـ = 1893-1963م): فقيهٌ مفسِّرٌ مصريٌّ، ولد في منية بني منصور (بالبحيرة)، وتخرَّج بالأزهر سنة 1918م، وتنقل في التدريس إلى أن نُقل للقسم العالي بالقاهرة سنة 1927م، وقد أثار الجدل بسبب إشكالات فكرية عنده فطُرد من الأزهر، فعمل في المحاماة من (1931م-1935م) وأعيد إلى الأزهر، فعُيِّن وكيلاً لكلية الشريعة، ثم كان من أعضاء كبار العلماء سنة 1941م، ومن أعضاء مجمع اللغة العربية سنة 1946م، ثم شيخاً للأزهر سنة 1958م إلى وفاته، وكان خطيباً موهوباً جهوري الصوت، له 26 مؤلفاً مطبوعاً، منها "التفسير"، و"عنصر الخلود في الإسلام"، و"الإسلام والتكافل الاجتماعي". ينظر: الأعلام للزركلي، (7/172-173).

(2) محمد رسول الله -ﷺ- وخاتم النبيِّين، (ص 228).

غير هذا الوادي، أو عهدًا غير هذا العهد؟ وأمسكت بالقلم ناقدًا لها بعدلٍ، مناقشا لها بإنصافٍ.

وسأسلك - بتوفيق الله تعالى - الطريقة التي اخترتها لنفسي في مناقشة ما يبدو لي أنه جديرٌ بالمناقشة، فأنقل عبارات كاتب المقال بأعيانها؛ لأسير أنا والقارئ في النقد جنبًا لجنبٍ، ولا أظلم صاحب المقال، ولا أظلم الحقَّ أو العلم".⁽¹⁾

وهكذا يواصل الشيخ سبيله المبارك في الدِّبِّ عن مقام النبوة ومنزلة السيرة العطرة أن يمسّها شوبٌ مبطلٍ، أو قدح جاهلٍ، فيقع ناظره على مقالٍ للأستاذ علي عبد الرازق في جريدة "الأخبار" عنوانه: (مولد النبي - ﷺ -)، وقد تضمّن بعض الكلام الذي يفهم منه النقص في مقام السيرة النبوية.

وقد قصد الكاتب في مقاله إلى أن يُظهر للقارئ أنَّ رسول الله - ﷺ - لا ينبغي أن تُحاط حياته وسيرته بأحوالٍ خارجة عن الطبيعة، فإنَّ مولده - ﷺ -، وأطوار حياته، جرت على وفق السنن الطَّبِيعِيَّة التي بنى الله عليها هذا الكون، وأجرى عليها نظام الحياة بين جميع البشر، فلم يقتزن ميلاده بالمعجزات الصادرة التي اقتزن بها ميلاد عددٍ من إخوانه السابقين من الرسل، وأنَّ الروايات في ذلك لا تصحُّ، ولو صحَّ شيءٌ منها فإنَّها لم تبلغ من قوَّة السند، ولا من قوَّة الإعجاز ما بلغته الروايات عن مولد عيسى وموسى، وكذلك في مراحل دعوته لم يحض رسول - ﷺ - بمعجزات تُدهش العقول، وترجُّ القلوب كسائر الرسل قبله، بل إنَّه أتى بمنهجٍ جديدٍ حاصله أنَّ النبيَّ ليس بحاجة إلى المعجزة، بل يكفيه حكم العقل، وسلطان العلم والنظر، وبذلك تَمَّت الآية الكبرى لمحمد بن عبد الله !!

فأقام الشيخ الخضر على مناقشة هذه الشبه واحدة واحدة، وبيّن بطلانها بالأدلة الشرعية والعقلية.⁽²⁾

(1) محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، (ص 228).

(2) ينظر: المرجع السابق، (ص 303-310).

المطلب الثالث: المقاصد والغايات من الاستدلال التاريخي.

رأينا كيف يحتفل الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - باستحضار التاريخ، ويحتفي بدراسة مواقفه وأحداثه، ولا شكَّ أنَّ للشيخ مقاصد وغاياتٍ من ذلك، ولعلها ترجع إلى ثلاث مقاصد كَلِيَّةٌ، وهي:

1- الاستدلال والاستشهاد:

وهذا الغالب في إيراد الشيخ للشواهد التاريخية، فإنَّه يستحضر الوقائع والأحداث التاريخية ليستدلَّ بها على تقرير الأفكار، وشرح المسائل، وتقريب المعاني وتثبيتها في القلوب والأذهان، ويكون بذلك أحد المصادر العلمية التي يعتمد عليها في فكره الإصلاحي.

ففي حديثٍ له عن حقوق الزوجية، ذكر - رَحْمَةُ اللَّهِ - أنَّ من حقِّ الزوج أن تكون زوجته على قدرٍ من العلم والثقافة مما يعينها على تدبير المنزل، وتربية الولد تربيةً صحيحةً، ثم راح يستدلُّ على ذلك بقوله: "ونجد في التاريخ الإسلامي منذ عهد الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فما بعده مسلماتٍ فاضلاتٍ، شاركن الرجال فيما يبرعون فيه من حديثٍ وفقهٍ وعلومٍ وآدابٍ، يعرف هذا من اطلع على تراجمهنَّ، أو اطلع على تراجم الرجال الذين أخذوا عنهنَّ، ومن هؤلاء النساء اللَّاتي برعن بعلوم الدِّين زوجةً أحد القضاة بالأندلس، فقد حُكي أنها فاقت العلماء في معرفة الأحكام والنوازل...".⁽¹⁾

وبيَّين مظاهر علوِّ الهمة، وأنَّ العالم كبير الهمة حين يستبين خطأً في رأي عالمٍ آخر، أو عبارة كاتبٍ، فيكتفي بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام، أو يخف إلى التبجح بما عنده، واستشهد بالتاريخ قائلاً: "وقد حدثنا التاريخ عن رجالٍ كانوا أذكىاء، ولكنهم ابْتُلُوا بشيءٍ من هذا الخلق المكروه، فكان عوجاً في سيرهم،

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 111-112).

ولطخًا في صحفهم، ولو تحاموه، لكان ذكرهم أعلى، ومقامهم في النفوس أسمى، ومنزلتهم عند الله أرقى". (1)

ويجِدُّنا - رَحِمَهُ اللهُ - عن شرف الدولة، ومقامات علوّها واستكمال قوتها، ومن ذلك أن يكون ساستُها على قدرٍ من العلم والفقه وحسن التدبير، فيستشهد بالتاريخ قائلاً: "وانظروا إلى الأمم الراقية فيما يقصه عليكم التاريخ؛ فإنها لا تكاد تنهض من مرقدِها إلا حيث يقبض على زمام سياستها رجالٌ أولو عقولٍ نافذة، وتدابيرٍ صائبة... كان الأمراء في الصدر الأول يقومون بمعرفة أحكام الشريعة؛ بحيث يكون الأمير نفسه مرجعًا للعامة في الفتاوى وفصل الخصومات". (2)

وفي تقريره لأصول المدنية الفاضلة، أكّد على أن التمسُّك بالشريعة الإسلامية ضمانٌ للمدنية المنشودة، التي تجمع بين القوّة العلمية، والقوّة الماديّة، ويستشهد لذلك بتاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها التي كانت مضرب المثل في المدنية والسيادة العالية، فيقول: "وكذلك قصّ علينا التاريخ الصادق أن الإسلام أخرج للناس أمةً بمرتبة عالمة بعلمها الزاخرة، وأعمالها الفاخرة، وإذا شاءت الشعوب الإسلامية أن تكون المثل الأعلى للمدنية الفاضلة، ففي استطاعتها أن تتحرى نصائح الدين الحنيف". (3)

2- ضرب المثل:

وهو مقصّد رامه الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - من استحضاره لوقائع التاريخ وأحداثه؛ وذلك لأجل تقريب المعاني، وتنزيل التصوّرات منزلة الحقائق المحسوسة، فيكون أدعى للقبول، وأرجى للامثال، ومن أمثلة ذلك:

(1) رسائل الإصلاح، (ص 167).

(2) الشريعة الإسلامية صالحة لكلّ زمان ومكان، (ص 99-100).

(3) رسائل الإصلاح، (ص 127).

حديثه عَمَّا يلاقيه العلماء من تحمُّل الأذى، والصبر على المكارِه إِمَّا يزيد من حسن سمّتهم ولا ينقصه، ومثَّل لذلك بقوله: "وقال المؤرخون: لم يزل مالكٌ بعد ذلك الضَّرْب في علوّ ورفعَةٍ؛ كَأَمَّا كانت تلك السَّيَاط حُلِيًّا حُلِّي بِهِ، وكذلك أحمد بن حنبل كان ما وقع له من الضرب والسَّجْن في التاريخ ذِكْرًا مجيدًا، وكانت هيئته عند الناس فوق ما يقتضيه علمه وروايته". (1)

وحديث آخر له عن دور العلماء في إصلاح المجتمع، وكيف ينظرون في أحوال الناس جميعها بعين الرعاية والحفظ، فذكر بعضًا من هذه المقامات، ومنها النَّظَرُ في أحوالهم من جهة ما يمُسُّهم من السَّراء والضَّراء، فيسعون ما استطاعوا في كشف الضَّر عنهم، ولو بعرض حالهم على أولى الشأن، وإثارة دواعيهم إلى أن يعالجوا العسر حتى ينقلب بفضل تديبرهم يسرًا، ويمثِّل لذلك بدرس التاريخ فيقول: "يحدثنا الكاتبون في تاريخ الأندلس: أنَّ العلماء المقيمين في ضواحي قرطبة، كانوا يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة، ويطالعونه بأحوال بلدهم". (2)

ويحدِّثنا عن فساحة الصدر، ونزاهة اللسان عن المكروه، وحاجة العالم لهاتين الخصلتين أشد من حاجة غيره لها، ثم يضرب مثلاً من تاريخ العلماء الذين ابتلوا بشيءٍ من ذلك فنقص قدره، فقال: "وابن حزم عالمٌ فاضلٌ، غير أنه نقص من قدره أنه أطلق لسانه في الأئمة، ولم يقتصر على بيان رأيه والحجَّة عليه، أو بيان بطلان ما ذهب إليه غيره من الأئمة". (3)

ويقرِّر الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ أطيب الأمم حياة: أُمَّةٌ تجدد الدعوة إلى الحقِّ بينها طرقًا معبَّدةً، تغشى كلَّ موطنٍ، وتطرق كلَّ سمعٍ، فتذهب مطلقة العنان دون أن تعترضها عقباتٌ؛ لقوَّة إيمان الدُّعاة بما قاموا يدعون إليه من صالحٍ، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويحكمون بما أنزل الله، لا يخافون لومة لائمٍ، ولا استنارة بصائر الرؤساء والأمراء، وإخلاصهم في تدبير شؤون جماعاتهم، فيتلقون دعوة المصلحين بالرضاء، لا تحدِّثهم أنفسهم أن يُلحقوا بهم أذىً، أو يقطعهم عن القيام بواجبهم، أو ينقصهم مَثقال ذرة من الإجلال اللائق بمقاماتهم،

(1) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 199).

(2) رسائل الإصلاح، (ص 117).

(3) دراسات في الشريعة الإسلامية، (ص 128).

ويضرب لذلك أمثلة في تاريخ الأُمَّة الإسلامية البالغة الدَّروَة من السَّعادة، منها عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر⁽¹⁾ بالأندلس مع منذر بن سعيد البلوطي⁽²⁾ قاضي قرطبة، وعهد أبي جعفر المنصور⁽³⁾ مع عبد الرحمن بن زياد⁽⁴⁾.⁽⁵⁾

(1) عبد الرحمن الناصر: (277-350هـ = 890-961م): هو عبد الرحمن بن محمد أبو المطرف المرواني الأموي، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس، ولد وتوفي بقرطبة، ونشأ يتيماً، بويع بعد وفاة جده (سنة 300 هـ) فكان أول مبايعته بإمارة الأندلس أعمامه، تبرأ من خلافة العباسيين، وأظهر حق بني أمية في الخلافة، فكان أعظم أمرائهم في الأندلس، كان كبير القدر، كثير المحاسن، محبا للعمرة، مولعا بالفتح وتخليد الآثار، أنشأ مدينة الزهراء، وبني بها قصر الزهراء المتناهي في الجمال، حكم خمسين سنة وستة أشهر، وكان حريصاً على الملك، يقطاً، صارماً. ينظر: فح الطيب للمقري، (166/1)؛ والأعلام للزركلي، (323-324).

(2) البلوطي: (273-355هـ = 886-966م): هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن التَّفْزِي القرطبي، أبو الحكم البلوطي، قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً، قوياً في الصدع بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نسبته إلى (فحص البلوط) بقرب قرطبة، رحل حاجاً سنة 308 هـ فأقام في رحلته أربعين شهراً، أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر، كان بصيراً بعلم الكلام والجدل، ولي قضاء قرطبة (سنة 339هـ) واستمر إلى أن توفي فيها. له من الكتب "الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله"، و"الناسخ والمنسوخ". ينظر: بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي، (ص 465)، ومطمح الأنفس لأبي نصر القيسي، (ص 238).

(3) أبو جعفر المنصور: (95-158هـ = 714-775م): هو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب، كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء، ولي الخلافة بعد وفاة أخيه السَّفاح سنة 136 هـ، وهو باني مدينة "بغداد"، وزيادة في المسجد الحرام، كان بعيداً عن اللهو والعبث، كثير الجد والتفكير، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً، وكان أفحلهم شجاعةً وحزمًا، إلّا أنه قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه، توفي ببئر ميمون (من أرض مكة) محرماً بالحج، ودفن في الحجون (بمكة) ومدة خلافته 22 عاماً. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، (53/10)؛ والأعلام للزركلي، (117/4).

(4) عبد الرحمن بن زياد: (75-161هـ = 694-778م): عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الإفريقي أبو خالد القاضي، اشتهر بالجرأة على الملوك وزجرهم عن الجور والعسف، ولد ببرقة، وهو أول مولود في الإسلام بإفريقية، ونشأ بها، وولي قضاء القيروان مرتين، ثم رحل إلى بغداد، فاتصل بأبي جعفر المنصور العباسي، قبل أن يلي الخلافة، وجمعت بينهما جامعة الاشتغال بالعلم، وأحبه المنصور، فكان رفيقه، ولما ولي المنصور الخلافة دعاه إليه، فوعظه ابن أنعم، وحذره من ارتكاب المظالم، وانتقد بعض أعماله، واستأذنه في العودة إلى القيروان، فأذن له، ولم يجمه بعد ذلك. توفي في القيروان. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب، (214/10)؛ والأعلام للزركلي، (306-307).

(5) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 70-71).

ويذكر - رَحِمَهُ اللهُ - عِللَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وأسباب قصورها، فيجعل على رأسها المداهنة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم يستذكر تاريخ الأئمة العلماء، وما كانوا عليه من الإقدام على وعظ الأمراء، والإنكار عليهم إذا أساءوا التصرف، أو أهملوا، ويضرب لهم مثلاً بقوله: "قال عز الدين بن عبد السلام⁽¹⁾ للملك نجم الدين أيوب⁽²⁾ في مجلسٍ حافلٍ برجال الدولة: يا أيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر، ثم تبيح الخمر؟! فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، فقال: هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي، فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 23]، فرسم الملك بإبطال تلك الحانة".⁽³⁾

3- أخذ العبرة، واستخلاص الدروس:

من أظهر المقاصد التي لأجلها تُورَدُ القصَّة، ويُقصُّ التاريخ؛ الاعتبار والادِّكار، واستخلاص الدروس والعظات، ولا شكَّ أنَّ الشيخ الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - تلمَّس هذا المعنى، وقصَّده حين أغرق في استنطاق التاريخ، وكثيراً ما نجده يقول بعد ذكر الوقائع التاريخية: "ومأخذ العبرة في هذه القصة"، وفيما يلي بعض شواهد هذا الباب:

(1) العز بن عبد السلام: (577 - 660 هـ = 1181 - 1262 م): هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد ابن مهذب السلمي، الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق، وتوفي بها. من مصنفاته: "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"، و"الإمام في أدلة الاحكام"، و"التفسير الكبير"، و"الفوائد في اختصار الفوائد"، و"ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام"، و"الغاية في اختصار النهاية"، و"بداية السؤل في تفضيل الرسول". ينظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، (209/8)؛ وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبه، (109/2).

(2) نجم الدين أيوب: (603 - 647 هـ = 1207 - 1251 م): هو الملك الصالح أيوب بن محمد الكامل بن أبي بكر العادل بن أيوب، أبو الفتوح نجم الدين، من كبار الملوك الأيوبيين بمصر وآخرهم، ولد ونشأ بالقاهرة، وولى بعد خلع أخيه لعادل سنة 637 هـ، وضبط الدولة بحزم، وكان شجاعاً مهيباً عفيفاً صموتاً، عمَّر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بني أيوب، وفي أواخر أيامه أغار الإفرنج على دمياط سنة 647 هـ، واحتلوها وأصاب البلاد ضيقاً شديداً، وكان الصالح غائبا في دمشق، فقدم ونزل أمام الفرنج وهو مريض بالشَّل فمات بناحية المنصورة، ونقل إلى القاهرة، من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة. ينظر: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي، (228/3)؛ والخطط للمقريزي، (236/2).

(3) ينظر: الدعوة إلى الإصلاح، (ص 46).

يحدِّثنا عن مظاهر الإنصاف الأدبي، وأنَّ الرّاسخين في هذه الفضيلة لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمعٍ كبيرٍ لم يشعروا بالخلاف، ولا بخطأ المخطئ، أو إصابة المصيب، فيقول: "وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن رجال من علماء الإسلام بلغوا هذه الغاية من الإنصاف، قال عبد الرحمن بن مهدي ⁽¹⁾: ذاكرت القاضي عبيد الله بن الحسين ⁽²⁾ في حديثٍ، وهو يومئذ قاضٍ، فخالفتني فيه، فدخلت عليه بعد، وعنده الناس سَمَاطِينَ ⁽³⁾، فقال لي: ذلك الحديث كما قلت أنت، وأرجع أنا صاغراً"، ثم يبيِّن العبرة من هذه القصة بقوله: "فعبيد الله قد أحسن إلى نفسه إذ أخذها بفضيلة الإنصاف، وأحسن إلى النَّاس إذ علَّمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطأوا؛ ولا يتلبثون في الرجوع إلى الحقِّ ولو عظمت مناصبهم، وعلت أقدارهم". ⁽⁴⁾

وفي مقال له بعنوان: (مثلٌ أعلى لشجاعة العلماء) ⁽⁵⁾ يحكي قصَّةً في سياقٍ تاريخيٍّ طويلٍ، عن موقفٍ شجاعٍ للإمام سعيد بن المسيَّب - رَحِمَهُ اللهُ -، ثم شرع في تعداد جملةٍ من الدروس المستفادة من هذه القصَّة، وختم ذلك بقوله: "ومأخذ العبرة في هذه القصَّة: أنَّ سعيد بن

(1) عبد الرحمن بن مهدي: (135-198هـ = 752-814م): هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي، أبو سعيد، من كبار حفاظ الحديث، وله فيه تصانيف، حدَّث ببغداد، ومولده ووفاته في البصرة، قال الشافعي: "لا أعرف له نظيراً في الدنيا". ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، (3/339).

(2) عبيد الله بن الحسين: (105-168هـ = 723-785م): عبيد الله بن الحسن بن الحصين أبو الحر العنبري، قاضي البصرة، سمع داود ابن أبي هند، وخالدا الحذاء، وسعيدا الجريري، روى عنه عبد الرحمن بن مهدي، ومعاذ بن معاذ القاضي، وخالد بن الحارث الهجيمي، ومحمد بن عبيد الله الأنصاري، كان ثقة، من الفقهاء العلماء بالحديث، من أهل البصرة، قدم بغداد أيام المهدي، قال ابن حبان: "من ساداتها فقهاً وعلماً"، ولي قضاءها سنة 157 هـ، وعزل سنة 166 وتوفي فيها. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، (7/12)؛ والأعلام للزركلي، (4/192).

(3) السمَّاط: سمَّاط القوم صفهم، يقال: قام القوم حوله سمَّاطين؛ أي: صَفَّين. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، (12/245).

(4) ينظر: رسائل الإصلاح، (ص 113-114).

(5) منشورٌ بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزآن الثالث والرابع من المجلد الثالث عشر.

المسيب قد ضرب مثلاً أعلى لشجاعة العلماء وثباتهم على ما يرونه شريعةً، واحتمالهم في سبيل ذلك كل ما يُتَوَقَّع من أذى، ولو بلغ ضرب الأعناق بالسيوف". (1)

ومثل ذلك سرده لقصة عن يحيى بن أكثم وجماعة من الفقهاء مع الخليفة المأمون، وفي آخرها قال: "في هذه القصة مواضع صالحة لأن تؤخذ منها عبرٌ قيِّمةٌ..." (2) ثم شرع في استخلاص العبر والعظات.

وفي مقالٍ آخر (3) قصَّ لنا موقفاً تاريخياً حدث بين الإمام سعيد بن جبير - رَحِمَهُ اللهُ - (4) والحجَّاج الثقفي (5)، ليختم تقريره ببيانٍ بليغٍ، وأسلوبٍ بديعٍ قائلاً: "مأخذ العبرة من تلك القصة: إنَّ المتضلع من حقائق الدِّين الخفيف، المستنير بعقائده، الرَّاسخ في آدابه، لا يكبر في عينه أهل الدنيا، وإن بلغوا أعظم رياسةٍ، ولا يَزُوعُهُ ما يحيط بهم من سيوفٍ وأسِنَّةٍ، وإن كانوا يغمسون أيديهم في دماء الأبرياء إلى ما فوق المرافق، وكان من الميسور لسعيد أن يقول بين يدي الحجَّاج كلماتٍ يستدِرُّ بها عفوهُ، ولكن النَّفس التي امتلأت بهدى الله، وأُشربت حكمة

(1) الدعوة إلى الإصلاح، (ص 167).

(2) المرجع السابق، (ص 170).

(3) بعنوان: سعيد بن جبير والحجَّاج، وهو منشورٌ بمجلة "الهداية الإسلامية" - الجزء التاسع من المجلد الرابع عشر.

(4) سعيد بن جبير: (45-95 هـ = 665-714 م): هو سعيد بن جبير بن هشام الحبشي الأسدي الوالي مولاهم، أبو عبد الله الكوفي، أحد أئمة التابعين، وأعلمهم في زمنه، تلميذ ابن عباس وابن عمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: "قتل الحجَّاج سعيداً وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو مفتقرٌ إلى علمه". توفي مقتولاً - رَحِمَهُ اللهُ -. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، (4/321)، وطبقات المفسرين للداودي، (1/188).

(5) الحجَّاج الثقفي: (40-95 هـ = 660-714 م): هو الحجَّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، قائدٌ، داهيةٌ، خطيبٌ بليغٌ، ولد ونشأ في الطائف (بالحجاز) وانتقل إلى الشَّام، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فرحف إلى الحجاز بجيشٍ كبيرٍ، وقتل عبد الله وفرَّق جموعه، فولَّاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبت له الإمارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة)، وكان سقاً سقاً باتفاق معظم المؤرخين، قال الذهبي عنه: "له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله"، وأخبار الحجَّاج كثيرةٌ، مات بواسط. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، (2/29)؛ وتاريخ الإسلام للذهبي، (2/1071).

القرآن المجيد، تأبى أن تطلب الحياة من طريق الذِّلة والخضوع لمن تدنَّست سمعته بارتكاب البغي والفساد في الأرض، وإذا رغبت في الحياة، فإنما ترغب فيها للازدياد من العمل الصالح، والكَلِم الطَّيِّب، وهل يُرجى عملٌ صالحٌ أو كَلِمٌ طَيِّبٌ لنفسٍ تقع في الملق، وتستجدي رضا المجرمين بإطرائهم، أو الانحطاط في أهوائهم؟! (1).

وهكذا نجده - رَحْمَةُ اللَّهِ - يستقصي العبر، ويستخلص العظات من الدرس التاريخي كلما سنحت له ساحة، ولاحت له من ذلك لائحة، تقريرا للمعاني، وتقريراً للمسائل، مما يدلُّ على اعتناؤه بهذا الفن الجليل، واحتفائه به.

(1) الهداية الإسلامية، (ص 136).

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبإحسانه تُسفتح العبر، والفوائد، والعظات، وبفضله تنتهي الكتابات، وتشرق النّهايات، وأصلي وأسلم على سيّد البشرية، وخير البريّة، الذي أخرج الله به عباده من ظلمات الجهل إلى نور اليقين، ومن ذلّ الشّرك إلى عزّ العبودية، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد هذه الجولة الماتعة النّافعة - بإذن الله - في دراسة الجهود الدعوية والإصلاحية للشيخ الإمام محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - من خلال إرثه الفكري والثقافي، فإنّه يحسن ختم هذه الدراسة بجملة من النتائج، وذكر لبعض التّوصيات.

نتائج الدراسة:

1- ظهر من خلال هذه الدراسة أنّ الدعوة هي إمالة النّاس إلى الله تعالى إيماناً به وتصديقاً، وإلى دين الإسلام إجابةً وتحقيقاً؛ وأنّ الإصلاح هو الرجوع بالنّاس إلى الإسلام الصّافي، وتنقيته مما شابه من فسادٍ على كلّ المستويات، وأنّ كلّ نشاطٍ قام به الشّيخ من أجل التعريف بالإسلام، والدفاع عنه، وإرشاد النّاس إلى الالتزام به، وتوجيه سلوكهم وأقوالهم وفق ذلك، والنّصح للأمة، وإصلاح النفوس، وكفّها عن الشّر؛ كلّ ذلك يدخل في جهوده الدعوية والإصلاحية.

2- الشيخ محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - جزائري الأصل، تونسي المولد والنشأة والتّعلّم والتّربية، شاميّ المهجر، مصريّ المستقرّ والمستودع؛ لذا ارتأى الدارسون لسيرته تقسيم حياته لثلاث مراحل: الأولى: حياته في البلاد التونسية، وهي مرحلة التّعلّم والتّكوين، والثانية: حياته في البلاد السّورية، وهي مرحلة التنقل والتّرحال، والثالثة: حياته المصرية، وهي التي سمّيت بمرحلة المجد الثقافي والعلمي.

3- أثرت عوامل كثيرة في تكوين شخصيته، سواء أكانت عواملٍ داخليةً مثل كونه سليل أسرة عُرُفت بالعلم، وكونه نشأ في بيئة اتّسمت بالعلم والصّلاح، والحرص البالغ من القائمين على تربيته حتى يتلقّى التعليم والتّربية المناسبين، ثم كثرة ترحاله وأسفاره طلباً للمقامات العالية،

وأخرى هي عوامل خارجية، منها بداية انهيار الخلافة الإسلامية التي كانت تمثلها الدولة العثمانية، ثم تسلُّط الغزو الأوروبي على بلاد المسلمين ومنها بلاد المغرب العربي، إلى بداية ظهور الموجات التغريبية والأفكار الإلحادية، كلُّ ذلك أثَّر بشكل مباشر في تكوين شخصية الشيخ الفكرية والدعوية والتنظيمية.

4- وقفنا من خلال البحث على غزارة الكتابة والتأليف عند الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - وتنوعها، فقد كان مطواع القلم، كثير البحث، متنوع المعارف، دائب النشاط، قريب الصلة بالصحافة.

5- تنوعت جهود الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - الدعوية، سواء المتعلقة بتقرير صفات الداعية وإعدادها، وما يجب عليه تجاه ربه إخلاصًا و يقينًا، أو تجاه نبيه اتباعًا واهتداءً؛ أو تجاه نفسه من خلال الاهتمام بالجانب البدني، أو الجانب الأخلاقي كتمثُّل فضيلة الصدق، وحسن السمات، ونزاهة اللسان، وحفظ المروءة، والشجاعة والجرأة في الحقِّ، وعلوُّ الهمة، والحلم؛ أو تجاه أسرته وأقاربه، أو تجاه إخوانه الدعاة، أو الجهود المتعلقة بواجبات الداعية تجاه أحوال الدعوة ومقتضياتها: كإنشاء الجمعيات الدعوية، وتأسيس الصحف والمجالات الإصلاحية.

6- ظهر من خلال البحث غير الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - على الدين، وحميته في ردِّ الباطل، ونقد الكتاب والعلماء الذين كانت له مواقف وكلمات انحرفوا بها عن منهج الحقِّ، أو خالفوا الأصول الشرعية العامة، وكان له معارك فكرية عديدة، وهي واضحة في مجالات أدبيَّة وشرعية، ووطنية، سواء على مستوى بعض الأفراد، أو على مستوى التوجهات الجمعية في بعض التيارات المناصرة للتوجه التغريبي الأوروبي الاستعماري الإمبريالي.

7- غلب على منهج الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - في رده على الانحرافات والمخالفات إقامة الحجج، والشمولية في النقد، وإحكام النِّقْض، والدقة والتمحيص، والواقعية، والتَّوجُّه للأفكار دون الأشخاص.

8- جمع الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - إلى وعيه بتراث الأمة المسلمة، وكنوزها الحضارية، وعيًا بالعديد من تحدياتٍ معاصرةٍ له تحول بين الأمة وبين تحقيق نهضة حقيقيَّة وإحياءٍ طبيعيٍّ، فكان

الشيخ لسان "الأصالة"، المعبر عن مشكلات "المعاصرة"، وضرورتها، يزود عن "فكر الإسلام ومجد العروبة"، ويدعو إلى النهضة الحديثة المرتكزة على "المعارف"، و"الصناعات".

9- تعددت مجالات الدعوة في فكر الشيخ -رَحْمَةُ اللَّهِ-، وتنوعت مظاهرها، وشملت جميع المناحي الفكرية، بدايةً بأصول الدين وما يندرج تحتها أركان الإيمان، والفقه الإسلامي، والقضايا الأخلاقية، وقضايا اللغة العربية.

10- ظهر اعتناء الشيخ -رَحْمَةُ اللَّهِ- بمسائل الاعتقاد، وإثبات مركزيتها وأولويتها من خلال توافر كتاباته فيها، والتنويه بشأن العقيدة وأهميتها في المجتمع المسلم، واعتبارها أصلاً من أصول الإصلاح الاجتماعي، والتحذير من التهوين بشأنها، والرّد على المزاعم التي تزري بها، ونقد المذاهب الهدامة التي تحرفها أو تفسد صفاءها، كالإلحاد وغيره.

11- منهج الشيخ -رَحْمَةُ اللَّهِ- في تقرير أركان الإيمان وتوحيد الله موافق لمنهج السلف الصالح من جهة تعظيم النصوص الشرعية الواردة في هذا الباب، وإجرائها على ظاهرها، ورفض تحريفها عن معانيها وحقائقها، ومن جهة التلقي والاستدلال، والدعوة إلى العقيدة الصحيحة، ومن جهة اعتماده الكتاب والسنة والإجماع والعقل السليم والفطرة القويمة، والرّد على المخالفين والمنحرفين عن الحقّ في شتى أبواب الاعتقاد، ونفي الشرك، ومحاربة البدع.

12- عُرف الشيخ -رَحْمَةُ اللَّهِ- بتفقهه بمذهب مالك -رَحْمَةُ اللَّهِ-، وقام بتدريسه في جامع الزيتونة، لكن لم يكن الشيخ متعصباً ولا مقلداً، بل كان يتحرّى الدليل، ويرى أنّ الاجتهاد ضرورة شرعية، بل هو روح الحضارة والمدنية، وقد بدا جلياً من خلال مناقشاته العلمية والتي اتّسمت بالاستيعاب والتحقيق، كما كان مواكباً للنوازل الفقهية والمستجدات المعاصرة، معتنياً بمقاصد الشريعة، حريصاً على إظهار الحكم والأسرار الشرعية، مشتغلاً بتنفيذها في مجالات الحياة العلمية والعملية.

13- تميّز حديث الشيخ عن الأخلاق بالجمع بين التأصيل والتطبيق، ومطابقة القول للعمل، فقد عُرف -رَحْمَةُ اللَّهِ- بالسيرة الطيبة، والأخلاق العالية، والصفات الحميدة، يشهد له بذلك كل من عرفه وخالطه، كما شهدت كتاباته حضوراً قوياً للتأصيل الأخلاقي، وبياناً

لمكانتها وأثارها الحسنة على الفرد والمجتمع كإقامة صرح العمران، وحيازة المدنية الفاضلة، واغتنام السعادة الأخروية.

14- من المجالات التي لها صلة وثيقة بالدعوة إلى الله قضايا اللغة العربية، وقد توجَّهت عناية الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - إليها، سواء من جهة تحصيل علومها، وإتقان فنونها، والتَّفوق والتَّميُّز في توظيفها، أو من جهة الاشتغال بقضاياها مثل إصلاح متنها، وكيفية تطوير معجمها، وآليات المحافظة على حياتها وتأثيرها في الهيئة الاجتماعية، ومعالجة مشكلة العامية، ومفهوم النحو العربي، والقياس في اللغة، وغير ذلك كثير، كما سعى إلى تقرير أثر اللغة في نجاح الدعوة إلى الإصلاح، وأظهر مكانة القوة في هذه اللغة، وكونها من أبرز مقومات الأمة، وإحدى ركائز هويتها، وأقوى عوامل وحدتها، وأظهر معالم الارتقاء مع المدنية والحضارة المتجددة.

15- تنوعت مصادر الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - في دعوته، وقد ظهر من خلال البحث اعتماده على القرآن الكريم كمصدرٍ أساسيٍّ في معالجته للقضايا الدعوية، سواء من جهة التقرير والاستدلال، أو جهة التَّقدُّم والردِّ، وليس من المبالغة أن يقال: إنَّ الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - أمضى جُلَّ حياته في التَّفقه في كتاب الله، والدَّعوة إلى سبيله، وبيان فضائله، والدفاع عنه، إلى جانب ما عمله من تفسير بعض الآيات القرآنية الكريمة، وتقريره لبلاغة القرآن، وإعجازه، وفصاحته في مقالاته، وإبداء رأيه في تفسير القرآن، ونقل معانيه إلى اللغات الأجنبية، أو ترجمته إلى اللغات الأخرى، وكذا التَّصديِّ لكلِّ مَنْ حاول تحريف آياته، أو راح يهذي في تأويلها، أو يُلحد بها.

16- من تلك المصادر الأصلية السُّنة النَّبوية، فقد كانت له جهودٌ مباركةٌ في تقرير هذا الأصل العظيم، وقد اعتمده - إلى جانب القرآن الكريم - كمصدرٍ للتلقِّي وتقرير المسائل العلمية، ويرى عصمته، ويستمد منه عقائده، وأحكامه، وسائر أمور دينه، كما أنه - رَحْمَةُ اللَّهِ - قد عني بالسُّنة النَّبوية عنايةً عظيمةً؛ حيث تعلَّمها، وتفقه فيها، وعلمها، وكان معظِّمًا لها، منافعًا عنها.

17- من مصادر الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - في دعوته الإجماع، فقد كان معنيًا به، وكان يعدُّه مصدرًا من مصادره الأساسية في تقرير المسائل الشرعية، فتارةً يستند على الإجماع في

تأييد ما يراه، وتارةً يستند عليه بإبطال كلام الخصم، وتارةً يزيل الشُّبه التي تثار حول الإجماع، إلى غير ذلك مما كان يتعرَّض له في باب الإجماع.

18- من جملة المصادر التي اعتمدها الشيخ في دعوته الإصلاحية درس التاريخ والسيرة النبوية، فالنَّاطِر في تراث الشَّيْخ يلمس جليًّا أثر التَّاريخ في فكره، وحضوره القوي في مؤلَّفاته ومحاضراته، بل لا يكاد يخلو تقريرٌ من تقريراته - على اختلاف العلوم والفنون - إلَّا وأحداث التاريخ فيه قائمةٌ، ومواقف السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عليه شاهدةٌ، وكان من منهجه عند تقريره للمسائل العلمية استنطاقه للتاريخ، واحتفاؤه بالسَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، واستحضاره للوقائع والأحداث الماضية، سواء تعلَّق الأمر بالحضارات والأمم، أو الشخصيات والأفراد، واعتماده ذلك كمصدرٍ من مصادر المعرفة الإنسانية، وموردٍ من موارد الإصلاح الفكري والدعوي، تنويهاً منه بمكانة هذا العلم الجليل، ودوره في ترسيخ المفاهيم، وتقدير القيم العلمية والعملية، خاصَّةً في مقام التربية والإصلاح.

19- مثَّل الشَّيْخ محمد الخضر حسين بإنتاجه الفكري والثقافي المتنوع والشَّامِل، وبعمله الدَّعْوِي المنظم والمستمرّ، وبجهوده الإصلاحية في مختلف الميادين مدرسةً متكاملةً، وتجربةً فذَّةً وغنيَّةً.

20- ظهر جليًّا من خلال البحث الشُّموليَّة والوسطية في الفكر الإصلاحي عند الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -، والواقعية في معالجة القضايا، والإيجابية في التعامل مع مختلف التحدِّيات، كما أظهرت الوعي الكبير عند الشيخ، وتحمُّل المسؤوليات الاجتماعية والتربوية، وقوة الشَّخصية في التَّصدي ومواجهة الانحرافات الفكرية.

21- لقد قام هذا العالم الفذُّ بتناول مواضيع الدَّعوة وقضاياها - عقيدة وأحكام وأخلاق واجتماع وسياسة - وفق الواقع والعصر الذي عاش فيه، فانتهج منهجًا وسطًا بين من عجز عن مجارة الزمن، وبين من تأثر بالوافد الغربي فانحرف عن المنهج الشَّرعي، متحلِّيًا في ذلك بجميل الصِّفات، وحميد الخصال، وساعده في ذلك قَلَمه المطواع، وبحثه الكثير، وتنوُّع معارفه، ونشاطه الدَّائب، وصلته الوطيدة بأعمدة الفكر والإصلاح في زمانه، وحضوره القوي في مختلف المجتمعات.

22- أظهرت هذه الدراسة حاجة الأمة الإسلامية في عصرنا إلى مثل هذه الشخصيات الإصلاحية، وضرورة استصحاب الأفكار الإصلاحية تلك؛ من أجل النهوض بالعمل الدعوي، فإنَّ العلل والانحرافات الفكرية والاجتماعية التي انبرى لها قلم ولسان ويد الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - لاتزال تنخر جسد الأمة، ولا زالت الأفكار الهدامة تشكّل عوامل ضررٍ وفسادٍ في عقيدة المسلمين، ودينهم، وثقافتهم، وهويتهم، بل ازدادت حدّة الفساد، وارتفع معدّل الانحراف، وكثرت السّهام التي تريد ضرب الإسلام وأهله، ولا ملجأ ولا منجى بعد الله إلّا وجود حُرّاسٍ للحدود من أمثال الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ - قائمين بالحقّ، مجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الدين.

التوصيات:

1- على الرّغم من كثرة الكتابات والدّراسات المتعلقة بالشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - في مختلف ميادين العلوم والفنون؛ إلّا أنّها ليست في حجم التراث الفكري الهائل الذي خلّفه الشيخ، ولا زالت المكتبة الإسلامية بحاجةٍ لدراساتٍ متواليةٍ متخصصةٍ تُعنى بفكر الشيخ وإرثه الإصلاحي والدّعوي - خاصّةً -.

2- الحاجة ماسّةٌ إلى إظهار أوجه التّميّز في النضال الدعوي والإصلاحي في فكر الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ -، سواء تعلق الأمر بالعمل المؤسسي الجمعي، أو النشاط الصحفي، أو غير ذلك، فعلى الدراسين والباحثين ولوج هذا الباب، والاجتهاد في دراسة وبحث هذه الجوانب.

3- على الدّعاة إلى الله، والعاملين في سلك الإصلاح الدّيني والتربوي والاجتماعي الرجوع إلى تراث الشيخ العلمي، والإفادة من تجاربه العلمية والعملية، من أجل استخلاص الدروس من نضال الشّيخ وكفاحه؛ والوقوف على معالم النّجاح، والسّير على نهجه.

4- أوصي طُلّاب الدراسات العليا الاشتغال بالمروروث العلمي لهذا العَلم الجليل، من خلال استكشاف وتحليل تراثه العلمي، وبيان مدى خدمته للعلوم الشرعية وغيرها، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر دراسة:

جهود الشيخ الخضر في القضاء.

جهود الشيخ الخضر في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

منهج الاستدلال بالتاريخ في تقرير مسائل الشريعة.

المنهج الأخلاقي بين التأصيل والتطبيق عند الشيخ الخضر.

جهود الشيخ الخضر في خدمة السُّنَّة النَّبَوِيَّة، والرَّد على الافتراءات الموجهة لها.

منهج الشيخ الخضر في دراسة السيرة النَّبَوِيَّة.

ملامح المنهج السياسي في فكر الشيخ الخضر.

التضمن والاقْتِباس في آثار الشيخ الخضر.

الآراء البلاغية في آثار الشيخ محمد الخضر.

آراء الشيخ الخضر النحوية والصرفية.

الشيخ الخضر بين الأصالة والتجديد في الدرس اللغوي.

معالم التجديد في الفكر الإصلاحية للشيخ الخضر من خلال مجلة (السعادة العظمى).

منهج الشيخ الخضر في الكتابة والتصنيف.

جهود الشيخ الخضر في إصلاح التعليم.

معالم المدنية في فكر الشيخ الخضر.

منهج الشيخ الخضر في التربية.

معالم الإصلاح الاجتماعي في تراث الشيخ الخضر.

ويمكن اشتقاق موضوعاتٍ متفرعةٍ عن هذه العناوين، جديرة بالبحث والدراسة، وخليقة أن تضفيَ الجديد إلى عالم المعرفة، وتكون خدمةً جليلةً لتراث الشيخ - رَحْمَةُ اللَّهِ -.

كما أوصي القائمين على المخابر العلمية في مختلف الجامعات تبني أفكارٍ جديرة بخدمة تراث الشيخ، سواء تعلَّق الأمر بالملتقيات الوطنية والدولية، أو الاستكتاب الجماعي، أو الأعداد الخاصة في المجلات العلمية، أو من خلال جمع الدراسات العلمية المتعلقة بالشيخ، وتصنيفها ضمن سلاسل علمية، أو حوليات.

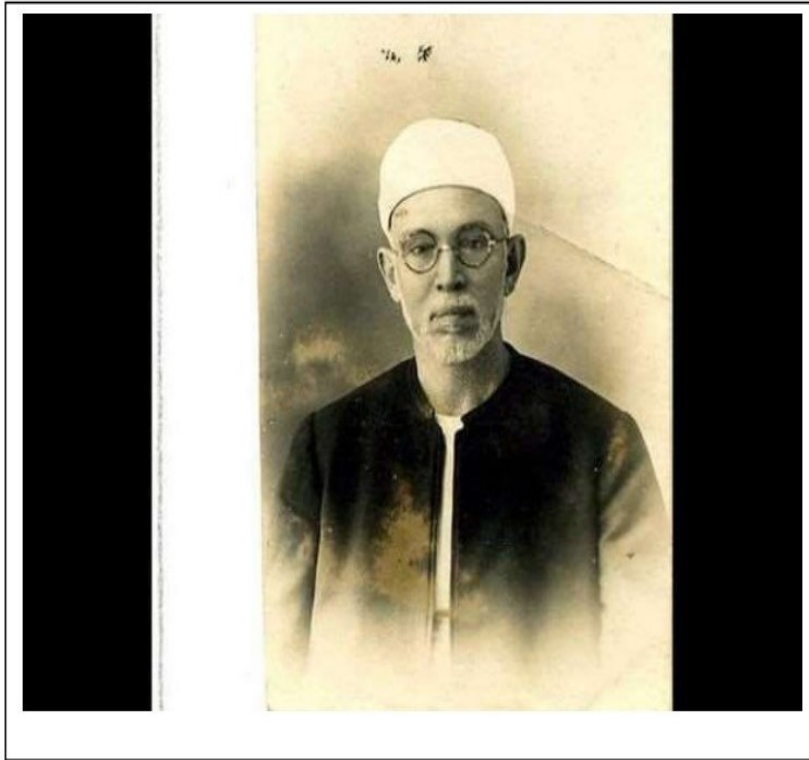
هذا، وأرجو أن أكون وُفِّقْتُ لِلصَّوَابِ فيما بذلته واجتهدتُ فيه، ولا أنسبُ ذلك لجهدي وحِذقي، بل هو محض توفيق الله - جَلَّالَهُ - وتسديده، وعونه وتيسيره، وإن كان غير ذلك فأرجو الله العفو والمجاوزة، والسِّتْرَ والمَغْفِرَةَ، وأن ينفعني، وينفع بي، وأن يصلح حالي، وحال أُمَّتِي، ويختتم بالصَّالِحَاتِ أَعْمَالِي، ويهديني إلى سواء السَّبِيلِ، وصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الملاحق

الملحق الأول: بطاقة شخصية لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



الملحق الثاني: صورة للإمام الخضر في كهولته



الملحق الثالث: صورة للشيخ الخضر في شيخوخته



الملحق الرابع: الشيخ الخضر رفقة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور



الملحق الخامس: الشيخ الخضر مع كاتبه عبد الحلیم بسیونی فی مشیخة الأزهر



الملحق السادس: الإمام الشيخ مع ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني



الملحق السابع: الشيخ الإمام الخضر في مكتبه بالجامع الأزهر



الملحق الثامن: الإمام الخضر مع شباب من جمعية الهداية الإسلامية



الملحق التاسع: الشيخ مع ضيوف صينيين وهيئة تحرير مجلة (لواء الإسلام)



الملحق العاشر: الإمام الخضر مع عبد الكريم الخطّابي



الملحق الحادي عشر: الشيخ في زيارة لدولة لبنان مع أخيه زين العابدين



في الثانوية الشرعية بطرابلس خلال زيارة الإمام الشيخ محمد الخضر حسين لها

الملحق الثاني عشر: الشيخ الخضر وهو يطالع أحد الكتب



الفهارس

- ✧ فهرس المصادر والمراجع.
- ✧ فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- ✧ فهرس الأحاديث النبوية.
- ✧ فهرس الأعلام المترجم لهم.
- ✧ فهرس المصطلحات، والكلمات الغريبة.
- ✧ فهرس الأديان والفرق والمذاهب الفكرية.
- ✧ فهرس المحتويات العام.

فهرس المصادر والمراجع

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ برواية حفص عن عاصم.

الكتب العامة:

أ

1. الإبانة الكبرى، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا بن نعيان معطي، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1415هـ - 1994م.
2. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، سنة 1986م.
3. آثار الإمام ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، تحقيق: عمار طالي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1، سنة 1388 هـ - 1968م.
4. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
5. أحاديث في رحاب الأزهر، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
6. الاحتساب وصفات المحتسبين، لعبد الله بن عبد المحسن المطوع، دار الوطن للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1420هـ-1999م.
7. الأدب الحديث لعمر الدسوقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1973م.
8. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط3، 1409هـ - 1989م.
9. الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

10. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ - 1999م.
11. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1405هـ - 1985م.
12. الاستقامة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، ط1، عام 1403هـ.
13. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م.
14. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: علي معوض، عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ - 1994م.
15. أسرار التنزيل، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431هـ - 2010م.
16. الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - دراسة حول كتاب: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، للشيخ مصطفى صبري، تقديم ودراسة الدكتور مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط2، 1409هـ - 1989م.
17. أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، ط2، سنة النشر 1406هـ.
18. الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرزاق، تقديم السفير ممدوح عبد الرزاق، ط1، 1343هـ - 1925م.

19. الإسلام والحضارة العربية، لمحمد كرد علي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر، ط3، 1968م.
20. الإسلام والحضارة الغربية، لمحمد محمد حسين، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1399هـ-1979م.
21. الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ-1995م.
22. أصول الدين، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، مطبعة الدولة، استانبول، تركيا، ط1، 1346هـ - 1928م، طبعة مصورة عنها عام 1400هـ-1980م بدار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
23. أصول السُّنَّة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق وتخرّيج وتعليق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية - المملكة العربية السعودية، ط1، 1415 هـ.
24. إعلام الموقعين عن رب العالمين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزي، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ.
25. الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002م.
26. الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424 هـ - 2004 م.
27. الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

28. الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارها في حياة الأمة، علي بن بخيت الزهراني، دار الرسالة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.
29. الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، دار البشير، طنطا، مصر، ط1، 1408 هـ.

ب

30. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الرياض، السعودية، ط1، سنة النشر: 1424 هـ - 2003 م.
31. بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، عام النشر: 1967 م.
32. البلاد العربية والدولة العثمانية، لساطع الحصري، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. د.ت.
33. بلاغة القرآن، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
34. بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى 728 هـ)، مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط1، سنة 1426 هـ.

ت

35. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
36. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ شمس الدين بن عثمان الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1411 هـ - 1991 م.

37. التاريخ الإسلامي، لمحمد شاكراً، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ - 1987م.
38. تاريخ الدولة العثمانية العليّة، لإبراهيم حليم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1408هـ - 1988م.
39. تاريخ الشعوب الإسلامية، لبروكلمان، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1968م.
40. تاريخ الشيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرحمانية، لسليمان الصيد، دار هومة، بوزريعة، الجزائر.
41. تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري - (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي) -، دار التراث، بيروت، ط2، سنة 1387 هـ.
42. تاريخ بغداد، للإمام أبي بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ - 2001م.
43. تاريخ مصر الحديث، جورج زيدان، مطبعة الهلال، القاهرة، ط3، 1925م.
44. التأويل: خطورته وآثاره، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1412 هـ - 1992 م.
45. تراجم الرجال، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
46. تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط2، سنة 1994 م.

47. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض بن موسى بن عياض البستي، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الشؤون الإسلامية، المغرب، ط2، 1403هـ - 1983م.

48. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م.

49. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م.

50. التنصير: مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، لعلبي بن إبراهيم النملة، ط2، 1419هـ.

51. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1400هـ - 1980م.

52. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

53. تونس وجامع الزيتونة، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431هـ - 2010م.

ث

54. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندي، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، الناشر: دائرة المعارف العثمانية بـحيدر آباد الدكن، الهند، ط1، 1393هـ - 1973م.

ج

55. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط1، 1420هـ - 2000م.
56. الجامع الكبير - سنن الترمذي -، محمد بن عيسى بن سَؤرة أبو عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1998م.
57. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ - وسننه وأيامه - صحيح البخاري -، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، المملكة العربية السعودية، ط1، سنة 1422هـ.
58. جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الرياض، ط9، سنة 1432هـ.
59. جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431هـ - 2010م.
60. جذور البلاء، عبد الله التل، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، ط1، 1390هـ.
61. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1987م.

ح

62. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مطبعة المدني، القاهرة.
63. حاضر العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة، جميل عبد الله محمد المصري، مكتبة العبيكان، جدة، السعودية، ط6، 1428هـ - 2007م.

خ

64. خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، لعبد الله التَّل، دار القلم، بيروت، لبنان، 1965م.

65. الخطط المقرزية المسمَّى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418 هـ.

66. خوطر الحياة، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

د

67. درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411 هـ - 1991 م.

68. دراسات في الشريعة الإسلامية، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

69. دراسات في العربية وتاريخها، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

70. الدعوة إلى الإصلاح، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

71. الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي الصَّلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1425 هـ - 2004 م.

72. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لإبراهيم بن علي ابن فرحون، تحقيق: محمد الأحدي أبو النور، بدون طبعة، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

73. ديوان المتنبي بشرح العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي
محب الدين، المحقق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، دار المعرفة، بيروت.

ذ

74. ذيل طبقات الحنابلة، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن الحنبلي (المتوفى
795هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1،
1425هـ - 2005م.

ر

75. الرد الوافر، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي
الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين، المحقق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،
بيروت، ط1، سنة 1393هـ.

76. الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك، تقي الدين أبو العباس أحمد بن
عبد الحليم ابن تيمية، المحقق: محمد بن عبد الله السمهوري، دار بلنسية، الرياض، ط1،
1415 هـ - 1995م.

77. رسائل الإصلاح، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني،
دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

78. الروحية الحديثة دعوة هدامة، للدكتور محمد محمد حسين، دار الإرشاد للطباعة والنشر
والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1388هـ-1969م.

س

79. السعادة العظمى، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني،
دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

80. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، ج 1 - 4: 1415 هـ - 1995 م / ج 6: 1416 هـ - 1996 م / ج 7: 1422 هـ - 2002 م.
81. السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط1، 1410 هـ - 1990 م.
82. سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، أنور الجندي، دار الجيل، بيروت، لبنان، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط2، 1405 هـ - 1985 م.
83. سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1430 هـ - 2009 م.
84. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
85. السنن الكبرى للبيهقي، لأحمد بن الحسين أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424 هـ - 2003 م.
86. سنن النسائي الصغرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث الإسلامي، دار المعرفة، بيروت، سنة 1420 هـ.

ش

87. شرح المقاصد، لمسعود بن عمر التفتازاني، دار المعارف النعمانية، باكستان، ط1، 1401 هـ - 1981 م.
88. شرح مقامات الحريري، أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2006 م - 1427 هـ.
89. الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة.
90. الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

91. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لمحمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1398هـ-1978م.
92. شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور: حياته وآثاره، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ-1996م.
93. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير، هيا العلي، دار الثقافة، الدوحة، قطر، سنة 1994م.

ص

94. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
95. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1407هـ-1987م.
96. صفات الداعية، حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، دار إشبيليا، الرياض، السعودية، ط1، 1424هـ-1999م.
97. الصفدية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط2، سنة 1406هـ.

ط

98. طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود الطناحي، د. عبد الفتاح الحلو، دار هجر، القاهرة، ط2، 1413هـ.
99. طبقات الشافعية، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعي، أبو محمد، جمال الدين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، ط1، سنة 2002م.

100. طبقات الشافعية، لأبي بكر بن أحمد بن محمد الشهيبي الدمشقي ابن قاضي شهبة، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط1، سنة 1407هـ.
101. طبقات المفسرين، لمحمد بن علي الداوودي، تحقيق: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت.

ع

102. العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
103. عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط1، 1405هـ-1985م.

ف

104. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379 هـ -1960م.
105. فضائح الباطنية، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.
106. فقه الدعوة إلى الله، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، سنة 1996م.
107. الفقيه والمتفقه، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط2، سنة 1421هـ.
108. فهم أصول الإسلام في رسالة التعليم، علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط1، 1994م.

ق

109. القاديانية والبهاية، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
110. القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروز آبادي، تحقيق مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، لبنان، ط8، 1426 هـ - 2005 م.
111. القول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد، لمحمد وحيد، دار الوراق، بيروت، دار التَّيَرِين، الرياض، ط1، 1426 هـ - 2005 م.

ك

112. كتاب الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية ط1، 1412 هـ - 1992 م.
113. كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
114. كلمات وخواطر وآراء، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
115. الكليات، أيوب بن موسى الحسيني القرمي الكفوي أبو البقاء الحنفي، المحقق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، دون طبعة وتاريخ.

ل

116. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414 هـ.

م

117. المدخل إلى علم الدعوة، أبو الفتح البيانوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1422هـ-2001م.
118. مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، بدون طبعة، 1425هـ-2004.
119. محاضرات إسلامية، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
120. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ - 2000م.
121. محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
122. محمد الخضر حسين: النص القرآني في فكره الإصلاحية، الطاهر بن سالم، دار النقوش العربية، تونس، ط1، 2015م.
123. محمد الخضر حسين: حياته وآثاره، محمد مواعده، الدار الحسينية للكتاب، تونس، ط2، 1412هـ-1992م.
124. محمد رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
125. المحيط بالتكليف، للقاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسد أبادي أبو الحسين المعتزلي، جمعه الحسن بن أحمد متوية النجراتي، عني بتصحيحه ونشره الأب: جين يوسف اليسوعي، المكتبة الكاثوليكية، ط1، سنة 1965م.

126. المخصص، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1417هـ - 1996م.
127. المخططات الماسونية العالمية، محمد أحمد دياب، دار المنار، القاهرة، ط1، 1410هـ - 1989م.
128. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1416هـ - 1996م.
129. مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431هـ - 2010م.
130. المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1411هـ - 1990م.
131. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ - 2001م.
132. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون طبعة وسنة نشر.
133. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايمار بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط2، 1403هـ.
134. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي أبو العباس، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

135. المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، سنة 1403هـ.
136. المطالب العالية من العلم الإلهي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي الرازي، تحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ-1987م.
137. مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله القيسي الإشبيلي، المحقق: محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ-1983م.
138. المعتمد في أصول الدين، أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد الفراء البغدادي الحنبلي، تحقيق وديع زيدان حدّاد، دار الشرق، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1986م.
139. معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2002م.
140. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط2، سنة 1995م.
141. معجم الصحابة، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المُرْزُبَان بن سابور بن شاهنشاه البغوي، المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان، الكويت، ط1، 1421 هـ - 2000 م.
142. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
143. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة.
144. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1399هـ - 1979م.

145. المغني عن الحفظ والكتاب، المؤلف: عمر بن بدر بن سعيد الورياني الموصللي الحنفي، ضياء الدين، أبو حفص، تقديم وتعليق الشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
146. مفاتيح العلوم، محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي، المحقق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2.
147. المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدين الزيداني الكوفي الضريُّ الشيرازيُّ الحنفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية، ط1، 1433 هـ - 2012 م.
148. مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي لعبد الكريم بكار، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1421 هـ - 2000 م.
149. ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
150. الملل والنحل، لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، سنة 1404 هـ.
151. من أعلام العصر، محمد رجب بيومي، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1417 هـ - 1996 م.
152. منهاج السُّنَّة النَّبَوِّية في نقض كلام الشَّيعة القدرية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط1، 1406 هـ - 1986 م.
153. منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية، الشيخ محمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، السعودية، ط1، 1436 هـ - 2015 م.

154. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

155. مهرجان ابن عاشور، بلقاسم حسن مقالات وأبحاث، تونس، سنة 1984م.

156. الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق مشهور حسن سلمان، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ - 1997م.

157. موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، الإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431هـ - 2010م.

158. موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، خدوسي رباح وبلغيث محمد الأمين، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، سنة 2014.

159. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1420هـ.

160. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، 1425هـ - 2004م.

161. موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1401هـ - 1981م.

ن

162. النبؤات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1420هـ - 2000م.

163. النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعة الإلهية، ابن سينا، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1357هـ-1938م.
164. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
165. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، المحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، من سنة 1900م إلى 1997م.
166. نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
167. نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
168. النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ-1979م.

هـ

169. الهداية الإسلامية، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
170. هدى ونور، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط1، 1431 هـ - 2010 م.

و

171. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1392هـ-1972م.
172. ومضات فكر، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م.

المقالات والدراسات الأكاديمية والمواقع الإلكترونية:

- أثر إعدام القادة العرب بأمر جمال باشا على الحركات العربية الانفصالية خلال الحرب العالمية الأولى، للباحثة حفيظة بن دحمان، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد
- لخضر حمة، الوادي، المجلد (7)، العدد (3)، ديسمبر 2021م.
- الأحمدية القاديانية، والأحمدية اللاهورية للباحث عيد عايد العازمي، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم بجامعة المنيا، مصر، المجلد 42، العدد 1، يوليو 2020م.
- بين التجديد والتبديد، محمد أبو زيد الدمنهوري نموذجًا، للشيخ علي جمعة، المنشور بمجلة الفرائد في البحوث الإسلامية والعربية لجامعة الأزهر، المجلد 34، العدد 1، مارس 2017م.
- التجديد الفكري - قراءة في المفهوم - حسن حمدوشي، <http://kalema.net/home/article/view/672>
- جهود علماء الجزائر في الإصلاح الاجتماعي من سنة 1830م إلى 1954م، للدكتور علي بن زينب، أطروحة دكتوراه علوم، كلية العلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، جامعة الشهيد لخضر حمة - الوادي، سنة 2020-2021م.
- الطاهر حداد: رائد تحرير المرأة التونسية لعللي السيد، مجلة الحوار المتمدن - العدد: 3267، 2011/2/4م.
- الفكر التجديدي عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي للباحث أحمد حسن عمر، حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، العدد (32)، 2019-2020م، المجلد الثاني.
- محمد خلف الله أحمد.. أول الأساتذة توظيفاً لعلم النفس في دراسة الأدب، للدكتور محمد الجوادي، منشور على موقع الجزيرة: <https://www.aljazeera.net/blogs>
- المشروع الإصلاحية عند عبد الحميد بن باديس للباحثة نصيرة هرنون، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، العدد (50)، سنة 2018م
- مقاصد الشريعة عند الإمام محمد الخضر حسين - دراسة استقصائية تحليلية - شمس الدين حمّاش بإعداد أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر 1.

- من رواد العمل الاستقلالي المغاربي الموحد "الشيخ إسماعيل الصفائحي" لبوبكر صماري، مجلة تاريخ المغرب العربي، المجلد (2)، العدد (1).
- موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام- الدرر السنينة، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، مرفوع على المكتبة الشاملة، موقع الدرر السنينة على الإنترنت .dorar.net
- الموسوعة التاريخية- الدرر السنينة، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، مرفوع على المكتبة الشاملة، موقع الدرر السنينة على الإنترنت .dorar.net
- نضال النخب التونسية من أصول جزائرية في المهجر من خلال وثائق الأرشيف الفرنسي والألماني. "الشيخ صالح الشريف التونسي أنموذجًا" (1869-1920) لقربين مولود، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (14)، العدد (01)، جانفي 2023م.
- نظرات في تفسير الشيخ أحمد حسن الباقوري للباحث عاطف محمد الخولي، مجلة حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، المجلد (38)، العدد (38)، سنة 2019م.
- الوزير الوفدي الذي أضاء المسجد النبوي للدكتور محمد الجوادي، منشور بموقع الجزيرة: <https://www.aljazeera.net/blogs/2021/3/8>
- <http://www.odabasham.net>
- <https://shams-alyaoum.com>
- <https://tafsir.net/author/2355/ahmd-ash-shrbasy>
- <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=244492>

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
سورة الفاتحة			
132	5	البقرة	﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾
سورة البقرة			
260	22	البقرة	﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)
168	30	البقرة	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
168	31	البقرة	﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١)
173	34	البقرة	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾
171	98	البقرة	﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨)
167	131	البقرة	﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١)
181-175	136	البقرة	﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾
83	139	البقرة	﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩)
177	146	البقرة	﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦)

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
163	163	البقرة	﴿وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣)
163	164	البقرة	﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤)
190-170	177	البقرة	﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾
260	180	البقرة	﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠)
260	183	البقرة	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣)
217	187	البقرة	﴿فَالَّذِينَ بَشَرُوهُنَّ وَابْتَعُوهُمَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾
214	188	البقرة	﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾
122	219	البقرة	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾
26	221	البقرة	﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْحَيَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
173	248	البقرة	﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾
سورة آل عمران			
88	31	آل عمران	﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾
90	55	آل عمران	﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾
116-81	104	آل عمران	﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
124-81	110	آل عمران	﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾
239	134	آل عمران	﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
267	138	آل عمران	﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾
194	159	آل عمران	﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾
سورة النساء			
292	15	النساء	﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾
203	20	النساء	﴿وَعَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾
114	36	النساء	﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
			إِحْسَنَّا وَبَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿١٠٩﴾
122	43	النساء	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾
255	65	النساء	﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾
262	82	النساء	﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾
194	102	النساء	﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾
153	139	النساء	﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾
سورة المائدة			
117	2	المائدة	﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾
275	38	المائدة	﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾
255	49	المائدة	﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾
122	90	المائدة	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
			وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَكْفُرُوا بِآيَاتِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَهِمُ الْيَقِينُ ﴿٩٠﴾
112	105	المائدة	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴿٩١﴾
266	116	المائدة	﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾
سورة الأنعام			
200	38	الأنعام	﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾
252	153		﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ﴾
سورة الأعراف			
177	157	الأعراف	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
سورة الأنفال			
194-129	60	الأنفال	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
سورة التوبة			
213	8	التوبة	﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾
123	60	التوبة	﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾
99	119	التوبة	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾
127-117	122	التوبة	﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾
سورة يونس			
26	25	يونس	﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾
سورة يوسف			
124	108	يوسف	﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾
سورة إبراهيم			
252	1	إبراهيم	﴿كِتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾
سورة الحجر			
274-269 280-	9	الحجر	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
سورة النحل			
146	36	النحل	﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾
277	44	النحل	﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾
217	125	النحل	﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾﴾
سورة الإسراء			
171	40	الإسراء	﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾
سورة طه			
148-118	32-29	طه	﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾
166	50	طه	﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾
252	124	طه	﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾
سورة الأنبياء			
162	23	الأنبياء	﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾
166	30	الأنبياء	﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
			رَتَقَا فَفَتَقْنَهُمَا ^ط وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾
264	84-83	الأنبياء	﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ^{٨٣} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ^ط وَعَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَبِيدِينَ ﴿٨٤﴾
سورة الحج			
297	46	الحج	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ^{٤٦}
سورة الفرقان			
239	63	الفرقان	﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ^{٦٣}
سورة الشعراء			
177	197	الشعراء	﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ^{١٩٧}
112	214	الشُّعراء	﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ^{٢١٤}
سورة النمل			
161	64	النمل	﴿أَمَّنْ يَبْدِؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^{٦٤}
سورة القصص			
26	41	القصص	﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
سورة الأحزاب			
307-91	21	الأحزاب	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾
187	40	الأحزاب	﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾
سورة سبأ			
171	41-40	سبأ	﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ بِإِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ۝﴾
سورة فاطر			
120	28	فاطر	﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾
سورة يس			
148-118	14-13	يس	﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ۝﴾
124	20	يس	﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝﴾
191	78	يس	﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝﴾
191	79		﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝﴾

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
سورة ص			
264	44	ص	﴿وَحُذِّ بِيدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾
سورة الزمر			
82	3	الزمر	﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾
262	23	الزمر	﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾
سورة فصلت			
103	34	فصلت	﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾
سورة الشورى			
162	11	الشورى	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
سورة الزخرف			
316	23	الزخرف	﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾
سورة الدخان			
282	3	الدخان	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾
سورة الطور			
166	35	الطور	﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾
سورة الحشر			
276	7	الحشر	﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾

الصفحة	رقمها	السورة	طرف الآية
			فَانتَهُوا ﴿١﴾
سورة التحريم			
112	6	التحريم	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾
سورة القلم			
302	4	القلم	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾
سورة نوح			
197	11-10	نوح	﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾﴾
سورة التكوير			
193	29	التكوير	﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾
سورة البينة			
82	5	البينة	﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾
سورة قريش			
97	4-3	قريش	﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

فهرس الأحاديث النبوية والآثار

الصفحة	طرف الحديث أو الأثر
101	أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ
188	إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالتُّبُوءَ قَدْ انْقَطَعَتْ
221	إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذَرِّكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ
160	أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ
253	إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ
221	إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا
287	أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ
194	إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ
82	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
221	إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ
127	إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ مُبَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ
124	بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً
221	تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ
129	جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَالْأَسْنَتِكُمْ
-103 115	خَدَمْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ أَفٍّ
103	دَعَوْهُمْ لِنَا لَا يَقُولُ كُفَّارَ قُرَيْشٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ
114	كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ
175	لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْدِبُوهُمْ
221	مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ

الصفحة	طرف الحديث أو الأثر
252	مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ
81	مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ
88	مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ
96	الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ
205	نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ
277	هَيَّ النَّبِيُّ - ﷺ - أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا
188	وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبُوَّةِ
277	وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى
92	وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِنَفْسِهِ
112	يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ
277	يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ
116	يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة	العلم
130	ابن التلمساني
203	ابن القاسم
191	ابن القيم
191	ابن تيمية
104	ابن حزم
125	ابن رشيد
33	ابن عاشور
88	ابن كثير
155	ابن وهب
315	أبو جعفر المنصور
116	أبو موسى الأشعري - رَحْمَةُ اللَّهِ -
224	أحمد الشرباصي
34	أحمد تيمور باشا
138	أحمد حمزة باشا
50	إسماعيل الصفاحي
101	أنس بن مالك - رَحْمَةُ اللَّهِ -
36	الباي محمد الصادق
48	جمال باشا
68	جمال الدين الأفغاني
318	الحجّاج الثقفى

الصفحة	العلم
57	حسن الباقوري
35	الحسين بن علي الطولقي
37	خير الدين باشا
42	سالم بوحاجب
125	سحنون
156	سعيد بن المسيب
317	سعيد بن المسيب
318	سعيد بن جبير
62	السلطان أحمد الثالث
63	السلطان عبد الحميد الثاني
225	السَّمَّان
196	الشاطبي
50	صالح الشريف
74	صلاح الدين الأيوبي
129	ضيمام بن ثعلبة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
272	الطاهر حدّاد
54	طه حسين
88	عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -
55	عبد الحليم النجار
315	عبد الرحمن الناصر
315	عبد الرحمن بن زياد

الصفحة	العلم
317	عبد الرحمن بن مهدي
293	عبد الله بن أحمد بن حنبل
268	عبد المتعال الصعيدي
317	عبيد الله بن الحسين
316	عز الدين بن عبد السلام
296	عضد الدين الإيجي
39	علي الرضا الحسيني
51	علي باش حامبة
35	علي بن عمر العمري
77	علي عبد الرزاق
42	عمر بن الشيخ
223	عمرو بن عتبة
125	عون بن يوسف
188	غلام أحمد القادياني
77	قاسم أمين
125	القاضي عياض
57	اللّبان
55	محبّ الدين الخطيب
172	محمد أبو زيد الدمنهوري
265	محمد أحمد خلف الله
293	محمد الخضري

الصفحة	العلم
42	محمد الطيب النيفر
45	محمد الفاضل بن عاشور
37	محمد المكي بن عزوز
42	محمد النَّجَّار
42	محمد الوزير
57	محمد عبد العظيم الزرقاني
68	محمد عبده
186	محمد علي القادياني
75	محمد علي باشا
41	محمد مواعده
310	محمود شلتوت
36	مصطفى بن محمد بن عزوز
55	مصطفى المراغي
116	معاذ بن جبل - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -
307	معاوية بن أبي سفيان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -
199	معبد الجهني
315	منذر بن سعيد البلوطي
316	نجم الدين أيوب
156	يحيى بن أكثم
295	يزيد بن معاوية

فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة

الصفحة	المصطلح
252	الأتْرَجَّة
294	الإجماع السكوتي
248	الإسطرلاب
248	الأسطوانة
238	الإقذاع
118	أنطاكية
61	الإنكشارية
49	الباب العالي
248	البنج
165	التَّسْلِسِل
252	الحنظلة
164	دليل الإمكان والحدوث
165	الدَّور
248	السَّقْمُونِيا
317	السِّمَاط
219	شهادة الاستغفال
306	العسجد
306	اللجين
68	المدرسة الصَّادِقِيَّة
100	المعارض

الصفحة	المصطلح
52	معركة ميلسون
238	المهاترة
237	المواربة
164	واجب الوجود

فهرس الأديان والفرق والمذاهب الفكرية

الصفحة	الدين أو الفرقة أو المذهب الفكري
162	الأشاعرة
157	الإلحاد
78	البائية
270	الباطنية
78	البهائية
79	التَّغْرِيب
78	التَّنْصِير
77	العلمانية
78	القاديانية
186	القاديانية اللاهوتية
270	المجوس
155	المعتزلة

فهرس المحتويات العام

1.....	ملخص الرسالة.....
2.....	ABSTRACT.....
3.....	شكر وتقدير.....
5.....	المقدمة.....
6.....	موضوع الدراسة، وخطواتها المنهجية:.....
6.....	1- إشكالية الدراسة:.....
7.....	2- منهج البحث:.....
8.....	3- أهداف الدراسة:.....
8.....	4- أهمية الموضوع:.....
9.....	5- أسباب اختيار الموضوع:.....
12.....	6- الدراسات السابقة:.....
19.....	7- المنهج الإجرائي:.....
20.....	8- خطة البحث:.....
22.....	9- مصادر البحث:.....
26.....	تمهيد: مفهوم الدعوة والإصلاح، وبيان العلاقة بينهما.....
26.....	المطلب الأول: مفهوم الدعوة في اللغة والاصطلاح.....
28.....	المطلب الثاني: مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحًا.....
30.....	المطلب الثالث: العلاقة بين مصطلحي: الدعوة والإصلاح.....
33.....	الفصل الأول: حياة الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ - الشخصية والعلمية.....
33.....	المبحث الأول: تعريف موجز بحياة الشيخ الخضر - رَحْمَةُ اللَّهِ -.....
33.....	المطلب الأول: حياة العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - الشخصية.....
33.....	أولاً/ اسمه ونسبه.....
34.....	ثانيًا/ مولده.....
35.....	ثالثًا/ أسرته.....
40.....	المطلب الثاني: حياة العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - العلمية والعملية.....
40.....	أولاً/ نشأته العلمية.....

45	ثانيًا/ حياته العملية:
60	المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في شخصية العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ -
61	المطلب الأول: حال العالم الإسلامي
67	المطلب الثاني: حال البلاد التُّونِسِيَّة.
74	المطلب الثالث: حال البلاد المِصْرِيَّة.
81	الفصل الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين العلميَّة والتطبيقيَّة المتعلقة بالدعوة والدَّاعية.
81	المبحث الأول: جهوده - رَحْمَةُ اللَّهِ - فيما يتعلق بواجبات الداعية.
82	المطلب الأول: واجبات الداعية تجاه ربه.
96	المطلب الثاني : واجبات الداعية تجاه نفسه.
112	المطلب الثالث: واجبات الداعية تجاه أسرته وأقاربه.
116	المطلب الرابع: واجبات الداعية تجاه إخوانه الدعاة.
121	المطلب الخامس: واجبات الداعية تجاه أحوال الدعوة ومقتضياتها.
124	المبحث الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رحمه الله - فيما يتعلق بإعداد الداعية.
124	المطلب الأول: وجوب تبليغ الدعوة.
129	المطلب الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في إعداد الداعية.
132	المبحث الثالث: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - فيما يتعلق بالدعوة.
132	المطلب الأول: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في الدعوة الجماعية.
140	المطلب الثاني: جهود العلامة محمد الخضر حسين - رَحْمَةُ اللَّهِ - في الدعوة الفردية.
146	الفصل الثالث: مجالات الدعوة عند العلامة محمد الخضر حسين - - .
146	المبحث الأول: البدء بالدعوة إلى عقيدة التوحيد.
160	المبحث الثاني: الدَّعوة إلى أركان الإيمان.
161	المطلب الأول: جهوده في الدعوة إلى الإيمان بالله - ﷻ -
168	المطلب الثاني: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالملائكة.
175	المطلب الثالث: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالكتب السماوية.
181	المطلب الرَّابع: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالرُّسُل.
190	المطلب الخامس: جهوده في تقرير ركن الإيمان باليوم الآخر.
193	المطلب السادس: جهوده في تقرير ركن الإيمان بالقدر.

المبحث الثالث: الفقه الإسلامي.....	200
المطلب الأول: الوعاء الفكري للشيخ الخضر في الفقه الإسلامي.....	202
المطلب الثاني: مواكبته للنوازل والمستجدات المعاصرة.....	207
المطلب الثالث: اهتمامه الشديد بمقاصد الشريعة. ^(١)	209
المطلب الرابع: جهوده في تقرير الفروع الفقهية، وبيان ثمراتها الدينية والدنيوية.....	215
المطلب الخامس: طول النفس في دراسة المسائل الفقهية وتحقيقها.....	218
المبحث الرابع: الأخلاق.....	221
المطلب الأول: حسن الخلق، وموافقة العمل للقول.....	223
المطلب الثاني: كثرة الكتابة عن الأخلاق.....	231
المطلب الثالث: حديث الأخلاق بين التأصيل والتطبيق.....	232
المطلب الرابع: مكارم الأخلاق وأثرها على الفرد والجماعة.....	236
المبحث الخامس: قضايا اللغة العربية.....	241
المطلب الأول: اهتمامه بقضايا اللغة العربية تأصيلًا وتطبيقًا.....	242
المطلب الثاني: أثر اللغة في نجاح الدعوة إلى الإصلاح:.....	244
المطلب الثالث: اللغة من أبرز مقومات الأمة.....	246
المطلب الرابع: ارتقاء اللغة مع المدنية.....	248
الفصل الرابع: مصادر العلامة محمد الخضر - رَحِمَهُ اللهُ - في دعوته إلى الله.....	252
المبحث الأول: القرآن الكريم.....	252
المطلب الأول: تعظيمه للقرآن الكريم، وكثرة الاستشهاد به.....	254
المطلب الثاني: الإنتاج القرآني للشيخ محمد الخضر.....	256
المطلب الثالث: منهج الشيخ الخضر في تفسير القرآن الكريم.....	259
المطلب الرابع: بيانه للإعجاز البياني للقرآن الكريم.....	261
المطلب الخامس: نقضه لآراء حديثة في تفسير القرآن، ومواجهته للانحرافات في تأويله.....	264
المبحث الثاني: السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ.....	274
المطلب الأول: مفهوم السُّنَّة عند الشيخ الخضر، وبيان منزلتها، وحجيتها.....	275
المطلب الثاني: احتفاؤه بمصادر الحديث النبوي، والتَّنويه بشأنها ومكانتها في الشريعة.....	279
المطلب الثالث: كثرة استشهاده بالحديث، وعنايته بالعزو، والتَّصحيح، والتَّضعيف.....	282
المطلب الرابع: محاربته للانحرافات والتأويلات الفاسدة في فهم الحديث النبوي.....	286

المبحث الثالث: الإجماع.....	288
المطلب الأول: بيان منزلة الإجماع، وإثبات حجتيته.....	289
المطلب الثاني: الاستدلال بالإجماع في تقرير المسائل العلمية.....	291
المطلب الثالث: نقض شبهاتٍ عن الإجماع.....	293
المبحث الرابع: التاريخ والسيرة النبوية.....	297
المطلب الأول: تأصيله لفضيلة علم التاريخ، وكثرة الاستشهاد به.....	298
المطلب الثاني: احتفاؤه بالسيرة النبوية وعنايته بها.....	301
المطلب الثالث: المقاصد والغايات من الاستدلال التاريخي.....	312
الخاتمة.....	321
نتائج الدراسة:.....	321
التوصيات:.....	326
فهرس المصادر والمراجع.....	343
الكتب العامة:.....	343
المقالات والدراسات الأكاديمية والمواقع الالكترونية:.....	362
فهرس الآيات القرآنية الكريمة.....	364
فهرس الأحاديث النبوية والآثار.....	375
فهرس الأعلام المترجم لهم.....	377
فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة.....	381
فهرس الأديان والفرق والمذاهب الفكرية.....	383
فهرس المحتويات العام.....	384

شجره